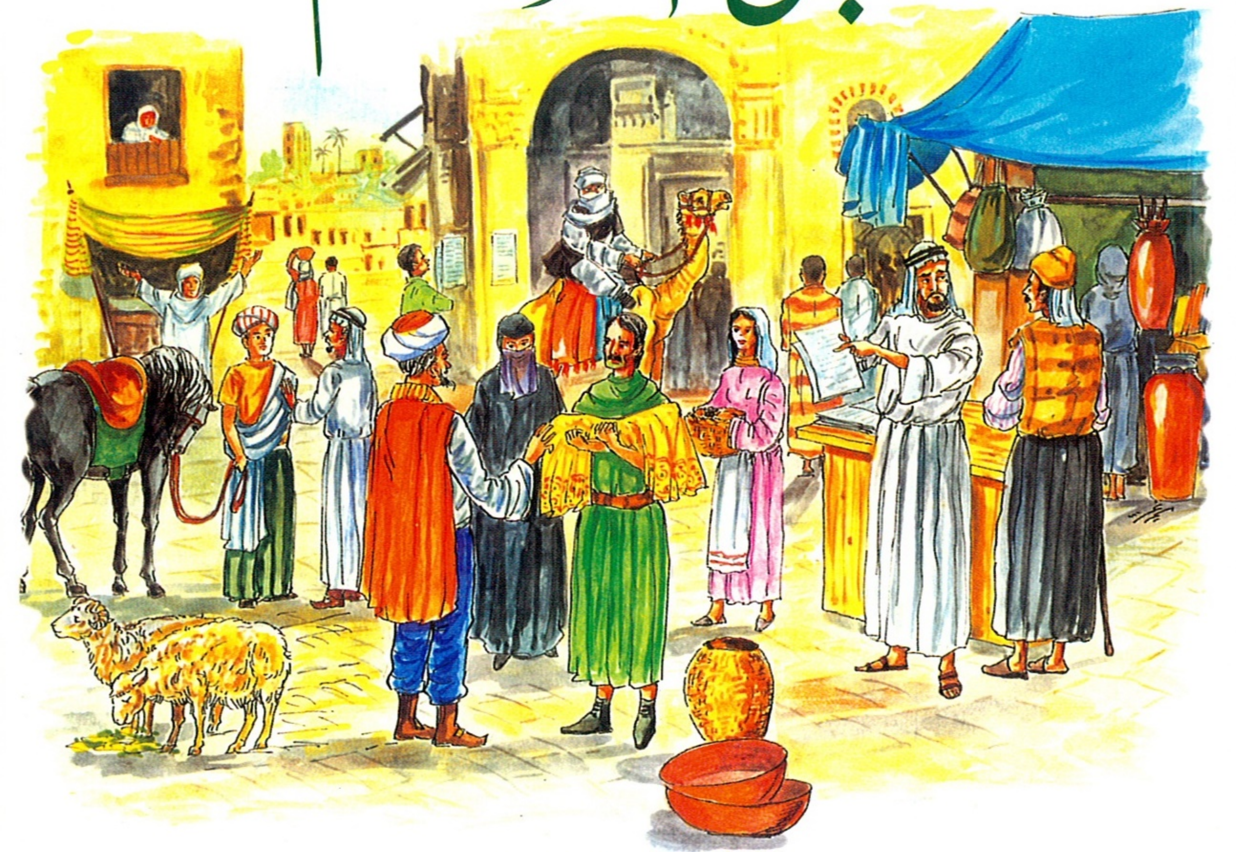
الدكتور علي محمد معطي

تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام



دار المنهل اللبناني
مكتبة رأس النبع

تاريخ العرب الاقتصادي
قبل الإسلام

الدكتور علي محمد معطي

تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام

دار المنهل اللبناني
مكتبة رأس النبع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠٠٣م ـ ١٤٢٣هـ

الكتاب: تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام.

المؤلف: الدكتور علي محمد معطي.

الناشر: دار المنهل اللبناني ـ مكتبة رأس النبع

دار المنهل اللبناني ـ مكتبة رأس النبع للطباعة والنشر

تلفون: ٦٣١٦٥٤/٠١ ـ ٢٢٦٣٢٥/٠٣ ـ تلفاكس: ٦٣٣٤٣٢/٠١ (بيروت ـ لبنان)



الإهداء

إلى شقيقي الشاعر الدكتور رشيد معطي

اعترافاً بفضله عليّ، وبتضيحاته الكبيرة من أجلنا،

أطال اللّهُ تعالى عمرَه

وإلى روحَيْ جدّيّ اللّذين رحلا قبل أن أبصر النور

رحمهما اللّهُ تعالى وجعل قبريهما روضتين من رياض الجنّة.

المقدّمة

تتميّز البلاد العربية بموقع فريد، فهي توجد على أهمّ الطرق الرئيسة في العالم، التي تصل بين الشرق والغرب، وتُحيط بها المياه من معظم جوانبها: فهناك الخليج العربي في الشرق، والمحيط الهندي في الجنوب، والبحر الأحمر في الوسط، والبحر المتوسط في الشمال الغربي، والمحيط الأطلسي في الغرب.

وقد شكّل هذا الموقع في الماضي معبراً للإنسان في تنقّلاته على وجه الأرض، وصلة وصل بين القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا. كما شكّل الموطن الأول له ولذرّيته حيث التقى آدم وحواء بعد أن طردهما الله سبحانه وتعالى من الجنّة و﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[1] على جبل عرفات المبارك وتعارفا من جديد، وأعدّا العدّة لرحلة الإنسان في الحياة الدنيا، التي ستستمرّ إلى أن يرث الله سبحانه الأرض وما عليها. ثمّ بنى آدم بأمر ربّه في مكّة الكعبة الشريفة التي كانت أوّل بيت[2] أقيم في الأرض، ولذا عُرف بالبيت العتيق الذي أزيلت جدرانه وبقيت أركانه في طوفان نوح عليه السلام.

واستجابة لأمر الله تعالى أعاد النبيّ إبراهيم عليه السلام بناء الكعبة الشريفة بمساعدة ابنه إسماعيل. وقد تعاون الأب والابن في هذا العمل الجليل، وأنجزاه، ثمّ دعا الناس للطواف حولها، والسّعي بين الصفا والمروة، والقيام

---

(١) قرآن كريم، سورة طه، آية ١٢٣.

(٢) يذكر بعض الرواة «أنّ البيت أُهبط ياقوتة واحدة أو دُرّة واحدة من السماء، حتى إذا أَغْرَقَ اللّهُ قوم نوحٍ رَفَعَه وبَقِيَ أساسُه، فَبَوّأَه اللّهُ عزّ وجلّ لإبراهيم فبناه».
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، الجزء الأول، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٠، ص١٣٢.

بكلّ المناسك المفروضة يوم الحجّ الأكبر، والصلاة، والالتزام بفرائض الدين الحنيف، دين إبراهيم عليه السلام. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[٣].

وعلى هذا الأساس تكون مكّة في الحجاز الموطن الأول لآدم وحواء ومركز انطلاقهما وانطلاق ذريتهما إلى الأقاليم المجاورة. وتكون البلاد العربية كلها قلبَ العالم القديم الذي لعب منذ أقدم العصور دور الأمّ؛ فكان المخزون البشريّ الهائل الذي مدّ العالم بقواه البشرية. كما كان المكان الطيّب الذي باركه الله تبارك وتعالى، وبعث عليه رسله وأنبياءه الّذين قصّ القرآن الكريم قصصهم وأخبارهم، والذين نشروا فيه تعاليمهم وقيمهم وأديانهم...

وتثبت المكتشفات الأثرية الحجرية التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى، أنّ الإنسان وُجد في عصر ما قبل الآشولي[٤] منذ أكثر من مليون سنة تقريباً، في المنطقة الجنوبية ـ الغربية في شعيب بحصنة (فرع من وادي نجران)، وفي وادي تثليث، وجنوب غرب قرية الشويحطية على مسافة ثلاثين كيلومتراً

---

(٣) قرآن كريم، سورة البقرة، آية ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٤) إنّ كلمة آشولي (Acheuléen) تعود نسبتها إلى القديس آشول (Saint Acheul) الذي عاش في قضاء السّوم من أعمال فرنسا الشمالية. وهي حِقبة زمنية بدأت قبل نهاية العصر الجليدي المعروف بريّس (Riss)، واستمرت حتى عصر شَلّي (Chelléen). وتتميّز أدواته الحجرية التي تنتمي إلى العصر الحجري القديم الأدنى (Paléolithique inférieur)، بترقّقها على الوجهين (Bifaces) بكثير من العناية. ويأخذ بعضها شكل اللوزة (amande). كما يأخذ عدد كبير منها شكل المِكْشَط (Racloir) والمسامير (Pointes) والسكاكين أو المُديات (Couteaux).
وقد انتقل إنسان هذه الحِقبة إلى أفريقيا منذ ما يقارب المليون سنة قبل الميلاد، وانتشر في أوروبا منذ حوالي ٥٠٠ ألف عام قبل الميلاد.

Grand Dictionnaire Encyclopédique Larousse, Tome I, librairie Larousse, Paris 1982, P72.

من مدينة سكاكا. في الوقت الذي كانت فيه شبه الجزيرة العربية وفيرة النباتات والحيوانات[٥].

ومن هناك أخذ هذا الإنسان وذريّته ينتشرون في المناطق المجاورة في العصور الآشولية التالية: العصر الآشولي المبكّر (١٢٠٠٠٠٠ ـ ٣٥٠٠٠٠ قبل الميلاد)، والعصر الآشولي الأوسط (٣٥٠٠٠٠ ـ ٢٥٠٠٠٠ قبل الميلاد)، والعصر الآشولي الأعلى (٢٥٠٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠٠ قبل الميلاد).

وكذلك تثبت المكتشفات الأثرية الحجرية التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط الموستيري[٦] (٧٠٠٠٠ ـ ٣٥٠٠٠ق.م) أنّ مستوطنات الإنسان كانت تنتشر في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام[٧].

ومنذ عشرين ألف سنة من الوقت الحاضر أعقب هذا العصر عصر الإعسار الجليدي (الهولوسين)[٨] في صحارى شرق الأردن، والذي تميّز بتطابق

(٥) محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره في المملكة العربية السعودية، ترجمة عبد الرحيم محمد خبير، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٥٨.
مكتب التربية العربي لدول الخليج: الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، الرياض ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٢٢٢.

(٦) الموستيري (Moustérien)، نسبة إلى موستير (Moustier) التي تقع على الضفّة اليمنى لنهر فزير (Vézère)، في الجهة الجنوبية ـ الغربية من فرنسا. وفي هذا الموضع اكتُشِف عام ١٩٠٨ بقايا لإنسان متحجّر يُعرف بإنسان موستير (L'homme du Moustier)، وهو من جنس إنسان نيوندرتال (L'espèce de Néandertal)، وتقع فترة الموستيري في النصف الثاني من العصرين الجليديين (Interglaciaire) المعروفين باسم ريس وفيرم (Riss-Würm) وتتميّز أدواته الحجرية، التي تنتمي إلى ثقافة العصر الحجري القديم الأوسط (Paléolithique moyen)، بشظاياها المثلّثة والمروّسة كالمسامير (Pointes). وبسكاكينها البيضاوية التي تشبه المكاشط (Racloirs)، وبأشكالها المرقّقة على وجهين صغيرين: (Petit bifaces).

Grand Larousse encyclopédique, Tome 7, Librairie Larousse Paris 1963, P566-567.

(٧) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢٢٣ ـ ٢٢٧.

(٨) الهولوسين (Holocène)، وهو الحِقبة الأعلى من الطور الجيولوجي الرابع (Système quaternaire) التي تقع بين فترة البليستوسين (Pléistocène) وبداية التاريخ الإنساني، والتي دامت أكثر من عشرة آلاف سنة قبل الميلاد.

Grand Larousse encyclopédique, tome 5, Paris 1962, P930.

العصر الحجري القديم الأعلى، والفترة التي تلته حتى العصر الحجري الحديث، الذي تميّز بندرة المواقع الأثرية، واستمرار الصناعة الموستيرية في شبه الجزيرة العربية، بينما اختفى هذا الأسلوب في بلاد الشام.

وتشير الدلائل الأثرية أيضاً، إلى وجود المستوطنات البشرية في العصر الحجري القديم الأعلى (٣٥٠٠٠ ـ ١٢٠٠٠ق.م) في شبه الجزيرة، وخاصّة في المنطقة الشمالية في وادي السرحان، وفي إقليم حائل، وفي جنوب وادي الأردن، وفي شرق الحجاز ومنطقة الطائف، وفي المنطقة الوسطى في إقليم الدوادمي، وفي جنوب وشرق عسير، وفي المنطقة الجنوبية في بئر حما ووادي تثليث[٩].

ويبدو أنّ الأنماط الموستيرية قد استمر وجودها في هذا العصر، ولكن مع مهارة متزايدة في الترقيق، وطريقة الضغط، ووجود الأطراف الدقيقة الصنع المشابهة لورق الصفصاف التي تنتمي إلى الصناعات السولوترية[١٠].

أمّا المستوطنات البشرية في العصر الحجري الحديث (Néolithique) (٧٥٠٠ ـ ٥٥٠٠ق.م) فقد ظهرت في مختلف أقاليم شبه الجزيرة العربية، وخاصّة في الربع الخالي في القسم الشمالي ـ الغربي منه، وفي المنطقة الجنوبية الغربية في وادي تثليث ومرتفعات عسير وبئر حما، وفي منطقة تربة ومنطقة الطائف وبيشة ورنية ووادي الدواسر، وفي ظلم والخماسين، وفي منطقة الرياض، وفي أقصى الشمال بصحراء النفود، وفي منطقة ضرما ومنطقة الدوادمي، وفي مناطق جبة وكلوة والحناكية وحائل وتبوك، وفي المنطقة

---

(٩) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(١٠) السولوترية (Solutréen) نسبة إلى سولوتره (Solutré) التي اكتُشف فيها ستة هياكل عظمية للإنسان العاقل (Homo Sapiens) الذي عاش في العصر الحجري الأعلى (Paléolithique supérieur) في فترة الأورينياسية (Aurignacien)، والتي تقع في منطقة السّوْن واللوار (Saône-et-Loire) من مقاطعة بورغونيه (Pourgogne) في شرقي فرنسا. وهي تُطلق على مرحلة زمنية من العصر الحجري الأعلى، وتمتدّ تحديداً بين الفترة الأورينياسية وبين الفترة الماغدالنية (Magdalénien)، من عام ٢٥٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ قبل الميلاد. وتتميّز أدواتها الحجرية بشكلها المسطّح كورقة شجرة الصفصاف أو اللوز، وبدقّة أطرافها، وصقل وجهيها (Bifaces).

Grand Larousse encyclopédique, Tome 9, Paris 1964, P899.

الشمالية الغربية، وفي المنطقة الشرقية في عين دار ومواقع العبيد وتاروت ويبرين، وفي منطقة الخور في قطر، وفي إقليم عُمان خاصّة في الجزء الأوسط منه، وفي اليمن وخاصّة في جنوب البلاد وشمالها. كما ظهرت هذه المستوطنات في مناطق جنوبي العراق وبلاد الشام خاصة في جنوب الأردن.

ويؤكّد وجود المستوطنات بكثرة في جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية، وفي سبخات قطر التي كانت بحيرات ومستنقعات صغيرة قديمة، ووجود بقايا الحيوانات كالأبقار وفرس النهر في بعض قيعان البحيرات الجافّة بالربع الخالي منذ ١٢٠٠٠ سنة قبل الوقت الحاضر؛ يؤكّد وجودها جميعاً على انتشار المناخ المطير نسبياً في مختلف أقاليم شبه الجزيرة العربية الذي هو امتداد للعصر السابق.

وتشير المكتشفات الأثرية التي تعود إلى العصر النيوليتي، أنّ أدوات الإنسان الحجرية وصناعاته أخذت تتحسّن وتصبح أكثر دقة وأكثر صقلاً، ثمّ تطوّرت إلى نوع جديد، يُعرف بخزف مواقع العُبيد التي ظهرت في العراق بعد ألف سنة من ظهورها في شرقي شبه الجزيرة العربية، والتي دامت في جنوب بلاد ما بين النهرين من حوالي سنة ٥٣٠٠ إلى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد. كما تشير إلى تغيّرات كبيرة في حياة الإنسان حيث انتقل من حياة التنقل والصيد إلى حياة الاستقرار والزراعة وتدجين الحيوان[١١].

وتتميّز بلاد العرب في العصر الحجري النحاسي (Chalcolithique) (٥٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ق.م) بنقلة نوعية نحو الحضارة والمدنية، حيث ظهرت أدلّة على عدّة اختراعات وابتكارات تقنية، أحرزتها مجتمعات فترة العُبيد، منها: اختراع الكتابة، وإقامة المباني بالآجر المشوي، وتأسيس اتصالات تجارية واسعة النطاق، والوصول إلى مستوى مرتفع في ميدان الصناعة التقنية، بما في ذلك

---

(١١) H.McClure: The Arabian Peninsula and Prehistoric Populations, F.R.P.1971, P72.

محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره.. ص٦٢، الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي ص٢٢٨ ـ ٢٣١.

صناعة الفخار على الدولاب، والصناعات النحاسية المتقنة، واختراع الدولاب للمركبات، والمحراث للزراعة، وأساليب الريّ، وكذلك استعمال القوارب الشراعية في النقل النهري، ثمّ بدء ظهور السّومريين كشعب مميّز له حضارته ولغته الخاصة في جنوبي بلاد ما بين النهرين[١٢].

وممّا لا ريب فيه أنّ أعداداً من أفراد هذا الإنسان الذي ينتمي إلى عصور ما قبل التاريخ، قد انتقلوا من بلاد العرب، إلى المناطق المجاورة لها، ومنها إلى المناطق البعيدة في آسيا وأفريقيا وأوروبا، حيث استقرّوا وتكاثروا وبنوا القرى والمدن، وأنشأوا الممالك والحضارات في العصور التاريخية التي أعقبت العصور الحجرية والنحاسية. وكان أبرزها حضارات السند والهند والصين في وسط وجنوب شرقي آسيا، وحضارات وادي النيل في شمال وشرقي أفريقيا، وحضارات جنوب وشرقي أوروبا في إيطاليا وبلاد اليونان.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ تحرّك الإنسان الأول الّذي تمثّل بآدام وحواء قد بدأ، قبل طوفان نوح عليه السلام، من جبل عرفات إلى مدينة مكّة المكرّمة، ومنها إلى المناطق المجاورة، حيث أخذ آدم وذريّته يتنقّلون من مكان إلى آخر بحثاً عن الغذاء والماء. أمّا بعد هذا الطوفان، فكان مبدأ تحرّك نوح والناجين معه الذين انحدرت من أصلابهم جميع الأقوام البشرية وأجناسها التي تعيش على وجه الأرض من شمالي بلاد ما بين النهرين، وتحديداً من قرية الثمانين[١٣] التي بناها هؤلاء واستقروا فيها، بعد أن رست سفينة نوح عليه السلام على جبل الجوديّ[١٤] هناك. وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطباً نبيّه نوح

---

(١٢) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

McClure. op.cit, P72 and 75.

(١٣) ثمانين: بلدة صغيرة عند جبل الجوديّ، قرب جزيرة ابن عمر التغلبي فوق الموصل، وكان نوح عليه السلام أوّل من نزل هناك من السفينة، ونزل معه ثمانون إنساناً، فبنوا لهم مساكن بهذا الموضع، وأقاموا به، فسمّي الموضع بعددهم ثمانين.

ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٨٤.

(١٤) الجوديّ: جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر، في الجانب الشرقي من دجلة، من أعمال الموصل في شمالي العراق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، م٢، ص١٧٩.

عليه السلام: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾(١٥).

بيد أنّ التحركات البشرية في داخل بلاد العرب وفي خارجها لم تتوقف في العصور التاريخية، لكنّها تحوّلت إلى تحرّكات جماعية كانت ترفد العالم بقواه البشرية التي يحتاج إليها، وتحدث كلّ ألف سنة تقريباً، لأسباب اقتصادية أو دينية، فينتقل الناس من الصحراء وحياة المراعي إلى المناطق الخصبة وحياة الزراعة والاستقرار. ففي منتصف الألف الرابع قبل الميلاد (٣٥٠٠ق.م) حدثت هجرة الأكاديين من الصحراء العربية إلى العراق حيث استقرّوا وكوّنوا دولة استطاعت في عهد ملكها سرجون الأول أن توحّد بلاد الرافدين وتمدّ نفوذها إلى أعالي دجلة في الشمال. وفي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد (٢٥٠٠ق.م) حدثت هجرة الأموريين والكنعانيين من جنوب شرقي بلاد العرب إلى شمالها، حيث سكن الأموريون في العراق وفي المناطق الشمالية الشرقية من سوريا، وسكن الكنعانيون، بما فيهم الفينيقيون، في غربي بلاد الشام وخاصّة في ساحل سوريا ولبنان وفلسطين. وحوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد (١٥٠٠ق.م) كانت هجرة جديدة تمثّلت بالآراميين الّذين انتشروا في بلاد سوريا وفلسطين، وبالعبرانيين الذين أقاموا في فلسطين. وفي أواسط الألف الأول قبل

(١٥) قرآن كريم، سورة هود، آيات: ٣٧ ـ٤٤.

الميلاد (٥٠٠ق.م) جاءت هجرة التدمريين والأنباط، فنزل التدمريون في بادية الشام، ونزل الأنباط في المناطق الواقعة إلى الشمال الشرقي من شبه جزيرة سيناء حيث استقرّوا وأسّسوا حضارة عظيمة هناك، لا تزال آثارها ظاهرة للعيان في عاصمتهم البتراء المنحوتة في الصخور.

وتتابعت هذه الهجرات فكان آخرها خروج العرب من شبه جزيرتهم في أوائل القرن السابع الميلادي تحت راية الإسلام، لنشره خارج شبه الجزيرة، ولم يقتصر فيض الإسلام على الأقاليم العربية في آسيا وأفريقيا، وإنّما غَمَرَ مناطق شاسعة من الأراضي، تمتدّ من إسبانيا غرباً إلى الصين شرقاً، وكوّنوا دولة إسلامية مترامية الأطراف[١٦].

وفي العصور التاريخية القديمة، وفي أوقات مختلفة، نشأت في بلاد العرب دول وحضارات، كان أبرزها الممالك: السّومرية والأكادية والبابلية والأشورية والكلدانية، والأمورية، والكنعانية، والفينيقية، والمعينية، والسبئية، والحِمْيَرية، وممالك: دلمون والجرهاء وتدمر والبتراء والحيرة وغسّان وميسان والحضر والرها وغيرها.

وفي بحثنا عن تاريخ بعض هذه الحضارات سنقتصر على دراسة جوانبها الاقتصادية في عصور ما قبل الإسلام، وذلك لإظهار مقوّمات هذا الاقتصاد ومفاعيله ومعطياته وآثاره، ومدى تطوّره عبر هذه العصور التاريخية لإبراز دور العرب في تقدّم البشريّة في المجالات كافّة، وخاصّة في المجال الاقتصادي.

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ الدراسات التاريخية القديمة شاقّة وتحتاج إلى صبر وجلد كبيرين، وخاصّة الدراسات التاريخية الاقتصادية. وذلك يعود لندرة المصادر المكتوبة، وقلّة الآثار المكتشفة، وصعوبة الانتقال والاطلاع على النقوش المكتشفة التي تركتها الشعوب القديمة وسجّلتها بأحرف ولغات مختلفة.

ولمّا كانت المكتبات العربية تندر فيها مثل هذه الدراسات فقد حاولتُ

(١٦) ولمزيد من الاطلاع على هذه الهجرات يمكن الرجوع إلى:

Hugo Winckler: The history of Babylonia and Assyria, tr. James A. Craig, New York 1907, P18-22.

ارتياد هذا الطريق الصعب، لعلّني أستطيع أن أضيف لبنة صغيرة إلى الصرح العلمي الكبير للدراسات التاريخية الذي أرسى قواعده بعض مؤرّخينا الأفذاذ أمثال: البلاذري والطبري والمسعودي واليعقوبي وابن الأثير وابن خلدون... وغيرهم. والذي رفع بعض مداميكه وجدرانه عدد من المؤرخين الأعلام الذين جاؤوا بعد هؤلاء في الماضي والحاضر، والذين يُهتدى بعلمهم في كل زمان ومكان...

وفي نهاية المطاف فإنّ غايتنا من هذه المحاولة هي مقاربة الحقيقة العلمية المجرّدة، وتقديمها إلى الباحثين وطلاب العلم، لعلّهم يجدون بين سطورها ما ينفعهم وينفع الأجيال القادمة.

أمّا غايتنا القصوى فهي إرضاءً لوجه الله تعالى الذي ترجع إليه الأمور كلّها، فمنه نستمدّ العون والقدرة والعلم والمعرفة، ومن أجل رضاه سبحانه نكتب ونعمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

علي محمد معطي

الفصل الأول

الجغرافية الطبيعية لشبه الجزيرة العربية

١ ـ الموقع:

تقع شبه جزيرة العرب في جنوب غربي آسيا، وتتّصل بأفريقيا عن طريق شبه جزيرة سيناء، وتوجد على إحدى الطرق الرئيسة التي تصل بين الشرق والغرب. وبفضل إرتفاع مياه المحيط الهندي تحوّل المنخفض البرّي الذي كان يصل بلاد العرب ببلاد فارس، إلى بحر واسع من الماء يمتدّ حوالى ١١٠٠ كيلومتر ضمن القارة الآسيوية. ويكاد نهرا دجلة والفرات اللذان كانا يجريان سابقاً في قاع ذلك المنخفض، يُشكّلان اليوم استطالتين هامّتين لذراع المحيط الهندي نحو الشمال الغربي، فيقرّبان منطقة شبه الجزيرة العربية من قارة أوروبا ومن عالم حوض البحر المتوسط[١].

وفي الماضي، وقبل أن يشقّ البحر الأحمر مجراه ويحدث الخسف العربي ـ الأفريقي فيعزل آسيا عن أفريقيا، كان إقليم الدرع العربي ـ النوبي كتلة واحدة، وكانت شبه جزيرة العرب جزءاً من صحراء كبرى ممتدّة في شمالي أفريقيا وغربي آسيا. وحتى اليوم، يلاحظ أنّ النصف الجنوبي ـ الغربي منها يشترك في كثير من الصفات مع مقاطعات أفريقيا الشرقية كالصومال والحبشة. وهو أقرب إلى هذه الأصقاع الأفريقية منه إلى القسم الشمالي من شبه الجزيرة في كثير من الخصائص.

أمّا أراضي القسم الشمالي منها فتميل بصورة انسيابية نحو آسيا العربية، خلال سهوب سورية ومرتفعات عمّان التي تشمل سلاسل جبلية تشابه بدرجة

---

(١) مكتب التربية العربي لدول الخليج: الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص١٢.

كبيرة تلك التي على جانبها الشرقي من قارة آسيا[٢]. وعلى الرُّغم من أنّ الجزيرة العربية تتّصل بقارة أفريقيا عن طريق سيناء إلاّ أنّها من الناحية الجغرافية تُعدّ جزءاً من قارة آسيا.

لقد كان لهذا الموقع الجغرافي أهميّة كبرى في القرون الطويلة التي سبقت شقّ قناة السويس، فكانت جزيرة العرب شريان التجارة والمواصلات الدولية الرئيس، ومحور العلاقات السياسية والاقتصادية بين مراكز الحضارات الأولى في العالم القديم، وخصوصاً بين وادي السند ووادي الرافدين ووادي النيل[٣].

٢ ـ المساحة والحدود:

تبلغ مساحة شبه الجزيرة العربية (٣١٢٩٧٠٨) ثلاثة ملايين ومائة وتسعة وعشرين ألفاً وسبعمائة وثمانية كيلو مترات مربّعة، وتأخذ شكل شبه مستطيل غير منتظم، يبلغ طوله من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ٢٢٠٠ كيلومتر، ويبلغ عرضه ١٢٠٠ كيلومتر وينحصر بين خطي عرض ١٥° و٣٢° ، ويضم بين ثناياه ثلاثة أقاليم مناخية هي:

أ ـ الإقليم المداري: ويقع ما بين خطّيْ عرض ١٥° و١٨° شمالاً.

ب ـ الإقليم الصحراوي: ويشمل القسم الواقع بين خطّيْ عرض ١٨° و٣٠° شمالاً.

جـ ـ الإقليم المعتدل القريب من البحر المتوسط: وينحصر بين خطّيْ عرض ٣٠° و٣٢° شمالاً[٤].

وهذا الشكل شبه المستطيل وغير المتوازي الأضلاع تعترضه في الشرق مرتفعات عُمان التي تصل إلى الساحل الإيراني. ويحيط به من الغرب البحر الأحمر الذي كان يُعرف قديماً باسم بحر القلزم، ومن الجنوب خليج عدن

---

(٢) محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره في المملكة العربية السعودية، ص٣١ ـ ٣٢.
(٣) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص١٢.
(٤) محمد أحمد الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، دار الواحة العربية، المدينة المنورة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١م، ص٣٧ ـ ٣٩.

وبحر العرب والمحيط الهندي، ومن الشرق الخليج العربي وخليج عُمان. أمّا حدودها الشمالية فغير واضحة وغير متّفق عليها، وقد يوصلها البعض إلى نهر الفرات ونهر العاصي عند اقترابهما في أعالي بلاد الشام. وهذا ما يدخل بلاد الشام كلّها وأجزاء من العراق في شبه الجزيرة العربية، ويزيد في مساحتها زيادة ظاهرة. وعندما سُئِل الشعبيُّ عن جزيرة العرب فقال: «ما بين العُذَيب إلى حضرموت. وقال الأصمعيُّ: «جزيرة العرب ما لم تُظلّه فارس والروم». وقال الرياشيّ: «جزيرة العرب ما بين نجران إلى العُذيب». وقال أبو عُبيدة: «جزيرة العرب ما بين حَفَر أبي موسى إلى أقصى اليمن في الطول، وفي العرض ما بين رمل يَبْرِين إلى السَّماوة». وقال محمد بن الحسن: «بلاد العرب الذين لا تقبل منهم الجزية، ولا يُرضى منهم إلاّ بالدخول في الإسلام أو السيف من العُذيب إلى أَبْيَن عَدَن فذلك الجزيرة»(٥).

ويرى ابن الفقيه الهَمَذَانيّ أنّ مجرى نهر الفرات الأسفل يشكّل حدّها الشمالي الشرقي، وأنّ شواطىء فلسطين على البحر المتوسط تشكّل حدّها الشمالي الغربي، وهذا يعني أنّ باديتي العراق والشام كانتا جزءاً من شبه جزيرة العرب، وفي حوزة سكانها(٦). ويؤيّد الجغرافي العربي ابن حوقل قول الهمذاني في هذا الشأن(٧).

يُسمّي العرب بلادهم باسم الجزيرة، لأنّ مياه البحار تحيط بها من ثلاث جهات، ولأنّ أنهار دجلة والفرات والعاصي تعقد لها حدوداً مائية في قسمها

(٥) أبي عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهَمَذَاني المعروف بابن الفقيه: كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، دار عالم الكتاب، بيروت ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ص١٧٦.
ـ محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره في المملكة العربية السعودية، ص٣٢.
ـ نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت ١٩٧٥، ص١٧.

(٦) أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن الفقيه الهَمَذَانيّ: مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل ـ ليدن ١٨٨٤ ص٧٤.

(٧) أبو القاسم محمد النصيبي بن حوقل البغدادي: كتاب صورة الأرض، مطبعة بريل ـ ليدن ١٩٣٨، ص١٨ ـ ١٩.

الشمالي. ويؤيّد ذلك ما يورده الجغرافي العربي الحَسَن الهَمْدَانيّ في مؤلّفه «صفة جزيرة العرب» حيث يقول: «وإنّما سُميت بلاد العرب «الجزيرة» لإحاطة الأنهار والبحار من أقطارها وأطرارها، وصارت منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر. وذلك أنّ الفرات القادم من بلاد الروم ويظهر بناحية قنسرين، ينحطّ على الجزيرة (أي يمرّ عبر أراضيها) وسواد العراق حتى يصبّ في البحر من ناحية البصرة والأبلّة، ومنها على شاطىء الخليج العربي، يطوّف على سفوان والقطيف وهجر وأسياف (سواحل) البحرين وقطر وعُمان، ثمّ ينعطف خطّ الحدود بشواطىء بحر العرب على الشحر وحضرموت وناحية أبين وعدن، وينعطف على شواطىء بحر القلزم (الأحمر)، مارّاً بسواحل تِهامة اليمن وعسير والحجاز إلى خليج أيلة وساحل الطور (في سيناء) وساحل راية حتى قلزم مصر، ومنها إلى بحر الروم (المتوسط)، ويسير فيه على شواطىء فلسطين وسورية، فيمرّ بسواحل عسقلان والأردن وبيروت وذواتها من سواحل دمشق وحمص إلى سواحل قنسرين حيث بدأ»[(٨)]. وينتهج ياقوت الحموي في موسوعته الجغرافية نهج الهَمْدَانيّ في تحديده لأقاليم شبه جزيرة العرب[(٩)]. وبذلك تصبح جزيرة العرب شاملة القسم الأكبر من بلاد الشام وبادية العراق.

وهكذا نجد أنّ جزيرة العرب خلال العصور القديمة كانت تمتدّ حتى سواحل البحر المتوسط، وأنّ حضارات بلاد الشام في تلك العصور كانت امتداداً لمجموعة الحضارات التي ازدهرت في الأقاليم الواقعة بين البحر العربي جنوباً، والبحر المتوسط شمالاً، والخليج العربي شرقاً، وساحل البحر الأحمر غرباً. غير أنّ حدود شبه الجزيرة العربية اليوم قد رُسمت لتفصل المملكة العربية السعودية والكويت عن الأردن والعراق، ولتمتدّ شمالاً حتى خط العرض ٣٠ ـ

---

(٨) أبو محمد الحسن بن أحمد الهَمْدَانيّ: صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل ـ ليدن ١٨٨٤، ص٤٧.

(٩) ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الثاني، دار صادر، بيروت ١٩٥٦ و١٩٦٦، ص١٣٧ ـ ١٣٨.

٣١ درجة مخترقة مثلث الصحراء السورية الواسع (الحماد) الذي كان يعدّه قدماء الجغرافيين امتداداً لها[١٠].

٣ ـ سطح شبه جزيرة العرب:

يأخذ سطح شبه الجزيرة العربية شكل هضبة عالية، تتكون من صخور قديمة صلدة، وتغطّي الصخور البلّورية مساحات شاسعة من أراضيها. وتنحدر انحدارين: أحدهما نحو الغرب، والآخر نحو الشرق. ويبدأ الانحداران من سلسلة جبال السراة التي تقع غربي شبه الجزيرة، وتمتدّ من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب[١١]. وانحدار هذه الهضبة من جهة الشرق هو تدريجي ويعبر وادي دجلة. أمّا الانحدار من جهة الغرب فهو سريع. وتحصر سلسلة جبال السراة بينها وبين ساحل البحر الأحمر سهولاً وعدّة أودية ضيقة، يصل متوسط عرضها إلى خمسة عشر ميلاً، ويبلغ أقصى اتساع لها ثلاثين ميلاً. وتشكّل قيعانها العميقة المتعرّية عائقاً طبيعياً لحركة النقل، كما أن مياهها ليست صالحة للريّ والملاحة؛ أمّا الأودية التي تهبط باتجاه الخليج العربي فهي شاسعة وضحلة ويمكن اجتيازها بسهولة. وتعتبر الشعاب والأودية الواسعة والضحلة إحدى السّمات المميّزة لتضاريس شبه الجزيرة العربية[١٢].

وفي الطرف الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب جبال هي جزء من الكتلة الصخرية في شرقي أفريقيا. وتتفرّع هذه الجبال إلى فرعين كبيرين: أوّلهما يذهب شمالاً على طول الساحل الغربي حتى يتّصل بجبال بلاد الشام،

(١٠) G.M.Lees: The Physical Geography of South eastern Arabia, G.j., May 1928, P442 and 534.

ـ محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره.. ص٣٢.

(١١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٢ و١٣٧.

(١٢) محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، الجزء الاثمن، المطبعة الخيرية بمصر، ١٣٠٦هـ، ص٢١٥. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٦٣ وج٥ ص٢٦٣.

ـ محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره...، ص٣٢ ـ ٣٤.

ـ نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم.. ص١٩.

ويُسمّى بالحجاز لأنّه يحجز بين تِهامة وهي المنطقة الساحلية المنخفضة، وبين نجد. وليس في هذا الفرع قمم عالية[١٣]. وثانيهما يمتدّ شرقاً وينخفض تدريجياً، حتى إذا ما وصل إلى منطقة ظفّار شرقي حضرموت ضاعت معالمه، ثمّ يعود ليرتفع في عُمان حيث يبدو وكأنّه يتّصل بجبال الأهواز في إيران. وفي هذه السلسلة قمّتان عاليتان: إحداهما عند صنعاء، عاصمة اليمن، يصل ارتفاعها إلى ٣٧٠٠ متر؛ والأخرى في الجبل الأخضر بالقرب من عُمان، ويصل ارتفاعها إلى ٣١٠٠ متر تقريباً[١٤].

ويتخلّل الهضبة اليمنية أودية كثيرة تنحدر إلى البحر الأحمر وخليج عدن وصحراء الربع الخالي، ومن هذه الأودية: وادي مور ووادي زبيد ووادي مأرب. وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر في اليمن يمتدّ شريط ساحلي خصب تتّصل عنده الأودية بالشاطىء البحري وخلف هذا الشاطىء يوجد العديد من المنحدرات ذات الأشكال البرجية التي تهطل فيها أمطار «المانسون» المسومية[١٥]. وتشجّع الأجواء المناخية في جبال اليمن على زراعة البن، وخصوصاً في المرتفعات الجبلية التي يتعدى علوّها ٤٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. كما يشجّع انتظام هطول الأمطار وكفايتها على المناطق الجبلية العليا، سواء القريبة من البحر أو التي تقع في أقصى الشرق من أواسط الهضبة اليمنية، على زراعة الحبوب مثل: القمح والدُّخن* والشعير. وتزرع الكرمة، من أجل الحصول على الزبيب، في المناطق السفلى من الهضبة[١٦].

---

(١٣) الحسن الهَمْدَانيّ: صفة جزيرة العرب، ص٤٨. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢١٩.

(١٤) الحسن الهَمْدَانيّ: صفة جزيرة العرب، ص٧١ ـ ٨٠. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم. . . ص١٩ ـ ٢٠.

(١٥) الحسن الهَمْدَانيّ: صفة جزيرة العرب، ص٥١.

Duddley L.Stamps: A regional Geography, pt. IV-Asia, London 1964, P144-150.

* الدُّخن: نبات من فصيلة النَجيليّات. حبُّهُ صغير يُقدّم طعاماً للطيور والدجاج.

(١٦) Stamps: A Regional Geography, P143-153.

ـ محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره. . ، ص٣٧.

ويتكوّن إقليم حضرموت في شرق اليمن:

أ ـ من سهل ساحلي جافّ، ومرتفعات رملية قصيرة.

ب ـ ومن هضبة جافّة تبعد حوالي ٣٠ كيلومتراً عن مياه البحر، ويتراوح متوسط ارتفاع معظم الأجزاء التي تعلو بشكل فجائي من السهل الساحلي ما بين ٤٠٠٠ و٥٠٠٠ قدم.

جـ ـ ومن أودية عميقة تقود إلى الوادي الرئيسي الخصب الذي يمكن الحصول على المياه فيه من الآبار الضحلة والذي تُزرع حقوله وبساتينه في الصيف والشتاء.

د ـ ومن المنحدرات الّتي تمتدّ في الجهة الشمالية من الوادي، والّتي تمنع زحف الصحراء هناك.

وفي شرق حضرموت يقع إقليم ظفّار الذي اشتهر منذ أقدم العصور بأنّه موطن اللبان (البخور)، والذي يتميّز بغنى أشجاره النّضرة وبمنحدرات جباله التي تطلّ على البحر وتغطّيها الغابات(١٧).

وإلى جانب الجبال التي تلتفّ على شكل منحنى في موازاة المحيط الهندي، والتي تقع في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، يوجد في منطقة رأس الخيمة، الساحل الثروسي (Trucial Coast) الذي يبعد ٢٥ ميلاً عن رأس الحمراء. كما توجد في الجهة الشمالية الغربية من هذا الساحل أراضي شبه جزيرة قطر التي تدخل في مياه الخليج العربي(١٨).

تقع قطر في منتصف الساحل الغربي للخليج العربي، وهي عبارة عن شبه جزيرة قاحلة، تبلغ مساحتها ١١٤٣٧ كيلومتراً مربعاً، وتتكوّن بصورة رئيسية من هضبة غير مستوية من الحجر الجيري، وتسيطر على معظم سطوح أرضها الصحارى الحصوية التي تتخلّلها مساحات كثيرة من البقاع الرملية. وتتشكّل

---

(١٧) الحسن الهَمْدَانيّ: صفة جزيرة العرب، ص٥١. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٧٠ وج٤، ص٦٠. محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره.. ص٣٧ ـ ٣٨.

(١٨) محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره..، ص٣٨.

سواحلها المنخفضة من ألسنة رملية وحصوية وسبخات ملحية، تُعزّز في بعض المناطق بالهضاب المنخفضة ذات التكوين الجيري. ويتخلّل هذه السواحل الكثير من الخلجان الصغيرة الضحلة والبحيرات المالحة والمداخل الضيّقة. وتكثر فيها الأودية المتكوّنة من السيول والكثبان الرملية المتحركة والأخوار (الحياض) وبرك المياه المتكوّنة من مياه الأمطار. وتفتقر قطر إلى خزانات المياه الجوفية كالتي في الأحساء والبحرين[١٩].

وتتابع السهول الساحلية في الإقليم الشرقي من شبه الجزيرة العربية تمدّدها شمالاً، وترتفع ٢٠٠ متر عن مستوى سطح البحر في معظم الأجزاء الداخلية التي تبعد ما بين ٣٠ و٦٠ ميلاً عن مياه البحر. وتتميّز هذه السهول بالاتساع، كما تتميّز بالطقس الحار والرطوبة العالية في فصل الصيف، وبقلّة الأمطار وعدم انتظامها في فصل الشتاء. وعلى الرُّغم من وجود بعض الطبقات الرملية الطويلة والأودية التي تتّجه نحو المناطق الداخلية، فإنّه لا يوجد في هذه السهول أنهار وأخوار تجري عبرها نحو الخليج العربي.

ويُعدّ سهل الأحساء امتداداً لهذه السهول الساحلية، مع وجود الألسنة المتداخلة من الرمل والحصى، والسبخات المالحة والمختلطة بالأراضي الرسوبية. وتشكّل المياه الارتوازية الموجودة في رسوبيات الجزء الأوسط من منطقة الهفوف الدعامة الأساسية لواحات الأحساء الواسعة التي تزيد عن الأربعين ميلاً. وتتعرّى أراضي جبل قاره، الذي يقوم في وسط واحة الهفوف ويأخذ شكل تل مسطح القمّة، لتكوّن خوانق وأعمدة. ويتخلّل هذا التلّ كهف ضخم في جهته الجنوبية ليشكّل مرفأً طبيعياً رطباً[٢٠].

وفي منطقة متوسطة من الخليج العربي، يقع أرخبيل جزر البحرين الذي

---

(١٩) Peveril Meigs: Geography of Coastal Deserts, Belguim, Unesco 1966, P47.
الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٥٥٥.
ـ محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره.. ص٤٢.

(٢٠) Meigs: Geography of Coastal Deserts, P39-42.
ـ محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره..، ص٣٨ ـ ٣٩.

يضمّ ثلاثاً وثلاثين جزيرة بين صغيرة وكبيرة. وقد تكوّنت هذه الجزر مع ارتفاع مستوى مياه المحيط الهندي وغَمْرِها لأجزاء كبيرة من الوادي الذي يُطلق عليه اصطلاحاً اسم «ما قبل الخليج»، وكان ذلك حوالي ١٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وعندما تمّ تحوّل هذا الوادي إلى خليج كبير (هو الخليج العربي اليوم) حوالى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد، تحوّلت المرتفعات والجبال والهضاب إلى جزر، وغدت الأرض العربية شبه جزيرة. ويبدو أنّ جزيرة البحرين كانت حوالي ٦٠٠٠ قبل الميلاد تتّصل برّاً بساحل شبه الجزيرة العربية الشرقي، فلا يتجاوز عمق البحر في هذه المنطقة الفاصلة اليوم أكثر من ٢٥ متراً[٢١]. ولا تبعد عن ساحل الأحساء أكثر من أربعة وعشرين كيلومتراً. ويغلب على البنية الطبيعية لجزر البحرين الصحارى الجرداء التي يغطي معظمها حجارة وصخور كلسية تسترها الرمال في بعض المناطق. وتعدّ جزيرة البحرين أكبر ثلاثة جزر في هذا الأرخبيل، وهناك جزيرة المحرق المنخفضة التي تقع في الجهة الشمالية الشرقية منها، ثمّ جزيرة سترة التي تقع بجوار شاطىء البحرين الشرقي، وجزيرة النبي صالح التي توجد في خليج خور الكب العريض، وجزر: أم الشجر، وأم الشجيرة التي كانت موطناً لصيادي الأسماك، وجدة التي تقع في الجهة الغربية وتتألف من صخور رمادية مصفرة وشريط مسطح من الأرض، وتأوي جزيرة جدة جموعاً كبيرة من الطيور، كما تعيش حولها أسراب وفيرة من السمك، وأبرز ما يميّز هذه الجزيرة هو مقالع الحجارة الّتي استغلت لأعمال البناء والتحصين في مختلف العهود. وإلى الجنوب من جزيرة جدة توجد جزيرة أم النعسان، ثاني جزيرة في البحرين من حيث المساحة، وهي جزيرة صخرية كلسية منبسطة السطح باستثناء هضبتين صغيرتين في وسطها تنمو فيها أشجار النخيل. هذا إلى جانب عدد آخر من الجزر[٢٢].

وفي الزاوية الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة العربية تقع الكويت التي

---

(٢١) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٧٥ و٧٨.

(٢٢) محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره. .، ص٣٩ ـ ٤٠.

الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٧٥ ـ ٧٦.

Meigs: Geography of Coastal Deserts, P44-46.

تضمّ إقليماً مثلّثاً من البرّ الرئيسي، وجزيرة فيلكا، وعوهة، ومسكان، وكُبر، وأم المرادم، وبوبيان، ووربة، وقاروه. ويُلاحظ أن هذا الإقليم يتكوّن في معظمه من أراضٍ حصوية صلبة، وخصوصاً في الأصقاع التي تمتدّ شمالي مدن الكويت والجهراء والرقعي، وغربي منطقة الشقاء. بينما تتحوّل طبيعة هذا الإقليم إلى أراض رملية في الأصقاع الأخرى. أمّا الخليج الطبيعي، الذي يوجد في الركن الشمالي الغربي من الخليج العربي، فهو عبارة عن فجوة عميقة في الخط الساحلي للخليج، ويتمثّل شمالاً بالشواطىء الغربية للخور والصبية التي تقع فيها جزيرة فيلكا على بعد ٢٥ كيلومتراً من البر الكويتي، ويبلغ طول مدخله بين هذه الأراضي الطينية المسطّحة ورأس الأرضة، حوالي ٤ أميال[٢٣].

ومن تضاريس شبه الجزيرة العربية البارزة هضبة نجد التي تقع في وسط شبه الجزيرة، بين صحراء النفود الكبرى في الشمال والشمال الغربي، والدهناء (أو النفود الصغرى) في الجنوب والشرق، وأطراف العراق في الشمال الشرقي، والحجاز في الغرب. وقد سمّى العرب أواسط شبه الجزيرة «نجداً» لأنّ أراضيها مرتفعة، وذلك تمييزاً لها عن الغور أو تِهامة التي تعني الأرض المنخفضة[٢٤].

وتتميّز صخور هذه الهضبة بأنّها من عصورٍ جيولوجية مختلفة، لعلّ من أهمّها الصخور الرملية التي تعود إلى الزمن الأول (الباليوزي) في الشمال والغرب، وهي صخور خازنة للمياه، وتزوّد واحات هذه الهضبة بكميات وافرة منها. وترتكز الأطراف الغربية لهذه الهضبة على أطراف إقليم المرتفعات الغربية وتتخلّلها مرتفعات بركانية حديثة. ويمتدّ هذا الإقليم من الغرب إلى الشرق، أي بين المرتفعات الغربية والدهناء مسافة تبلغ نحو ٦٥٠ كيلومتراً، ويتراوح ارتفاعها ما بين ١٢٠٠ ـ ١٨٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر، وينخفض إلى حوالي ٧٠٠ متر في منطقة التقائه برمال الدهناء.

---

(٢٣) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص١٣١.
ـ محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره. . ، ص٣٩.
ـ عمر ذيب مصطفى: جزيرة فيلكا، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت ١٩٨٨م، ص٣٥ ـ ٤٤.
HRP, Dickson: Kuwait and her Neibhbours, London 1956, P31-49.
ـ غانم سلطان: الملاحة البحرية وأهميتها للكويت قديماً وحديثاً، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت ١٩٨٨، ص٩٥.
(٢٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٦٢.

وفي القسم الغربي منها يوجد جبلا أجأ وسلمى المنسوبان إلى قبيلة طيّء، وصخورهما من الغرانيت الأحمر، وقد اشتهرا بالمناعة وبصعوبة النفوذ إليهما، ويفصل بينهما سهل واسع تقع فيه مدينة حائل، ويصل ارتفاع قمّة جبل أجأ إلى ١٦٥٠ متراً. وتُسمّى هذه المنطقة الجبلية الآن بجبل شمّر[٢٥]. وفيها يقول الشاعر العربي زيد بن مهلهل الطائي:

جلبنا الخيل من أجأ وسلمى تخبّ نزائعاً خبب الركاب

ويقول لبيد:

كأركان سلمى إذ بدت أو كأنّها هضاب أجأ إذ لاح فيه مواسل[٢٦]

ويُعدّ إقليم نجد من أوسع أقاليم شبه الجزيرة العربية. وقد قسّمه العرب إلى قسمين: نجد العالية وهو ما ولي الحجاز وتِهامة من جهة الغرب، وقد قطّعت الأودية هذا القسم وحوّلته إلى هضاب، ومن أوديته وادي الرمّة الكبير وروافده الّذي يمدّ القصيم ومدينتي عنيزة وبريدة وعدد من القرى المجاورة بالمياه[٢٧]. ونجد السافلة وهو ما ولي العراق والخليج العربي من جهة الشرق، ويتكوّن هذا القسم من الصخور الرسوبية الرملية والجيرية والطفيلية، وتبرز فيه سلسلة جبال «طويق» التي تأخذ شكل قوس كبير تتّجه وتنحدر بشدّة نحو الغرب وتدريجي نحو الشرق، ويبلغ امتدادها ٨٠٠ كيلومتر، وتصل إلى ارتفاع ٣٢٠٠ قدم، وتتخلّلها مجموعة من الأودية والواحات أهمّها: وادي حنيفة، وكان يُسمّى فلجاً[٢٨]، ووادي حريملاء، ووادي نساح.. وكانت هضبة نجد من أخصب أراضي شبه الجزيرة العربية وأغناها[٢٩].

---

(٢٥) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢١٦. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم..، ص٢٠. الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٦٨.

(٢٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٩٦.

(٢٧) محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره..، ص٣٦.

(٢٨) عبد الوهاب عزّام: مهد العرب، القاهرة ١٩٤٦، ص٧٧.

(٢٩) محمود شكري الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، الجزء الأول، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٢٤، ص٢٩٩.
الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢١٦.

ويغلب على شبه الجزيرة العربية الدارات والصحارى التي تخلو في معظمها من المياه والغطاء النباتي بحيث يصبح من الضرورة توفير المياه والأعلاف من الواحات القريبة للرحلات العابرة لهذه الفيافي القاحلة. ومن أهمّ هذه الصحارى: صحراء النفود الكبرى، وصحراء الدهناء (النفود الصغرى)، وصحراء الربع الخالي...

تقع صحراء النفود الكبرى شمالي هضبة نجد بين بادية الشام وشمالي الحجاز. وتمتدّ من الشمال إلى الجنوب ١٤٠ ميلاً، وتسير نحو الشرق لمسافة ٦٥٠ كيلومتراً، بعرض يبدأ من ٤٠ كيلومتراً في الشرق ليصل إلى ٣٢٠ كيلومتراً في الغرب، وتبلغ مساحتها ٥٧٠٠٠ كيلومتر مربع، ويصل ارتفاعها في الجنوب الغربي إلى ١٠٠٠ متر ويقلّ عن ٦٠٠ متر في الشمال والشرق[٣٠]. وكانت تُعرف قديماً باسم بادية السماوة أو رملة عالج[٣١]. وهي عبارة عن عروق عميقة من الرمل والحصى تشكّلت بفعل التَعرية الجوية والتكوينات الرسوبية المختلفة التي يرجع بعضها إلى الزمن الجيولوجي الرابع. ورمل النفود الكبرى أحمر وأبيض ومتموّج يحمله الريح من مكان إلى آخر، ويشكّله على هيئات مختلفة، ويوجد فيها كثبان رملية ناعمة ويصعب على المرء أن يسير فيها، ويصل ارتفاع بعضها إلى ١٥٠ متراً. وفيما تتميّز صحراء النفود بالجفاف في نصف السنة الصيفي فإنّها تتحوّل في فصل الشتاء إلى مراع غنيّة بعد سقوط المطر. ويتجه تصريف مياه السطوح الصخرية الكلسية نحو الشمال الشرقي، وتنصرف معظم مياهها إلى سلسلة من الأحواض الداخلية التي تساعد على حفر الآبار وتشكيل الواحات[٣٢].

---

(٣٠) الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٧١. جواد عل: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، مطبعة المجمع العلمي ببغداد، ص٩٣. محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره... ص٣٦.

(٣١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٧٠.

(٣٢) الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٧١. محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره.. ص٣٦. عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦، ص١٤.

وتقوم صحراء الدهناء (النفود الصغرى) بين منطقة الأحساء ونجد، وهي عبارة عن فلاة واسعة، وتتشكّل من أراضٍ حصوية صلدة تغطّيها، بصورة متقطّعة، أحزمة رملية مختلفة الأحجام. وتبدأ الدهناء ممرّاً ضيقاً في جنوبي صحراء النفود الكبرى، ثمّ تسير في قوس طويل ضيّق يقع شرقي جبل طويق، ويصلها بصحراء الربع الخالي جنوباً، ويبلغ طول الدهناء من الشمال إلى الجنوب ١٣٠٠ كيلومتر، ويتراوح عرضها بين هضبتي العرمة والصمان ما بين ٣٠ و٨٠ كيلومتراً، كما يتراوح متوسط ارتفاعها عن سطح البحر ما بين ٤٠٠ و٥٠٠ متر. وتضمّ الدهناء أشكالاً متنوعة من الكثبان الرملية الطولية والأودية التي تنحدر باتجاه الشرق، ويكون امتداد الكثبان الرملية الطولية على سطحها من الغرب إلى الشرق، ويفصل بينها عروق صخرية صلبة قليلة الارتفاع[٣٣].

وعلى الرُّغم من خلو الماء فيها وجفاف بعض أجزائها إلاّ أنّ الدهناء تتميّز عن الربع الخالي بتنوّع أعشابها وغزارة مراعيها، وهي كثيرة الكلأ، ليس في بلاد العرب مربع مثلها، وإذا أخصبت ربّعت العرب فيها[٣٤]. ففيها ينمو العشب والزهر، كما تنمو بعض الأشجار القصيرة على متون التلال الرملية، ممّا يجعلها مرعى سائغاً لدى البدو والقاطنين هناك. وفيها مراعٍ جيدة حتى في فصل القيظ، فهناك بقاع خضراء تنبت فيها أعشاب طويلة الساقِ حتى في الفصول التي تسبق نزول المطر، كما تنبت فيها أشجار الشيح الوفير الذي يصلح علفاً للجمال[٣٥]. ولعلّ الدهناء من الدهان الذي يعني الأديم الأحمر، وذلك لاختلاف النبات والأزهار في أراضيها[٣٦].

وهناك قوس صحراوي آخر يصل صحراء النفود الكبرى بصحراء الربع

---

(٣٣) الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٧٠. الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢١٧. راجع أيضاً خريطة شبه الجزيرة العربية الطبيعية في باب الملاحق، ملحق رقم...

(٣٤) الزبيدي: تاج العروس..، ج٩، ص٢٠٥.

(٣٥) أ.ي. بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى، ترجمة أنيس فريحة، الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٧٣، ص٧٠ ـ ٧٥.

(٣٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٩٢.

الخالي، ويقع غربي جبل طويق، ولكن هذا القوس ليس مستمرّاً كالقوس السابق بل كثيراً ما يغيب ويعود للظهور ثانية. ويلاحظ في صحراء النفود الكبرى وصحراء الدهناء تلال رملية أو كثبان تتموّج مع الرياح، وتنتقل معها عند هبوبها، ويكون تحرُّك الرمال دوماً باتجاه الجنوب، وتحديداً باتجاه الربع الخالي[٣٧].

وتوجد صحراء الربع الخالي في القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، بين اليمن وعسير غرباً، وعُمان والجبل الأخضر شرقاً، وبين صحراء الدهناء وهضبة نجد شمالاً، وحضرموت وظفّار جنوباً. ويُطلق على صحراء الربع الخالي اسم الصحراء العربية الكبرى. ويتراوح عرضها من الشمال إلى الجنوب ما بين ٦٠٠ و٨٠٠ كيلومتر، وطولها من الشرق إلى الغرب ١٢٠٠ كيلومتر، وتصل مساحتها إلى حوالي ٦٤٧٥٠٠ كيلومتر مربع[٣٨] وهي عبارة عن منخفض واسع من الأرض تحيط به المرتفعات ويغمرها غطاء كثيف من الرمال الجرداء الجافّة في ثلثي مساحتها، والتي تأخذ شكل كثبان عالية هلالية وطولية معقّدة. وقد استخرج من أطرافها الشمالية البترول، كما احتفظ بما يحوي باطنها من البترول كاحتياطي ضخم للمستقبل[٣٩]. وكان الناس إلى زمن قريب، يعتبرونها أرضاً مخيفة، ولا يتجرّؤون على اجتيازها، وقد عبرها الرحالة الإنكليزي برترام توماس لأوّل مرّة في عام ١٩٣١، وجون فليبي عام ١٩٣٢[٤٠]. ويظهر من المتحجرات والأصداف التي عثر عليها في الربع الخالي أن البحر كان يغمر أجزاءها في العصور الجيولوجية القديمة، واستدلّ على ذلك بالبحيرة المالحة التي اكتشفها توماس نفسه[٤١].

---

(٣٧) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم. . . ، ص٢١.

(٣٨) الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٦٩.

(٣٩) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢١٦.

(٤٠) الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٧٠. عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤ ص٢٨.

(٤١) الرويثي: المرجع السابق، ص٧٠.

ويحيط بالربع الخالي من أطرافه مناطق: يبرين وهي رمل لا تُدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة (مدينة باليمامة) ووبَار (أو وَبارِ) هي أرض بين اليمن ورمال يبرين. والأحقاف بناحية الشحِر في الجانب الغربي الجنوبي من الربع الخالي، بناحية حضرموت اليمن؛ وهي سلسلة من الكثبان الرملية الدقيقة النعومة التي يتعذّر على المرء اجتيازها إلاّ في بعض الجهات وذلك لانعدام الماء[٤٢]. وفي الأحقاف كانت منازل عاد[٤٣].

أمّا الدارات فهي سهول رملية مستديرة بين التلال أو الجبال، تستقرّ تحت سطحها المياه، وقد تكون الدارة مكاناً ضيّقاً فيه ماء غامر دائم، كدارة جُلجل. ودارات شبه الجزيرة كثيرة لا يمكن إحصاؤها لأنّها أماكن محليّة، وقد أوصلها البعض إلى مائة وعشر دارات، كدارة الآرام، ودارة أبرق، ودارة أحد، ودارة دَمّون[٤٤].

ويبدو أنّ الحِرار قد انتشرت في شبه الجزيرة في الفترة القريبة جدّاً من ظهور الدعوة الإسلامية. والحرّة هي أرض ذات حجارة نَخِرة، تتشكّل من الحجارة والمعادن المصهورة التي تسيل من البراكين[٤٥]. وتأخذ الحِرار شكل مخاريط بركانية على سطح الأرض. أو تكون عادة مستديرة الشكل؛ فإذا كان فيها شيء مستطيل غير واسع فذلك الكراع واللابه[٤٦]. والحِرار وعرة المسالك، تتوزّع على أطراف الحجاز ومدين ونجد، من جنوبي تبوك حتى جنوب شرقي مكة. وقد اشتهرت بعض هذه الحرّات بالخصب وكثرة المياه، ولا سيما حرّات المدينة المنوّرة وخيبر. واستخرج العرب من هذه الحرّات أحجار الرحى والمسان والمعادن[٤٧].

---

(٤٢) Stamps: A regional Geography, P144.

(٤٣) أبو الفداء إسماعيل بن كثير: قصص الأنبياء، تحقيق لجنة من العلماء، طبعة ثامنة، دار القلم، بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٩٧.

(٤٤) عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص٣٠ ـ ٣١.

(٤٥) Henri Lammens: Le Berceau de l'Islam, Rome 1914, P73.

(٤٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٤٥.

(٤٧) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص٢٤٦. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨، ص١٩٨.

وتقع الحِرار الواسعة المشهورة بالقرب من المدينة، وهي خمس: الحَذَرِية وهي حرّة لبني سُليم، وحرّة واقم، وحرّة ليلى، وحرّة شَوْران، وحرّة النار قرب خيبر[٤٨]. وهنالك حرّات أخرى أقلّ اتساعاً، وقد أحصى ياقوت الحموي تسعاً وعشرين حرّة في شبه جزيرة العرب، من بينها حرّات: أوطاس، وتبوك، ونَقْدة، وحقل، والحمارة، وراجل، ورماح بالدهناء، وضرغد في جبال طيّء، والوبرة التي تقع على ثلاثة أميال غربي المدينة المنوّرة في أوّل الطريق إلى مكة، وتفصل بين المدينة ووادي العقيق، وكان وادياً كثير المياه والآبار والعيون، وكثير النخل والأغراس والأشجار[٤٩].

٤ ـ نظرة العرب والجغرافيين القدامى لطبيعة شبه الجزيرة العربية:

لم تكن نظرة الجغرافيين القدامى، وبخاصة اليونان والرومان منهم، متّفقة مع نظرة جغرافيي العرب لبلادهم. ذلك أنّ الجغرافيين القدماء من غير العرب لم تطأ أقدامهم أرض شبه الجزيرة العربية، فلذا جاء تقسيمهم لها يختلف عن التقسيم الذي وضعه العرب أنفسهم، ولكنّه ينسجم مع الأحوال السياسية التي كانت عليها الشعوب العربية في القرن الأول الميلادي[٥٠]. ووفقاً لنظرة هؤلاء يمكننا حصر هذا التقسيم بثلاث مناطق:

أ ـ بلاد العرب الصخرية (Arabia Petraea)، وتشمل شبه جزيرة سيناء، والمنطقة التي تليها إلى الشمال والشمال الشرقي، حيث قامت مملكة الأنباط وكانت عاصمتها مدينة البتراء (Petraa).

ب ـ بلاد العرب الصحراوية (Arabia Deserta). وكانت تشمل بادية الشام، والمناطق الصحراوية التي كانت تسكنها القبائل العربية في ذلك الوقت.

---

(٤٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٤٨. عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص٢٩ ـ ٣٠.

(٤٩) ياقوت الحموي: المصدر السابق. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٥، ص٢٨٩. عبد الوهاب عزّام: مهد العرب، ص٦٣.

(٥٠) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١١٧.

جـ - بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix)، وهي بلاد اليمن أو الأرض الخضراء التي تقع في القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية[٥١].

أمّا العرب فقد قسّموا شبه جزيرتهم إلى خمسة أقسام كبرى هي: تِهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن[٥٢]. ويضيف ابن حوقل على هذه الأقسام بوادي العراق والشام والجزيرة فيما بين دجلة والفرات[٥٣].

ويُطلق اسم تِهامة على الأرض الممتدة من غرب جبال السراة إلى ساحل البحر الأحمر، ومن العقبة شمالاً إلى عدن جنوباً. وهي تتألف من تهائمَ، منها ما يدخل في اليمن، ومنها ما يدخل في الحجاز. وتِهامة اليمن سهل خصب، تنحدر إليه الأودية من الجبال، وتكثر فيه الأشجار والزروع، ومن مدنه الساحلية الحديدة ومخا وقنفذة[٥٤]. وقَصَبَة التهائم زبيد، وميناؤها على البحر[٥٥]، ومن مدن تِهامة الحجاز جُدّة التي بناها عثمان بن عفّان، وهي ميناء مكّة، وينبع ميناء المدينة المنوّرة[٥٦].

وقد سُمّيت تِهامة بهذا الاسم من التهم وهو شدّة الحرّ وركود الريح، وقيل هي الأرض المُتَصوِّبة (المنحدرة) إلى البحر، ولانخفاض أرض تِهامة الّتي سُمّيت بالغور[٥٧].

---

(٥١) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، دار مكتبة الحياة، بيروت، لا تاريخ، ص٣٩. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي الجزء الأول، الطبعة السابعة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤، ص٤. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم...، ص٢٨.

(٥٢) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٤٧. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٣٧. الألوسي: بلوغ الأرب...، ج١، ص١٨٧.

(٥٣) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص١٩.

(٥٤) عبد الوهاب عزام: مهد العرب، ص٩٣.

(٥٥) الألوسي: بلوغ الأرب...، ج١، ص٢٠٦.

(٥٦) الألوسي: المصدر نفسه، ص١٩٥. ابن حوقل: المصدر نفسه، ص٣٩. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم.. ص٣١.

(٥٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٦٣ وج٤ ص٢١٧.

والحجاز مِنْطقة جبلية تقع غربي تِهامة، وتحاذيها من الشمال إلى الجنوب، وتفصل أو تحجز بينها وبين نجد، ولهذا سُمّيت بالحجاز. وتحجز بين اليمن والشام، لأنّها تحوي سلسلة جبال السراة التي تمتدّ من اليمن إلى الشام(٥٨). ومن مدن الحجاز: مكّة والمدينة والطائف ومخاليفها، ومن هذه المخاليف العُلا وهي بلد بناحية وادي القرى؛ كما يضمّ خيبر وفدك وتيماء والجار وهي ميناء المدينة المنوّرة(٥٩).

وتشمل نجد المنطقة التي تقع شرقي الحجاز حتى الخليج العربي. وحدودها واسعة تصل إلى أطراف العراق شرقاً، والدهناء جنوباً. وهي عبارة عن هضبة مرتفعة، وسُمّيت بادية على الحصر، وفيها نشأت اللغة التي نتكلّم بها، والأدب الذي نتغنّى به(٦٠). وتُعدّ نجد من أوسع أقاليم شبه الجزيرة العربية وأغناها، وتشتهر بمراعيها الخصبة وخيولها العربية الأصيلة، وبرُباها ورِياضِها ترنّم الشعراء(٦١).

وتضمّ العروض اليمامة والبحرين وما والاهما، وتعترض ما بين اليمن ونجد والعراق. وتقع اليمامة في الجنوب الشرقي من نجد، وهي منطقة واسعة كانت تُعرف قديماً باسم جواً، وقد سُمّيت باليمامة نسبة إلى اليمامة بنت سهم بن طسم، وكانت قَصَبَتها مدينة حجر(٦٢). أمّا البحرين فهي منطقة كبيرة، تمتدّ من البصرة شمالاً إلى عُمان جنوباً، ولها سِيف (ساحل) ضيّق على خليج البصرة.

---

(٥٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢١٩. الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٤٨. أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الرابع، القاهرة ١٩١٣، ص٢٤٦.

(٥٩) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص٢١٩. عمر فرّوخ: تاريخ الجاهلية، ص٣٦. عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١٨.

(٦٠) عمر فرّوخ: تاريخ الجاهلية، ص٣٦.

(٦١) الألوسي: بلوغ الأرب ج١، ص٢٩٩. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم. . ص٣١.

(٦٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٤٤٢.

وكانت تتألّف قديماً من كاظمة الكويت والأحساء وشبه جزيرة قطر، وكانت قاعدتها هجر[٦٣].

أمّا اليمن فهي أرض واسعة تمتدّ حدودها من تِهامة إلى العروض، ويحدّها من الجنوب المحيط الهندي ومن الشمال الحجاز، وتضمّ أقاليم حضرموت وشِحر وعُمان ونجران، ومن أشهر مدنها صنعاء[٦٤]. وكان القدماء يسمّونها بلاد العرب السعيدة أو اليمن الخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها وثمارها. ويقول البعض أنّها سُمّيت اليمن لأنّها من يمنات الواردة في نص يرجع إلى أيام الملك شمر يرعش الحِمْيَري[٦٥] الذي حكم في الربع الأخير من القرن الثالث الميلادي[٦٦]. وقال الكلبيّ بن السائب: «سُمّيت اليمن لأنَّ يُقْطَن ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح أقبل بعد خروج ثلاثة عشر ذَكراً من ولد أبيه، فنزل موضع اليمن فقالت العرب: «تيمّن بنو يُقْطن» فسمّيت اليمن». والأرجح أنّها سُميت باليمن لأنّها تقع على يمين الكعبة[٦٧].

---

(٦٣) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص٣٩٣. عمر فرّوخ: تاريخ الجاهلية، ص٣٦.
الكاظمة موقع على سيف البحر في الطريق من البحرين إلى البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان (ما يقارب ١٢٠ كيلومتراً)، وموضع الكاظمة اليوم شمالي الكويت ضمن الأراضي الكويتية. أمّا البحرين فقد عُرفت بهذا الاسم لوجود لسان مائي يدخل في اليابس، وقيل إنّ اسم البحرين مشتَقّ من اسم لبحيرة تقع بالقرب من مدينة الإحساء تبلغ مساحتها ثلاثة أميال مربّعة، وتبعد عن مياه الخليج بحوالي عشرة فراسخ (٣٠ ميلاً) وكانت هذه البحيرة تبدو للناظر إليها وإلى البحر المجاور لها كالبحرين، ومن هنا جاءت التسمية. وبمرور الزمن أصبح اسم البحرين علماً للبلاد التي تمتدّ من أسياف كاظمة في الشمال حتى عُمان في الجنوب.
أحمد المزيني: الزكاة والضرائب في الكويت قديماً وحديثاً، دار ذات السّلاسل، الكويت ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، ص١١ ـ ١٢.

(٦٤) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم. . .، ص٢٩ ـ ٣٠.
زكريا بن محمد القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة فردينان وستنفيلد ـ ليدن ١٨٤٨م (نسخة محفوظة بمكتبة الجامعة الأميركية في بيروت) ص٤٣.

(٦٥) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٣٥.

(٦٦) جرجي زيدان: العرب قبل ازسلام، ص١٦٧.

(٦٧) ابن الفقيه (الهَمَذاني): كتاب البلدان، ص٩١. الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٥١.
الألوسي: بلوغ الأرب. . ج١، ص٢٠٣.

ومن المفيد إيراد تحديد الجغرافي العربي أبي الفداء لهذه الأقسام كما يلي: تِهامة وهي الناحية الجنوبية من الحجاز. ونجد وهي البلاد الواقعة بين الحجاز والعراق. والحجاز يشمل الأرض الجبلية الممتدة من اليمن إلى سورية وفيه المدينة وعَمّان. ثمّ العروض وهي أرض اليمامة والبحرين. ويضمّ اليمن تِهامته ونجده وحضرموت ومهرة وعُمان(٦٨).

٥ ـ المناخ:

إنّ مناخ شبه الجزيرة العربية متفاوت جدّاً، ولكنّ الغالب عليه أنّه قاريّ صحراوي، يميل إلى الجفاف كما تميل الحرارة فيه إلى الاشتداد. وأشدّ المناطق حرارة شواطىء عُمان وتِهامة والأحساء. ويرافق هذه الحرارة ارتفاع نسبة الرطوبة في الجو، ففي جُدّة مثلاً ترتفع الرطوبة ارتفاعاً كبيراً بحيث لو تَرَك المرء، في أحد أيام أيلول قطعة من قماش في العراء لابتلّت بعد انقضاء ساعتين فقط(٦٩).

والحرارة في شبه الجزيرة عرضة للتقلبات ليس بين الصيف والشتاء وحسب، بل وفي اليوم الواحد بين النهار والليل(٧٠)؛ ففي الشتاء تنخفض درجة الحرارة في معظم أرجاء شبه الجزيرة، وفي أشهره القاسية يتساقط الثلج ويتجمّد الماء في بعض المرتفعات العالية، ويذكر جغرافيو العرب مكانين يتجمّد فيهما الماء هما جبل غزوان الذي تقوم عليه مدينة الطائف، وصنعاء في اليمن(٧١).

وتختلف الرياح بدرجة كبيرة في مختلف البقاع بسبب تحكّم أوضاع المسطّحات المائية المحيطة، والرياح الموسمية التي تهبّ من المحيط الهندي صوب شبه الجزيرة ذات تأثير فاعل ليس في الأقاليم الطبيعية فحسب بل وفي

---

(٦٨) الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن محمود أبو الفداء: تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس ١٨٤٠، ص٧٨ ـ ٨٠.

(٦٩) الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٧٩ ـ ٨٣.
بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى، ص٧٦.

(٧٠) بليايف: المرجع نفسه، ص٧٧.

(٧١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٩. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٩٥.

حياة السكان أنفسهم. وعلى العموم فإنّ الرياح التي تهبّ على شبه الجزيرة العربية كثيرة ومتنوّعة، فمنها الموسِمية والعامّة، والباردة والحارّة، والممطرة والجافّة... وذكر البعض أنّ الرياح أربع[٧٢]:

إحداها تهبّ من جهة الشرق وهي ريح القَبُول أو ريح الصَبَا، وهي ريح طيّبة مقبولة والنفس تصبو إليها لنعومتها ورقّتها، ولأنّها تجلب السّحاب والمطر وتروي الأرض وتخصب الزرع، وكانت تهبّ في الغالب على منطقة نجد، وهي عند العرب اليمانية[٧٣].

والثانية تهبّ من جهة الغرب وهي الدَبُور، وقد سمّيت كذلك لأنّها في زعمهم تأتي من المغرب أي من دُبُر الكعبة، مصحوبة بأمطار ولذلك عُرفت بالذاريات والمعصرات. وتهبّ هذه الرياح صيفاً وشتاءً على مناطق شبه الجزيرة التي تقع إلى الجنوب الشرقي من شبه جزيرة سيناء، وعلى بلاد الحجاز وأواسط نجد وشماليه، وعلى بلاد عُمان[٧٤].

والثالثة تهبّ من جهة الجنوب وهي رياح التيمّن التي تتحرّك في الصيف على أقاليم شبه الجزيرة العربية الجنوبية، محمّلة بالسحب الآتية من المحيط، وتسقط مطراً غزيراً فوق الهضبة اليمنية وعلى ظفّار ومهرة. وقد تيمّن العرب بها وجعلوها علامة للخصب والخير، ودعوا الجنوب لاقحاً لأنّها تُلقّح السحاب[٧٥].

(٧٢) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: كتاب الأنواء، حيدر آباد ـ الدكن ١٩٥٦، ص١٥٨. أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسي المغربي الأفريقي: الأزمنة والأنواء، تحقيق الدكتور عزة حسن، دمشق ١٩٦٤، ص١٢٦. أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثاني، طبعة رابعة، م: السعادة بمصر، مصر، صفر ١٣٨٤هـ، حزيران ١٩٦٤م، ص٢٣٣.

(٧٣) عبد الوهاب عزام: مهد العرب، ص٢٦. الألوسي: بلوغ الأرب..، ج٣، ص٣٦٠.

(٧٤) الألوسي: بلوغ اورب...، ج٣، ص٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٧٥) ابن قتيبة الدينوري: كتاب الأنواء، ص١٥٩ و١٦٣ ـ ١٦٤ و١٦٧.

والرابعة تهبّ من الشمال وهي ريح التيسّر التي تأتي باردة على الحجاز وشمالي شبه الجزيرة، بعد أن تكون قد اجتازت هضاب الأناضول المغطاة بالثلوج. وكان العرب يكرهون ريح الشّمال، لأنّها تجيء بالبرد، وتقشع الغيم، وتذهب بالحياة والخصب[٧٦]. وقد عُرفت هذه الريح بالحَذْوَاء لأنّها تحدو السحاب أي تسوقه؛ وعُرفت بالعقيم أيضاً لأنّها لا تنتج مطراً[٧٧].

ومن أشدّ الرياح أذىً لسكان شبه الجزيرة العربية هي رياح السموم التي تهبّ من جهة الصحراء العربية الكبرى (الربع الخالي). وما إن تهبّ هذه الرياح حتى تجفّ مصادر المياه، وتيبس القرب التي يجمع فيها البدوي ماء شربه، وتتعطّل حركة المواصلات والتنقلات بسبب ما تحمله من رمال وأتربة، وبسبب سرعتها التي تزيد على ستين كيلومتراً بالساعة[٧٨].

---

(٧٦) ابن قتيبة الدينوري: كتاب الأنواء، ص١٦٢. الألوسي: بلوغ اورب، ج٣، ص٣٦.

(٧٧) ابن قتيبة الدينوري: المصدر نفسه، ص١٥٩ و١٦٣ و١٦٦.

(٧٨) أبو حسن علي بن إسماعيل بن سيّدة: المخصص، الجزء التاسع، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت لا تاريخ، ص٨٥.
الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٨٢،

الفصل الثاني

الثروات الطبيعية

١ ـ الثروة المائية:

مياه الأمطار:

تقلّ المياه في شبه الجزيرة العربية بوجه عام، ويتفاوت وجودها من منطقة لأخرى حيث يتوفّر في ناحية ويشحّ في ناحية ثانية. كما تقلّ الأمطار فيها أيضاً، ويقصر موسمها الذي يكون عادة في فصل الشتاء على الأجزاء الشمالية، حيث تحظى التلال والسهول الساحلية بنصيب وافر من هذه الأمطار. ويكون صيفاً على الأجزاء الجنوبية حيث تحصل المناطق المرتفعة على نسبة كبيرة منها، وخاصّة مرتفعات عسير. ومن هنا يمكن القول إنّ الأمطار تسقط خلال فصلين على شبه الجزيرة وإن اختلف معدّل سقوطها وكمياتها وأماكن هطولها[1].

وتتميّز الأمطار في شبه الجزيرة بهطولها المفاجيء والغزير الذي يؤدّي أحياناً إلى سيول جارفة ومدمّرة. كما تتميّز باختلاف كمية الأمطار المتساقطة من عام إلى عام، وبتقطّعها وعدم انتظامها وتوقّفها عن الهطول لفترات طويلة. ولم تكن نسبة تساقط الأمطار في القديم كما هي عليه الآن، فهناك ما يشير إلى أنّ هذه النسبة في شبه الجزيرة كانت في الألف الأول قبل الميلاد أكثر ممّا هي عليه في الوقت الحاضر. ويلاحظ أنّ شبه الجزيرة قد تعرّضت لفترات من القحط والجفاف والتغيّرات المناخية، كان آخرها ما حدث في

(١) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢١٧.

القرن الثالث الميلادي واستمر حتى أدّى إلى التصحّر الذي سبق ظهور الدعوة الإسلامية[٢].

(٢) John Dayton: The Problem of Climatic change in the Arabian Peninsula, vol.5, London 1975, PP35, 45, 84.

نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي، دار الشواف، الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٦٠.

لقد اتفقت آراء المختصين على أنّ عصر البليوستوسين (Pléistocène) قد عمّر حوالي مليون سنة. كما اتفقت على أن الثلث الأول من هذا العصر، الذي يُسمّى فترة فيلافرانش (Villafranch) كانت تتميّز بأمطار غزيرة على سطح الأرض، يحلّ محلّه في فترات متقطّعة انتشار الجليد. وحين بدأت فترة فيلافرانش في الانتهاء أخذت الكرة الأرضية في البرودة تدريجياً. وقد ساعد ذلك على زحف الجليد القطبي على القارات المجاورة في صورة غطاءات سميكة من الجليد. وترتّب على ذلك أنّ الأقسام الشمالية من أوروبا وآسيا وأميركا الشمالية قد غطّاها الجليد بصورة مشابهة للغطاء الجليدي السميك في غرينلاند الحالية.

وقد أثّر الجليد الزاحف على الحياة النباتية والحيوانية، وكذلك على الأنهار والبحيرات وسواحل البحار. فاضطرت أنواع من النبات والحيوان إلى الهجرة بعيداً عن هذه الظروف المناخية القاسية، وإن كان بعضها قد انقرض لعدم قدرته على التكيّف. أمّا الأنهار والبحيرات فقد قلّت كميّة المياه فيهما نظراً لتجمّد كميّات هائلة من الرطوبة الجويّة وانحباسها في الغطاءات الجليدية الواسعة. كذلك هبط مستوى ماء البحار والمحيطات لنفس الأسباب. فنظام الدورة (تبخير ـ أمطار ـ تصريف نهري إلى البحار ـ ثم تبخير) قد اختل. وأدّى هذا الاختلال إلى ظهور كثير من الأراضي التي يغطّيها البحر حالياً في صورة أرض يابسة، خاصّة تلك التي نُسمّيها المعابر الأرضية (مثل المعابر بين شمال أفريقيا وجنوب أوروبا) وتحوّل البحر المتوسط إلى عدّة بحيرات صغيرة.

وقد تقهقرت أمطار الإقليم المعتدل من الأرض إلى مناطق أكثر امتداداً نحو الجنوب، وتحوّلت أجزاء كثيرة من العالم الجاف المعروف حاليّاً، إلى مناطق مطيرة شبيهة بأمطار العروض المعتدلة في أيامنا.

وببطء شديد بدأت هذه الصورة تتغيّر، بتراجع الجليد إلى المناطق القطبية، وعودة الدفء والأمطار إلى العروض المعتدلة. وذوبان كميّات هائلة من الجليد يؤدّي إلى رفع هذا الثقل عن سطح الأرض، فتعود إلى الارتفاع التدريجي، وتمتلىء البحار بالمياه، فيرتفع مستواها وتغمر المعابر الأرضية بمياه البحر مرّة أخرى، وتعود الصحارى إلى جفافها، وتهاجر الحيوانات والنباتات إلى الشمال.

وقد تكرّرت هذه الصورة أربع مرات خلال عصر البليوستوسين، بالإضافة إلى ذبذبات عديدة وصغيرة نسبياً.

محمد رياض: الإنسان، دراسة في النوع والحضارة، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢، ص٨٩ ـ ٩٠.

ومن خلال التصريف المائي في الربع الخالي من منحدرات جبال حضرموت وظفّار في أقصى جنوب الجزيرة العربية، ومن التصريفات المائية للجبال الغربية، ومنحدرات طويق، يصبح من السهولة ملاحظة أنّ صحراء الربع الخالي كات فيما مضى عبارة عن حوض رسوبي عظيم الاتساع، يزخر بالمسطّحات المائية وليس صحراء جرداء كما هي الآن. وتأخذ هذه المسطحات شكل البحيرات التي يعود تاريخها إلى عصر البليستوسين (Pléistocène)، كما يعود تاريخ بحيرات منطقة وادي الدواسر إلى إلى عصر الهولوسين (Holocène). وقد عُثر في قيعان أودية هذه البحيرات التي ترجع إلى العصر الهولوسيني في منطقة وادي الدواسر على أدوات صوانية من النمط النيوليتي. ويشير ارتباط هذه المعثورات الحجرية بهذه الأودية والبحيرات القديمة، إلى أنّ الاستيطان البشري قرب البحيرات والربع الخالي يمكن أن يعود إلى الفترة المطيرة للعصر الحجري الحديث (Néolithique)[٣].

وإلى جانب ذلك تشير بعض المصادر القديمة إلى الطقس المطير الذي كان يسيطر على طبيعة شبه الجزيرة في العصور القديمة؛ فعند كلامه عن مناطق إنتاج اللبان يتحدّث ثيوفراستوس عن مرتفعات تغطّيها غابات كثيفة من الأشجار ويغمرها الجليد وتنحدر منها أنهار إلى السهول المجاورة[٤]. ويذكر صاحب كتاب الطواف أنّ الضباب والسحب تغطّي ظفّار منطقة اللبان[٥]، ويصف استرابون، نقلاً عن ايراتوسينس، منطقة جنوبي شبه الجزيرة بالخصوبة وأن الأمطار تتساقط عليها غزيرة في فصل الصيف وأنّ الأنهار والبحيرات تتوزّع فيها بكثرة. وتحدّث أرتيميدورس عن خصوبة هذه المنطقة ووفرة منتوجاتها الزراعية وكثافة الأشجار في مرتفعاتها[٦]. وعدّد ديودرس الصقلي الكثير من الأنهار

(٣) محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره. . ، ص٥٣ و٦٣.

(٤) Theophrastus: Enquiry into plants, translation Sir Arthur Hort, vol.2, Lœb classical Library, London 1980, P235.

(٥) The Periplus of the Erythean Sea, Translation by wilfred Schoff. New Delhi, Oriental Book reprint 1954, 5th Edition, P33.

(٦) Strabo: The Geography of Strabo, Translation by H.L. Jones, Lœb classical Library, London 1983, P307-309.

والبحيرات التي تتكوّن من الأمطار[٧]. وذكر بلينوس عدداً من الأنهار الجارية[٨]. ووردت في بعض المصادر العربية ـ الإسلامية أسماء مواضع كانت كثيرة المياه، فهُجرت وتحوّلت إلى صحارى قاحلة في الوقت الحاضر[٩].

وتُؤيّد الدراسات الأثرية الحديثة بعض ما جاء في هذه المصادر، وتُشير إلى وجود أنهار في معظم أقاليم شبه الجزيرة كانت تجري مياهها طوال العام، ففي الشرق كان يوجد نهر يمتد من الهفوف حتى ساحل الخليج العربي. وفي الجنوب كان يجري عدد من الأنهار الصغيرة التي تغذيها أمطار المرتفعات كنهر الخارد في جوف اليمن الذي قامت عليه دولة معين[١٠]، ونهر مور الذي يُعدّ من أغزر أنهار اليمن والذي يمرّ بالقرب من صبيا حيث تتجمّع فيه عدّة روافد ويُعرف لذلك بميزاب اليمن[١١] ونهر وادي الحجر الذي يجري جنوبي حضرموت[١٢].

مياه الأودية:

وعلى العموم فإنّ الأنهار الدائمة الجريان ليس لها وجود في شبه الجزيرة العربية، إنّما هناك أودية تفيض بالمياه كلّما سقطت أمطار غزيرة. ولا يعود عدم وجود المجاري المائية السطحية الدائمة الجريان إلى قلّة كميات الأمطار فحسب، وإنّما أيضاً إلى ظروف السطح والتركيب الجيولوجي في الأجزاء

---

(٧) Diodorus Siculus: Library of History, Translation by Russel M. Greer and C.H.Old father, Lœb Classical Library London 1979, P63.

(٨) Pliny Gaius: Natural History, translation by H. Rackham, Lœb classical Library, London 1967, P157.

(٩) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٦٣، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٥٣، ٢٨٠. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٣٤٣. أبو زيد عمر بن شبّة النميري، تاريخ المدينة المنوّرة، الجزء الأول، حقّقه فهيم محمد شلتوت، دار التراث، بيروت ١٩٩٠، ص١٧٢.

(١٠) محمد توفيق: آثار معين في جوف اليمن، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥١، ص٦.

(١١) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص١٥٣.

(١٢) Naval Intelligence Division; Western Arabia the Red Sea, Nval Intelligence Division Admiralty, London 1964, P23.

المختلفة من البلاد. ولمّا كانت الأمطار في الزمن الرابع وربّما فيما قبله أغزر منها الآن فقد جرت المياه أنهاراً دائمة الجريان طال بعضها، وكثرت روافده، فلمّا تغيّر المناخ تحولت الأنهار إلى أودية جافّة زادت من تضرّس السطح.

ودلّت الدراسات الجيولوجية والهيدرولوجية التي أجريت في معظم أجزاء البلاد، على أنّ المياه السطحية كانت حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين من أهمّ المصادر المائية التي يعتمد عليها الكثير من سكان المدن والقرى. كما دلّت على وجود مئات الأودية التي تخترق مجاريها معظم مناطق شبه الجزيرة، ومن بينها ما يتميّز بطوله وأثره على الإنتاج والاستقرار. وكان السكان في الماضي يقيمون الحواجز الترابية لحجز مياه الأودية، والانتفاع بها في الزراعة، إلا أنّ هذه السدود كانت تتعرّض للجرف ممّا يؤدي إلى إغراق الأراضي الزراعية بالمياه والأتربة والحجارة.

ويوجد على طول ساحل البحر الأحمر من مدين حتى باب المندب مجموعة كبيرة من الأودية نذكر منها: وادي عفال الذي يقع في شمالي الجزيرة بين جبال حسمي وساحل البحر الأحمر ويُعدّ من أعظم أودية شمالي الحجاز وتِهامة ويصل طوله إلى حوالي ١٢ ميلاً، وله روافد كثيرة من بينها وادي الأيكة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم(١٣). ومن أودية الساحل أيضاً وادي النخل الذي يقع بين ينبع ووادي الصفراء، ويُعرف اليوم باسم وادي الحناكية، وكانت تجري فيه عيون كثيرة اندثر معظمها(١٤). ومنها وادي أضم (الحمض) الذي يُعدّ من أعظم أودية شبه الجزيرة العربية، وسمّي أضم لإيضام السيول به(١٥)، وهو عبارة عن مجمع لأودية المدينة ويرفده العديد من الروافد التي تنحدر من السلسلة الجبلية التي يخترقها، كوادي الجزل ووادي العيص، ويبلغ طوله ابتداء من حرّة خيبر حتى مصبه في شمال الحوراء ٣٠٠ ميل(١٦). ومنها وادي

---

(١٣) قرآن كريم، سورة ق، آية ١٤.
حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة العربية، دار اليمامة، الرياض ١٩٧٠، ص٥٦٦.
(١٤) حمد الجاسر: بلاد ينبع، دار اليمامة، الرياض، لا تاريخ، ص٩.
(١٥) ابن شبة: تاريخ المدينة المنوّرة، ج١، ص٩.
(١٦) الجاسر: بلاد ينبع، ص١٦٧.

الصفراء (يليل) الذي يتكون من مجموعة أودية ويُعرف أكبر فروعه باسم وادي الصفراء أيضاً، ونشأت عليه قرى ومزارع كثيرة، وينقسم عند طرفه إلى فرع شمالي يتصل بالبحر الأحمر عند قرية الرايس وإلى فرع جنوبي، ويفيض في رمال الخبت، وفيه عين كبيرة عذبة تخرج من جوف رمل[١٧]. ومنها وادي الظهران (وادي فاطمة) وفيه عدد من القرى والعيون، وكانت مياهه تصبّ في البحر الأحمر جنوب جدّة[١٨]. ووادي رَنْيَة الواسع الذي تصبّ مياهه في سراة تِهامة[١٩].

وفي الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة عدد كبير من الأودية التي تتّجه غرباً وتنحدر من المرتفعات والسهول الداخلية إلى السهول الساحلية، وتُعدّ من أكثر الأودية ضخامة وغزارة في المياه، وقد ازدهرت الزراعة على أطرافها سواء في السهول الداخلية أو في سهول تِهامة، ومن أهمّها: وادي جازان الذي ينحدر من جبال السراة إلى تِهامة، وعليه أُقيمت السدود والمصارف منذ القدم، وتصب مياهه في البحر الأحمر شمالي مدينة جازان[٢٠]. ووادي الحرض الذي تقع على حافته مدينة حرض، وهي مدينة عريقة ومن مدن العهد الحميري[٢١]. ووادي مور الذي يُعدّ من أنهار اليمن الجارية معظم أيام السنة. ووادي سرور الذي تكثر فيه الشلالات التي استخدمت قديماً في إنشاء مطاحن الحبوب. ووادي سهام الذي كانت تصبّ مياهه في البحر الأحمر جنوبي ميناء الحديدة الحالي. ووادي زبيد الذي تصبّ مياهه في البحر الأحمر غربي مدينة زبيد.

---

(١٧) عرام بن الأصبع السلمي: كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة أمين عبد الرحمٰن، القاهرة ١٣٧٣هـ، ص٩. الجاسر: في شمال غرب الجزيرة، ص٢٠٦.

(١٨) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية المنطقة الشرقية الجزء الثالث، دار اليمامة، الرياض ١٩٧٩، ص١٤٩.

(١٩) نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، ص٦٣.

(٢٠) محمد بن أحمد عيسى العقيلي: تاريخ المخلاف السليماني، مطابع الرياض، الرياض ١٣٧٨هـ، ص٣٣ ـ ٣٦.

(٢١) إبراهيم أحمد المقحفي: معجم المدن والقبائل اليمنية، منشورات دار الحكمة صنعاء ١٩٨٥، ص١١٦.

ووالدي الحَجَر الذي يقع في جنوب غربي حضرموت، وكان دائم الجريان، وينحدر من المرتفعات الجنوبية، وتصبّ مياهه في بحر العرب، وأهمّ مصادره: ينابيع أم سدرة وتشكّل دلتاه إقليم ميفعة[٢٢]. ووادي ميفعة ووادي سنام اللذان نشأ على مصبيهما في بحر العرب عدد من المدن ومراكز الاستقرار الزراعي كميفعة وقنا (بير علي) والحور ومرقد[٢٣]. ووادي حضرموت الذي يُعدّ من أكثر الأودية أهمية وتجري مياهه من الغرب إلى الشرق ثم ينعطف جنوباً بزاوية حادّة حيث يُعرف بعدها باسم وادي مسيلة ويصل طوله إلى ٣٠٠ ميل، أمّا عرضه في أقصى اتساعه فيبلغ ٤٠ ميلاً. وفي هذه الأجزاء تركّز النشاط الزراعي وازدهرت القرى والمدن، من أهمّها: سيؤن وتريم وشيبام، ومن روافده الجنوبية وادي عمد ووادي أصب ووادي عروة[٢٤]. وإلى الشرق من هضبة حضرموت الشمالية يقع وادي الجزع الذي يجتمع إليه عدد من الروافد، وتصب مياهه في خليج القمر بالقرب من جبل فرتك[٢٥].

وفي السواحل الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة يوجد عدد من الأودية التي نشأت على مياهها المدن والقرى. وأهمّ هذه الأودية، وادي حلفين ووادي البطحاء ووادي سمايل، وتنحدر هذه الأودية الثلاثة من مرتفات عُمان، وتصب مياهها في بحر العرب، ويُعتبر وادي البطحاء ووادي سمايل أهم طريقين يصلان بين الساحل والداخل عبر الجبل الأخضر[٢٦]. ومنها وادي جزي الذي يصل

---

(٢٢) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص١٢٠ و١٢٢ و١٢٣ و١٤٩. محمد علي الأكوع: اليمن الخضراء، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٧١، ص٤٨ ـ ٥٠.

(٢٣) محمود طه أبو العلاء: جغرافية شبه الجزيرة العربية، الجزء الثالث والرابع، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٢، ص٣٠.

(٢٤) Beeston, A.f.L: «Hadramount» In Encyclopidia of Islam, vol.3, Leiden, J.Brill 1971, P51. Westren Arabia and the Red Sea, P.31-32.

(٢٥) J.C.Wilkinson «water and tribal Settlement in South Arabia A study of the Aflaj of Oman. Clareandon Press, Oxford, London 1977, P46.

(٢٦) Thomas Bertram: the South Eastern Border Land of Rube Al khali, Geographical Journal, London, RGS 1979, 236 Tosi M.

ج.ج.لوريمر: دليل الخليج العربي، القسم الجغرافي، الجزء السادس، مطبعة علي بن علي، الدوحة لا تاريخ، ص٢١١٩.

مدينة صحار على ساحل خليج عُمان بواحات البريمي، ووادي العبادلة وهو وادٍ كبير تصبّ مياهه في خليج وبا وقد نشأت عند هذا المصب مدينة وبا[٢٧].
ومنها وادي المليح الذي يقع شمال حرض ويمتدّ شمالاً إلى حشاش الخليلة بمحاذاة جبل الحرملين غرباً. ووادي السبهاء الذي يقع أعلاه في الخرج وفروعه من جبال العارض، ويتصل شرقاً إلى ساحل الخليج مخترقاً الأرض التي غطّتها رمال الربع الخالي شرق يبرين[٢٨] ويوجد في شمال شبه الجزيرة عدد من الأودية تنحدر نحو الشمال الشرقي، وتصبّ مياهها في نهر الفرات، من أهمها وادي تُبَل ووادي عرعر ووادي الخُر[٢٩].

أمّا الأودية التي تتّجه داخلياً ويكون تصريفها هناك فهي كثيرة نذكر منها: وادي القرى الذي يقع بين العلا والمدينة ويُقال له وادي ديدان نسبة لمملكة ديدان التي قامت عليه مع مملكة لحيان، وهو وادٍ متّسع تكثر فيه منابع المياه العذبة، وترفده روافد كثيرة كوادي الجزل من الشمال ووادي الحمض من الجنوب، ويمرّ به الطريق العالمي للقوافل التجارية الذي يصل بين جنوب شبه الجزيرة وشمالها، ولهذا كان هذا الوادي مركزاً تجارياً مهمّاً. وقد تركت عليه بعض الشعوب: كالديدانيين واللحيانيين والمعينيين والثموديين والأنباط، بصمات مدنية ظاهرة[٣٠]. ومنها وادي السرحان الذي تكثر فيه السبخات التي يستخرج منها الملح، وتجتمع فيه سيول كثيرة تنحدر إليه من الغرب ومن الشرق، ويسيل من حوران صوب الجنوب والشرق حتى الجوف، ويصل طوله إلى ٢٠٠ ميل ويتراوح عرضه ما بين ٢٨ و٤٣ ميلاً، ويقوم على جانبيه واحات خصبة، ويقع عليه أحد طرق المواصلات الهامّة التي تصل بين وسط شبه الجزيرة وبين بلاد

---

(٢٧) محمد متولي، ومحمود طه أبو العلاء: جغرافية الخليج، الطبعة الثانية، مكتبة الفلاح، الكويت ١٩٨٥، ص١٠٨ و١١٠ و١١٢.

(٢٨) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي. . .، الجزء الرابع، ص١٧٨.

(٢٩) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢٠٠.

(٣٠) Charles Doughty: travel in Arabia Deserta, vol.I, Dover Publications, New york 1979, P187.

نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. .، ص٦٦ ـ ٦٧.

الشام وبلاد الرافدين، وكان يُعرف قديماً باسم وادي الأزرق وذلك بسبب وجود واحة الأزرق في طرفه الشمالي[(٣١)]. ومنها وادي الرمة الذي يمتدّ من شرق المدينة باتجاه الشمال الشرقي حتى نفوذ الثويرات، حيث تطمس هذه النفوذ معالمه، وبعدها يأخذ نفس الاتجاه إلى الشمال الشرقي حتى رمال الدهناء تحت اسم وادي الأجردي، وبعد رمال الدهناء يسير هذا الوادي في نفس الاتجاه باسم وادي الباطن حتى مدينة البصرة على شطّ العرب. وترفد هذا الوادي مجموعة ضخمة من الروافد التي تنحدر من شمال غربي هضبة نجد. ونشأت عليه العديد من المدن والقرى التي كانت محطّات تجارية ومستوطنات زراعية تصل وسط شبه الجزيرة بشمالها[(٣٢)]. ومنها أيضاً وادي العرض (وادي حنيفة) الذي يمتدّ من جبال طويق غرباً إلى هضبة العرمة شرقاً، بطول ٢٥٠ ميلاً، وتقوم عليه مدية الحجْر الذي تُعرف اليوم باسم مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية. وكانت منطقة العرض قديماً من أكثر مناطق شبه الجزيرة خصوبة وأكثرها زرعاً ونخلاً[(٣٣)]. ويمتدّ وادي تثليث الدواسر من السفوح الشرقية لمرتفعات عسير الغربية، ويتّجه إلى الشمال الشرقي حتى يتصل بوادي الدواسر الذي يتّجه شرقاً عبر وديان جبال طويق، وتنتهي مياهه عند أطراف الربع الخالي، وكان قديماً يُدعى بوادي عقيق عقيل[(٣٤)]. ويبدأ وادي بيشة من شرق قيوان حيث يُعرف باسم طفحان، ويتجه نحو الشرق ثم نحو الشمال وهناك يُدعى باسم وادي المربع، وفي نهايته يتّجه نحو الشمال الشرقي حتى يلتقي بوادي رَنْيَة حيث يغوصان معاً في رمال الصحراء، ولا يتعدّى طوله

---

(٣١) الجاسر: في شمال غرب الجزيرة العربية، ص٦٠٨.

لوريمر: دليل الخليج العربي، القسم الجغرافي، ج٦، ص٢٣٨٣.

(٣٢) الحسن بن عبد الله الأصفهاني: بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٨هـ، ص٦٩.

لوريمر: دليل الخليج العربي، القسم الجغرافي، ج٦، ص٢٠٠٦ و٢٠٠٨.

Western Arabia and the Red Sea, P28.

(٣٣) حمد الجاسر: مدينة الرياض، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٦هـ، ص١٥.

(٣٤) نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٦٧ ـ ٦٨.

Western Arabia and Red Sea, PP.29-30.

الخمسة والثلاثين كيلومتراً[٣٥]. وكانت مياه وادي الجوف تجري معظم أيام السنة، وتجتمع فيه سيول وغيلان عديدة ومن أهمّ روافده الخارد. وينحدر وادي أذنة (وادي مأرب) من جبل بلق ويتّجه شرقاً ماراً بمدينة مأرب التي أقيم عندها على هذا الوادي سدّ مأرب الشهير، ونمت حوله الدولة السبئية وازدهرت، ومن أهمّ الأودية الفرعية التي تتّصل به: رادع وجهران[٣٦].

وينحدر وادي بيجان من مرتفعات لواء البيضاء، ويتّجه إلى الشمال الشرقي نحو صحراء السبعتين (صيهد)، ويمرّ بمدينة بيجان القصب، ويتصل به عدد من الروافد قبل أن ينتهي في رمال الصحراء، ونشأت على ضفافه العديد من المدن التابعة لدولة قتبان التي كان هذا الوادي محورها الأساسي، والتي كان من أهمّ مدنها تمنع (هجر كحلان) وهجر بن حميد[٣٧]. ويأتي وادي أبين من مرتفعات ياريم، ويرفده عدد من الأودية الصغيرة، ثم يتّجه جنوباً نحو ساحل بحر العرب حيث تقع منطقة أبين الزراعية على دلتاه[٣٨]. ويُعدّ وادي العين من الأودية المهمّة، ويقع في شرق شبه الجزيرة وتنتهي مياهه في الربع الخالي، وتقوم عليه مدينة عبري[٣٩].

وهناك عدد آخر من الأودية التي تنحدر من هضبة حضرموت وتتّجه نحو صحراء الربع الخالي كوادي صعير ووادي الصدارة. وهناك أيضاً أودية نهرية تنبع مياهها من المرتفعات الساحلية كجبل قر في ظفّار، وتتّجه إلى الشمال

---

(٣٥) العقيلي: تاريخ المخلاف السليماني، ص٣٩.

Western Arabia and Red Sea, P28.

(٣٦) الأكوع: اليمن الخضراء، ص٥٣ ـ ٥٤.

Western Arabia and Red Sea, P23.

(٣٧) محمد متولي ومحمود طه أبو العلاء: جغرافية شبه الجزيرة العربية ـ جغرافية اليمن الشمالي، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٨، ص١٢٩.

Le Baron Richard Bowen: «Archaeological Survey of Beihan» Archaeological Discoveries in South Arabia, Johns Hopkins Press, Baltimore 1958, P3.

(٣٨) الأكوع: اليمن الخضراء، ص٥٢.

(٣٩) متولي وأبو العلاء: جغرافية الخليج العربي، ص١١٢.

الشرقي موازية لحافة الربع الخالي مثل وادي مرخة ووادي العارض[٤٠]. أمّا وادي المياه فهو منخفض طويل يمتدّ من الشمال إلى الجنوب نحو ١٥٠ كيلومتراً في الجزء الأوسط لمقاطعة الأحساء، وقد أطلق عليه اسم وادي المياه لكثرة عيونه وآباره، وكان يُعرف قديماً بوادي السقارين، ويختلف عمّا يحيط به من مناطق صحراوية بخصوبته ووفرة مياهه، ولذا نشأت عليه قرى زراعية عامرة بسكانها مثل: ثاج والحناء والعقير[٤١].

وأقيمت على بعض الأودية في اليمن السدود، لتخزين مياه الأمطار الصيفية والإفادة منها أيام الجفاف في ري الحقول والبساتين والمزروعات، مثل وادي زبيد ووادي مور ووادي أذنة الذي أقيم عليه سدّ مأرب المذكور سابقاً[٤٢].

مياه العيون والينابيع:

وكانت أراضي شبه الجزيرة العربية غنيّة بعيونها وينابيعها وآبارها وبركها الّتي كانت تمتلىء بالماء في فترات تساقط الأمطار، والتي كانت تكثر في المناطق التي يتوفّر فيها مخزون مياه جوفية عميقة وكثيفة كبطون الأودية والأراضي المنخفضة، وبخاصة الإقليم الشرقي الذي يُعدّ من أكثر أقاليم شبه الجزيرة انخفاضاً. وتشتهر البحرين في هذا الإقليم بعيونها منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وتتفجّر فيها ما يقارب من ٢٠٠ عين، وأكثر هذه العيون تسيح وتغوص في البحر[٤٣]. وأقدم ذكر لهذه العيون ورد عند ثيوفراستوس الذي تحدّث عن البحرين وعيونها الطبيعية[٤٤]. ويوجد عدد من العيون في الأحساء كما توجد في مرتفعات عمان وفي جنوب شرقي خليج السويس بصحراء سيناء حيث تتفجّر

---

(٤٠) محمود طه أبو العلاء: جغرافية شبه الجزيرة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٧، ص٣٢.

(٤١) الجاسر: المعجم الجغرافي ـ المنطقة الشرقية، ج٤، ص١٧٨٠ ـ ١٧٨١.

(٤٢) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢٠١.

(٤٣) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٢٧٠ و٢٨٠. نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٧٠ ـ ٧١.

(٤٤) Theophrastus: Enquiry into plants, P35.

عيون موسى[٤٥]. وتكثر العيون في الغابة التي تتجمّع فيها سيول أودية المدينة، كما تكثر في وادي القرى: كعين غالب وعين زيات، وتظهر عيون صغيرة في وادي الأجرد[٤٦]. وتتفجّر العيون في إقليم الجو والأفلاج الذي يقع في وسط شبه الجزيرة مثل عين العرب في الأفلاج التي يخرج منها سبعة عشر نهراً صغيراً[٤٧] وتوجد عيون وينابيع طبيعية كثيرة في المناطق الشمالية الغربية من شبه الجزيرة مثل عين الحمية في خيبر التي تمتاز بغزارتها[٤٨]، كما توجد عين كبيرة في وادي يليل (الصفراء) تخرج من جوف الأرض من أعذب ما تكون العيون، وتُزرع عليها الحبوب والبقول، وتُسمى هذه العين بالبحيرة[٤٩]. وتكثر العيون والينابيع الطبيعية في مناطق الجنوب الغربي، وقد ذكر الحسن الهَمْدَاني عدداً من المناطق هناك اشتهرت بعيونها مثل: المذيخرة التي تمتاز بينابيعها الغزيرة، ووادي شرية الذي تكثر فيه الينابيع، وعدّد بعض الجبال التي تنبع منها عيون: فوط وعرامي وغراين وهنوم من بلاد همدان والشرف وحضور وضوران وتخلي وغيلان[٥٠].

مياه الآبار:

وتُعدّ الآبار مصدراً رئيساً من مصادر الحصول على المياه من باطن الأرض في أقاليم شبه الجزيرة العربية، ذلك أنّ الإنسان العربي القديم قد لاحظ، من خلال مشاهداته للمياه التي تتسرّب إلى داخل التربة في بطون الأودية، أنّه لو حفر الأرض بيديه لنبع الماء. كما لاحظ أنّ حفرته تمتلىء من جديد بعد تفريغها، فأدرك وجود هذا المصدر المهم للمياه الجوفية.

---

(٤٥) Western Arabia and the red Sea. P33.

(٤٦) حمد الجاسر: أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م ص١٨٦ و٣٠٢ و٣٩٧.

(٤٧) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٣٠٥. إبراهيم بن إسحاق الحربي: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الحج، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٩هـ، ص٦٠٧.

(٤٨) الحربي: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج...، ص٥٤٠.

(٤٩) السلمي: كتاب أسماء جبال تِهامة وسكانها...، ص٨ ـ ٩.

(٥٠) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص١٠٣ و٢٤٤ و٢٦٦.

وتتكوّن المياه الجوفية من تسرّب مياه الأمطار والمياه الجارية في الأودية وشعابها، في طبقات الحصى والرمال، وفي مسام الصخور الّتي تتشكّل منها الطبقة السطحية للتربة، وتتجمّع فوق الطبقات الصلبة الصماء غير المسامية، والتي تتعمق أحياناً إلى عشرات الأمتار تحت سطح الأرض، ثمّ تتفجّر هذه المياه عيوناً وينابيع في بعض الأماكن، كما تتفجّر من الآبار بعد حفرها.

وكانت المياه الجوفية المختزنة قد تجمّعت في تلك الطبقات خلال العصر المطير الذي كانت فيه شبه الجزيرة أغزر مطراً، والتي يتراوح عمرها ما بين ١٣٠٠٠ و١٧٠٠٠ سنة تسرّبت في الصخور الرسوبية السطحية، وتجمّعت في أحواض داخل الأرض تتكوّن من طبقات مسامية تنتمي إلى عصور جيولوجية مختلفة، وتساعد على اختزان قسم كبير من الأمطار المتساقطة خلال السنين؛ وهي تختلف من مكان لآخر اختلافاً كبيراً من حيث نوعيتها، وبُعدها عن السطح، وكمية المياه المخزونة فيها. ففي المنطقة الوسطى، على سبيل المثال، يصل سمك طبقة الماء حسبما أوضحته عمليات الحفر هناك إلى ٦٥ متراً، ويتراوح عمق مستوى سطح المياه فيها عن مستوى سطح الأرض ما بين ٢٣ و٢٦ متراً. إلاّ أنّ اعتماد هذه الطبقات على الأمطار للحصول على الماء جعل مستواها كثير التغير موسمياً.

وكانت الآبار في الماضي تُقاس بطول الرشاء (الحبل) المستخدم في رفع الماء منها، وبقدر قامة الرجل فيُقال بئر على قامة أو قامتين...[٥١]، ويُقال بئر أَنْشاط: وهي بئر قريبة القعر يُخرج الدلوُ منها بجذبة واحدة لقرب قَعْرِها[٥٢]. ويقال بئر نَشُوط أو بئر الجرور: وهي بئر بعيدة القعر لا يخرج الغَرْب (الدلو العظيمة) منها حتى يجرّ الجمل الرشاء في الأرض من بعد مذهبه[٥٣]. وهناك آبار الفُقُر: وهي مجموعة من الآبار المتناسقة التي يتّصل بعضها ببعض بقناة

(٥١) عبد الله يوسف الغنيم: جزيرة العرب في كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري، دار ذات السلاسل، الكويت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٣٨.

(٥٢) عرام السلمي: كتاب جبال تِهامة وسكانها...، ص٧٣.

(٥٣) الأصفهاني: بلاد العرب، ص٣١٨.

جوفية مثل آبار الهباءة[٥٤]، وتُعرف هذه الآبار بنظام القنوات الجوفية أو الفلج. وعندما يتّصل بئران بمجرى في باطن الأرض يُطلق عليه اسم الكاظمة[٥٥].

وتثبت الدراسات الأثرية وجود عدد هائل من الآبار في بلاد العرب، وخاصّة في جوف اليمن مقرّ دولة معين حيث نجد معظم النقوش التي تتحدّث عن حفر الآبار هي نقوش معينية[٥٦]. وفي نجران تمّ تدمير ٦٠ بئراً في حملة واحدة تحدّث عنها نقش لملك سبأ[٥٧]. وفي مدينة بيحان التي تقع بين حضرموت وعدن والتي توجد فيها آثار ونقوش على الحجر، تكثر الآبار التي تعود إلى فترة ازدهار مملكة قتبان[٥٨]. وفي مدينة ذَمار جنوبي صنعاء آبار كثيرة يُنال ماؤها باليد[٥٩]. وفي الجنوب أيضاً اشتهرت آبار العليكة: وهي ماء عليها خمسون بئراً، وآبار العقلان والغطاءة وهي ماء تُسقى بالغروب، ومنها بئر تبريد وبئر شراقة في براقش في أسفل الجوف، طولها خمسون باعاً، وماؤها عذب فرات لا تُكدّرها الدلاء، وبئر سام بن نوح بصنعاء، وبئر وادي برهوت بأسفل حضرموت[٦٠]. ومن المرتفعات التي اشتهرت بالآبار والسواقي، مرتفعات برد وتنعمة حيث يوجد فيها أكثر من مائة بئر[٦١].

ويذكر ويلكنسون الذي قام بدراسة مصادر المياه في عُمان أنّ الآبار الباطنية كانت تروي مساحات شاسعة من مزارع النخيل، وهي آبار تعتمد على

---

(٥٤) عرام السلمي: كتاب جبال تِهامة وسكانها. . .، ص٧٢.

(٥٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء السابع، ص١٨٣.

(٥٦) يحيى خليل نامي: نقوش خربة معين (مجموعة محمد توفيق)، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٢، ص٢٣ و٢٥. أحمد حسين شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي، ج٣، مطبعة الكيلاني الصغير، القاهرة ١٩٦٧ ص٥٢.

(٥٧) نوره عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة. . .، ص٧٢.

(٥٨) Le Baron Richard Bowen: Irrigation in Ancient Qataban, Johns Hopkins Press, Baltimore 1958, P63.

(٥٩) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٢٢٤.

(٦٠) الأصفهاني: بلاد العرب، ص٣٦١.

(٦١) المصدر نفسه، ص١١٥ و١٢١ و١٣٨ و٢٦٧.

وسائل رفع المياه المعروفة حينذاك مثل السانية[٦٢]. ويشير القرآن الكريم إلى آبار كثيرة تعطّلت في أماكن مختلفة من بلاد العرب، بسبب إبادة أهلها الظالمين، فلا يُستقى منها ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها، وبقيت فقط آثارها التي كانت ظاهرة للعيان عند بدء الدعوة الإسلامية. ولفت القرآن الكريم نظر مشركي مكة إلى هذه الآبار المعطّلة، والمساكن المهدّمة سقوفها، ليتفكروا في آثار الأقوام التي أهلكها الله تعالى، فلعلهم يتّعظون بها ويعتبرون. يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[٦٣].

وفي شرق شبه الجزيرة العربية وجدت البعثات الأثرية في مدينة ثاج العديد من الآبار المطوية، وهي تعود إلى فترة ازدهار المدينة في العصر الهلنستي، كما وجدت في وادي المياه عدداً آخر من الآبار[٦٤]. وهناك بعض الآبار التي اشتهرت بغزارتها، واستمرّت معروفة فترة طويلة، مثل بئر النقير في البحرين التي كان لها عشر قامات، ويجتمع عليها الكثير من وارد العرب، وربما سقي عليها عشرة آلاف بعير[٦٥]؛ وآبار المروت على مقربة من الشقيق في المكان المعروف باسم راف، وهي عبارة عن آبار منحوتة في الصخر نحتاً يدلّ على قوة ومهارة الرجال الذين قاموا بحفرها. وفي شمال سكاكا بئر تُدعى سيسرا منحوتة في سفح جبل على عمق اثني عشرة متراً، بقيت منها أسراب تُفضي إلى السطح[٦٦]. ويُعتقد أن تاريخ هذه البئر يعود إلى ما قبل الميلاد،

(٦٢) Wilkinson, J.C.: Water and Tribal Settlememt in South East Arabia, P.73.

(٦٣) قرآن كريم، سورة الحج، آية ٤٥ ـ ٤٦. لتفسير آيات القرآن الكريم يُمكن الرجوع إلى ابن كثير، عماد الدين أبي الفِداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، دار الأندلس، الطبعة الثامنة، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٦٥١ ـ ٦٥٢. وتفسير الجلالين للقرآن الكريم، دار مكتبة الملاّح، دمشق أو دار المعرفة، بيروت، لا تاريخ، ص٤٤٦.

(٦٤) Western Arabia and the Red Sea, P37.

(٦٥) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٣٠٩.

(٦٦) حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة، ص١٤٩.

وذلك لوجود أوجه شبه كبير بين نظامها ونظام بئر الجب في فلسطين التي يعود تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد(٦٧). وكان في تيماء عدد وافر من الآبار، أهمّها بئر هداج، وهي بئر غزيرة المياه، يعمل على رفع المياه منها عدد عظيم من الجمال، قد يصلون إلى المائة(٦٨).

وعلى العموم فإنّ الآبار كانت في شبه الجزيرة العربية أكثر الوسائل انتشاراً للحصول على الماء، إذ يكاد لا تخلو قرية أو مدينة منها؛ وقد تحدّثت نقوش عربية عديدة عن طريقة حفر هذه الآبار، وعن ملكيتها وأشكالها وتبطينها(٦٩) ذلك أنّ الآبار التي كانت تُحفر في أرض رخوة غير صلبة كانت تضرّس وتُبطّن بالحجارة حتى يُمنع تهدّمها. كما كان بعضها يُحفر على شكل إجاصة، وتسدّ أفواهها بالحجارة حتى يُمنع تبخّرها، وخاصّة في الأقاليم الصحراوية الشديدة الحرارة. ويبدو أن الأنباط كانوا أكثر الأقوام استخداماً لهذه الطريقة في حفر الآبار، وكانوا إذا ما تعرّضوا لهجوم من الأعداء، يطمرون هذه الآبار بالتراب، كي لا يتعرّف عليها العدوّ ويستقي من مائها، فيُهلك عطشاً(٧٠).

٢ ـ الثروة النباتية:

يستفاد من الكتابات القديمة، ومن المصادر العربية الإسلامية، ومن نتائج الاكتشافات الأثرية أنّ الغطاء النباتي لشبه الجزيرة العربية في العصور القديمة كان أفضل ممّا هو عليه الآن، لكنّ الجفاف الذي سيطر على معظم أقاليم شبه الجزيرة، والقطع المستمر لأشجارها، والرعي غير المنظّم لأعشابها قضى على معظم الثروة النباتية.

---

(٦٧) Abdullah A.Nasif: An Ancient Water System in Sakaka, Al Jawf. Saudi Arabia, Institute of Archaeology, London 1987, P11 and 130.

(٦٨) نورَه عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . .، ص٧٣.

(٦٩) يحيى نامي: نقوش خربة معين، ص٢٣ ـ ٢٥. أحمد شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي، ج٣، ص٥٢ ـ ٥٤.

(٧٠) Diodorus Siculus: Library of History, Bk2, P43-45. Evenari, M.: The Negev: The Challenge of the Desert, Mass, Harward University press, Cambridge 1971, P156-157.

وكانت تنبت الأشجار والأحراج على سفوح جبال ظفّار وحضرموت والسّراة ولا سيما في مهرة وعسير، وفي أودية الجبل الأخضر بعُمان. وكان بعض هذه الأشجار مثمراً وبعضها الآخر غير مثمر، لكنّ خشبها كان يدخل في صناعة أواني الطعام والشراب والقسيّ والنبال وأدوات البناء والوقود، كما كان يدخل ورقها وقشور جذوعها في دباغة الجلود، أمّا ثمار بعضها فكانت تقوم عليها صناعة العطور والأدوية والبخور وما شابهها(٧١).

وكانت تُزرع في الواحات الخصبة، وفي أقاليم نجد والحجاز وشرقي شبه الجزيرة العربية: الخضار والأشجار المثمرة مثل: البطيخ والموز وقصب السكر، والتين والرمان والمشمش واللوز والبرتقال والزيتون والنخيل والعنب الذي أُدخلت زراعته إلى شبه الجزيرة في القرن الرابع الميلادي(٧٢). وكانت تُزرع الحبوب مثل القمح والشعير والذرة والدخن في شبه الجزيرة، وبخاصة في المين والواحات، وهذه تعتبر من المحاصيل الرئيسية؛ كما كانت تُزرع فيها محاصيل أخرى بدرجة أقل تشمل القطن والأرز والتبغ ولا سيما في عُمان والحسا(٧٣).

وتتحدّث المصادر الأدبية والعلمية مثل كتب الجغرافيا والنبات عن أنواع كثيرة من النباتات والأشجار التي تعيش في شبه الجزيرة، نذكر منها شجرة النخيل التي تُعدّ من أهمّ المحاصيل الزراعية وأكثرها انتشاراً حيث توجد في كل مكان، ويُعتبر ثمرها الغذاء الرئيس للسكان. وينمو شجر جوز الهند جنباً إلى جنب مع أشجار النخيل في إقليم ضفور وبعض البقاع الأخرى؛ وتوجد شجرة البن التي دخلت بلاد العرب في القرن الرابع عشر الميلادي، في منحدرات الجبال وخاصة في اليمن. أمّا اللبان (البخور) والمرّ (نوع من الصمغ) فيزرع في

---

(٧١) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص١٨٧ ـ ١٨٩. نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٧٦.

(٧٢) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص١٥٥ ـ ١٥٧. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص٢٦ ـ ٢٧.

(٧٣) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم. . .، ص٢٦. محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره. . .، ص٥٧.

جنوب شبه الجزيرة[٧٤]، وينمو الجوز الذي يمتاز بصلابة خشبه وبكثرة وجوده في اليمن وجبال السراة. والتألب شجر عظيم ينبت في جبال اليمن ويستظل به، ويصنع من عيدانه القسيّ، وإذا جُفّت ثماره، التي تشبه عناقيد البطم، اعتصرت واستخدمت زيوتها في إنارة المصابيح. والأثاب الذي ينبت شجره في البادية وبطون الأودية ويشبه الأثل. والأسجل الذي هو نبات الصحراء يشبه الأثل أيضاً وينمو في السهول ويُستاك به[٧٥]. أمّا الأثل فهو شجر من فصيلة الطرفائيات، يكثر انتشاره في شبه الجزيرة ولا سيما قرب المياه وفي الأراضي الرملية، ويستخدم خشبه الصلب والجيد في كثير من الصناعات مثل: بناء المنازل وصناعة القوارب والمحاريث الخشبية والآنية: كالقصاع والجفان، وتخلط أهدابه مع الطين في صناعة اللِّبن ليزيد من تماسكها[٧٦].

ومنها السِدْر، وهو شجر النَبْق، يكثر في بطون الأودية وبخاصة في السفوح الشرقية لمرتفعات السراة، ويرتفع إلى عشرة أمتار، وتُستخدم أوراقه في الغسل كالصابون، ويُؤكل ثمره. وشجر الطلْح الذي ينبت في الأودية والأماكن المتوسطة الارتفاع، والذي يمتاز خشبه بالقوة لذا استخدم في البناء، وهو من العِضَاه[٧٧] ويُتخذ من عيدانه السواك، وله برمة طيبة الرائحة، وليس في العِضَاه أكثر صمغاً منه. والعوسج وهو شجر كثير الشوك ينتشر في الجبال المتوسطة الارتفاع، وله ثمر أحمر اللون حلو المذاق يأكله أهل الصحراء، وتتّخذ النساء من أغصانه مغازل الصوف. وشجر السمر الذي هو من العِضَاه، وليس هناك أجود منه خشباً، ينقل إلى القرى وتسقف به البيوت، وله برمة صغيرة صفراء

---

(٧٤) عاقل: المرجع نفسه، ص٢٦. محمد عبد النعيم: المرجع السابق، ص٥٧.

(٧٥) أبو سعيد بن عبد الملك بن قريب الأصمعي: كتاب النبات، تحقيق عبد الله بن يوسف الغنيم، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٢، ص٢٣ ـ ٢٤ و٣٣ ـ ٣٤ و٣٦.

(٧٦) محمود مصطفى الدمياطي: معجم أسماء النباتات الواردة في تاج العروس للزبيدي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٥، ص٩. المنجد في اللغة والأعلام، دار الشروق، الطبعة الثلاثون، بيروت ١٩٨٨، ص٣.

(٧٧) العِضَاه: الواحدة: عِضَاهة وعِضَة، وهو كل شجر يعظم وله شوك.

اللون يأكلها الناس(٧٨). والسَلَم هو شجر من العِضَاه، يستخدم ورقه للدباغة، وينمو في المرتفعات وفي سهول تِهامة، وله برمة صفراء اللون طيبة الرائحة وتُؤكل. والحلة شجرة شائكة، لا ثمر لها، وهي أصغر من العوسجة، تنبت في غلاظ الأرض، ويسمّيها أهل البادية الشبرق وأهل الحجاز الضريع بعد جفافها(٧٩).

ومن الأشجار أيضاً ما يُعرف باسم حمر الذي يشبه التمر الهندي وشجر الجوز، وثمره مثل ثمر القرظ يستفاد منه بالطبخ، وهو ينبت بالسراة وفي بلاد عُمان، وقد ذكره بلينوس من ضمن أشجار البحرين(٨٠). والقتاد شجر ضخم، ينبت بنجد وتِهامة، وهو صلب العود له شوك كالأبر. وشجر الضمران الذي يشبه الرمث، إلاّ أنّه أصغر، وله خشب ضعيف يُحتطب(٨١). والحلق شجر ينبت كنبات العنب، وله ورق كورق العنب، يطبخ مع اللحم، ويجعل في العصفر فيكون أجود له من حبّ الرمّان، وقيل يُخلط بالوسمة للخضاب. والسرح شجر من العضاه ينمو في نجد ويستظلّ به، وتستخدم أخشابه في البناء. وشجر قصاص ينبت باليمن ويجرسه النحل. والدُلْب شجر عظيم لا ثمر له. وشجرة الرقعة عظيمة كالجوز وساقها كالدُلْب، تنمو مع العرعر في الجبال، وتكثر في المرتفعات الغربية الجنوبية، ولها ثمر كالتين كأنّه صغار الرمان، يُجفّف ويستخرج منه القطران(٨٢).

---

(٧٨) حمد الجاسر: في سراة غامد وزهران، دار اليمامة، الرياض ١٩٧٧، ص٣٨٠ و٣٩٣. عرام السلمي: كتاب أسماء جبال تِهامة وسكانها، ما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه، ص٢٣ ـ ٢٤.

(٧٩) الدمياطي: معجم أسماء النباتات. . .، ص٤٥ و٧١. حمد الجاسر: في سراة غامد وزهران، ص٣٧٦. عرام السلمي: كتاب أسماء جبال تِهامة وسكانها. . .، ص١٣.

(٨٠) الدمياطي: المرجع السابق، ص٤٥. الجاسر: المرجع السابق، ص٣٧٧.

Pliny: Natural history, BK 12, P22.

ويذكر المنجد في اللغة والأعلام صفحة ١٥٣ أنّ الحُمْرَة «نبات سامّ من فصيلة الباذنجانيّات يكثر في أوروبا وآسيا الغربية ـ التي تحوي شبه الجزيرة العربية ـ أزهاره ذات لونٍ أحمر مغبّر، يُزرع للزينة ويستعمل لأمور طبية وعلى الأخص لأمراض العيون».

(٨١) الحسن الأصفهاني: بلاد العرب، ص٥٨ و١٩٠.

(٨٢) الدمياطي: معجم أسماء النباتات. . .، ص١٧ و٥٨ و٦٣ و٧١ و٧٧.

ومنها البان الذي ينبت في الهضاب، وقد عدّه البعض من شجر العضاه، وله هدب كالأثل، ويستخرج من حبوب ثماره دهن طيب الرائحة، كما يستخدم في صناعة الأدوية، وليس لخشبه صلابة. والخزم شجر يشبه ساقه ساق النخل، وورقه ورق البردي، وكان يُصنع من جذوعه خلايا للنحل، ومن خوصه وعشبه الحبال والخُطُم. والنُّشَم شجر له عيدان قوية على هيئة خيطان، يُصنع منه القسيّ والسهام، وهو خال من الورق وينبت في الجبال. وشجر الأثرار له ورق كورق الصَعْتَر، وشوك يشبه شوك الرمّان، ويستخرج منه القطران مثل العرعر[٨٣].

ومنها القرظ وهو شجر عظيم، ينتشر في شبه الجزيرة بكثرة، وهو شبيه بأشجار الجوز، ويتراوح ارتفاعه ما بين مترين إلى ثلاثة أمتار، وينبت في قيعان الأودية، وتدخل ثماره في صناعة الدباغة، ويستخدمه الناس وقوداً. وشجر العرعر عظيم ينبت في أعالي الجبال ولا سيما جبال السراة، وفي الأجزاء الجنوبية منها مكوّناً غابات كثيفة، ولكثرته في هذه المنطقة أطلق عليها سترابون بلاد العرعر، وتمتاز أخشابه بالقوة والصلابة لذا تدخل في صناعات كثيرة، ويستخرج منه القطران[٨٤]. والرنف شجر ينبت في الجبال، ويكثر في شبه الجزيرة العربية، تنضمّ أوراقه إلى قضبانه بالليل وتنتشر بالنهار، وهو طيّب الرائحة، ويُعرف أيضاً بالسوجر. ويستخرج من شجر اليستعور الذي ينبت في السراة المساويك، ومساويك اليستعور أشدّ إنقاءً للأسنان وتبييضاً لها من غيرها. والسرو شجر ينبت في الجبال، ويُصنع من عيدانه القوية القسيّ. والضرو نبات ضخم له خشب جيد، يُستخدم في أعمال النجارة، وتُصنع منه الآنية المنزلية،

---

(٨٣) عرام السلمي: كتاب أسماء جبال تِهامة وسكانها. . .، ص٦ و١١ و١٥ و١٧ و١٩ و٢٤.

(٨٤) Diodorus Siculus: Library of History... Bk2, P51.

Strabo: The Geography of Strabo.., Bk16, P361.

نورة عبد الله العَلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. .، ص٧٩.

ويدخل ورقه في صناعة العطور، ويُتّخذ خشبه وصمغه الذي يُدعى الكمكم كبخور[٨٥].

ومنها الظَّيّان الذي له أزهار عطرة، وهو الياسمين البرّي الذي يمتاز بساقه الغليظة وشوكه الكثيف، ويُربب الدهن في بلاد العرب بالظيان، ويدبغ بورقه فيُقال أديم مظيّا، وينبت في أعالي الجبال ويُحتطب، ويُقال لموضعه الذي يكثر فيه مظياه ومظواه. ويزهر المظ وينمو في جبال السراة، ولا يحمل ثمراً، ويُربّى النحل عليه، وله حطب من أجود الحطب وهو رمان البر. والرقم نبات ترعاه الأغنام، وهو أشبه ما يكون بالمرخ في أغصانه وورقه، وترتفع شجرته أطول من القامة، ويستظلّ بها، وحطبه من أجود أنواع الحطب. وينمو الآس بكثرة في السهل والجبل، وخضرته دائمة، ويكبر حتى يصبح شجرة عظيمة، وقيل هو الرند[٨٦]. والقان شجر ينبت في جبال تهامة، ويصنع منه القسي، وكان يُصدّر إلى خارج شبه الجزيرة لجودته. وينمو شجر الأذخر في الأرض الصلبة والسهلة، وفي حضيض الجبال المشرفة على سهول تِهامة، وهو نبات طيب الرائحة، يدخل في صناعة الطيب، ويستخدم خشبه في تسقيف المنازل[٨٧].

ومن أشجار شبه الجزيرة أيضاً شجر الكندر الذي هو من اللبان، ويُقال له: المقل، وهو أنواع: منه العربي ومنه الهندي ومنه مقل مكي، وينبت في المرتفعات مثل: مرتفعات ظفّار، وجل قهوان في عُمان، وفي الشِحر وحضرموت واليمن. وشجر سياع الذي هو شجر اللبان أيضاً، له صمغ مثل الكندر، يُستخرج من الشجرة بعد تشقيق لحائها، ويجمد عند ملامسته

---

(٨٥) الجاسر: في سراة غامد وزهران، ص٣٨٠ و٣٨٦ ـ ٣٨٧ و٤٠١. محمود شاكر: شبه جزيرة العرب، عسير، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٧٦، ص٣٧. الدمياطي: معجم أسماء النباتات. . .، ص٦٤ و٩٠ ـ ٩١ و١٣٦.

(٨٦) الأصمعي: كتاب النبات، ٣٢ و٣٣ و٣٦. الدمياطي: معجم أسماء النباتات. .، ص٨ و٦٢ و١٤٥. الجاسر: في سراة غامد وزهران، ص٣٨٨.

(٨٧) عمر بن بحر الجاحظ: التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب، دمشق (لا تاريخ)، ص٤٥. عبد الله يوسف الغنيم: جزيرة العرب في كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري، ص١١٨.

الهواء[٨٨]. وشجر الصندل الأبيض الذي يشبه الصندل الهندي، وخشبه معروف وله رائحة طيبة. ويشبه شجر الكاذي شجر النخل في أقصى بلاد اليمن، ويُصنع من طلعه الدهن، ويُترك حتى يأخذ الدهن ريحه[٨٩]. أمّا البشام فهو شجر عطر الرائحة طيب الطعم، يُدقّ ورقه ويُخلط مع الحناء، وله حبّ أحمر تُصبغ به الثياب، ويُستاك بأغصانه، ويُعرف بالبلسم المكي، وبالمر الحضرمي، ومنه ما ينبت في جبال نجد، ومنه ما ينمو في السراة، كما ينمو في جنوب شبه الجزيرة. والسنط شجر يُستخرج منه اللبان العربي[٩٠].

ومن نباتات شبه الجزيرة العربية أيضاً: العُتم وهو الزيتون البري، والحماط وهو التين الجبلي، والشَّوْحَط الّذي تُؤكل ثماره الشبيهة بعناقيد العنب، والأراك الذي يُستاك بفروعه، والعرفج الذي يعطي رائحة طيبة، والندغ وهو الصعتر البري، والحوك ـ الباذروج وهو بقلة طيبة الرائحة، والحبق البري، والشوري الذي ينبت على سواحل البحر الأحمر، والسماق الذي ينبت في بلادنا ويسميه أهل الحجاز الضمخ وأهل نجد العرتن، والطرف الذي يُستخدم في حشو الوسائد والمساند، والزقوم وهو من نبات البادية يُعطي بعض أنواعه ثمراً كالتمر ويُصنع من نواته دهن عظيم النفع، والأقحوان وهو البابونج أو القرّاص له رائحة طيبة، والأرجل الذي ينبت بالرمل ويعطي رائحة طيبة، والكحلاء الذي ينبت في السهول وترعاه النحل، والوَرْس الناهي الذي يُزرع سنة ويبقى عشرين سنة وتُتخذ منه الأصباغ التي تضعها النساء على وجوهها وتصبغ

---

(٨٨) جمال الدين بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت (لا تاريخ)، الجزء الخامس ص١٥٣، والجزء الثامن ص١٧١.

(٨٩) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٣٥٠. أبو الفتح جمال الدين بن يعقوب بن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز المسماة بتاريخ المستبصر، اعتنى بطبعه أوسكر لونغرين، مطبعة بريل، ليدن ١٩٥١، ص٨١ و٩١.

(٩٠) الأصمعي: كتاب النبات، ص٤.

Charles Froster: The Historical Geography of Arabia, vol I, Draf Publisher, London 1984, P151.

الدمياطي: معجم أسماء النباتات. . .، ص٤٤.

به الملابس، والخطر وهو نبات يُختضب به ويخلط مع الحنّاء، والحنّاء نبات معروف يستخدمه الناس في الخضاب، والحنظل والبرسيم والأشنان والسنا والخُزامى وشقائق النعمان... الخ[٩١].

٣ ـ الثروة الحيوانية:

تتميّز الحِقبة التاريخية، التي تبدأ من الألف الثامن قبل الميلاد وتنتهي في الألف الثاني قبل الميلاد، بسمات حضارية بارزة في شبه الجزيرة العربية مثل: تدجين بعض الحيوانات وظهور الزراعة وصنع واستعمال الأواني الفخارية. ويبدو أن سكان شبه الجزيرة قد دجّنوا في هذه الحِقبة أنواعاً عديدة من الحيوانات والطيور، منها ما اتخذوه وسيلة نقلهم كالجمال والحمير، ومنها ما استفادوا من لحمه ولبنه وبيضه، وصنعوا من فرائه وشعره ووبره الكثير من ملابسهم وحاجياتهم كالخيام والبسط وبيوت الشعر وغيرها[٩٢].

ومن أشهر حيوانات شبه الجزيرة الإبل التي يعود وجودها فيها إلى زمن بعيد، وقد كان هذا الوجود برّياً في البداية كما يظهر من الرسوم التي تحكي قصّة صيده[٩٣] وكان الإنسان العربي يصطاد الحيوانات والطيور البرية ليستغلّها في الأمور الدينية، كاصطياد الوعل (التيس الجبلي) والبقر الوحشي لتقديمها قرابين للآلهة[٩٤]. كما كان يصطادها لينتفع بلحومها وجلودها، فكان يصطاد الفهود والنمور والأسود للاستفادة من جلودها في الصناعات، ويصطاد النعام

---

(٩١) الأصمعي: كتاب النبات ٣٧. الحسن الهَمْداني: صفة جزيرة العرب، ص٦٣ و٣٦٠. الجاحظ: التبصر بالتجارة، ص٣٥. عرام السلمي: كتاب أسماء جبال تِهامة وسكانها...، ص١٥، ١٩، ٢٧، ٤٧، ١٣٢. الدمياطي: معجم أسماء النباتات...، ص١١، ١٣، ١٧، ٦٨، ١٥٠، ١٧٠. أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري: كتاب النبات باعتناء محمد خير الله، الجزء الثاني، نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٧٣، ص٢٧، ٤٦، ٦٣، ٩٣، ١٢٨، ١٧٢، ٢٠٧، ٢١٤، ٢٥٠، ٢٨٠، ٣٢٥، ٣٥١.

Western Arabia and the Red Sea, PP194-195.

(٩٢) محمد عبد النعيم: آثار ما قبل التاريخ وفجره..، ص٥٩ ـ ٦٠.

(٩٣) R.T.Wilson: The Camel, Longman, London 1984, P5-10.

(٩٤) نورة عبد الله العَلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٨٧.

التي تظهر صورها في الكثير من الرسومات والزخارف، ليستفيد من رياشها، وليُصدِّرها إلى خارج شبه الجزيرة، وقد استمرّت هذه التجارة رائجة حتى العصور الإسلامية[٩٥].

وكانت تعيش في براري شبه الجزيرة أيضاً حيوانات كثيرة من آكلة الأعشاب، منها: الظباء، والغزلان، والماعز الجبلي، وحمر الوحش وإتنها، وثيران الوحش وبقرها، والأرانب، والأيائل[٩٦]. كما كانت تعيش حيوانات مفترسة مثل: الضَبُع، والذئب، والثعلب وبنات آوى والأسد والنَمِر والفَهد[٩٧]. وهناك الضَبّ، والوَرِل، والقُنْفُذ، والظَرْباء، والوزغ، واليربوع، والحرباء، والهرّ البرّي؛ وهنالك الحيّات والعقارب[٩٨].

وقبل تدجين الطيور كان يعيش في البراري: الدجاج، والأوز، والبط، والحمام، كما كانت تعيش طيور كاسرة وغير كاسرة مثل: العقاب، والنسْر، والصقر، والبازي، والرخم، والحبارى، والبوم، والغراب، والدُّراج، والنعام، والهُدْهُد، والقطا، والقبّرة، والعصافير...[٩٩].

وانتشر الجراد والنحل في أقاليم شبه الجزيرة، واشتهرت بعض مناطقها، وخاصة وادي جردا وجبل العود وجبل حضور، بجودة عسلها منذ القديم. وتحدث الهَمْدَاني بإسهاب عن عسل جنوب شبه الجزيرة، فذكر أنّ جبل هنوم

---

(٩٥) الأصفهاني: بلاد العرب، ص١١٩. الجاحظ: التبصر بالتجارة، ص٣٤.

Albert Jamme: Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Johns Hopkins, Baltimore 1962, P245, 264.

(٩٦) نوري القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت ١٩٧٠، ص١٤٣.

(٩٧) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص١٢٧ و٢٠٢. أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري: شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٥، ص٣٦٩.

(٩٨) نوري القيسي: الطبيعةفي الشعر الجاهلي، ص١٧٧ و٢١٧.

(٩٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص١٤٧. عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، بيروت ١٩٦٤، ص٣٤ ـ ٣٥. نوري القيسي: المرجع السابق، ص٢١٧.

أكثر بلاد الله عسلاً[١٠٠]. كما تحدّث الرحالة الأوروبيون عن عسل شبه الجزيرة، فذكر داوتي أنّ أهالي خيبر يجلبون العسل من المرتفعات القريبة منهم[١٠١]. وذكر ويلستيد أنّ خلايا النحل كانت توجد في كهوف المرتفعات القريبة وأنّ نحلها يتغذّى من أزهار المواد العطرية[١٠٢].

وكانت تعيش في البحار المحيطة بشبه الجزيرة العربية أنواع كثيرة من الأسماك، أبرزها القِرش المفترس الذي يُعرف باسم «كلب البحر»[١٠٣].

٤ ـ الثروة المعدنية:

تميزت طبيعة بلاد العرب منذ القديم، بغنى ثروتها الباطنية، فإلى جانب الخامات النفطية التي اكتُشفت حديثاً، فإنّ أراضي شبه الجزيرة كانت تحوي عدداً من المعادن التي عمل الإنسان العربي على استخراجها وتعدينها، واستخدامها في قضاء بعض حاجاته منذ فجر تاريخه، والتي صدّر ما فاض من خاماتها إلى الخارج، وأدخل بعضها في صناعاته المختلفة. وقد أشارت المصادر القديمة، من يونانية ورومانية وعربية، إلى هذه المعادن وأماكن وجودها، واكتشفت البعثات الأثرية الحديثة بعض مناجمها، وبعض المعامل التي كانت تتمّ فيها عملية التعدين؛ فأحصت هذه البعثات ما يقارب الأربعين مركزاً في عُمان وحدها، ممّا يدلّ على أهمية وغنى هذا الإقليم، وعلى الرقيّ الذي بلغه العرب في ذلك الحين[١٠٤].

ومن أبرز معادن شبه الجزيرة التي عرفها العرب في القديم:

أ ـ النحاس: الذي بدأ استخراجه منذ الألف الثالث قبل الميلاد. وتشير

---

(١٠٠) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص١٤٧ و٢١٥ و٣٥٠ و٣٥٧.

(١٠١) Charles Doughty: Travel in Arabia Deserta, vol2, P108.

(١٠٢) J.R.Wellsted: Travel in Arabia, Akademisch Druck Uverlagsanstalt, Graz 1978, P256.

(١٠٣) نوري القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص٢١٧. عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص٣٥.

(١٠٤) Weisgeber, G.: Evidence of Ancient Mining Site in Oman, vol.4, the Ministry of information and culture, Oman 1978, PP15-28.

الدراسات الأثرية إلى أنّ مناجم النحاس كانت منتشرة بكثرة في عُمان ونجران خاصة، وفي منطقة جنوب شبه الجزيرة عامة(١٠٥).

ب ـ الحديد: يقلّ وجود خام الحديد في أراضي شبه الجزيرة العربية، ولكن بقايا المصنوعات الحديدية المحلية تدلّ على وجوده واستخراجه من بعض أقاليمها وخاصة من مرتفعات اليمن(١٠٦).

جـ ـ الرصاص: يكثر وجوده في جنوب شبه الجزيرة، وكانت تُصنع منه المسامير التي استُخدمت في تثبيت القطع الحجرية في أساسات أعمدة الأبنية(١٠٧).

د ـ الذهب والفضة: يتوفر وجودهما بكثرة في بلاد العرب، وقد اكتُشفت بعض مناجمهما في مناطق كثيرة من شبه الجزيرة وخاصة في منطقة الساحل الغربي واليمن. وكان معدنا الذهب والفضة يتصدّران قوائم صادرات العرب، كما كانا يتصدّران أيضاً لوائح النقود والسلع التي كانت القبائل العربية تدفعها كجزية أو هدايا إلى ملوك آشور وبابل وبلاد الشام. وكان هذان المعدان يُستخدمان في تزيين البيوت وصناعة الآنية والحليّ والعربات وغيرها(١٠٨). وقد أكّد الكتّاب الإغريق والرومان على وجود الذهب والفضّة في شبه الجزيرة كمادة خام وكمادة مصنّعة، فتحدّث أجثار شيدس وديودوريس وغيرهما عن ذهب شبه الجزيرة وصفاته ووفرته ممّا جعل شعوبها يقايضون به معادن أخرى أقلّ قيمة منه(١٠٩).

---

(١٠٥) نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . .، ص٨٩.

(١٠٦) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٣٦٤. الحسن الأصفهاني: بلاد العرب، ص٢٣٦.

(١٠٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب. . .، ج٧، ص٥١٦.

Western Arabia and the Red Sea, P527.

(١٠٨) الحسن الهَمْدَاني: كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين، الصفراء والبيضاء، تحقيق كريستر نرتول، الطبعة الثانية، وزارة الإعلام والثقافية اليمنية، صنعاء ١٩٨٥، ص١٢٢ ـ ١٢٤.

(١٠٩) Diodorus Siculus: Library of History... Bk2, PP49-50. Strabo: The Geography of Strabo.., Bk16, P349. Pliny: Natural history..., BK6, P451.

هـ ـ **الكبريت**: كانت مواطنه في جنوب شبه الجزيرة وخاصّة في منطقة زمار، وكان في اليمن عيون جارية ذات مياه كبريتية. ويُروى أنّ العرب كانوا يطلون الجمال بالكبريت مخلوطاً بالدسم(١١٠).

و ـ **الإسفلت**: كان العرب يستخرجونه من بحر الميت، فيدخلون قسماً منه في صناعاتهم، ويصدّرون القسم الآخر إلى الخارج. ويبدو أنّ الأنباط قد سيطروا، منذ ظهورهم في شمال شبه الجزيرة، على مصادره وتجارته حيث كانوا ينقلونه إلى مصر(١١١).

ز ـ **الملح**: يوجد الملح في أراضي شبه الجزيرة العربية على شكل مناجم مطمورة داخل الأرض، مثل مناجم شبوة وحضرموت وتيماء وبرك جنوب القنفذة وأبو عريش، كما يوجد في السبخات المنتشرة في شمال وشرق ووسط شبه الجزيرة، وفي البحار المحيطة بها(١١٢).

٥ ـ الثروة الحجرية: الأحجار الكريمة والمقالع:

إلى جانب هذه المعادن كَثُر في أراضي شبه الجزيرة العربية وجود عدد من الأحجار الكريمة التي استخرج العرب كميات منها للتصدير وكميات أخرى للصناعة المحليّة، كما كثر وجود مقالع من الأحجار الجيدة التي قُطعت واستُخدمت في البناء وفي بعض الصناعات، مثل: الأحجار الصابونية، والحجر الجيري، وحجر المسن، وحجر الكحل، والغرانيت، والبازلت، والمرو، والديواريت، والبرم(١١٣).

أمّا الأحجار الكريمة التي تعرّف إليها الإنسان العربي واستخرجها من أراضيه فهي:

---

(١١٠) ابن مجاور: صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز. . ، ص١٩٠. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب. . ، ج٧، ص٥١٧.

(١١١) Diodarus: Library of history..., Bk2, P48. Western Arabia and the Red Sea, P527.

(١١٢) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

(١١٣) ابن مجاور: صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز. . ، ص١٩٩ وما بعدها. . .

أ ـ العقيق: الذي يكثر وجوده في اليمن وخاصّة في مقرأ قرب صنعاء، والذي يكثر أيضاً في حضرموت وخاصة في جبل شبام. والعقيق أنواع منه الأصفر ومنه الأحمر، وأجود أنواعه الشديد الحمرة الذي يُرى على سطحه شبه الخيوط(١١٤). ويبدو أن العرب قد تعرّفوا إلى العقيق واستخرجوه من شبه جزيرتهم منذ القرن الرابع قبل الميلاد(١١٥).

ب ـ البقران: ويُعدّ البقران الذي يُستخرج من شبه الجزيرة، وخاصّة من جبل أنس في جنوبها من أجود الأنواع. ويمتاز النوع الجيد بلونه الذي يكون له عرق أحمر وفوقه عرق أبيض وفوقه عرق أسود(١١٦).

ج ـ الزمرّد: يكثر وجود الزمرّد في إقليم الحجاز وخاصّة في أرض خيبر وأرض هدية وبرية العرب(١١٧).

د ـ الدهنج: وهو من الفصوص الثمينة كالزمرّد، ومن مواطنه حرّة سُليم وحرّة النار، ومن أجود أنواعه العدس، وتُتّخذ الفصوص من حجره الأخضر(١١٨).

هـ ـ الزبرجد: وهو حجر شديد الصلابة، يوجد في شبه الجزيرة بين العونيد والحوراء، ومن ألوانه الورديّ والأحمر والأخضر، ويُعدّ الحجر الأخضر من أفضلها جودةً(١١٩).

و ـ الجزع: ألوانه كثيرة منه: الأسود والأبيض والأزرق السماوي،

---

(١١٤) الجاحظ: التبصر بالتجارة، ص٢٠. الحسن الهَمْدَاني: الإكليل، تحقيق محمد بن علي الحسن الأكوع، الجزء الثامن، مكتبة الكاتب العربي، دمشق ١٩٧٩، ص١٧٥.

(١١٥) Pliny: Natural history, Bk6, P237.

(١١٦) الحسن الهَمْدَاني: الإكيل، ج٨، ص٧٦. وصفة جزيرة العرب، ص٣٦٣.

Pliny: op.cit, Bk37, P233.

(١١٧) يحيى بن ماسويه: كتاب الجواهر وصفاتها، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧، ص٥٥.

Strabo: The Geography of Strabo,.., Bk16, P352.

(١١٨) ابن ماسويه: المصدر السابق، ص٦.

(١١٩) الغنيم: الجزيرة العربية في كتاب المسالك والممالك، ص١٢٤.

Pliny: Natural history, Bk37, P251.

واشتهرت به ظفّار اليمن حتى نُسب إليها، وكان يُستعمل على هيئة فصوص لتزيين الحلى كالخواتم، وقد ذكره بلينوس في تاريخه وعدّه من أحجار شبه الجزيرة العربية الكريمة[١٢٠].

ز ـ **العشاري**: وهو حجر سماوي اللون يشبه حجر الجزع، ويكثر وجوده في وادي عشار جنوب غربي صنعاء[١٢١].

ح ـ **السعوانية**: وهو فص أسود عرقه أبيض، توجد أحجاره في شهار وعيسن، وفي حاشد من أرض همدان، وفي وادي سعوان قرب صنعاء[١٢٢].

ط ـ **الجرتي**: وهو حجر لونه أسود وأخضر، تُصنع منه نصب السكاكين[١٢٣].

ي ـ **الجشمت**: يُشبه الياقوت البنفسجي، وبعضه مغشى بالبياض كالثلج، وعلى وجهه حمرة، كان يُستخرج من أرض الصفراء قرب المدينة، ومن خولان في جنوب شبه الجزيرة، ومن البتراء عاصمة الأنباط[١٢٤].

ق ـ **الياقوت**: كان يجلب من أرض جزيرة تقع في البحر الأحمر[١٢٥].

ل ـ **الشب**: هو عبارة عن كبريتات مزدوجة متبلورة من البوتاسيوم والألمنيوم، ويوجد في جبل أسبيل من ديار عنس من منصج، وفي جبل الأشقر، وأجود أنواعه اليماني[١٢٦].

---

(١٢٠) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٣٦٣.

(١٢١) الحسن الهَمْدَاني: الإكليل ج٨، ص٧٥.

(١٢٢) المصدر نفسه ص٧٦.

(١٢٣) المصدر نفسه.

(١٢٤) المصدر نفسه.

Pliny: Natural history.., Bk37, P263.

(١٢٥) Pliny: op.cit, PP237, 251.

(١٢٦) حمد الجاسر: أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، ص١٨٩.

الفصل الثالث

الإنتاج الزراعي ورعي الماشية
في بلاد العرب قبل الإسلام

مارس العرب في بواديهم وسهوبهم حياة الرعي وتربية الماشية على أنواعها، وخاصّة الإبل والغنم والخيل، ومارسوا في مدنهم وقراهم حياة الزراعة والصناعة والتجارة، وأثرى البعض منها ثراءً فاحشاً.

وفي الفترة الزمنية التي قارب عمرها العشرين ألف سنة، والتي أعقبت الطور الجليدي الرابع، استفاد العرب وقتذاك من وجود المناخ الرطب ووفرة المياه، واستغلوهما في تنمية وتكوين اقتصاد زراعي متطور. ففي هذه الدورة التاريخية، أخذ سكان شبه الجزيرة العربية ينتقلون تدريجياً من طور القنص والصيد، إلى طور الفلاحة والزراعة الذي يعتمد على أساليب الريّ، للحصول على قوتهم اليومي. فأرسوا بذلك قواعد لمجتمعات مستقرّة تقوم على إنتاج المحاصيل الزراعية على اختلاف أنواعها وخاصة الحبوب[1].

ويشير كثير من العلماء إلى الدور المهم الّذي لعبه العالم العربي في تأسيس أقدم مدنيّة تقوم على الزراعة والرّي وتربية الماشية. ومن هؤلاء المؤرخ توينبي الذي يقول: «يمكننا القول بشيء من الثّقة بأنّ الزراعة وتربية الماشية والتعدين وأيضاً تقنية قلع قطع كبيرة وثقيلة من الحجر ونقلها، هذه كلها قد اخترعت للمرّة الأولى في جنوب غرب آسية وهي رقعة النقل الرئيسية في الجزء المعروف بالعالم القديم من الأويكومين. وباستطاعتنا حتى تحديد الرقعة في المنطقة بشكل أدقّ. إنّها لا تشمل الجزيرة العربية، إلاّ في زاويتها الجنوبية. إذ

(١) أحمد سوسة: حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، بغداد، لا تاريخ، ص٦٤.

أنّه لمّا كانت الزراعة وتربية الماشية في طريق اختراعهما كان الجزء الأكبر من الجزيرة العربية، بما في ذلك طرفها في أقصى الشمال، وهو بادية لاشام اليوم، قد أصبح جافّاً بحيث لم يكن مسرحاً ملائماً لتدجين النبات والحيوان. والزاوية الجنوبية من الجزيرة العربية هي الجزء الوحيد الذي ظلّ خصباً بسبب الأمطار الموسمية. وهذه الزاوية من اليمن عزلها عن غيرها تشقق بقية الجزيرة العربية قبل اختراع السفن البحرية وتدجين الجمل العربي». ويتابع توينبي:

«إنّ مهد الزراعة وتربية الماشية والتعدين في منطقة جنوب غرب آسية لم تشمل الغرين الذي حمله نهرا دجلة والفرات في مجرييهما الأدنيين... ومن الناحية الثانية، فإنّ المنطقة التي اخترعت فيها الزراعة وتربية الماشية والتعدين لأول مرّة كانت تشمل، إضافة إلى الجزيرة الفراتية وسورية ولبنان وفلسطين، جزءاً على الأقل من جنوب آسية الصغرى وغرب إيران وتركمنستان. والحبوب والحيوانات التي دُجّنت في هذه المنطقة، خلال زمن العصر الحجري من تاريخها، كانت موجودة من قبل في حالتها البرية»[٢].

وفي ذلك يقول وِل ديورَانت: «إنّ الحضارة ـ وهي هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة ـ قد ظهرت في العهود القديمة غير المدوّنة في بلاد العرب، ثمّ انتشرت منها إلى صورة مثلث ثقافي إلى ما بين النهرين (سومر وبابل وآشور) وإلى مصر»[٣] كما انتشرت بواسطة تجار ومغامرين ورعاة إلى الأقاليم والمناطق الأخرى التي انتقلت بدورها من حياة العصر الحجري القديم إلى حياة العصر الحجري الحديث، وأخيراً إلى حياة العصر الخلكوليثي فالعصر النحاسي فالعصر البرونزي[٤].

---

(٢) أرنولد توينبي: تاريخ البشرية، ترجمة الدكتور نقولا زيادة، الجزء الأول، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨١، ص٥٥ ـ ٥٦.

(٣) وِل ديورَانت: قصّة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨، ص٤٣.

(٤) أرنولد توينبي: تاريخ البشرية، ج١، ص٥٦.

ويرى الباحثون أنّ أوروبا وأمريكا الشمالية كانتا في العصر الجليدي الأخير، تغطيهما الثلوج وغير مأهولتين بالإنسان، في حين كانت شبه الجزيرة العربية تتمتّع بالأجواء الممطرة، وتزدهر فيها الحياة، وتزخر مدنها بالسكان، وتجري فيها أنهار دائمة[٥]. ويؤكّد فيلبي (Philby) على أنّه وُجدت آثار من أصداف المياه العذبة، وبقايا الرواسب النهرية، وأدوات صوانية تعود إلى العصر النيوليتي، ويرى أنّ الجفاف الذي اجتاح أصقاع شبه الجزيرة العربية، أدّى إلى هجرة السكان شمالاً وغرباً، وهذا ما ساعد على قيام أقدم الحضارات في مصر والعراق حسب رأيه[٦].

ويبدو أنّ أماكن الاستقرار التي تمّ التنقيب عنها قد ابتدأ عمرها ما بين ١٠٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد مثل أريحا في فلسطين، وما بين ٧٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد في أماكن أخرى غير أريحا. كما يبدو لنا أنّ الانتقال من جمع المواد الغذائية والصيد إلى الزراعة وتربية الماشية تمّ في واحات تغذيها الينابيع أو في سهول فيضانية ذات تربة خصبة حملتها الأنهار إلى السهول الواقعة عند أطراف الجبال التي تنحدر منها تلك الأنهار، والتي كانت تروى بطريقة طبيعية من أمطار الشتاء، أو من الأمطار الموسمية كما هو الحال في بلاد اليمن[٧].

ويلاحظ أنّ للقرون السابقة لظهور الإسلام في بلاد العرب خصوصيتها المميّزة، من حيث منحى التوجّهات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. ففي تلك المرحلة تطوّرت القوى المنتجة وتوسّعت أعمال الرّي الاصطناعية وازداد الإنتاج الزراعي وحدث تقسيم جديد للعمل، فانفصلت الحرف الصناعية اليدوية عن الزراعة وارتبط الإنتاج الصناعي بسوق التبادل، ونمت المدن، وتحوّل العديد من القرى إلى حواضر مدينية، واستُغلّ الموقع الجغرافي لشبه

---

(٥) حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، طبعة مصر، القاهرة ١٩٧١، ص١٥. طه باقر: علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب، سومر ١٩٤٩، ص١٢٨.

(٦) Philby: The Heart of Arabia, P31.

(٧) توينبي: تاريخ البشرية، ج١، ص٥٥ ـ ٥٦.

جزيرة العرب عموماً، ولبلاد الحجاز خصوصاً، الذي كان ملتقى للطرق البرية والبحرية، وللمبادلات التجارية، ونُظّمت الأسواق الموسمية العامّة، ورُتّبت أوقاتها مع الأشهر الحرم، وعُقدت الاتفاقات التجارية بين القبائل العربية، وبينها وبين العالم الخارجي، ونشطت التجارة الداخلية والخارجية على حدٍّ سواء، وارتبطت أعداد وفئات كثيرة من سكان المدن والبادية بالعملية التجارية، مما أدّى إلى قيام تحالفات سياسية قبلية على أساس من المصالح المشتركة والضرورات الدفاعية، ونما الشعور القومي بانتصار العرب على الفرس في يوم ذي قار سنة ٦٠٩ للميلاد، وبطرد الأحباش من اليمن عام ٥٧٥ ميلادية[٨].

أولاً: زراعة الأراضي:

١ ـ أساليب الزراعة ووسائلها:

عثر علماء الآثار في شبه جزيرة العرب، على بعض النقوش الجاهلية التي حُفرت عليها حيوانات، كالإبل والثيران والحمير، تجرّ المحراث أمام الفلاح، وتساعد في انتشال الماء من الآبار[٩].

ويبدو أن الزراعة في العصر الجاهلي، كانت تعتمد، في كثير من المناطق، على مياه الريّ بصورة رئيسة، وخاصّة في واحات الحجاز ونجد واليمامة. أمّا المناطق الزراعية التي تعتمد على مياه الأمطار والريّ معاً، فهي قليلة ولا سيّما في بلاد اليمن وعُمان جنوباً.

وكان الفلاح العربي يستخدم المحراث الخشبي، ذي السكّة الحديدية في حراثة الأرض وزراعتها، كما كان يستخدم آلات حديدية أخرى كالمسحاة (المجرفة من الحديد) والفأس والمنجل والمعول والمِجْرَف في الحصاد،

---

(٨) عبد الرحمٰن بن محمد بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء الثاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م، ص٦٣ ـ ٦٤. يُروى أنّ النبيّ محمد ﷺ قال في وقعة ذي قار: «هذا أوّل يوم انتصف العرب فيه من العجم وبي نُصروا». ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد الأول، دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ص٤٨٢ ـ ٤٩٠.

(٩) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٢٤٢.

والجِيلان (النَوْرَج) ووسائل أخرى في عملية الدرس، والمذرّة (المذراة) في فصل التبن (القش) عن الحبّ، وكذلك كان المزارعون، في الحقول المرويّة وفي غياض النخيل والكروم، يستخدمون الحيوان في جرّ المحراث وفي متح الماء من الآبار، معتمدين في ذلك كله على وسائل وآلات حديدية[١٠].

وكان المحراث عادة يُستخدم في حراثة الأرض الواسعة. أمّا القطع الصغيرة فتحرث من قبل المزارع بالمعول والمسحاة.

وكان الفلاح يعدّ أرضه إعداداً كافياً قبل زراعتها. فكان يحرثها قبل سقيها، ثمّ يحرثها مرّة أخرى بعد عدّة أيام من ريّها، وذلك قبل أن تجفّ قشرتها الخارجية وتتشقّق، ثمّ يتركها أيّاماً معدودة، يحرثها بعدها للمرّة الأخيرة، وهكذا حتى تصبح خصبة وصالحة لبذر البذور. وتنال المدرّجات ذات التربة الزراعية الضعيفة غير السميكة اهتماماً خاصّاً من الفلاح؛ ففي موسم الجفاف يحرث المزارع هذه المدرّجات مرتين على الأقل، ويحفرها مسافة متر ويقلب ترابها بالمعول، وقد يجلب لها مزيداً من التربة من مناطق أخرى، ثمّ يحرثها على شكل شبكي، ثمّ يعيد حراثتها في موسم الأمطار كي تمتص أكبر كمية من المياه، فيمنع بذلك جفاف قشرتها السطحية، وقد يضطر المزارع إلى الاستمرار في حرثها ليلاً ونهاراً، نظراً لما للحراثة من أهمية في استغلال مياه السيول[١١].

وبعد عملية الإعداد هذه، كانت الأراضي السهلية أو المدرّجة تقسّم إلى قطع مستطيلة في المناطق التي تعتمد على مياه السيول. أمّا المناطق التي تعتمد على المياه الجوفية فكانت الأراضي فيها تصمّم على شكل أحواض مربّعة أو مستطيلة، وتحفر في محيطها القنوات أو الجداول، ثمّ يقوم الفلاح بنكش ترابها بالمعول والمسحاة، ويبذر الحبوب بيديه؛ وفي بعض الحالات كان يسير خلف المحراث مزارع آخر يتولّى غرز الحبوب وطمرها في التراب، وقد يُعلّق

(١٠) ي.أ. بليابيف: العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى، ص١١٣.
(١١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٤٦ ـ ٤٧.

بالمحراث قمع من الخشب يُملأ بالحبوب، فتتساقط هذه الحبوب بالأثلام أثناء الحراثة، ثمّ تعمل سكة الحديد على طمرها بالتراب. .[١٢].

وكانت عملية تسميد الأراضي تتمّ ما بين فترة وأخرى، كي تحافظ الأرض على خصوبتها وإنتاجها، وكان روث الحيوان وفضلات الإنسان من أهمّ أنواع السماد المستخدم في العصور القديمة. وقد يلجأ الفلاح حينذاك إلى إحراق بقايا النباتات والأعشاب اليابسة لتسميد أرضه. .[١٣].

٢ ـ السدود وأساليب الرّيّ:

اعتمد العرب على مياه الأمطار والسيول، وعلى الآبار والبرك والمياه الجوفية لريّ مزروعاتهم، واتّبعوا أساليب شتى لجمع المياه وتخزينها وجرّها إلى الحقول حيث المزارع والبساتين. ومن هذه الأساليب ما يتّسم بالبدائية والبساطة، ومنها ما يدلّ على براعة وعلم وتطور.

وتحدّد البيئة الطبيعية شكل الأسلوب المستخدم في جمع المياه وريّ المزروعات، فحيث تهطل الأمطار بغزارة تُبنى السدود وتُحفر الآبار وتُجمع مياه السيول لسقي النباتات أيام الجفاف، وفي المناطق التي تتوفّر فيها المياه الجوفية تحفر القنوات الجوفية لجرّ المياه إلى الأراضي العطشى حيث تُسقى الخضار وأشجار الفاكهة[١٤].

وتعود المياه الجوفية في بلاد العرب إلى العصر المطير، ويتراوح عمرها ما بين ١٣٠٠٠ ـ ١٧٠٠٠ سنة، وتتوزّع على مساحة واسعة من شبه الجزيرة العربية في حوض الإحساء ونجد، وحوض الأفلاج، وحوض الدواسر ـ

---

(١٢) Gingrich. A. and Heiss, J.: A Note on Traditional Agriculture Tools in Sa'Dah Province», Institute of Archaeology, London 1986, P51.

(١٣) جواد علي: مصطلحات الزراعة والريّ في كتابات المسند، مجلة المجمع العلمي العراقي، المعهد العلمي العراقي، بغداد، المجلّد السادس والثلاثون، الجزء الثاني سنة ١٤٠٥هـ.

(١٤) Neil Robert: Water Conservation in Ancient Arabia, Institute of Archaeology, London 1977, P134-140.

نجران، وحوض وسط الحجاز، وحوض تبوك العلا[١٥]. وتختلف أحواض المياه الجوفية العميقة من مكان لآخر اختلافاً كبيراً من حيث بُعدها عن السطح، وكمية المياه المخزونة فيها ونوعيتها، ففي المنطقة الوسطى مثلاً يبلغ سمك الطبقة المائية حسبما أوضحته عمليات الحفر التي قام بها الأهالي حديثاً ٦٥ متراً، ويتراوح عمق مستوى سطح الماء فيها (تحت مستوى سطح الأرض) ما بين ٢٣ ـ ٢٦ متراً، إلاّ أنّ اعتماد هذه الطبقات في التغذية على الأمطار يجعل مستواها كثير التغير موسمياً[١٦]. وللمياه الجوفية القريبة من السطح أهمية كبيرة في حياة العرب، فعلى المياه المستخرجة منها كانت تقوم الزراعة في معظم مناطق شبه الجزيرة، ولا سيما في المناطق التي يقلّ فيها معدّل تساقط الأمطار عن ١٠٠ مليمتر سنوياً[١٧]. وكانت أنظمة الريّ التي استخدمها العرب في القديم كثيرة، إلاّ أنّ نظام السدود ونظام القنوات كانا أهمها.

أ ـ نظام السدود:

السَدّ أو السُدّ في اللغة هو الحاجز بين الشيئين، ويعني أيضاً: الوادي فيه حجارة وصخور يبقى فيه الماء زماناً؛ وجمعه سُدُود وسِدَدَة وأَسْدَاد، فيُقال: «ضربت عليه الأرض بالأسداد» أي سُدَّت عليه الطُرُق وعُمّيت عليه المذاهب[١٨]. وورد في دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني أنّ السدّ هو عبارة عن كلّ بناء يمنع فيض المياه الجارية أو السيول. وهو نوعان: نوع يمنع جري المياه، ونوع آخر يمنع انحباسها ويُعرف بالحاجز[١٩].

ومصطلح السدّ في القطاع الزراعي هو جدار ضخم كان يُبنى في عرض الأودية لحجز مياه الأمطار والسيول والأنهار والينابيع ورفعها لريّ الحقول

---

(١٥) الزّويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٩٩ ـ ١٠٢.
(١٦) المرجع نفسه، ص٩٩.
(١٧) المرجع نفسه، ص٩٨.
(١٨) المنجد في اللغة والأعلام، ص٣٢٦.
(١٩) المعلم بطرس البستاني: دائرة المعارف، المجلد التاسع، دار المعرفة، بيروت، لا تاريخ، ص٥٣٠.

والبساتين المحيطة بها. وقد عمد العرب إلى بناء الأسداد لضحالة المياه في شبه جزيرتهم التي رغبوا في تطوير زراعتها. فلم يتركوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء إلاّ حجزوا ماءه بسدّ، فتكاثرت السدود تكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات. وكان أهل بلاد ما بين النهرين وأهل مصر أول من اشتغلوا في ذلك وعرفوا لزوم إقامة السدود على الأنهار(٢٠).

ولم تكن هذه السدود على نسق واحد، فبعضها كان بسيطاً ومؤقّتاً ويُبنى على الأودية الصغيرة الفرعية والشعاب، لتحويل مياه السيول نحو المزارع والحقول. وتختلف أشكال هذه الأسداد وطريقة بنائها من منطقة لأخرى. فمنها ما يكون في وسط مجرى الوادي بحيث تقسم التيار المائي إلى اتجاهين، ومنها ما يقوم على جانب واحد من حافة الوادي وبزاوية مائلة بحيث تحجز مجرى الوادي كله أو تحجز جزءاً منه. وقد تتعدّد أشكال هذه السدود في الوادي الواحد، وتُبنى من الأتربة والحجارة الصغيرة تنجرف مع السيول في كثير من الأحيان، ويُعاد بناؤها في الموسم التالي(٢١).

أمّا بعضها الآخر فكان يُقام في بعض أقاليم شبه الجزيرة على هيئة حرف ڤ (V) الفرنسي أو الإنكليزي لحجز التربة والطمّي المنجرف مع مياه السيول(٢٢).

وإلى جانب هذين النوعين، كان يوجد في شبه الجزيرة نوع ثالث من السدود، يتميّز بالضخامة والقوة والصلابة، ويحتاج إلى أحجار صلبة كثيرة ومواد بناء مختلفة، كما يحتاج إلى أعداد كبيرة من العمال، لذا كانت الدولة تشرف على إنشائه وتتولّى الإنفاق عليه وصيانته(٢٣). وكان الغرض من هذا

---

(٢٠) لم تعرف أوروبا اختراع السدود إلاّ في القرن السابع عشر للميلاد. البستاني: دائرة المعارف، م٩، ص٥٣١.

(٢١) نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . ، ص١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢٢) J.Dayton: The Problem of climatic change in the Arabian Peninsula, Institute of Archaeology, London 1975, P54.

(٢٣) Richard Bowen: Irrigation in Ancient Qataban, P87.
M. Evenari: The Negev: The challenge of the desert, P.118.

النوع رفع مستوى الماء في مجرى الوادي وتوجيهه في قنوات إلى مسافات طويلة عبر الأراضي الزراعية لريّ آلاف الهكتارات[٢٤]. كما كان الغرض منه أيضاً حجز الماء في برك كبيرة أو آبار واسعة، لاستخدامه وقت الجفاف في سقي الماشية وريّ النباتات في الحقول والبساتين[٢٥].

ويبدو أنّ البعثات العلمية الأثرية قد توصّلت إلى اكتشاف آثار عدد من السدود في بعض أقاليم بلاد العرب، كان أهمّها في إقليم صحراء النقب، حيث أنشأ الأنباط عدداً منها في وادي خرنوب ووادي رمليا ووادي أبيض[٢٦]، ووُجِدَت في إقليم تدمر آثار سدود وقنوات، مثل سدّ جربقا في وادي الكبير[٢٧]. كما وُجدت في منطقة شمال الحجاز آثار بعض السدود مثل سدّ وادي المعتدل في العُلا، وسدود خيبر والطائف وقرية، وسدّ وادي رم في وادي حسمي في بلاد الأنباط[٢٨]. ومن أشهر سدود خيبر سدّ قصر البنت (سدّ قصيبة) الذي أقيم في مجرى وادي السلسلة بشكل مائل عن بطن الوادي، وكان هذا السدّ قد أنشيء من حجارة البازلت الأسود الموجودة بكثرة في المنطقة، وتغطّي واجهته طبقة من الملاط، ويبلغ طوله ٣٠٠ متر وارتفاعه ٣٠ متراً، ولم يكن لهذا السدّ بوابات لإخراج المياه المخزّنة فيه، بل كانت تُنقل إلى الأراضي المجاورة بواسطة قناة تمتدّ إلى مسافة ١٨ كيلومتراً تقريباً[٢٩] ممّا يدلّ على أنه كان سدّ تخزين كالبرك الواسعة، لا سدّ توجيه كسد مأرب.

وبُنيت في أقاليم الجنوب والجنوب الغربي من شبه الجزيرة سدود كثيرة نذكر منها سدّ الجلاد الذي أقيم في مضيق طبيعي عند انحدار وادي نجران، والذي يتّصل به عدد من القنوات المنحوتة في الصخور لنقل المياه إلى الأراضي

---

(٢٤) Richard Bowen: Irrigation in Ancient Qataban, P69-70.

(٢٥) Western Arabia and the red Sea, P160.

(٢٦) Evenari: The challenge of the desert, P119.

(٢٧) نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية...، ص١٠٦.

(٢٨) المرجع نفسه، ص١٠٥ ـ ١٠٧.

(٢٩) Dayton: The Problem of climatic change in the Arabian Peninsula, P50.

الزراعية المجاورة، وكان عرض القناة الواحدة منها يصل إلى ٩٠ سنتمتراً، وعمقها إلى مترين، وتمتدّ إلى مسافة طويلة ويُغطّي جدارها طبقة من الجصّ، وتكثر فيها مخارج المياه(٣٠).

وذكر الهَمْدَاني في يحصب العلوّ من مخاليف اليمن ثمانين سدّاً، أشار إليها تبّع بقوله(٣١):

وبالرّبوة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدّاً تقذف الماء سائلا

ومن هذه السدود سدّ عروش لحج، وسد شرجان، وسدّ قصعان، وسدّ ربوان (قتاب)، وسدّ شحران، وسدّ طمحان، وسدّ عباد، وسدّ سحر، وسدّ ذي شهال، وسدّ ذي رعين، وسدّ نقاطة عند قرية ذي ربيع، وسدّ نضار وهران، وسدّ الشعبابي، وسدّ المليكي، وسدّ النواسي، وسدّ المهباد، وسدّ باقيها لطاف، وسدّ الخانق بصعدة - بناه نوال بن عتيك مولى سيف بن ذي يزن في القرن السادس للميلاد - ومظهره في الحنفرين من رحبان، وقد هدّمه إبراهيم بن موسى العلوي بعد هدم صعدة(٣٢)، وسدّ ريعان لابن ذي مأذن، وسدّ سيان. ومن أسداد بلاد عنس: سدّ خيرة، وسدّ بيت كلاب في ظاهر همدان، وآخر في ظاهر دعان، وسدّ شبام قرب صنعاء على ثمانية فراسخ منها(٣٣). ومن أشهر سدود اليمن سدّ مأرب الذي تهدّم بسيل العرم الوارد ذكره في القرآن الكريم، وسنتناول هذا السدّ بالدراسة والتفصيل كنموذج لأسداد شبه الجزيرة العربية.

غير أن نظام السدود هذا، كان يتطلب عناية وصيانة دائمتين من الدولة والأفراد، ليس فقط للأبنية التي يتألف منها السدّ، بل لكل شبكة الريّ التي تتفرّع عنه، ابتداء من السدّ وانتهاء بالأرض الزراعية التي تُسقى من مياهه. ذلك

---

(٣٠) St.J.H. Philby. The Land of Sheba, Geographical Journal, Royal Geographical Society, London 1938. P16. J. Dayton: A discussion on the Hydrology of Marib, Institute of Archaeology, London 1979, P125.

(٣١) الحسن الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص١٧٣.

(٣٢) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢٠١.

(٣٣) المرجع نفسه، ص٢٠٠ - ٢٠١.

أنّ هذا النظام كانت تواجهه عوائق كثيرة، منها ارتفاع مستوى الحقول الزراعية مع مرور الزمن، نظراً لما تحمله السيول إليها من أتربة وطمي، بحيث تصبح القنوات غير صالحة لرفع المياه إلى هذه الحقول، ممّا يجعل الفلاح مضطراً إلى رفع القنوات القائمة أو شقّ قنوات جديدة. وأيضاً قد يُسبّب ارتفاع مستوى الحقول عن مستوى القنوات إلى ترسب الطمي في القنوات ممّا يؤدي إلى انسدادها، ومن ثمّ إلى توقّف جريان الماء فيها. كما أنّ ترسّب الطمي أمام السدّ يعرقل سرعة جريان الماء، نظراً لارتفاع سطحه، فلا بدّ وقتئذ من رفع بناء السدّ كلّما ازداد مستوى الطمي المترسب في قاع الوادي[٣٤].

هذه العوائق وغيرها كانت تؤدّي، إذا لم يقم المزارعون أو الدولة بإزالتها، إلى تعطيل عملية الريّ، ومن ثمّ إلى الجفاف ويباس المحاصيل، يعقبها هجرة الناس إلى مناطق زراعية جديدة أكثر خصباً. وقد حدث ذلك في بعض أنظمة الريّ الكبرى مثل أنظمة ميفعة والبريرة وبيحان وحريصة ومأرب[٣٥]. وهناك من يرى أنّ قلّة الأمطار وفترة الجفاف التي أعقبت العصر المطير في شبه الجزيرة كانت السبب في تصحّر أجزاء كثيرة من بلاد العرب وبالتالي هجر السدود والحقول المحيطة بها التي كانت في السابق مناطق زراعية خصبة ومنتجة[٣٦]. ويبدو أنّ الاضطرابات السياسية اليت أخذت تلوح في بعض أقاليم شبه الجزيرة العربية منذ القرن الثالث الميلادي قد ساعدت في إهمال الكثير من مشاريع الريّ التي كانت تقوم على دعم السلطات الحاكمة. فأدّى ذلك إلى تدهور أنظمتها مع مرور الزمن[٣٧].

---

(٣٤) Richard Bowen: Irrigation in Ancient Qataban, P66, 72.

نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية...، ص١٠٥ ـ ١٠٦.

(٣٥) B.Dœ: Monuments of Southern Arabia, Falcon Olender, London 1983, P186.

نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٠٦.

(٣٦) Dayton: The Problem of climatic change in Arabia, P45.

(٣٧) Y.Kedar: Water and Soil from the Desert, Geographical Journal, Royal Geographical Society, London 1957, P181-182.

سدّ مأرب:

شُيّد سدّ مأرب في وادي أذنة الذي يقع بين جبلي أبلق القبلي (الأيمن) وأبلق الأوسط (الأيسر)، وتتجمّع فيه عدّة روافد من ذمرار وجهران وخولان وبلاد مراد وردمان وغيرها(٣٨). ويبعد هذا السدّ عن مدينة مأرب أكثر من ثلاثة أميال حيث توجد المدينة على حافة الوادي الشمالية(٣٩)، ويوجد محرم بلقيس(٤٠) على الضفّة المقابلة.

ويُعدّ جبلا أبلق فرعاً من جبل السراة الذي يقع في الجهة الجنوبية ـ الغربية من مدينة مأرب، والذي هو عبارة عن سلسلة جبال، تمتدّ مئات من الأميال نحو الشمال ـ الشرقي، وبين هذه الجبال أودية تصبّ في وادٍ كبير، يُعبّر عنه العرب بالميزاب الشرقي (جميع ميازيب، وهو قناة يجري فيها الماء) تمييزاً له عن ميزاب مورا، أعظم الأودية الغربية في بلاد اليمن المتشعّبة من جبل السراة المذكور.

وتنحدر شعاب الميزاب الشرقي الكثيرة، وتتّجه في مصابها نحو الشمال ـ الشرقي، وأشهر مواقعها وجبالها: في ناحية رداع العرش وردمان وقرن، والجبال المشرفة على سويق، وفي ناحية ذمار بلد عنس، وهو مِخْلاف (كورة من اليمن) واسع وبه بينون وهكر، وفيها المحافد العنسية وبلد كومان وبلد الحدا، وجبل أسبيل ورجمة، وجبال بني وابش من مراد وغيرها، ومِخْلاف ذي

(٣٨) الحسن الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٣٩) تقع مدينة مأرب في الجهة الجنوبية ـ الشرقية من صنعاء. ويقال أنّ مأرب هي بلاد الأزد، وقيل أيضاً هي اسم قصر، وقيل هي اسم لملك سبأ عبد شمس الملقب بسبأ.
محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الثامن، الطبعة الثالثة، دار المعرفة، بيروت ١٩٧١م، ص٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٤٠) يقع محرم بلقيس في الجهة الجنوبية ـ الشرقية من مأرب، وعلى مسافة نصف ساعة منها، وهو غير قصر بلقيس، ويظهر من بقاياه أنّه أهليلجي الشكل، طوله من الشرق إلى الغرب، ومحيطه ٣٠٠ قدم، وبُني حوله سور له باب في الجهة الشمالية وباب في الجهة الجنوبية، وعلى السور نقوش كتابية بالحرف المسند يستدلّ منها أنّ المكان كان هيكلاً للعبادة.
جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص١٩٣ ـ ١٩٤.

جرة وجهران وهران، ومساقط بلد خولان من جنوبيه وما تيامن من القَحف[٤١].

وحين تتساقط الأمطار في تلك النواحي تتجمّع السيول وتنحدر في الأودية المنتشرة هناك، حتى تنتهي أخيراً إلى وادي أذنة الذي يعلو ١١٠٠ متر عن سطح البحر، فتسير فيه المياه من الجنوب ـ الغربي إلى الشمال ـ الشرقي، ثمّ تصل إلى مكان ضيّق، يقع بين جبلي أبلق المذكورين اللذين يسمّيهما الهَمْدَاني مأزمي مأرب، لأنّ المسافة بينهما لا تتعدّى ٦٠٠ ذراع[٤٢].

وفي الجهة الشمالية ـ الشرقية، وعلى بعد ١٥٠ ذراعاً من هذا المضيق، أُقيم سدّ مأرب الشهير الذي هو عبارة عن جدار ضخم بناه السبئيون في عرض الوادي لغرضين:

الأول: حماية مدنهم وقراهم من فيض السيول التي كانت تزيد عن حاجة الناس حينذاك، فينالهم من أذاها أكثر ممّا ينالهم من نفعها، حيث كان السيل: «ينحدر من أعالي الجبل هابطاً على رأسه حتى يهلك الزرع ويسوق في جفائه البناء» على حدّ ما قاله المسعودي[٤٣].

الثاني: اختزان المياه ورفعها وتوزيعها على قدر الحاجة لريّ ما يجاور مدينتهم من الحقول[٤٤] والسفوح الجبلية التي كانت تظهر بعد انفراج جبلي أبلق واتساع الوادي، وتؤلّف مساحة من الأرض (حوالي ٣٠٠ ميل مربع)، كانت جرداء قاحلة، فتحوّلت، بعد إقامة السدّ وحجز المياه، إلى غياض وبساتين ملأى بالخضار وأشجار الفاكهة[٤٥].

---

(٤١) الحسن الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٨٠.

(٤٢) زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢٠٥.

(٤٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثاني، ص١٨٢.

(٤٤) حُقُول: مفردها حَقْل، وهي الأرض الطيّبة الصالحة للزراعة، ويُقابلها المحاقِل: ومفردها المحْقَلَة، وهي الحَقْل قد زرع. المنجد في اللغة والأعلام، ص١٤٥.

(٤٥) زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢٠٦.

ويروي المسعودي أن ملك سبأ، حينذاك، كان يقرّب الحكماء ويدنيهم ويؤثرهم ويحسن إليهم، ويلجأ إلى آرائهم في الملمّات، ويأخذ بأفكارهم ومعارفهم عندما يريد معالجة قضية، فجمعهم من أقطار الأرض، وشاورهم في دفع ذلك السيل وحصره؛ فأجمعوا رأيهم على عمل مصارف للسيل إلى براري تقذف به إلى البحر، وأخبروا الملك أنّ الماء إذا حُفرت المصارف في الأماكن الواطئة، طلبها وانحدر فيها، ولم يعد يتراكم حتى يعلو الجبال، لأن طبيعة المياه تطلب في جريانها ما انخفض من الأرض؛ فحفر الملك المصارف كما أشاروا حتى انحدر الماء وانصرف وتدافع في تلك الجهة. ثمّ جاء من بنى السدّ في الموضع الذي كان فيه بدء جريان الماء من الجبل(٤٦).

ويروي المسعودي أيضاً أن لقمان الأكبر العاديّ ـ وهو لقمان بن عاد بن عادياء ـ هو الذي بنى هذا السدّ وجعله فرسخاً في فرسخ(٤٧)، وجعل له ثلاثين نَقْباً (ثقْباً) مستديرة في استدارة الذراع طولاً وعرضاً على أحسن هندسة وأكمل تقدير، ليسيل منها الماء، وبنى مادته بالحجارة الكبيرة والرصاص، فإذا انحدرت السيول اجتمعت خلف مقرّ السدّ كأنهار عظام. فكان المزارعون إذا أرادوا سقي مزروعاتهم فتحوا أبواب ذلك السدّ التي كانت محكمة الإغلاق بالحجر الصّلد أو الخشب والحديد، وبأشكال هندسية رائعة، فيسقون حسب حاجتهم ثمّ يسدّونه(٤٨).

وذكر آخرون أنّ بناء السدّ كان من عمل عبد شمس بن يشجُب بن يعرب بن قحطان الملقّب بسبأ، وقد عاقه الموت عن إتمامه فأتمّه ملوك حِمْيَرَ

(٤٦) المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص١٨٢.

(٤٧) الفَرْسَخ: جمع فَرَاسخ، وفرسخ الطريق: ثلاثة أميال هاشميّة، وقيل اثنا عشر ألف ذراع وهي تقريباً ثمانية كيلومترات فارسية. المنجد الأبجدي، الطبعة العاشرة، دار لمشرق، بيروت ١٩٨٦، ص٧٥٧.

ولعلّ المسعودي كان يقصد، بقوله إنّه «كان فرسخاً في فرسخ» كامل نظام السدّ وما فيه من بناء وخزانات وقنوات.

(٤٨) المسعودي: مروج الذهب. .، ج٢، ص١٨٠ ـ ١٨١.

من بعده(٤٩). أمّا علماء الآثار(٥٠) الذين زاروا مأرب ودرسوا سدّها، فقد عثروا على بقاياه الأثرية، وبعض النقوش الحجرية التي كُتب عليها بالحرف المسند، كان من بينها نقش في الجهة الشمالية من السدّ ورد فيه: «أنّ سمه علي ينوف بن ذمر علي مكرب سبأ اخترق أبلق وبنى سدّ رحاب لتسهيل الريّ»، ومنها نقش وُجد في الجهة اليمنى كُتب عليه: «أنّ يثعمر بيين بن سمه علي ينوف مكرب سبأ خرق جبل أبلق وبنى مصرف رحاب لتسهيل الريّ»، فقرّروا بذلك أنّ سمه علي وابنه يثعمر بيين اللذين عاشا في القرن الثامن قبل الميلاد قد أسّسا هذا السدّ، وبنى كل واحد منهما صدفاً أو (حائطاً)، ولكنّهما لم يتمكّنا من إتمامه لضخامته وكبره، فأتمّه خلفاؤهما حيث شيّد كل واحد منهم جزءاً منه نقش اسمه عليه. فعلى الصدف الأيسر نَقْش قرأوا فيه: «كرب أيل بيين بن يثعمر مكرب سبأ بنى...»، وعلى جزء آخر من السدّ: «ذمر علي ذرح ملك سبأ»، وفي مكان آخر اسم: «يدع أيل وتار»، وفي القسم الشمالي منه وُجدت عدّة نقوش تحمل أسماء ملوك آخرين(٥١).

ولا ريب أنّ هذه النقوش تشير إلى أنّ بناء سدّ مأرب لم يكن من فعل ملك واحد، بل هو من فعل عدد من الملوك الذين تضافرت جهودهم وتتابعت

(٤٩) عبد الرحمٰن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد الأول، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦١، ص٦١٥.

المعلم بطرس البستاني: دائرة المعارف، المجلد التاسع، دار المعرفة، بيروت لا تاريخ، مادة السدّ، ص٥٣٠ ـ ٥٣١.

محمد فريد وَجدي: دائرة معارف القرن العشرين، م٨، ص٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٥٠) كان أبرز هؤلاء العلماء المستشرق الفرنسي أرنو الذي زار مأرب عام ١٨٤٣، وشاهد آثار السدّ ورسم له خريطة نُشرت في المجلة الأسوية الفرنسية سنة ١٨٧٤. وكان منهم المستشرق هاليفي والمستشرق غلازر اللذان وافقا أرنو على ما قاله في السدّ، وهو يطابق ما أورده المؤرخ العربي الحسن الهمداني في كتابه الإكليل عن سدّ مأرب، وقد شاهد أنقاضه بنفسه في أوائل القرن الرابع للهجرة، الموافق لأوائل القرن الحادي عشر الميلادي. ومنهم أيضاً نزيه مؤيد العظم الذي وضع وصفاً لبقايا السد في كتابه: «رحلة في البلاد العربية السعيدة».

(٥١) زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢٠٤ و٢٠٩.

عبر السنين والعصور لإتمامه، وإدخال إضافات متعدّدة عليه حتى اتخذ شكله النهائي في عهد شمر يرعش وتحديداً في عام ٣٠٠ ميلادية[٥٢]. وإلى جانب ذلك قام عدد من الملوك بترميم السدّ وإصلاحه في فترات متلاحقة؛ ذلك أنّ سدّ مأرب كان يحتاج إلى صيانة مستمرّة وإصلاح دائم، بسبب ما يعتريه من تصدّع وتخريب بفعل تقادم السنين وضغط الماء وعوامل التعرية الطبيعية. ويبدو أنّ هذه المهمّة كانت تتولاّها الدولة التي تملك الإمكانيات الكامنة من مال وعمال لإصلاحه. وقد ترك بعض الملوك نقوشاً تحمل أسماءهم، وما قاموا به من إصلاحات للسدّ ولشبكات الريّ المرتبطة به، مثل النقش الذي يحمل اسم الملك شرحبيل يعفر الذي أصلح السدّ في عام ٤٤٩[٥٣]. والنقش الذي يحمل اسم القائد الحبشي أبرهة الذي يتحدّث فيه عن تهدّم سدّ مأرب خلال احتلال الأحباش لليمن، وكيف أنّه بعث إلى القبائل بإنفاذ الحجارة للأساس والحجر الخام والأخشاب ورصاص الصّب... للترميم، وما أُنفق فيه من الحجارة والأطعمة للعمال، والعلف للحيوانات المستخدمة طوال مدّة الترميم التي بلغت ١١ شهراً و٥٨ يوماً، والتي انتهت في شهر ذومعان سنة ٦٥٨ وفقاً للتقويم الحِمْيَري، الموافق لسنة ٥٤٣ ميلادية[٥٤].

غير أنّ سدّ مأرب كان في بدايته سدّاً ترابياً بسيطاً، ثمّ تحوّل مع مرور الوقت إلى سدّ ضخم، شُيّد بالقطع الحجرية الكبيرة المقطوعة من الصخور الجبلية التي كانت تحيط بالوادي؛ وعُني ببنائه عناية فائقة، وشُذّبت أحجاره وثُبّتت بطريقة يتداخل بعضها ببعض، وأُلصقت بالملاط وقضبان معادن النحاس والرصاص والبرونز التي كانت تُصهر على النار وتُصبّ في فتحات ما بين أحجار البناء، وطُلي سطحه الخارجي بطبقة من الجبس لتزيد من تماسكه،

---

(٥٢) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠٠٠، ص٢٥.

(٥٣) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١١١.

(٥٤) زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢١٠ ـ ٢١١. كان الحِمْيَريون يبدأون تاريخهم من سنة ١١٥ قبل الميلاد.

وتُقلّل من تعرّضه للتعرية الطبيعية والمائية[٥٥]. أمّا أعلاه فكان ينتهي بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تغطيهما طبقة من الحصى لمنع انجراف التراب عند تدفّق الماء. وكان طول سدّ مأرب ٦٨٠ ذراعاً وارتفاعه ١٦ متراً وسمكه ٢٠ متراً[٥٦].

كانت مهارة البنّائين العرب واضحة في تصميم السدّ، وفي تركيز مخارجه على صخور الجبلين؛ ذلك أنّ هؤلاء البنّائين جعلوا طرفيه عند الجبلين أبنية من حجارة ضخمة، فيها منافذ ينصرف منها الماء إلى الأراضي الزراعية، وقد تحدّث فخر الرازي عن ثلاثة منافذ للسدّ فيقول إنّ له «أبواباً ثلاثة مرتّبة بعضها فوق بعض وكانت الأبواب يفتح بعضها بعد بعض»[٥٧]. أمّا بقايا السدّ فتُبيّن أنّ طرفيه كانا ينتهيان بمخرجين ضخمين لتصريف المياه. ففي الطرف الشمالي مخرج منحوت في صخر حافة أبلق الأيسر، ويقسمه حائط من الحجارة إلى قسمين لكي يخرج الماء في تيارين يصبّان في حوض واسع يبلغ طوله ٢٣ متراً ويمتدّ حوالي ٦٥ متراً، وذلك لترسيب أكبر كمية من الحصى والرمال التي يجرفها السيل معه؛ وكان يلي هذا الحوض قناة مطلية من الداخل بالجبس لمنع تسرّب المياه، يبلغ عرضها ١٢ متراً، وطولها أكثر من ألف متر وتنتهي في جهاتها الثلاث بعدد من المنافذ تؤدّي بدورها إلى عدد كبير من القنوات الفرعية التي تحمل الماء إلى مدينة مأرب والجنّة اليسرى. وللاستفادة من كميات المياه

---

(٥٥) B.Dœ: Monuments of Southern Arabia, P199.

(٥٦) صالح العلي: تاريخ العرب القديم. . ، ص٢٤. ذكر البعض أنّ طول سدّ مأرب ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعاً. زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢٠٧. وذكر آخرون أن طوله ٥٨٠ متراً وارتفاعه ١٤ متراً.

Rosalind Wade: Archaeological observations around Marib 1976, the Institute of Archaeology, London 1979, P155.

نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . . ، ص١٠٩.

(٥٧) الفخر الرازي: التفسير الكبير، الجزء الخامس والعشرون، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، طهران، لا تاريخ، ص٢٥١.

المخزونة وعدم هدر بعضها، لجأ البنّاؤون إلى تشييد حائط آخر بمحاذاة حائط هذا المخرج يقصر عنه بثلاثة أمتار(٥٨).

وفي الطرف الجنوبي من السدّ أنشىء أيضاً مخرج مشابه لتصريف المياه، يرتكز هو الآخر على جبل أبلق الأيمن، وينقسم إلى اتجاهين، يؤديان إلى قناتين، تتفرّع كل منهما إلى عدد من القنوات الفرعية التي تحمل الماء إلى الجنة اليمنى(٥٩).

وفي الأساس أقيم سدّ مأرب لحصر مياه السيول، وجمعها في خزّان تبلغ مساحته حوالي ثمانية كيلومترات مربّعة، وسعته ٥٥ مليون متر مكعب، وترتفع المياه فيه حتى تبلغ مستوى عالياً يقارب مستوى الجبلين، ثمّ تفتح المخارج وفوهات القنوات، فيخرج منها الماء لإرواء حقول الجبلين وسفوحه حيث تبلغ مساحة الأرض التي كان يرويها السدّ قديماً عشرة آلاف هكتار(٦٠).

ازدادت أهمية مدينة مأرب ببناء هذا السدّ، وأصبحت عاصمة للسبئيين بدل صرواح؛ واتخذها «يثعمر بيين» قاعدة عسكرية قام منها بفتوحات دوّن أخبارها في نقوشٍ على السدّ. وزرع أهلها الأرض المحيطة بها وسفوح الجبال القريبة التي كانت من أخصب أراضي اليمن وأثراها وأغدقها وأفسحها مروجاً، فحوّلوها إلى جنانٍ وغيضانٍ ملأى بأشجار الفاكهة، والخضار المتنوّعة الزّكيّة، والأزهار الملوّنة الجميلة، لذّة للناظرين.. فكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل، فيتساقط الثمر الناضج لكثرته واستوائه فيملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف. وكان الماء والراكب يسير تحت الظلال في هذه

---

(٥٨) B.Dœ: Monuments of Southern Arabia, P192.

نورة عبد الله العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية..، ص١٠٩.

(٥٩) نورة النعيم: المرجع نفسه، ص١١٠.

D.Dœ: op.cit, P193.

(٦٠) صالح العلي: تاريخ العرب القديم..، ص٢٤ ـ ٢٥.

الجنان فلا تواجهه شمس ولا يحسّ بحرّ، ولا يرى ذباباً ولا بعوضاً ولا برغوثاً ولا حشرة ضارّة ولا شيء من الهوام؛ وذلك لاعتدال الهواء والمناخ، وصحّة المزاج والمكان، وعناية الله تعالى بهم...[٦١] فعاش الناس في نعمة وغبطة، وازدياد في البنيان والعمران، وسعة في الرزق وكثرة في الزروع ووفرة في الثمار، ورفه في العيش وطمأنينة بال، ورغد قرى وطيب هواء وصفاء سماء وتدفّق ماء، وقوّة شوكة واجتماع كلمة، وسيرة حسنة وشرف أخلاق وطلاب فضل على القاصد والمسافر... حتى غدت بلادهم في العالمين مثلاً وموئلاً. ومكثوا على ذلك سنين وقروناً، لا يعاندهم ملك إلاّ قَصَمُوه، ولا يوافيهم جَبَّار في جيش إلاّ كسروه، فذلّت لهم البلاد وأَذْعَن لطاعتهم العباد، فصاروا تاج الأرض[٦٢]. فبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل والأنبياء، فقيل ثلاثة عشر نبيّاً وقيل أكثر[٦٣]، تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثمّ أعرضوا عمّا أُمروا به، فعُوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر..

وفي ذلك يقول الأعشى، ميمون بن قيس بن ثعلبة[٦٤]:

فـفـي ذاك لـلـمـؤتـسـي أسْـوَةٌ	بـمـأرب عَـفَّـى عـلـيـهـا الـعَـرِمْ
رخـام بـنـاه لـهـم حِـمْـيـر	إذا جـاء مـاؤُهُـم لـم يَـرِمْ
فـأغـنـى الـحـروث وأغـنـامَـهـا	عـلـى سـاعـة مـاؤهـم قـد قَـسـم
فـطـار الـفـيـولُ وفَـيَّـالـهـا	بـهـا فـي فـيـافـي سَـرَابٌ يـطـم
وكـانـوا بـذلـكُـم حـقـبـةً	فـمـال بـهـم جـارف مـنـهـدم
فـطـاروا سـراعـاً ومـا يـقـدمـو	ن مـنـه لـشـرب صـبـي فـطـم

(٦١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الخامس، ص٥٣٨ و٥٤١ ـ ٥٤٢.
(٦٢) المسعودي: مروج الذهب...، ج٢، ص١٨١.
(٦٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٥٤٢.
(٦٤) المسعودي: مروج الذهب..، ج٢ ص١٨٤. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٥٤٦.

وفي القرآن الكريم إشارة واضحة إلى سبأ[٦٥] وقومه الذين عبدوا الله تعالى وأخلصوا له النيّة والعمل وعظّموه وشكروه، فأثابهم الله سبحانه بالحياة الدنيا بجنّتين عن يمين سدّ مأرب وشماله، فيهما من كل الثمرات رزقاً حلالاً طيّباً، وقرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفر أهلها بأنعم الله تعالى، وعدلوا عن عبادته سبحانه وانحرفوا، وسجدوا للشمس من دونه عزّ وعلا كما قال الهدهد للنبيّ سليمان عليه السلام: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[٦٦]، فأذاقهم الله تبارك وتعالى لباس الجوع، وشرّدهم وفرّق جمعهم في البلاد، وبدّل

---

(٦٥) سُئل رسول الله محمد ﷺ عن سبأ ما هو: أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «بل هو رجل من العرب، وُلِدَ له عشرة فتيامن ستة، وتشاءم أربعة». ومعنى قوله ﷺ: «ولد له عشرة من العرب» أي كان من نسله هؤلاء العشرة الّذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لا أنّهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة، والأقل والأكثر، كما هو مقرّر مبيّن في مواضعه من كتب النسب. ومعنى قوله ﷺ: «فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة» أي بعدما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم، منهم من أقام جنوباً ببلادهم، ومنهم من نزح شمالاً عنها إلى غيرها. وقال علماء الأنساب إنّ سبأ هو عبد شمس بن يشجُب بن يعرب بن قحطان الذي قيل عنه أنّه أوّل من بنى سدّ مأرب كما أسلفنا؛ وقد سُمّي سبأ لأنّه أوّل من سبأ في العرب، وكان يُقال له الرائش لأنّه أوّل من غنم في الغزو، فأعطى قومه فسُمّي الرائش، والعرب تسمّي المال ريشاً ورياشاً. وذُكر عن سبأ أنّه بشّر بالنبي محمد ﷺ، وقال في ذلك الأبيات التالية:

سيملك بعدنا ملكاً عظيماً ... نبيٌّ لا يرخص في الحرام
ويملك بعده منهم ملوك ... يدينون القياد بكل دامي
ويملك بعدهم منا ملوك ... يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبيّ ... نقي مخبت خير الأنام
يسمّى أحمداً يا ليت أني ... أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصري ... بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه ... ومن يلقاه يبلغه سلامي

ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٥٣٩ ـ ٥٤١.

(٦٦) قرآن كريم، سورة النمل، آية ٢٢ ـ ٢٤.

بالجنتين أشجار الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾[(٦٧)].

كما جزاهم الله تعالى بالخوف في أسفارهم، بعد أن كانوا يسيرون بين اليمن والشام آمنين، في قرى متواصلة متقاربة بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث أنّ مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً، فكان يقيل في قرية ويبيت في أخرى؛ وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾[(٦٨)].

غير أنّ الله تعالى لم يبدّل بجنتي سبأ الشوك والشجر الذي لا خير فيه ولا ثمر إلا بعد أن تهيّأت لذلك الأسباب، ومن هذه الأسباب:

١ ـ إعراض القوم عن عبادة الله سبحانه وتعالى، وإشراكهم به، وإفسادهم في الأرض، وانحرافهم إلى عبادة مظاهر الطبيعة كالشمس وغيرها، وبطرهم النعمة، ودعوتهم الله تعالى أن يباعد بينهم وبين أسفارهم، بأن يسيروا في الصحارى والبراري والحرور والمخاوف، بعد أن سئموا الظلال والزروع والثمار والقرى الظاهرة المتواصلة. . .

---

(٦٧) قرآن كريم، سورة سبأ، آية ١٥ ـ ١٧. راجع تفسير هذه الآيات في تفسير الجلالين ص٥٦٧ ـ ٥٦٨. وفي تفسير القرآن العظيم لابن كثير، الجزء الخامس، ص٥٣٨ ـ ٥٤٣. وفي التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، ج٢٥، ص٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٦٨) قرآن كريم، سورة سبأ، آية ١٨ ـ ١٩. راجع تفسير الآيتين في تفسير الجلالين، ص٥٦٨. وفي تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٥، ص٥٤٣ ـ ٥٤٧. وفي التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، ج٢٥، ص٢٥٢.

٢ ـ اضطراب الأحوال السياسية في جنوب شبه الجزيرة، وقيام المنازعات والحروب بين الدولة الحِمْيَريّة وبين الأحباش الذين احتلّوا اليمن مرّتين ما بين عامي ٣٤٠ ـ ٣٧٨ ميلادية وما بين عامي ٥٢٥ ـ ٥٧٥ ميلادية، والذين حاولوا احتلال مكة وتهديم الكعبة والبيت الحرام(٦٩).

٣ ـ إهمال سدّ مأرب وشبكات الريّ بسبب هذه الاضطرابات السياسية والحروب، وانصراف الناس إلى حياة الترف واللهو تاركين صيانة السدّ الذي أضعفه مَمَرُّ السنين عليه وتدافع الماء حوله، وقد قيل في المَثَل: «إذا أثّر تواتر الماء على الحجر الصلد فما ظنّك بسيل يتدافع على حديد وحجر مصنوع»(٧٠).

٤ ـ تحوّل السّد إلى مرتع للحشرات والحيوانات الصغيرة من فئران وجرذان ومَنَاجِذ، كانت تحفر التراب وتضعف الأساس وتزيل الحصى وتشقّق البنيان. . .(٧١).

٥ ـ هطول أمطار غزيرة، وتدفّق الماء في الوادي مكوّناً سيل العَرِم الذي جرف جزءاً كبيراً من السدّ وهدّمه، وخرّب الأبواب والمخارج والقنوات وشبكات الريّ، وأغرق البلاد إلاّ ذمار وحضرموت وعدن، واقتلع الأشجار والزروع، وعطّل الحدائق والجنائن والضياع والدور والقصور(٧٢)، وهكذا حتى اضطر الناس إلى ترك مساكنهم والانتقال إلى أماكن أخرى، وتفرّق القوم أيدي سبأ، شذر مذر، فصاروا أحاديث الناس عبر السنين والعصور. . .

وكان تفرّق أهل مأرب إلى أماكن مختلفة، فمنهم من هاجر إلى يثرب وأقام فيها كالأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر مُزَيْقياء، ومنهم من هاجر إلى عمان كأزد عمان، ومنهم من لحق بأرض همدان كوادعة (أو وداعة) بن عمرو بن عامر مُزَيْقياء، وجماعة انتقلت إلى العراق كمالك بن

(٦٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني، ص٤١٨ ـ ٤١٩.
عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٦٤ ـ ٧١.

(٧٠) المسعودي: مروج الذهب. . ، ج٢، ص١٨٢.

(٧١) المسعودي: المصدر نفسه، ص١٨٦ ـ ١٨٨. المعلم بطرس البستاني: دائرة المعارف، م٩، ص٥٣١.

(٧٢) البستاني: دائرة المعارف، م٩، ص٥٣٢.

فهم الأزدي وأولاده وأسّسوا مملكة لهم في الحيرة، وفئة تخلّفت ببطن مَرّ فعُرفت باسم خُزاعة وهم أبناء عمرو بن لحَيّ، ومن هناك انتقلت إلى مكة، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

ولَمّا هَبَطْنَا بطنَ مَرٍّ تَخَزّعَتْ خزاعة منا في ملوك كراكر[٧٣]

وكان عمرو بن عامر مُزَيْقياء بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن كهلان بن سبأ، سيّد القوم وملكهم وأول المهاجرين من مأرب، قد شاهد تشقّق السدّ وتصدّعه وأحسّ بخرابه، فباع جميع أملاكه وأرزاقه وخرج من مأرب قبل سبع سنوات من تهدم السدّ، وعندما وصل إلى ما بين جبل السراة ومكة نزل هنالك أناس من بني نصر من الأزد وأقاموا، وأقام معهم عمران بن عامر الكاهن أخو عمرو، وعدي بن حارثة بن عمرو بن عامر مُزَيْقياء، وتابع عمرو وبنو مازن حتى وصلوا إلى بلاد الأشعريين وعكّ، ونزلوا على ماء هنالك يُقال له غسان بين واديي زبيد ورمع، فسمّوا باسمه، ثم انتقلوا إلى بلاد الشام وأقاموا في حوران والجولان وغوطة دمشق، وأسسوا مملكة لهم عُرفت باسم مملكة الغساسنة. ولحق أبو حارثة بن عمرو بن عامر مُزَيْقياء، ودعبل (أو رعيل) بن كعب بن أبي حارثة بنجران وانتسبوا في مذحج. وبقي مالك بن اليمان بن فهم (أو مالك بن الهيمان بن جهم) بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد بمأرب، وكان آخر ملوكها، وقد هلك مع من هلك بسيل العرم[٧٤].

ويبدو أنّ المصادر لم تتّفق على سنة وعصر محدّدين لحدوث سيل العَرِم وتهدّم السدّ. فحمزة الأصفهاني يقول بأنه حدث قبل الإسلام بأربعمائة عام، أي

---

(٧٣) وخزاعة سُمّيت بذلك لانخزاعها في ذلك المكان، وانخزع عن القوم: تخلّف عنهم. وكانت خزاعة قد انفصلت عن قومها وأقامت ببطن مرّ قرب مكة مع مالك وأسلم ومَلْكان أبناء قصي بن حارثة بن عمرو بن عامر مُزَيْقياء. المسعودي: مروج الذهب..، ج٢، ص١٨٩.

(٧٤) ذكرت بعض المصادر أقوال بعض الكهّان الذين توقّعوا خراب السدّ وتهدّمه ويباس الجنتين وخراب المدينة وهلاك الناس، فأسرّوا بذلك إلى ملكهم عمرو بن عامر مُزَيْقياء الذي اصطنع حيلة لبيع أملاكه وأرزاقه والخروج من مأرب. فيمكن مراجعة ذلك في المسعودي أو في غيره.. المسعودي: مروج الذهب.. ج٢، ص١٨٦ ـ ١٩٠.

في القرن الثالث الميلادي[٧٥]. وياقوت الحموي يذكر بأنّه وقع في ملك حبشان ولعلّه يقصد ذا حبشان بن الأقرن بن أبي مالك بن شمر الحِمْيَري، أو لعلّه يريد الأحباش الّذين احتلّوا اليمن في القرن السادس الميلادي وخرّبوا كثيراً من قصورها وأبنيتها[٧٦]. وعبد الرحمٰن بن خلدون يورد بأنّه حصل في أيام عمرو بن عامر الأزديّ المعروف بمزيقياء في القرن الخامس الميلادي. والمسعودي يؤكّد وقوعه بعد سبع سنوات من خروج هذا الملك[٧٧]. أمّا غلازر الذي درس آثار ذلك السدّ فقد اكتشف أثرين عليهما كتابة مطوّلة تتعلّق بتهدّمه خلال احتلال الأحباش لليمن، أحدهما مؤرّخ سنة ٥٣٩، والآخر سنة ٥٦٥ ميلادية. ويذكر آخرون أنّ انهيار سدّ مأرب كان حوالي سنة ١٢٠ قبل الميلاد[٧٨].

ويعود السبب في نسبة بنائه وتهدمه إلى عصور مختلفة وأشخاص مختلفين، كثرة تصدّعه وترميمه، فكانوا يعدّون كلّ تصدّع تهدّماً وكل ترميم بناء. ويُروى أنّ سدّ مأرب تصدّع عند ظهور دولة حِمْير (ملوك سبأ وريدان) في أوائل القرن الأول قبل الميلاد للمرة الأولى، فرمّموه، ولكن ظلّوا خائفين من تهدّمه، فتحوّلت عنايتهم إلى تعمير مدينة ظِفار، وقلّ تمسّكهم بالبقاء في مدينة مأرب، وصاروا ينزحون جماعات وأفراداً. . . وكلّما تشقّق السدّ من ناحية رمّموه، واستمروا كذلك إلى قبيل الدعوة الإسلامية، فأهملوه نهائياً حتى انهدم، ويُعتقد أنّ تهدّمه كان حوالي عام ٥٧٥ ميلادية، وهو العام الذي انتهى فيه احتلال الأحباش لليمن[٧٩].

---

(٧٥) حمزة بن الحسن الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، دار مكتبة الحياة، بيروت، لا تاريخ ص١٠٨. زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢٠٢.

(٧٦) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، الجزء السادس عشر، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت (لا.ت) ص٦٩ ـ ٧١.

(٧٧) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، ص٥٧. المسعودي: مروج الذهب. . .، ج٢، ص١٨٨. لُقّب عمرو بمُزيْقياء لأنّه كان يلبس في كل يوم بذلة، فإذا أراد الدخول إلى مجلسه رمى بها، فمُزّقت لئلا يجد أحد فيها ما يلبسه.

(٧٨) زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢١٠.

(٧٩) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٩.

Ahmed Fakhry: An Archaeological Journey to Yemen, vol3, Goverment Press, Cairo 1952, P61.

زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢١٠.

ب ـ نظام القنوات:

استخدم العرب في العصور القديمة نظام القنوات لري أراضيهم، فكانوا يحفرون مجاري للمياه على سطح الأرض وفي داخلها، ويحوّلونها إلى قنوات قد تطول أو تقصر حسب الحاجة. ويوجد في شبه الجزيرة نوعان من هذا النظام: النوع الأول: نظام القنوات السطحية، والنوع الثاني: نظام القنوات الجوفية.

وكان نظام القنوات السطحية عبارة عن شبكة من القنوات أو الجداول التي تُحفر على سطح الأرض لتصريف مياه السيول والعيون والينابيع والآبار، وتمتدّ مسافة طويلة قد تصل إلى عشرات الكيلومترات مثل قنوات عُمان، ووادي بيحان، ووادي حريضة في حضرموت، وقناة قرية في شمال غرب شبه الجزيرة، وقناة خيبر التي تبلغ حوالي ١٨ كيلومتراً(٨٠). وعادة تكون هذه القنوات واسعة، وتُقاس بالأمتار، وتُبنى معظم أجزائها بالطين، وتُبطَّن بالآجر، وتُشيَّد الأجزاء الأخرى التي تتعرّض لضغط كبير من الماء، كالمنافذ والمساقط العامودية والمنعطفات، بالحجار كي لا تتهدم بسرعة(٨١).

وكانت القناة الرئيسية مزوّدة بمنافذ أو بوابات، توصلها بقنوات فرعية، تتفرّع هي الأخرى إلى قنوات أصغر، فأصغر حتى يتمّ إيصال المياه إلى جميع الحقول والبساتين. وفي معظم الأوقات تبقى منافذ القنوات الرئيسية مفتوحة،

---

(٨٠) P.Costa: Notes on the traditional hydraulics and agriculture in Oman, World Archaeology, vol14, London 1983, P277. Richard Bowen: Irrigation in ancient Qataban, P45, Thompson Caton: The Tombs and Moon Temple of Hureida «Hadramaut», The Society of Antiquarian, Oxford, London 1944, P12.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١١١ ـ ١١٢.

J.Dayton: Marib visted 1979, the Institute of Aschaeology, vol2, London 1981, P12.

(٨١) Richard Bowen: Irrigation in ancient Qataban, P45.
B.Dœ: Southern Arabia, Thomas and Hadson, London 1971, P189-198.
Thompson Caton: The Tombs and Moon Temple of Hureidha, P12.

خوفاً من حدوث سيل مفاجىء في الليل أو النهار. أمّا منافذ القنوات الفرعية التي تخترق الأراضي الزراعية فكانت تغلق بعد سقي المزروعات، حتى يجري الماء إلى الحقول التالية، وكان المزارعون يلجؤون إلى رفع مستوى هذه المنافذ، التي تُبنى من جذوع الأشجار والطين، بصورة دورية ليتناسب مع ارتفاع مجرى القناة بسبب ترسّب الطمي فيها(٨٢).

وتُشقّ القنوات، التي يرتبط وجودها بالعيون والينابيع الطبيعية، على هيئة مجاري واسعة تصل بين مصدر الماء والأراضي الزراعية، وتُعرف بالغيول، ويكون مجراها موازياً لمجرى الوادي، وعلى الجانب القريب من مصدر الماء. وعادة تُبنى القناة السطحية بانحدار بسيط ومناسب، وقد تحوّل إلى قناة جوفية إذا ما واجهت في طريقها عائقاً طبيعياً، أو في حالة عبور مجرى وادٍ، حيث يصبح تعرّضها للخراب من جرّاء السيول أمراً وارداً. ففي حالة الوادي الضيّق أو الشعاب الصغيرة يُستخدم جذع نخلة مجوّف كمجرى للمياه من جانب إلى الجانب الآخر، خصوصاً أنّ جذع النخلة يُستبدل بيسرٍ إذا ما جرفته السيول. أمّا في حالة الوادي الكبير فتُحمل القناة على جسر من القناطر التي تُبنى بالحجارة الصلبة لتقاوم قوة السيل، أو تحوّل القناة إلى قناة جوفية باستخدام المغاطس أو ما يُعرف بـ «غرفة فلج» (Siphon)، حيث تقام القناة على شكل الحرف U(٨٣)، تكون قاعدتها قناة جوفية، تصل بين برجين متقابلين على حافتي الوادي، ويكون البرج الذي تدخله القناة أعلى قليلاً من البرج الذي تخرج منه، ولزيادة قوّة اندفاع الماء من البرج يلجأ المزارع أو البنّاء إلى رفع القناة عن مستواها العام بنحو متر ونصف قبل دخولها البرج(٨٤). وقد استغل أصحاب هذه الغيول

---

(٨٢) A.M.Maktari: Water Rights and Irrigation Practices in Lahj, University Press, Cambridge 1971, P57. Bowen: Irrigation in ancient Qataban, P45.

(٨٣) راجع ملحق رقم....

(٨٤) عبد الله آدم نصيف: القنوات والنظام الزراعي في المدينة المنورة: العصور، م١، ج٢، دار المريخ، لندن ـ الرياض ١٩٨٦، ص٣٠٧.

J.C.Wilkinson: Water and Tribal Settlement in South East Arabia, A study of the Aflaj of Oman, P74, 82. P. Costa: notes on traditional hydraulics... P277, 280.

قوة الماء المندفع من مساقط هذه القنوات في إقامة طواحين للحبوب[٨٥]. وكانت القنوات السطحية في كثير من المناطق جزءاً مكمّلاً لنظام القنوات الجوفية، ذلك أنّ القناة الجوفية بعد أن تفيض إلى سطح الأرض، تمتدّ منها قناة تحمل الماء إلى داخل القرية أو المدينة، أو إلى منطقة الحقول الزراعية ليتوزّع حينئذ بشبكة من قنوات صغيرة[٨٦].

ويمكننا تعريف القنوات الجوفية بأنّها أنفاق تُحفر في باطن الأرض، أو مجموعة من الآبار يتّصل بعضها ببعض بواسطة نفق تحت الأرض، كان الهدف منها جرّ الماء من مصادره في باطن الأرض إلى أماكن استخدامه في القرى أو المدن أو الحقول.

وتعود أقدم إشارة عن وجود قنوات في بلاد الرعب إلى هيرودوت الذي ذكر، في معرض حديثه عن شبه الجزيرة أنّ ملكاً كان يجلب الماء من نهر كردس الذي يصبّ في البحر الأحمر بواسطة أنبوب مصنوع من الجلد[٨٧]. ويُروى أن سنحاريب بن سرجون الأشوري قد حفر قناة جوفية لجرّ المياه إلى مدينة أربيل، ثمّ حفر أخرى لجرها إلى مدينة نينوى، وذلك بعد أن نقل والده هذا النظام من أرمينيا التي غزاها وحطّم قنوات الريّ الجوفية في مدينة (Ulhu) كما سجّل سرجون ذلك في معرض حديثه عن هذه الغزوة[٨٨].

وتُشير الاكتشافات الأثرية في الآونة الأخيرة إلى أنّ منطقة عُمان في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، التي وُجد فيها عدد من مناجم تعدين النحاس العائدة للألف الثالث قبل الميلاد، والتي يشبه أسلوب حفرها أسلوب حفر القنوات الجوفية، هي مصدر ومنشأ هذا النظام، ومنها انتقل إلى بلاد فارس

---

(٨٥) نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . .، ص١١٤.

(٨٦) J.C.Wilkinson: Water and tribal Settlement in South East Arabia, P74.

(٨٧) Herodotus: The history of Herodotus, trans by A.D.Godley, Lœb classical library, London 1981, P131.

(٨٨) J.Laessœ: The Irrigation System at Ulhu, 8th. Century, B.C., Journal of Cuneiform Studies, The American School of Oriental Rsearch, Bagdad, 1951, Vol.21-23, P29.

والأقاليم العربية الأخرى، ثم انتشر عالمياً مع توسّع الدولة الإسلامية حيث نقله المسلمون العرب إلى أفريقيا وإسبانيا، ومنهما انتقل إلى أميركا الجنوبية[٨٩].

ويقوم نظام القنوات الجوفية على مبدأ جلب الماء من أماكن مرتفعة، تتوفّر فيها مياه جوفية، وذلك عن طريق حفر نفق ينحدر انحداراً بسيطاً من مصدر الماء، ويجري فيه حتى يظهر في النهاية على سطح الأرض. لذا فإنّ أماكنها تقع بين السهول والمرتفعات حيث يكون منسوب الماء فيها مرتفعاً[٩٠]. ويُحفر مع هذا النفق آبار أو أنفاق عمودية لتهويتها وصيانتها وتنظيفها، وتُعرف هذه الآبار بالنقب[٩١]. ويتراوح عمقها عادة بين بضعة أمتار إلى مائة وخمسين متراً. ويبدأ العمل بحفر البئر الرئيسية التي تدعى البئر الأم ويكون موضعها بالقرب من مصادر المياه، وتكون نسبة انحدارها إلى المكان الذي سوف تظهر فيه القناة مقدّرة تقديراً جيداً. وقد قدّر الكرخي هذا الانحدار بذراع (٦٩ سنتيمتراً) لكل فرسخ (٣ أميال)، كما عدّد بعض الأجهزة البسيطة التي كانت تُستخدم بالحفر من مكان خروج القناة على سطح الأرض متّجهاً بها نحو البئر الأم[٩٢]، وهناك من يرى أنّ حفر القناة كان يبدأ بإقامة الآبار أو الأنفاق العامودية التي تُشاد على طول القناة بين مصدرها ومنبعها، ثمّ يُشقّ نفق يوصل بينها جميعاً. ويُرجّح آخرون أنّ الحفر كان يبدأ من البئر الأم متّجهاً بها نحو مخرجها، حيث يعمل الماء المتدفّق فيها على تسويتها[٩٣]. وإذا ما صادف الحفّار أرضاً رخوة مال عنها كي يتفادى تهدّمها، أو يلجأ إلى تبطينها ببناء من

---

(٨٩) G.Weisgeber: Copper Production during the 3rd. Millennium B.C. Oman and the question of Makan, Journal of Oman Studies, Vol 6, Part 2, The Ministry of information and Culture, Oman, 1983, P264-276.

نورة العلي النعيم: الوضعالاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١١٥.

(٩٠) عبد الله نصيف: القنوات والنظام الزراعي في المدينة المنورة، ص٢٠٩. راجع أيضاً ملحق رقم.

(٩١) محمد بن الحسن الحاسب الكرخي: أنباط المياه الخفية، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ١٣٥٩هـ، ص٦٣.

(٩٢) المصدر نفسه، ص٣٥ و٦١ و٩١. راجع ملحق رقم شكل ٥ (نورة).

(٩٣) George Cressy: Qanats, Karez and Foggaras, Geographical Review, vol 40, New York 1985, P31.

عبد الله نصيف: القنوات والنظام الزراعي في المدينة، ص٢٠٧ ـ ٢١٠.

الآجر أو الحجارة والطين، كما هو الحال في القنوات التي اكتُشِفت في منطقتي العلا وتيماء وظهرت مبطّنة بالحجارة تبطيناً جيداً[٩٤].

وعندما يصل النفق إلى نهايته حيث تخرج القناة، يعود الحفّار إلى نقطة البداية ليحفر آباراً أو أنفاقاً عامودية ذات سعة تسمح بدخول الرجل فيها، وتكون هذه الآبار على أبعاد متفاوتة تحدّدها طبيعة الأرض التي تجري فيها القناة. وكانت فتحات هذه الآبار تُسوّر عادة بالتراب المستخرج من الحفر، أو بالحجارة، وتُغطّى بألواح حجرية إن وُجدت في مجاري السيول. وتتحوّل القناة عند مخرجها إلى قناة سطحية تُعرف بالقنطرة، ثم توزّع حسب الحاجة إلى الماء، ووفقاً لتقاليد وقواعد متعارف عليها[٩٥].

وكانت تواجه الحفّار في عمله بعض الأخطار، منها: انقطاع الهواء الذي قد يؤدّي إلى اختناقه، فلذا كان يُدخل إلى النفق مصباحين يُوقدان بزيت الخروع أو الشحم للتنبيه على نقص الهواء، فإذا انطفأ المصباح، فإنّ ذلك يُعدّ إنذاراً بنقص الهواء أو فقدانه، كما أنّ هذين المصباحين يساعدان الحفّار على تحديد استقامة القناة. ومنها أيضاً انهيار النفق ومشكلة الماء الذي يجري حوله، فقد يؤدّي كل ذلك إلى غرَقِه وموته. وليخفّف من هذه الأخطار، كان الحفّار يلبس ثوباً من الجلد المدبوغ والمُسقى زيتاً، وقبّعة مماثلة يحيط بها قرمد ليمنع دخول الماء وسيلانه على وجهه[٩٦].

وتختلف أطوال القنوات من منطقة إلى أخرى، إذ يمتدّ بعضها إلى مسافات بعيدة قد يصل إلى مائة كيلومتر، وتتفرع إلى عدد من القنوات الجوفية، لتزيد من نسبة الماء المتدفّق فيها، وبذلك تتحوّل القناة الرئيسية إلى جدول أو نهر صغير ينساب تحت الأرض[٩٧].

---

(٩٤) الكرخي: أنباط المياه الجوفية، ص٢١.

(٩٥) الكرخي: المصدر السابق، ص٦٣.

J.C.Wilkinson: Water and tribal settlement in South East Arabia, P100-102.

(٩٦) الكرخي: المصدر السابق، ص٣٣. عبد الله نصيف: القنوات والنظام الزراعي في المدينة المنوّرة، ص٢٠٣.

(٩٧) نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١١٧.

وأُطلقت على القنوات أسماء مختلفة، تبعاً للمنطقة أو الإقليم الذي أُنشئت فيه. ففي شمال غربي شبه الجزيرة عُرفت باسم العين، وفي عُمان عُرفت باسم الفلج الذي يعني شقّ الأرض وتقسيم الماء[٩٨]، وفي بعض المناطق أُطلق عليها اسم الغَيْل (جمع أَغْيَال أو غُيُول) الذي يعني الماء الجاري على وجه الأرض والذي يعني أيضاً كلّ وادٍ فيه عيون تسيل[٩٩]. وفي منطقة أخرى أُطلق عليها الفُقُر (مفردها الفَقِير) وتعني مخرج الماء من فم القناة[١٠٠]. وفي ثالثة سُمّيت بالكِظَامَة (جمع كَظَائِم) وهي قناة للماء في باطن الأرض، وقيل هي آبار متناسقة تُحفر ويُباعد ما بينها ثمّ يُخرق ما بين كل بئرين بقناة داخلية تؤدّي بالماء من الأولى إلى التي تليها فتتجمّع مياهها جارية ثم تخرج من نفسها وتسبح على سطح الأرض[١٠١].

وتعتمد القناة على المخزون الجوفي للماء وطبيعة التربة، لذا تختلف كمية المياه فيها من منطقة إلى أخرى، وتزداد هذه الكمية في موسم الأمطار، وتقلّ في موسم الجفاف. وقد تُسقف القناة الجوفية عند مخرجها على سطح الأرض، لحمايتها من الأتربة، ولمنع الدابة من ورودها، ثمّ يوزّع فرع منها إلى المدينة أو القرية، ويذهب فرع آخر إلى الحقول الزراعية، وقد يُبنى، أحياناً، حوض مستدير في مجرى القناة، وذلك لتكوين قوّة اندفاع تضمن وصول الماء إلى كافة الأراضي الزراعية، أو لتخزين كمية من الماء تُستخدم في أوقات الجفاف، وفي فترة انخفاض معدّل تساقط الأمطار[١٠٢].

وتنتشر بقايا آثار القنوات الجوفية والسطحية بكثرة في كافة أقاليم بلاد العرب، وبخاصّة في شبه جزيرة العرب. ففي المنطقة الممتدّة من العلا حتى المدينة المنوّرة يوجد عدد كبير منها، ويُعتقد أنّ بعضها يعود إلى العهد

---

(٩٨) عبد الله نصيف: القنوات والنظام الزراعي في المدينة المنورة، ص٣٠٠.
Wilkinson: Water and tribal settlement in South East Arabia, P74.

(٩٩) المنجد في اللغة والأعلام، ص٥٦٤.

(١٠٠) المرجع نفسه، ص٥٩٠.

(١٠١) المرجع نفسه، ص٦٨٨. عرام: أسماء جبال تِهامة وسكانها، ص٤٧.

(١٠٢) George Cressy: Qanats, Karez and Foggaras, Geographical review, P28.
Costa: Notes on traditional hydraulics and agriculture in Oman, P285-286.

اللحياني[١٠٣]. وفي منطقة تيماء توجد قنوات قد ترجع إلى العصر التيمائي. وفي المنطقة الغربية من إيلات خلّف الأنباط وراءهم عدداً من هذه القنوات. وفي إقليم الساحل الشرقي من شبه الجزيرة تكثر القنوات الجوفية، وبخاصّة في واحة البريمي وفي سفوح جبال هجر ـ واحة العين، وتعود هذه القنوات إلى النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد[١٠٤]. وفي القطيف وعين جاوان عدد من القنوات الجوفية، منها واحدة تمتدّ على الساحل المقابل لجزيرة تاروت وتصل إلى اثني عشرة كيلومتراً، ويعود بناؤها إلى العصر الهلّينستي ـ اليوناني. وفي جبرين والبحرين كشفت البعثات الأثرية الدانمركية عن وجود عدد من القنوات الجوفية تمتدّ من التلال الوسطى وتتّجه نحو الساحل الغربي[١٠٥]. وفي إقليم عُمان تكثر أعداد هذه القنوات التي شهدت نشأتها الأولى كما ذكرنا قبلاً[١٠٦]. وفي وسط شبه الجزيرة بواحات الخرج والأفلاج، وفي منطقة القصيم توجد قنوات كثيرة كان بعضها لا يزال يُستخدم حتى فترة قريبة. أمّا في جنوب شبه الجزيرة فلم يلاقِ نظام القنوات رواجاً بسبب شيوع استخدام وسائل الري الأخرى التي تعتمد بالدرجة الأولى على السيول كالسدود وغيرها، ويُرجّح أنّ هذا النظام قد دخل هذه المنطقة في فترة الحكم الفارسي، وتحديداً في القرن السادس الميلادي[١٠٧].

---

(١٠٣) نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١١٨.

(١٠٤) M.Evenari: The challenge of the desert, P173-178. Shirlay Kay: Emirates Archaeological Heritage, Emirate press, Dubai 1986, P42.
Livingston.: Tamyia, Atlal, Department of Antiquities and Museums of Saudi Arabia, vol 7, riyadh 1983, P109-113.

(١٠٥) Geoffrey Bibby: Looking for Dilmun, Penguin Book 4th Edition, Middlesex Englan, 1984, P67-68.
نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١١٨.

(١٠٦) P.Costa: Notes on traditiional hydaulics and agriculture in Oman, P275.

(١٠٧) Juris Zarins: The Preliminary report on the third phase of the Comprehensive Archaeological Survey Program, the Central Province. Atlal, Department of Antiquities and Museums of Saudi Arabia, Vol 3, Riyadh 1979, P28.
نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١١٨.

٣ ـ أنظمة توزيع مياه الريّ:

غير أنّ توزيع مياه الريّ في العصور القديمة، كان يخضع لأعراف ونُظُم محدّدة، تضمن للمزارعين في بلاد العرب حقوقهم في سقي مزروعاتهم. ويبدو أن هذه النظم كانت تختلف من منطقة لأخرى، تبعاً لاختلاف مصادر المياه. وتشير بعض الألفاظ التي وردت في النقوش العربية المكتشفة حديثاً إلى بعض أنواع من هذه الأنظمة. مثل لفظة (م ـ ح ـ م ـ ي ـ ت) محميت التي تعني سقي الأراضي بالسانية، ولفظة (م ـ هـ ـ ض ـ ر ـ م) مهضرم التي تعني السقي بالغمر، ولفظة (د ـ ر ـ ر) درر التي هي ممارسة حقّ السقاية، وعبارات (ذ ـ ا ـ ت ـ ن/ خ ـ ر ـ ق ـ ن) ذاتن خرقن التي هي السقاية الموسمية، وألفاظ (م ـ ح ـ ر ـ ث) محرث، و(ف ـ ق ـ ح) فقح، و(ي ـ هـ ـ ر ـ و ـ ي ـ ن) يهروين، والتي تدلّ جميعها على أنواع أخرى من أنظمة الري، كانت تستخدم في شبه الجزيرة العربية وغيرها(١٠٨).

وفي حالة المياه الجوفية فإنّ القناة الرئيسية كانت تُقسّم على سطح الأرض، إلى عددٍ من القنوات الفرعية، يتناسب مع عدد المالكين لها، بحيث توزّع المياه فيها وفقاً لنظام يُعرف بنظام الدور أو الوجبة؛ فكان ينال كل مزارع وجبة كاملة، تكون مدّتها من شروق الشمس إلى غروبها، أو من غروبها إلى شروقها، بما يعادل اثنتي عشرة ساعة؛ وهكذا حتى يحصل جميع المالكين على وجباتهم من المياه، ثمّ يبدأ الدور من جديد. وكان يشرف على توزيع مياه القناة موظف مسؤول، يمنع المزارعين من مخالفة الأنظمة والأعراف المتفق عليها، ويحافظ في الوقت عينه على القناة من العبث بها وطمرها، ويقوم بصيانتها عند الضرورة(١٠٩).

---

(١٠٨) أ.ف. بيستون وآخرون: المعجم السبئي، منشورات جامعة صنعاء، دار مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٢ ص٤٥ و٦٩ و٧١ و١١٩.

Albert Jamme: Sabaean Inscriptions from Mahram Bilquis (Marib), P251.

(١٠٩) عبد الله نصيف: القنوات والنظام الزراعي في المدينة، العصور، ج٢، ص٢٠٧.

J.C.Wilkinson: Water and tribal Settlement in South West Arabia, P100-120.

أمّا الآبار التي تكون ملكيّتها عامّة، فإنّ الماء فيها يوزّع على المشتركين، بتحديد فترة زمنية لكل مزارع. وكذلك الحال بالنسبة للعيون والينابيع الطبيعية، فإنّ مياهها توزّع بواسطة قناة رئيسية، تمرّ في وسط الأراضي الزراعية، وتُفتح مخارجها تباعاً، فإذا ارتوت الأرض الأولى أُغلق مخرجها ليُفتح مخرج الأرض التي تأتي بعدها، وهكذا حتى يتمّ ريّ جميع الأراضي الزراعية المجاورة. ثمّ تُوجّه المياه الزائدة في قناة رئيسية أخرى، تقوم بتوزيعها على قسم آخر من الحقول. وكان حكم هذا الماء يختلف عن الماء الذي يأتي من العين، لذا نجد أنّه عند تقاطع قناتين، واحدة تحمل ماء العين والأخرى المياه الزائدة، فلا بدّ من رفع قناة عن الأخرى بقنطرة حتى لا يختلط ماؤهما(١١٠).

وكانت مياه السيول حقاً لجميع المزارعين، ومصدر إرواء، أولاً، للحقول القريبة من مجراها، ثم للحقول التي تأتي بعدها، بحيث ينال جميع المالكين الذين تقع أراضيهم على جانبي مجرى السيل حقوقهم من الماء. ويبدو أن حقوق هؤلاء المزارعين في الريّ كانت مصانة، فلم يكن يسمح لأحدٍ أن يدّعي ملكية مياه السيول، أو التحكّم بمجراها، أو الاعتداء عليها وتخريبها. كما لم يكن يسمح للمالكين الجدد الذين استصلحوا أراضيهم وزرعوها، أن يسقوا من هذه المياه إلاّ بعد أن يتمّ ري الأراضي التي كانت مزروعة قبلاً، حتى ولو كانت الأراضي المستصلحة حديثاً تقع في المناطق العالية من الوادي. وإلى جانب ذلك كان على المزارعين أن يستهلكوا من الماء ما يحتاجون إليه، وأن يفتحوا ثغرة في أسوار حقولهم لتصريف المياه إلى الحقول التالية وكانت تُقدّر حاجة الاستهلاك ببلوغ الماء ركبة الرجل، أو كعبيه، أو قدر ذراع، وذلك حتى تغمر المياه الحقل كله، ويُعرف هذا النظام بالمسند باسم: م - هـ - ض - ر - م(١١١).

---

(١١٠) F.S.Vidal: The Oasis of al Hasa, The Arabian American Oil Company 135, P135-136.

نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٤٤.

(١١١) بيستون: المعجم السبئي، ص٣٦ و٤٠.

وكان ضمان تطبيق هذه الأعراف، يقع على عاتق السلطة المحلية التي تعيّن ممثّلاً عنها لمراقبة سقي المزروعات، بحيث يكون هذا الممثل مسؤولاً عن أية مخالفة، أو إساءة لاستخدام مياه الريّ، وأن يتمتّع بخبرة واسعة في توزيع الماء على الأراضي المزروعة بالعدل والإنصاف، ووفقاً للنسب المقرّرة عُرفاً وقانوناً. وقد ذُكر هذا الموظف في بعض النقوش العربية تحت اسم (م ـ د ـ ر ـ ر) أي مراقب الساقية[١١٢]، وعُرف في عصر حسن الهَمْدَاني باسم «الدائل»[١١٣].

٤ ـ معاملات المزارعة وتأجير الأراضي:

كان ملاّك الأراضي الصغار يعملون مع أسرهم في الزراعة، فيزرعون ما يملكون من حقول لتأمين رزقهم ورزق عيالهم. في حين كان أصحاب رؤوس الأموال، من ملوك وقادة وأقيال ورؤساء قبائل، يقومون بتأجير أملاكهم لفرد أو جماعة، كما كانت الدولة تؤجر أملاكها أيضاً[١١٤]، أو تطلب من موظفيها القيام بهذه المهمّة. ويكون ريعها لصالح الحكومة، حيث تصرف بعضه في المشاريع العامّة كبناء السدود والقنوات والطرق والمعابد..، وتصرف بعضه الآخر على القوات المسلّحة كغذاء وعتاد.. وعادة كانت الدولة تُعيّن موظفاً، لمدة سبع سنوات، للإشراف على أملاكها. وقد شكر أحد الموظفين الإله المقه (إله القمر) على ثقة الملك في تعيينه مشرفاً على أراضي الدولة لمدّة سبعة أعوام، في كل من مأرب وصنعاء، على حدّ ما سُجّل في «النقش جام ٦٤٧/ ٢٦/ ٢٩»[١١٥].

---

(١١٢) المرجع نفسه، ص ٣٦.

(١١٣) الحسن الهمداني: الإكليل، ج٨، ص١٢١.

(١١٤) كانت أراضي الدولة كثيرة منها الأراضي التي تملكها بصفتها السلطة الحاكمة، والأراضي التي حصلت عليها عن طريق الحروب واستولت عليها بعد هزيمة أصحابها، والأراضي التي صادرتها من أصحابها.

(١١٥) Jamme: Sabaean Inscription from Mahram Bilqis, P149-150.

وكذلك كانت أملاك المعابد، التي تحجز باسم الآلهة، والتي يتولّى إدارتها مشرف يُدعى رشو(١١٦)، تُؤجّر لمن يزرعها بعقد محدّد الشروط، أو يُجلب لها مزارعون يعملون بأجور معلومة، أو يقوم بزراعتها عبيد المعابد، أو يستمرّ الواهبون في زراعة الأراضي التي منحوها وقفاً للآلهة، أو يمنحها رجال الدين لمن يزرعها مقابل دفع العشور عنها(١١٧). وكان ريع هذه الأملاك يعود لخير الهياكل والقيّمين عليها. وقد اكتُشفت نقوش كثيرة تتحدّث عن أملاك دور العبادة وتنظيمها، منها نقش يشير فيه صاحبه إلى قرابين قُدّمت للإله عثتر الذي أرحب على جميع أرض عثتر ومنحها سقياً متوالياً في موسمي الخريف والربيع(١١٨)، ومنها نقش معينيّ سجلّه أحد أفراد قبيلة «ظلومان»، من رعايا اليفع ياسر وابنه حفن ريال، ملكي معين، وقد وهب هذا الفرد وإخوته أملاكاً للإله عثتر ذي فيض وود(١١٩).

وكانت الأرض المؤجّرة يُطلق عليها بلغة أهل جنوب شبه الجزيرة اسم «مقبلت»(١٢٠). وتُؤجّر، لمدّة زمنية معينة، لمن يقوم بتعهّدها وزراعتها مقابل شروط محدّدة. وتُعرف في النصوص القديمة باسم «الوقف» أو «وقفهم»(١٢١). وقد أشار النقش (٦٤٠٤ ر) إلى عقد مزارعة، وُضع بين الدولة، بصفتها مالكة لأرض زراعية، وبين قبيلة سخيم الأرستقراطية التي تولّت زراعة هذه الأرض، وتحمّلت تبعاتها المالية والقانونية أمام الحكومة. ويبدو أن هذه القبيلة لم تكن تباشر، دائماً، بزراعة الأرض بنفسها، بل كانت في أغلب الأوقات تُسخّر العبيد

---

(١١٦) Ibidem, P193-194.

(١١٧) A.F.I. Beeston: The labakh texts, Qahtan studies in Old South Arabian Epigraphy, Luzac and Co. London 1971, P10-11.

(١١٨) أحمدحسين شرف الدين: اللغة العربية قبل الإسلام، طبعة ثانية، مطابع الفرزدق، الرياض ١٩٨٥، ص١١٢.

(١١٩) يحيى نامي: نقوش عربية جنوبية، المجموعة الثالثة، نقش رقم ١١، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٢٠، الجزء الأول، سنة ١٩٥٨، ص٥٧.

(١٢٠) بيستون: المعجم السبئي، ص١٠٢.

(١٢١) A.F.I. Beeston: Warfare in Ancient South Arabia, Qahtan studiesin Old South Arabian Epigraphy, Luzac and Co. London 1976, P8.

للقيام بذلك، أو تستأجر العمال لهذه المهمّة، أو تُؤجرها بدورها إلى مزارع أو أكثر(١٢٢).

غير أنّ العرب في القديم قد عرفوا أنواعاً عديدة من عقود التأجير والمعاملات الزراعية، منها المحاقلة وهي تأجير الأراضي الزراعية لقاء مبلغ من المال، قد يكون عيناً كثلث الإنتاج أو ربعه، وقد يكون نقداً من الذهب أو الفضة.

ومنها المزارعة وهي تعني أن يسلّم المالك أرضه مع البِذار مقابل نسبة من الثمر أو المحصول، يدفعها المستأجر عند القطاف أو الحصاد. والمخابرة وهي أن يقدّم المؤجّر أرضه للمزارع الذي يقوم بدوره بتأمين البِذار على نفقته، ويدفع، ما اتُفق عليه من حصة في نهاية الموسم، للمالك.

ومنها أيضاً المخاضرة وهي أن يبيع المالك ثمار بستانه قبل أن تنضج، كي يتخلّص من المخاطر التي قد يتعرّض لها الثمر أو المحصول بسبب الجفاف وغيره، أو يتخلّص من مشقّات جني الغلال وجمعها وحراستها ونقلها وبيعها وتخزينها، وما يحيط بذلك أو يتصل به من معاملات تستلزم كثيراً من الجهد والعناء. وفي كثير من الأحيان كان ينتج عن عقد المخاضرة خلافات ومنازعات بين الأطراف المتعاقدة، بسبب ما قد يصيب الثمر من آفات أو تلف، تعرّض المحصول كله أو بعضه للضياع. وهذا ما يدفع المشتري أو الضامن للمطالبة بفسخ العقد واسترجاع ما دفعه من مال لصاحب الأرض.

وكذلك المساقاة وهي أن يعمل شخص على إيصال المياه إلى أرض شخص آخر لقاء نسبة معلومة من الإنتاج. والمحاينة وهي الحصاد لقاء أجر. والقصارة وهي الاتفاق على ما تبقى في السنابل من الحبّ، فأحياناً تكون من نصيب الذاري وأحياناً أخرى من نصيب صاحب الزرع(١٢٣).

---

(١٢٢) Beeston: The Labakh texts, Qahtan Studies in Old South Arabian Epigraphy, P15.

نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية..، ص١٤٩.

(١٢٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٢١٦ - ٢٢٠. لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، طبعة ثانية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩، ص٢٩٨ - ٢٩٩.

وكان من بين شروط هذه المعاملات أو العقود، أن يُقْدِم المالك على فسخ العقد وإبطال أعمال الإجارة، إذا ما وجد أن المستأجر قد أهمل الأرض أو قام بأعمال تسيء إليها وتضرّ بالإنتاج الذي يكون للمالك نصيب فيه(١٢٤).

وإلى جانب ذلك كانت الدولة تمنح الأراضي لمن يريد استصلاحها وزراعتها، وتسمح له بعد ذلك بامتلاكها بناء على حقي السقاية والعِمارة. وقد ذُكرت هذه المعاملات في المسند تحت عبارة «م س ت ق ي ن/ م ش ر ع ن»(١٢٥).

وتشير بعض النصوص إلى وجود هيئات زراعية لها اختصاصات معينة منها:

- هيئة تهتمّ بالأراضي الزراعية وتمنحها لآجال محدّدة لمن يزرعها مقابل وديعة نقدية، ومَن يُخالف شروط هذه المنحة ويخرّب الأرض يخسر وديعته، ويبدو أنّ هذه الهيئة قد ساعدت في استصلاح الأراضي وإعمارها، وسمحت للمزارعين بالعمل في حقول لمدد قد تطول أو تقصر وفقاً لرغبتهم، دون أن يترتّب عليهم التزامات مالية غير الوديعة والضرائب المقرّرة من قبل الحكومات ورجال الدين(١٢٦).

- وجمعيات زراعية تتألف عادة من مجالس، تضمّ ثمانية أعضاء، ويترأسها مسؤول، يُنتخب لوقت معلوم. وكانت هذه الجمعيات تختلف من مجتمع لآخر، ففي المجتمعات الزراعية الصغيرة كالقرى والدساكر كانت تتميّز بقلّة عدد أعضائها، وفي المجتمعات الكبيرة كالمدن، كانت تتميّز بكبر عدد أعضائها، وبانضمام كبار ملاّك الأراضي بما فيهم الملك إلى مجالسها. أمّا أهدافها فكانت الإشراف على الأراضي الزراعية، وحفظ حقوق المزارعين، وتأمين البذار وغيره، كما كان عليها أن تتحمّل، أمام الدولة، مسؤولية دفع

---

(١٢٤) جواد علي: المرجع السابق، ص٢٢١. لطفي يحيى: المرجع السابق، ص٢٩٩.

(١٢٥) بيستون: المعجم السبئي، ص١٣٤.

(١٢٦) Albert Jamme: Yemen expedition, Carnegie Museume of Natural history, Special Publication, Pittsburg, 1976, P84.

الضرائب وبدلات الإيجارات، وما يترتّب على المزارعين من واجبات[127]. ولا ريب أنّ هذه الجمعيات قد أشاعت جوّاً من التعاون بين المزارعين، ونظّمت عملية الحصاد وجمع الثمار في أوقات محدّدة؛ وقد ساعد ذلك في نموّ الزراعة وتطورها في عصور ما قبل الإسلام[128].

٥ ـ مخاطر الزراعة وضرائبها:

وعلى الرغم من النمو الذي أصاب الزراعة العربية في العصور القديمة، وخاصّة في اليمن، إلاّ أنّها كانت تتعرّض، كغيرها، لمخاطر طبيعية وبشرية. ومن المخاطر الطبيعية: الجفاف وانحباس الأمطار لفترات طويلة، وما يتبع ذلك من قحط ويباس المزروعات وتدهور في الإنتاج؛ ومنها تعرّض النبات للآفات الزراعية كالجراد وغيره؛ وقد أشارت النقوش الأثرية إلى هذه المخاطر وما نتج عنها من كوارث أضرّت بالمزارعين، فبعض النقوش الجنوبية تتحدّث عن تضرّع الناس للآلهة كي تساعد في تساقط الأمطار في مواسمها، وبعض النقوش الأخرى تذكر بعض الآفات الزراعية التي كانت تفتك بالغلال، من بينها أسراب الجراد[129]. ومن المخاطر الطبيعية أيضاً الفيضانات التي تسبّبها السيول المنحدرة من الجبال التي يعجز الفلاحون، في كثير من الأحيان، من السيطرة عليها، كالسيول التي حدثت في اليمن وهدّمت سدّ مأرب وقضت على البساتين المجاورة. وفي جنوب شبه الجزيرة نقوش كثيرة سجّلت بعض الكوارث الطبيعية التي وقعت حينذاك، كما سجّلت تضرّع الأهالي أو شكرهم للآلهة على حماية مزارعهم من فيضانات السيول المدمّرة[130]. أمّا المخاطر البشرية فتتمثّل

(١٢٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٢٢٣ ـ ٢٢٤. لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، ص٣٠٠.

(١٢٨) جواد علي: المرجع السابق، ص٥٣ ـ ٥٤.

(١٢٩) مطهر الأرياني: في تاريخ اليمن، شرح وتعليق على نقوش لم تنشر، طباعة مصر، القاهرة ١٩٧٣، ص١٣٤. بيستون: المعجم السبئي، ص١٠٥.

(١٣٠) الأرياني: المرجع السابق، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

Jamme: Inscription from Mahram Bilquis, J610/5-6, P107.

بالحروب التي أدّت إلى تخريب المزارع وتدمير وسائل الري؛ ذلك أن هدم الآبار وردمها، وتخريب الحقول الزراعية وإحراق الأشجار واقتلاعها، كانت من الوسائل التي يلجأ إليها العدو لإضعاف خصمه. وقد ألحقت المعارك العسكرية أضراراً جسيمة بالقطاع الزراعي في بلاد العرب في عصور ما قبل الإسلام. وقد تحدّثت نقوش كثيرة عن هذه الأضرار، فالنقش (جام ٧٧٥/ ١٤) الذي كتبه ايلشرح يحضب وأخوه، من ملوك سبأ وذي ريدان، يذكر أنّ قواتهما التي هاجمت نجران، دمّرت حوالي ٦٠ ألف قطعة زراعية، وهدّمت ٩٧ بئراً. والنقش (جام ٦٢٥) سجّل تدمير أراضي زراعية وقنوات ري وآبار تابعة للعدو(١٣١).

وإلى جانب هذه المخاطر كانت السلطات الحاكمة ورجال الدين يفرضون على أصحاب الأراضي الزراعية ومستأجريها ضرائب إلزامية، يعلنونها على الناس بمراسيم ملكية، ويعيّنون مندوبين لجمعها يُعرفون باسم أمناء الضرائب. ويبدو أنّ الدولة كانت تنفق هذه الضرائب على المشاريع العامّة، وعلى بيوت الآلهة. وقد أشارت بعض النقوش الأثرية إلى ترميم معبد أو إتمام بناء من الضرائب المقدّمة للآلهة؛ كما أشار بعضها الآخر إلى تقديم قرابين وتماثيل من الذهب أو البرونز من عُشْر الإنتاج(١٣٢). وهذا يدلّ على أنّ الضرائب الزراعية كانت تُدفع نقداً أو عيناً، وأنّ قيمتها عُشْر المحصول، وأنّ مقدارها يختلف حسب نوع الأراضي وريّها، فالأراضي التي تُسقى من مياه الأمطار تدفع ضرائب أقلّ من الأراضي التي تُسقى من مياه المشاريع كالسدود والقنوات والآبار

(١٣١) Jamme: Op.Cit, P128-129. Beeston: Warfare in ancient South Arabia, P40.

(١٣٢) أحمد شرف الدين: اللغة العربية قبل الإسلام، نقش ١٠، ص١١٣ ـ ١١٤.

Beeston: The Labakh Texts, Qahtan Studies in Old South Arabian Epigraphy, P17.

أحمد شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي، ص٤٩. يحيى نامي: نقوش خربة براقش، مجلة كلية الآداب، المجلد ١٦، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٤، النقش (توفيق ٢٠)، ص٢.

Jamme: Sabaean Inscription from Mahram Bilquis, J610/9-10-11, P112, 153-154, J650 P5.

وغيرها[١٣٣]. ويُخبرنا النقش (الأرياني ٢٥) أنّ أقيال غيمان دفعوا من مزارعهم القياض، التي تُسقى من مياه السيول، عشر الإنتاج إلى الإلّه المقة. كما يخبرن النقش (الأرياني ٢٠) أنّ أقيال بكيل دفعوا عشر المحصول من الأراضي التابعة لهم والأراضي التي يملكها أفراد القبيلة كضرائب للدولة[١٣٤].

٦ ـ المحاصيل الزراعية:

كانت المحاصيل الزراعية في بلاد العرب، في عصور ما قبل الإسلام، كثيرة ومتنوّعة، وذلك تبعاً لتنوّع المناخ والبيئة الطبيعية. وقد ذكر القرآن الكريم عدداً من هذه المحاصيل، وأشارت النقوش العربية التي اكتُشفت في جنوبي شبه الجزيرة وشمالها ووسطها إلى معظمها. ومن أبرز هذه المحاصيل النخيل والأعناب والحبوب.

وتُعدّ شجرة النخيل من أكثر النباتات انتشاراً في بلاد العرب، إذ لا تكاد منطقة من مناطق شبه الجزيرة تخلو منها، وإن كانت كثافتها وجودة ثمرها تختلف من منطقة لأخرى. ويُعتقد أنّ وجودها يعود إلى عصور قديمة حيث أسفرت الدراسات الأثرية في عُمان عن وجودها منذ الألف الثالث قبل الميلاد[١٣٥].

وأشادت كتابات العصر الهلّيني والروماني بأهمية شجرة النخيل وكثرة أعدادها في بلاد العرب وجودة ثمرها. ففي كتابه النباتات أسهب ثيوفراستوس في الحديث عن مزايا نخيل بلاد العرب، وعن طريقة زراعته وتلقيحه وأنواع تموره[١٣٦]. وفي مؤلفه يذكر ديودوريس الصقلي أنّ تمور شبه الجزيرة متعددة الألوان، فمنها الأصفر والأحمر والأسود، وأن أشجارها تُزرع في شمال غربي

---

(١٣٣) Jamme: Op.cit, J703, P193-194.

(١٣٤) مطهر الأرياني: في تاريخ اليمن، ص١٢٧ ـ ١٢٨ و١٣٨.

(١٣٥) T.Berthoud and S.Cleazion: Farming Community of the Oman Penninsula, the Ministry of Information and Culture, Oman, Journal of Oman Studies, 1983, Vol6, Part 2, p245.

(١٣٦) Theophrastus: Enquiry into Plants, Bk2, P137-139 and 155.

شبه الجزيرة على هيئة جلول مستطيلة تتخلّلها جداول مياه لريّها(137). أما استرابون فقد تحدّث عن فوائد النخلة وقال إنّها مصدر للخبز والخمر والخل والعسل (الدبس)، كما قال إنّ هناك قصيدة فارسية تذكر ٣٦٠ فائدة للنخلة، ثم عدّد الصناعات التي تعتمد على بعض أجزائها كالسعف وغيرها(138). وفي كتاب التاريخ الطبيعي أفرد بلينيوس فصلاً عن النخلة وفوائدها(139). واعتبر صاحب كتاب الطواف أنّ التمور كانت من أهمّ صادرات بلاد العرب حيث كانت تُنقل من ميناء عمانا (صحار اليوم) إلى الأسواق العالمية(140). كما كانت تُصدّر من شرقي شبه الجزيرة وخاصّة من ديلمون إلى بلاد الرافدين حيث كانت هذه المادة تحتلّ قوائم واردات بلاد سومّر وبابل وآشور وكلدان(141).

وقد شكّلت التمور الغذاء الرئيس لسكان شبه الجزيرة، فكان يتناولها الإنسان العربي مع شيء من حليب النوق، أو شيء من لحم الإبل في مناسبات نادرة، ويصنع من بذوره المدقوقة أقراصاً ويقدّمها علفاً لإبله(142). ويبرز اهتمام العرب بالنخيل في عصور ما قبل الإسلام، من كثرة ورودها في أشعارهم، وذكرها في معظم النقوش التي خلّفوها، حتى إنّهم أطلقوا على المزرعة كلها اسم النخيل، فكان يقال نخلهم بدل مزرعتهم(143).

وفي كتاب «Le Berceau de l'Islam» وردت ملاحظة ذات دلالة يُشير فيها صاحبها إلى أن لفظه «نخل»، وهي مصدر من فعل نَخَل يفيد معنى استخلاص الشيء الطيب من غيره من الشوائب، إذن هذه الشجرة هي خلاصة

---

(١٣٧) Diodorus Siculus: Library of History, Bk2, P45.

(١٣٨) Strabo: The Geography of Strabo, bk16, P215.

(١٣٩) Gaius Pliny: Natural History, Bk13, P115.

(١٤٠) The Periplus, chapter 36, P37.

(١٤١) Bendt Alster: «Dilmun» Bahrain and the Alleged Paradise in Sumerian Myth and literature in Dilmun, ed. by P.Potts Berlin, Dietrich Reimer Verlage, 1983, P39.

(١٤٢) لطفي يحيى: العرب في العصور القديمة، ص٣٠٠.

(١٤٣) Jamme: Inscription from Mahram Bilqis, J 550/6, P9-10.

نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٣٤.

الشجر جميعاً؛ كذلك لفظة تمر التي هي نطق آخر للفظة «ثمر»، وكأنّما المقصود هو أنّ الثمر إذا ذُكر وحده فلا بدّ أن يكون ثمر النخيل أولاً وقبل كل شيء، فإذا كان المقصود ثمراً آخر فلا بدّ أن يُحدّد نوعه(١٤٤). هذا إلى ما نراه في الرسوم والحفريات التي تركها سكان بلاد العرب في عصور ما قبل الإسلام في مواضع عديدة من آثارهم، والتي يظهر فيها رسم النخلة بشكل ظاهر(١٤٥). وإلى ما أوردة كتّاب المسلمين عن النخل وأنواع التمور، فقد ذكر الحسن الهمداني أنواع التمر التالية: الصفري، السري، اللصف، الفحاحيل، المحيني، الجعادي، الشماريخ، البياض، السواد، البرّي، العسب، المدبس(١٤٦).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ في مكّة والمدينة المنوّرة، قد ذكر أشجار النخيل والأعناب في آيات كثيرة، وأعطاهما المكانة الأولى بين النباتات الأخرى التي أشار إليها، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾(١٤٧).

ويبدو أن زراعة الكرمة كالنخيل تعود إلى عهود قديمة، وقد ظهرت أشجارها بشكل واسع، مثل أشجار النخيل، في زخارف سكان شبه الجزيرة العربية، وخاصّة في دولة الأنباط وبلاد اليمن(١٤٨)، ونالت شهرة واهتماماً

(١٤٤) Henri Lammens: Le Berceau de l'Islam, Rome 1914, P85.

(١٤٥) لطفي يحيى: العرب في العصور القديمة..، باب الملاحق ص٤٤١، نقش رقم ٢٠.
Jamme: Inscription from Mahram Bilquis, P9-10.

(١٤٦) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٠٦ ـ ٣٦١.

(١٤٧) قرآن كريم، سورة الأنعام آية ٩٩، وذُكرت هذه الأشجار في سورة البقرة آية ٢٦٦، وسورة الإسراء آية ٩١، وسورة النحل آية ٦٧. وورد اللفظ أيضاً في سور: مريم، الكهف، طه، الشعراء، قّ، القمر، الرحمٰن، الحاقة، الرعد، المؤمنون، يّس، آيات: ٢٣ و٢٥، ٣٢، ٧١، ١٤٨، ١٠، ٢٠، ١١ و٦٨، ٧، ٤، ١٩، ٣٤ على التوالي.

(١٤٨) Western Arabia and the Red Sea, P493. Nelson Glueck: The Other Side of Jordan, American School of Oriental Research, New Haven, 1940, P175, 178.

كبيرين، نظراً لكونها فاكهة طيّبة الطعم، ومصدراً لصناعة الخمور في اليمن وقرية آثافت وجبل حكر ونجران وحوران(١٤٩). وتُشير بعض النصوص العربية الجنوبية إلى المعاملات التي تتعلّق بزراعة الكروم، وبتجفيف الأعناب زبيباً. ومن بين هذه النصوص نصٌّ يُشير إلى توزيع أبرهة الحبشي لحصص من الزبيب على العمال، بمناسبة إسهامهم في ترميم سدّ مأرب(١٥٠). وأسهب الشعراء الجاهليون في وصف الكرمة والخمرة معاً، وأشاد الأعشى الكبير بأعناب أثافت، إحدى مدن نجران، وقت قطافها وعصرها حيث قال:

أحب أثافت يوم القطا ف ووقت عصارة أعنابها(١٥١)

وعدّد الهَمْدَاني أنواع العنب، فذكر: الأحمر والأبيض، والجرشي والملاحي والزبادي والتبوكي والتربي والرمادي(١٥٢).

وذكرت الكتب الإغريقية والرومانية الزيتون كأحد محاصيل بلاد العرب، واشتهرت به بلاد الأنباط والبحرين وتدمر وسوريا وفلسطين، ويُعتبر مصدراً رئيساً للزيت قديماً وحديثاً(١٥٣). وتُعدّ شجرته، مع شجرة التين، مباركة، إذ باركها الله سبحانه وتعالى، وجعل زيتها صافياً، لا يؤثر عليه حرّ ولا برد، ويكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ

(١٤٩) بيستون: المعجم السبئي، ص١٧.

(١٥٠) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٧٣. لطفي يحيى: العرب في العصور القديمة، ص٣٠٣.

(١٥١) ولمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى الأب لويس شيخو اليسوعي: مختارات من مجاني الأدب في حدائق العرب، الجزء الأول: العصر الجاهلي، تبويب وشرح وتحقيق فؤاد أفرام البستاني، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٦٠.

(١٥٢) الحسن الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٩٧ و٣٥٤. والإكليل، ج٨، ص١١٩.

(١٥٣) Strabo: Geography, Bk16, P343. Pliny: Natural history, Bk13, P115 Philp Hammond: TheNabataean, their History Culture and Archaeology, Sweden, Paul Astroms Forlag, Gothenburg 1973, P73.

﴿تَمۡسَسۡهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾﴾[١٥٤].

وفي سورةٍ أخرى يُقسم الله تبارك وتعالى بالتّين والزّيتون قسماً جازماً بأنّه سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم.. ويُعطي، عزّ وعلا، للسّورة اسم شجرة التّين، وما ذلك إلاّ ليوجه فكر الإنسان وبصره إلى هاتين الشجرتين ومكانتهما عند الله تعالى، وما فيهما من فوائد ومنافع للناس. يقول الله سبحانه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾﴾[١٥٥].

وتعيش شجرة التّين في البراري، وتُزرع في البساتين والقرى، وقد اشتهرت بزراعته المرتفعات الغربية، والجبل الأخضر في عُمان، وفي نجد والبحرين، وشمالي شبه الجزيرة وسوريا ولبنان وفلسطين.. ويؤكل طريّاً ومجفّفاً يابساً[١٥٦].

وتُشير النقوش العربية إلى وجود نبتة القطن في بلاد العرب[١٥٧]. كما تتحدّث المصادر القديمة عن وجود القطن في شبه الجزيرة العربية، حيث كان ينمو بريّاً في مرتفعات ظفّار وفي جزيرة البحرين، وكان يشكّل أحد صادرات شبه الجزيرة إلى الخارج[١٥٨]. وكان يُزرع في بلاد العرب الكتان، وهو مصدر

---

(١٥٤) قرآن كريم، سورة النّور، آية ٣٥.

(١٥٥) قرآن كريم، سورة التّين، الآيات ١ ـ ٤.

(١٥٦) يوسف الغنيم: جزيرة العرب في كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري، ص١٢١.
Pliny: Natural history, Bk12, P29. Glueck: The other side of Jordan, P182.

(١٥٧) محمود الروسان: القبائل الثمودية والصفوية، دراسة مقارنة، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٧هـ، ص١٤١. يوسف الغنيم: الجزيرة العربية في كتاب المسالك والممالك للبكري، ص١٢١. حسن صالح شهاب: أضواء على تاريخ اليمن البحري، دار العودة، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨١، ص١٥٥ ـ ١٥٦.

(١٥٨) Theophrastus: Enquiry into plants, bk4, P343. Pliny: Natural history, Bk12, P27. Western Arabia and the Red Sea, P595. The Periplus of the Erythean Sea, P71.

هام للزيت ولخيوط النسيج والألبسة. وقد عُثر على آثار حبوبه في فخار جنوب شبه الجزيرة العربية الذي يُعتبر المصدر الرئيس له، ومن هناك صُدّر إلى أسواق مصر[(١٥٩)].

وتأتي الحبوب في الدرجة الثانية بعد التمور كمصدر للغذاء في بلاد العرب في عصور ما قبل الإسلام. ويحتلّ القمح المرتبة الأولى بينها، ويُزرع في بطون الأودية وواحاتها، وزراعته تستمرّ طوال العام، فهو يُزرع شتاء في الأقسام الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة العربية، ويُزرع صيفاً في الأقسام الجنوبية منها، حسب اختلاف تساقط الأمطار[(١٦٠)].

وكانت البلاد العربية تنتج كمية كبيرة من القمح، وتُعرف في القديم بإهراءات روما؛ أمّا ما يرد إليها من الخارج، فهو عبارة عن هدايا كان يتودّد بها الرومان لملوك حِمْير للسماح لهم بارتياد الموانىء العربية والمتاجرة فيها، على حدّ ما جاء في كتاب الطواف[(١٦١)]. ولزراعة القمح كانت الأراضي تُحرث وتُنكش مرتين، سواء الأراضي البعلية أو الأراضي المروية، ويُحصد المحصول في نهاية الموسم باقتلاع السنابل من جذورها، أو بقطعها بالمنجل المعدني، ثمّ يُداس ليُفصل الحبّ عن القشّ، إمّا بواسطة المزارعين أنفسهم، وإمّا باستخدام الحيوانات التي تجرّ حجراً من خلفها على البيادر التي تكون عادة مبلّطة بأحجار الغرانيت، وبعدها يُذرى باليد أو المذراة أو باستعمال سلال مخصصة لذلك، يُحرّكها الفلاح في الهواء، ثمّ تجمع الحبوب وتخزن في مخازن خاصّة داخل البيوت ويُطحن قسم منها. أمّا القش الذي يُسمّى تبناً فيستخدم علفاً للحيوانات[(١٦٢)].

---

(١٥٩) نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. .، ص١٣٨ ـ ١٣٩.

(١٦٠) Western Arabia and the Red Sea, P483-484.

(١٦١) The Periplus, Chapter 17, P31.

(١٦٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٥٣.

Western Arabia and the Red Sea, P481. Kamal Abdulfattah: Mountain Former and Fellah in Asir, South West Saudi Arabia, Erlanger Geographische Arbeiten, Erlangen 1981, P50.

وتذكر النقوش العربية الجنوبية أن الذرة انتقلت من شرقي أفريقيا إلى شبه الجزيرة العربية منذ عهد مبكر، ومنها انتقلت إلى الهند عن طريق عُمان؛ وقد ظهرت في بلاد العرب منذ الألف الثالث قبل الميلاد. وتُزرع الذرة في الأراضي البعلية، وفي الأراضي المروية، وتنتج أكثر من محصول في العام الواحد، ويتمّ جمع المحصول ويُداس ويُذرّى كالقمح. وذكر الهمداني أنّ الذرة كانت تُخزن في مدافن تحت الأرض حتى أنّ بعضها يسع خمسة آلاف قمبيز، وكانت الذرة تُطحن ويصنع منها الخبز، وتُقدّم أوراقها وأغصانها علفاً للماشية(١٦٣).

وعُرف الشعير في بلاد العرب منذ زمن قديم، وتحديداً منذ الألف الثالث قبل الميلاد في عُمان، والألف الأول قبل الميلاد في جنوب شبه الجزيرة، وهو يُطحن ويُصنع منه خبز أكثر الأعراب وخاصة الأمراء منهم. ويُقدّم القشّ والحبّ علفاً للحيوانات. والشعير أنواع منه: الشعير العربي وهو أبيض وحبّه كبير، والشعير الحبشي وهو أسود الحبّ(١٦٤).

وكان العرب يزرعون الدخن، وهي حبوب تشبه الذرة إلاّ أنّها أصغر منها، وزراعتها لا تحتاج إلى عناية كبيرة، لذا كان الفلاحون يبثون بذورها في الأراضي البعلية، وبخاصة في القيعان والسهول الرملية، وتنبت خلال ثلاثة أشهر، وتُحصد وتُداس وتُذرّى كالقمح، ويُصنع من دقيقها الخبز الذي يعتبر مصدراً هامّاً لغذاء البدو، كما يقدم الدخن علفاً للحيوانات(١٦٥).

ومن الحبوب الطهف وهو أشبه ما يكون بالدخن، وله حبّة حمراء ودقيقة

---

(١٦٣) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢١٥ و٢٦٠. بيستون: المعجم السبئي، ص٤٩. العقيلي: المخلاف السلماني، ج١، ص٤٤.

Western Arabia and the Red Sea, P480. Abdul Fattah: Mountain Farmer and Fellah in Asir, P46.

(١٦٤) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة: المخصص، الجزء ١١، طبعة مصر ١٣١٦هـ، ص٦١. نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٣٨. لطفي يحيى: العرب في العصور القديمة، ص٣٠٣. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٢٥٩.

(١٦٥) Western Arabia and the Red Sea, P480. Abdul Fattah: Mountain Farmer and Fellah in Asir, P49.

تشبه حبّة الذرة؛ وينمو الطهف طبيعياً، ويزرع في الشعاب والجبال وفي الجرود التي تمتلىء بمياه الأمطار، ولا يحتاج إلى عناية كبيرة، ولا إلى فترة كبيرة لينضج، بل ينمو بسرعة كالدخن، ويُصنع من حبوبه الخبز، كما يُقدّم علفاً للماشية(١٦٦).

ومن نباتات شبه الجزيرة العربية السمسم الذي يُزرع في اليمن كالحبوب، ويستخرج من حبوبه الزيت بعد عصرها إذ أنّ الحبة الواحدة منه تُعطي نصف وزنها زيتاً. وقد عُثر على بقايا معاصر السمسم في جنوب شبه الجزيرة، ممّا يدلّ على انتشار هذه الصناعة هناك. وكان زيت السمسم يدخل في غذاء الإنسان العربي وفي صناعة أدويته(١٦٧).

ومن الحبوب التي تزرع في بلاد العرب أيضاً الفول والحمص والعدس والبِيْقَة والكِرْسَنَّة والشوفان والكَمُّون الذي يُعْطي زيتاً وهو من التوابل. ومن محاصيله كذلك قصب السكر الذي تحدّث عنه بلينوس فقال إنّه يسيل منه سائل أبيض غليظ كاللبان ويلتصق باللسان(١٦٨). والرّمّان والموز والخوخ والسفرجل والإجاص والتفاح، واللوز والجوز وهما من الأشجار التي تنمو برّياً، وأخشابهما صلبة كانت تُستخدم في البناء(١٦٩). وذكرت بعض المصادر أن الزنجبيل كان من منتوجات شبه الجزيرة، وقال بلينوس أنّ له مزارع خاصّة. ومن خصائصه سرعة التسوس(١٧٠).

ومن المفيد أن نشير إلى بعض مناطق الإنتاج الزراعي في بلاد العرب في عصور ما قبل الإسلام.

---

(١٦٦) Western Arabia and the Red Sea, P482-483.
نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٣٨.

(١٦٧) Western Arabia and the Red Sea, P595. Abdul Fattah: Mountain farmer and fellah in Asir, P51.

(١٦٨) Pliny: Natural history, Bk12, P23.

(١٦٩) الهَمْدَاني: الإكليل، ج٨، ص١١٩. وصفة جزرة العرب، ص٣٥٦. عرام: أسماء جبال تِهامة وسكانها ص٤٧ و٦٤.

(١٧٠) Pliny: Natural history, Bk12, P21.

وتُعدّ اليمن قديماً، من أكثر مناطق شبه الجزيرة العربية تحضّراً، وقد دعاها جغرافيو العرب باليمن الخضراء، وفيها يقول الكلاعي:

هي الخضراء فاسأل عن رباها   يخبرك اليقين المخبرونا
ويمطرها المهيمن في زمان   به كل البريّة يظمؤونا
وفي أجبالها عزّ عزيز   يظلّ له الورى متقاصرينا[171]

وأطلق عليها اليونان اسم بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix)، وذلك لكثرة خيراتها ومزارعها وأشجارها ونخيلها وأثمارها ومياهها. ويقول هيرودوت إنّها تزفر أريجاً عطرياً، لأنّها البلاد الوحيدة التي تنتج البخور والمرّ والقصيعة..[172]. وذكر ابن الفقيه أنّ في «اليمن من أنواع الخصب وغرائب الثمر وطرائف الشجر ما يَستصغر ما ينبت في بلاد الأكاسرة والقياصرة»[173].

وكانت الزراعة في اليمن تعتمد على الأمطار، وخصوصاً الأمطار الموسمية التي كانت توفّر للفلاحين الماء الكافي، لسقي البساتين وزراعة الحبوب: كالبُر (القمح) والشعير والذرة، التي توسّعت زراعتها عقب انهيار سدّ مأرب[174]، كما تعتمد على مياه الريّ التي كانت توفّرها السدود والأحواض. وكان النخيل يكثر في مناطق نجران ووادي الجنات ومأرب. وكان أكثر تمر صنعاء يأتي من مخلاف مأرب، وبها جنس يُقال له الرئيس. وزُرعت كروم العنب على اختلاف أنواعه على السفوح المدرّجة وفي مخاليف صنعاء ووادي الجنات والأماكن الأخرى التي تتوفّر فيها المياه[175]. وكان أهل اليمن يكثرون من زراعة الكروم، بدليل وروده في كثير من نصوص المسند، وفيها أنّ أصحابها غرسوا كروماً في مناطق معيّنة..، وحفروا صور أغصان العنب

---

(١٧١) محمود شكري الآلوسي: بلوغ الأرب، باعتناء محمد بهجت الأثري، دار الكتاب العربي، مصر ١٣٤٢هـ، ص٢٠٣.

(١٧٢) جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، بيروت ١٩٦٣، ص٣٢٨.

(١٧٣) ابن الفقيه: كتاب البلدان، ص٩٢.

(١٧٤) ي. أ. بلياييف: العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى، ص٩٢.

(١٧٥) الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص٧٦ و١٠٢ و١٩٦.

وعناقيده في الأحجار، وعلى ألواح الجبس والأخشاب للزخرف والزينة[١٧٦]. وعنب اليمن أجناس وألوان وأحجام، وقد نُسب بعضها إلى أماكن زراعتها، فمنها: العنب الجرشي وهو منسوب إلى مدينة جرش في اليمن، والعنب الكلافي وهو منسوب إلى مدينة كلاف في شق اليمن[١٧٧].

ومن أشجار اليمن المثمرة أيضاً: الرّمّان والتفاح والإجّاص والخوخ والجوز واللوز... وغيرها، ومن خضرها: القثاء والخيار والبصل والثوم، وبعض أنواع البقول: كالعدس والحمص والفول، وأعلاف الحيوانات وما شابهها[١٧٨].

ونستنتج ممّا ذكره جغرافيو العرب من كثرة القرى والغلال، أنّ الزراعة في حضرموت كانت تتركّز في واحات الوادي الكبير، والشعاب المتفرّعة عنه. وكان الناس يزرعون، في هذه الأودية التي تكثر في قيعانها آبار الماء، النخيل والبُّر والذرة، ويستخدمون في أعمال الفلاحة الأدوات الحديدية والحيوانات في الحراثة، وذلك على شاكلة جيرانهم اليمنيين[١٧٩]. واشتهرت حضرموت وظفّار بإنتاج اللّبان الذي كانت مصر الفرعونية تستخدمه مع اللبّان اليمني والصومالي، كالبخور في المعابد، وفي تحنيط جثث الموتى. كما اشتهرت بشجرة المرّ التي كانت تزرع في الجبال ولها بساتين على سواني[١٨٠].

وفي عُمان كانت تكثر المياه الجوفية التي تظهر، في كثير من الأحيان، على سطح الأرض، أو تُستثمر بواسطة الآبار؛ وقد ساعد ذلك على انتشار الواحات العامرة بحقول الفاكهة وبساتين الرّمّان والموز وغيرها. والتي كانت

---

(١٧٦) جواد علي: المفصل في تارخي العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٢٦٣.

(١٧٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٩٦. جواد علي: المرجع السابق، ص٢٦٣.

(١٧٨) الهمداني: المصدر السابق، ص١٠٥.

(١٧٩) الهمداني: المصدر السابق، ص٨٦.

(١٨٠) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٦٠. دائرة المعارف الإسلامية، ج١٥، ص٤٢٤. أبو الفداء تقويم البلدان، ص٩٣.

عامرة أيضاً بحقول الحبوب في سهل الباطنة الساحلي، وفي واحات السفوح، وفي بعض الأودية الخصبة التي تخترق نجد وعُمان[181].

وكانت اليمامة غزيرة المياه، وذات عيون وآبار، ومزارع ومراع. ومن أوديتها: العِرْض أو وادي حنيفة الذي يبتدىء من غرب جبل طويق، ويتّجه شرقاً نحو الخليج العربي، وهو وادٍ هام تكثر فيه المياه الجوفية، وتسيل فيه مياه الأمطار عند هطولها[182]. وكان بنو حنيفة قد سكنوا اليمامة قبل ظهور الإسلام بنحو قرنين من الزمان، وقد ازدهرت مدينة حَجْر في عهدهم، واتخذها العرب سوقاً من أسواقهم، يفدون إليها من الأقاليم المختلفة للبيع والشراء[183]. وفي كتب التاريخ والجغرافية عند العرب القدماء، ذُكرت اليمامة بأنّها كانت من أخصب البلاد أرضاً، ومن أكثرها مياهاً وزرعاً ونخلاً. أمّا محاصيلها فكانت الحبوب والنخيل والأثمار، وقد اعتمد عليها المكيّون قديماً للحصول على ما يحتاجون إليه من حبوب[184]. وقال أهل اليمامة: «لا أطيب طعاماً من حنطتنا (قمحنا)، ولا أشدّ حلاوة من تمرنا، ولا أطيب مضغة من لحمنا، ولا أعذب من مائنا. .»[185].

وكان للواحات دور مهم في اقتصاد شبه الجزيرة العربية، لا يقلّ شأناً عن دور المناطق الزراعية الواسعة، بل إنّ دور الأولى متمّم لدور الثانية منهما. والواحات مناطق واسعة خصبة تشمل حقولاً صالحة للزراعة، وبساتين فاكهة، وأجمات نخيل، يرويها جميعها ينبوع ماء لا ينضب معينه. وتنتشر الواحات في عسير والحجاز وأواسط نجد والنفود الكبرى وجبل طيّىء (شمّر) ووادي الدواسر والأحساء، وفيها قرى كبيرة وصغيرة ونخل وزروع، وأسواق تجارية

---

(١٨١) الحسن الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٨٦. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٦٢.

(١٨٢) جواد علي: المفصل. . .، ج١، ص١٦٢.

(١٨٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٢١ ـ ٢٢٢ وج٤ ص١٠٢ ـ ١٠٣. ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٢٤٢.

(١٨٤) الحموي: المصدر السابق، ج٥، ص٤٤٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٢٠٣. الهَمْدَاني: صفة جزيرة العرب، ص١٣٩ ـ ١٤٠. ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. . .، ج٢، ص٤٤. جواد علي: المفصل، ج٦، ص٦٩٤.

(١٨٥) ابن الفقيه: كتاب البلدان، ص٨٧.

ومعابد للآلهة، ومراكز تموين لاستراحة القوافل التجارية التي تمرّ بجانبها. وكان يقطن الواحات قبائل متحضّرة، اعتمدت الزراعة كمورد رئيس في حياتها. وقد تحوّلت بعض هذه الواحات إلى مدن ومراكز حضرية كبرى كيثرب (المدينة المنوّرة) والطائف ودومة الجندل وغيرها[١٨٦].

أمّا يثرب التي كانت تمتلك إمكانيات طبيعية هائلة، فهي تمتاز بكثرة مياهها السطحية والجوفية، وبتربتها البركانية الخصبة، وبمناخها المعتدل نسبياً، وكانت أوديتها تفيض بالمياه فتروي أرضها. وكان الفلاحون يسقون نخيلهم وزروعهم من هذه المياه، فيقتسمون المياه فيما بينهم[١٨٧]. وفي الأوقات التي تشحّ فيها الأودية أو تجفّ، وفي الأماكن التي لم تكن تصل إليها، كان الناس يستخدمون مياه الآبار في إرواء مزروعاتهم؛ وقد أشار ياقوت الحموي إلى ذلك بقوله: «نخيل المدينة وزرعها تُسقى من الآبار عليها العبيد»[١٨٨]. وكان المزارعون يستخدمون الجمال والثيران والحمير في متح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لريّ البساتين والحقول. وبعمل الفلاحين الدؤوب، ونشاطهم الجمّ، وخبراتهم المتراكمة مع الزمن تحوّلت يثرب إلى واحة كبرى عامرة بأجمات النخيل، وبساتين الفواكه والخضروات وحقول الحبوب[١٨٩]. وقد أطلق عروة بن الورد في شعره على منطقة يثرب اسم «منبت النخل»:

فإنكم لن تبلغوا كلّ همّتي ... ولا أربي حتى تروا منبت النخل[١٩٠]

وقال حسان بن ثابت في وصف هذه البيئة:

غرسوا لينها (نخلها) بمجرى معين ... ثمّ حَصّنُوا الفسيل بالآطام

بيثرب قد شيّدوا في النخيل ... حصوناً ودُجّن فيها النَّعَم

(١٨٦) بلياييف: العرب والإسلام. . ص٩٦ ـ ٩٧.

(١٨٧) صحيح البخاري بشرح الكرماني الجزء الأول، المطبعة البهية المصرية، القاهرة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، ص١٧٥ ـ ١٧٧. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٣٥٦.

(١٨٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٨٢.

(١٨٩) الحموي: المصدر السابق. أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي: كتاب البلدان، مطبعة بريل ـ ليدن ١٨٩١، ص٣١٣.

(١٩٠) ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت، تحقيق عبد المعين ملوحي، دمشق، ١٩٦٦، ص١١٤.

وفيما اشتهوا من عصير القطاف   وعيش رضيٍّ على غيرِ هَم[191]

وكانت أوسع أراضي المدينة وأخصبها وأكثرها غلّة بأيدي أثرياء القبائل ووجهائها من يهود وعرب. فقد روى بعض المؤرخين أن الحبر اليهودي مخيريق كان غنياً كثير الأموال من النخل، وكان له سبعة بساتين[192]. أمّا محاصيل المدينة وضواحيها فقد كانت من النخيل، والحبوب كالحنطة (القمح) والشعير، والعنب والرّمّان والموز والليمون والبطيخ، والبقول، والخضر كالقرع واللوبياء والسلق والبصل والثوم والقثاء. وكان النخيل أهم مزروعات المدينة، وعليه يعتمد أهلها بالدرجة الأولى. وقد اكتسب مزارعوها خبرة بفنون زراعته، وتحديد المسافة بين فسيلة وأخرى، وشروط التباعد بين غرسه وامتداد جريده، ورعايته والمحافظة عليه. ووقايته من الآفات الطبيعية بتغطية عروقه وحراسته والدفاع عنه[193]. كما اكتسبوا خبرة في التمييز بين أنواع التمور الجيدة والأقل جودة، وقالوا إنّ أجود تمر المدينة: الصيحاني، والعجوة، والجنيب، واللوز وهو أصفر شديد الصفرة تُرى النواة من اللحمة.

وكان هؤلاء المزارعون خاصّة، وسكّان المدينة عامّة، يصنعون من جذوع النخل أعمدة لبيوتهم، وحمّالات لسقوفهم، ويبنون من جريدها سقوفاً لمنازلهم، ويعملون من خوصها مكاتل وقففاً، ويرضخون النّوى بالمراضخ حتى يتكسّر فيكون علفاً لإبلهم. وكانوا يعتمدون على التمور، فجلّ طعامهم من التمر، وبه يتعاملون فمنه تُدفع الأجور وتُسدّد الديون[194].

---

(١٩١) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق الدكتور سيّد حنفي حسنين، القاهرة ١٩٧٤، ص١٣٧ ـ١٣٨.

(١٩٢) أبو محمد عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٣٦ ص٢٠. نور الدين علي بن جمال الدين أبو المحاسن عبد الله شهاب الدين السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ج٢ مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة ١٣٢٦هـ ص١٥٢ ـ ١٥٣.

(١٩٣) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص٣١٣. ابن سيّدة: المخصص، ج١١، ص١٠٢ و١٣٥. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٣٥٨.

(١٩٤) الشيخ عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمّى التراتيب الإدارية، الجزء الأول، دار الكتاب العربي، بيروت، لا تاريخ، ص٤٠٠ ـ ٤٠٣. صحيح البخاري بشرح الكرماني، ج٣، ص٦٣ و٧٠ ـ ٧١ و١٣٧. السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج٢، ص١٥٥. أحمد الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٣٥٧.

ويبدو أن يهود المدينة كانوا يملكون معظم مزارع النخيل، ويتاجرون بثمره مع حبوب الشعير ودقيقه في أسواق المدينة ولا سيما سوق بني قينقاع[١٩٥]. وكان وادي العقيق الذي هو عبارة عن مجموعة أودية شقّتها السيول، أخصب أودية المدينة وبطاحها، ففيه كانت تُحفر الآبار التي لا تزال آثار بعضها بادية إلى العيان، وبه تتدفّق مياه العيون، وتمتدّ مزارع النخيل، وتقوم المصايف والمنتزهات التي تحجبها الأشجار الخضراء[١٩٦].

وإلى الشمال من يثرب، على طريق القوافل ما بين المدينة والشام، تقع واحة خيبر التي اشتهرت بكثرة أوديتها وغزارة مياهها، وبخصب تربتها البركانية، وبوفرة مزارعها ونخيلها. وكان سكانها يعتمدون على وسائل الريّ المعروفة لديهم لإرواء بساتينهم ومحاصيلهم من النخيل وحبوب القمح الوافر الإنتاج[١٩٧].

وكانت واحات، وادي القرى الذى الذي كان محطّة مهمّة من محطّات القوافل التجارية بين بلاد الشام واليمن، وافرة المياه، تسكنها قبائل غنيّة من اليهود، وقد مارست الزراعة المرويّة، وأقامت حول مواضع المياه مستوطنات وقرى عديدة، عاشت على ثمر النخيل وإنتاج الحقول من الحبوب والبقول وغيرها[١٩٨].

ولم تقلّ مدينة الطائف أهميّة عن غيرها من واحات شبه الجزيرة العربية، بلطافة جوّها في الصيف، وبغزارة مياهها، وبغنى وخصوبة تربتها، وبإنتاجها الزراعي الوافر. فكان يعتبرها البعض المدينة الثانية في الحجاز بعد مكّة من حيث الأهمية الاقتصادية، واسمها كان يقترن عادة مع اسم مكة، فيقال مكّة من

(١٩٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٢٥٩.

(١٩٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٣٨ ـ ١٣٩. المسهودي: المصدر السابق، ص٢١٠. محمد بن محمود النجار: أخبار مدينة الرسول، الدرّة الثمينة، تحقيق صالح محمد جمال، القاهرة ١٩٤٧، ص٣١.

(١٩٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٩، دائرة المعارف الإسلامية، ج٩، ص٥٤.

(١٩٨) الحموي: المصدر السابق، ص٤٠٩ ـ ٤١٠.

الطائف، والطائف من مكّة، وكانتا تسمّيان بالقريتين(١٩٩). يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾(٢٠٠).

أمّا سكّانها فكانوا من قبائل: ثقيف وحمير وهوازن وهذيل والأوس والخزرج ومزينة وجهينة وقريش ويهود. وقد مارست هذه العناصر حرفة الزراعة، وأنشأت القرى والمزارع والبساتين، وأحاطت الطائف بحصن حصين لحماية نفسها وممتلكاتها من الطامعين والغزاة. وكانت الطائف محلّتين على جانبي وادي وجّ، وحول بيوت هاتين المحلتين، وعلى سفوح جبل غزوان، كانت تنتشر مزارع الكروم والبساتين على اختلافها، وتمتدّ إلى نحو ٣ أو ٤ كيلومترات من مركز العمران فيها(٢٠١).

وتُعتبر الحنطة الإنتاج الزراعي الأول في الطائف، وعليه كانت تعتمد حواضر الحجاز وخاصّة مكّة. فكانت القوافل من السراة والطائف تحمل الحنطة والحبوب والسمن والعسل إلى أمّ القرى(٢٠٢). في حين كان العنب ثروة الطائف الاقتصادية، وكان إنتاجها من الكثرة بحيث يذكرون أن سليمان بن عبد الملك، قد مرّ بالطائف في طريق عودته من إداء فريضة الحج، فرأى بيادر الزبيب فقال: «ما هذه الحرة؟ قالوا: ليست حرّة ولكنّها بيادر الزبيب»(٢٠٣).

وذكر المقدسي أنّ في أكناف الطائف كروماً على جوانب جبلها «فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان، وأمّا زبيبها فيضرب بحسنه

---

(١٩٩) Henri Lammens: La cité Arabe de Taïf à la veille de l'Hegire, Beyrouth 1922, P12.

عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٩، ص٣٧٤.

(٢٠٠) قرآن كريم، سورة الزخرف، آية ٣١.

(٢٠١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٩ - ١١.

(٢٠٢) أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، بيروت ١٩٦٤، ص١٩٣.

نَسَبَ البدو إلى أهل الطائف الكياسة والدهاء، لاعتيادهم العيش على الحنطة، فغدا هذا مضرب الأمثال. دائرة المعارف الإسلامية، ج١٥، ص٥٥.

(٢٠٣) ابن الفقيه: كتاب البلدان، ص٧٩.

المثل»[٢٠٤] ومن أشهر هذه الكروم: كرم عمرو بن العاص الذي غرس فيه ألف ألف عود على ألف ألف خشبة ابتاع كل خشبة بدرهم، ووادي ليّة الذي قال فيه خفاف بن نِدية:

سـرت كـلَّ وادٍ دون رَهْـوَةِ دافـع ... وجلدان أو كرم بليّة محدق[٢٠٥]

وكروم عباس بن عبد المطلب، وأبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، وعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة بن ربيعة وغيرهم. وقد اتخذ أغنياء قريش في تلك المناطق منازل لهم، كانوا يلجؤون إليها في فصل الصيف هرباً من حرّ مكّة، إذ كانت الطائف مصيفاً لأهل مكة ومزار استجمام وصيد لهم[٢٠٦]. وفي عنب الطائف وكرومها يقول شاعرها أبو محجن الثقفي:

إذا متّ فادفنوني إلى أصل كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تـدفنـونـي بـالـفـلاة فـإنّـنـي ... أخـاف إذا مـتّ ألاّ أذوقـهـا[٢٠٧]

ومن محاصيلها أيضاً: النخيل والموز والرّمّان والتين والخوخ والسفرجل والبطيخ. إلاّ أنّ أفضلها التمر والعنب؛ أمّا التمر فكان يتمتّع بشهرة كبيرة، فهو تمر طريّ ممتلىء بوحل الضرس[٢٠٨].

ولا ريب أنّ نمو الزراعة في الطائف، وتنظيم عملية الريّ، وبناء الأسوار والأبراج، وتطوير الصناعة وبخاصة صناعة الأسلحة، وتنشيط التجارة وتنظيم

---

(٢٠٤) شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بريل ـ ليدن ١٩٠٦، ص٧٩.

(٢٠٥) أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن الفقيه الهمداني: مختصر تاريخ البلدان، ليدن ١٨٨٤، ياقوت الحموي، المعجم..، ج٥، ص٣٠٠ و٣٨٦.

(٢٠٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٥٦. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٩٥. أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق حميد الله، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٩، ص٥٧ و١٤٢.

(٢٠٧) عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٢٦٨.

(٢٠٨) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٧٩. ياقوت الحموي: المعجم..، ج٤، ص٩. أبو عبد الله محمد بن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، بيروت ١٩٦٠، ص١٣٢ و١٥٤.
Lammens: La cité arabe de Taïf à la veille de l'Hegire, P33.

حركة العمران، تدلّ على مؤشرات إيجابية في توسيع الأسواق الموسمية، وفي تطوير الاقتصاد والسير به نحو التكامل والتعاضد بين كافة مناطق شبه الجزيرة العربية.

وفي شمالي شبه الجزيرة العربية عدد من الواحات: كواحات الجوف أو دَوْمَة الجندل التي تقع في شمال صحراء النفود، وفي أسفل مجرى وادي سرحان الذي كان يشكّل أكبر واحة في بلاد العرب الشمالية بعد تيماء، ومنه تُسقى بساتين النخيل ومحاصيل الزرع(٢٠٩). وكانت دومة الجندل وحصنها (مارد) أهمّ مدن هذه الواحة التي امتازت بغزارة مياهها ووفرة غلاّتها(٢١٠).

وفي وادي الرمّة وجبل شمّر وأواسط نجد ووادي الدواسر، واحات كثيرة كانت تسكنها قبائل مستقرّة أو نصف رحّل، اعتمدت الزراعة وتربية المواشي مورداً رئيساً لكسب معاشها. ففي الرمّة وفروعه أراضٍ خصبة، تتوافر فيها المياه على أعماق مختلفة، وتتسرّب إليها من المرتفعات التي تشرف عليها، وبخاصة من جبل شمّر ومن الحرار الغربية. وفي واحات وادي الرمّة وشعابه، قامت قرى ومزارع النخيل وحقول القمح حول الآبار والينابيع(٢١١).

واشتهرت واحات طيّء (جبل شمّر) بوفرة ينابيعها ومياهها القريبة من سطح الأرض، وبتربتها الخصبة الصالحة للزراعة، وبمراعيها الغنيّة التي تنتشر على سفوح الجبل. وكان يقطن بلاد شمّر ـ السهل الواسع بين سلسلتي جبلي أجأ وسلمى ـ قبائل طيّء، وهي قبائل مستقرّة ونصف راحلة، وقد اعتمدت على الزراعة وتربية الماشية في تأمين معاشها. وكانت تكثر في هذه المنطقة زراعة الحبوب والفواكه وخصوصاً أشجار النخيل التي تنمو فيها نمواً كبيراً(٢١٢).

---

(٢٠٩) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٨٧. دائرة المعارف الإسلامية، ج٧، ص١٦٨.

(٢١٠) ياقوت الحموي: المصدر السابق. دائرة المعارف الإسلامية، ج٧، ص١٦٨. فؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب، الرياض ١٩٦٨، ص٤٨.

(٢١١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٨٢.

(٢١٢) حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، القاهر ١٩٦٧، ص٥٧.

أمّا واحات وادي الدواسر وفروعه وشعابه، وأهمّها واحة السليل التي تقع في وادٍ رملي، مكوّن من التقاء الأودية في قلب أعالي جبل طويق (جبل في نجد الوسطى)، فتقوم فيها قرى ومزارع النخيل والكروم وبساتين الفاكهة وحقول القمح(٢١٣).

ثانياً: رعي الماشية:

أ ـ أنواع الرعي:

نشأت مهنة الرعي على تدجين الحيوان وتربية المواشي، وعلى النباتات والأعشاب الطبيعية التي كانت تنبت في أماكن مختلفة من بلاد العرب، وهي مكمّلة للزراعة وتابعة لها، وتشكّل إحدى ركائز الاقتصاد العربي في عصور ما قبل الإسلام. وكان الرعي حينذاك نوعين: رعي ثابت ورعي متنقّل.

ويُقصد بالرعي الثابت، الرعي الذي كان يمارسه سكان بعض القرى والمدن والواحات، حيث كان الرعاة من مربّي الحيوانات أو الفقراء أو العبيد، يخرجون بالماشية صباحاً إلى المراعي القريبة، ثمّ يعودون بها مساءً إلى حظائرها. ويبدو أنّ هؤلاء السكان كانوا يمارسون مهنة الرعي وتربية الماشية جنباً إلى جنب مع المهن الأخرى: كالتجارة والصناعة والزراعة التي كانت تعتبر المورد الرئيس في حياتهم.

أمّا الرعي المتنقّل فهو الرعي الذي امتهنته القبائل العربية غير المستقرّة في البوادي، والذي يُعتبر المصدر الرئيس لعيشهم ورزقهم؛ إلى جانب ما يقومون به من أعمال سلب ونهب لبعض الواحات القريبة للأراضي التي يقيمون عليها، وذلك عن طريق شنّ غارات على هذه الواحات، ونهب جزء من محصولها من التمر وغيره. أو عن طريق بسط نفوذهم على هذه الواحات، والحصول على نسبة من الإنتاج، لقاء عدم تعرّضهم لسكانها أو لحمايتهم من مغيرين آخرين(٢١٤).

---

(٢١٣) المرجع نفسه، ص٥٠ ـ ٥١.

(٢١٤) Lammens: Le Berçeau de l'Islam, P85.

كما كانت هذه القبائل البدوية تنتفع بمرور القوافل التجارية في أراضيها، فتحصل منها على مبالغ مالية لقاء حمايتها، وتقديم ما تحتاج إليه من خدمات، وإرشادها إلى الطريق الآمن. ونقلاً عن الكاتب اليوناني أرثميدوروس، يشير استرابو في هذا الصدد إلى قوافل البخور والطيوب الآتية من جنوبي شبه الجزيرة، وكيف أنّ سكان كل منطقة كانوا يسلّمونها إلى سكّان المنطقة التي تليهم، حتى تصل هذه القوافل إلى بلاد سورية(٢١٥).

وكانت بعض هذه القبائل تمتهن أيضاً حرفة الزراعة في مواسم الأمطار، حيث كانت تستقرّ بالقرب من مواطن الحضر مثل تِهامة ورأس مسندم وصحراء النقب، وتزرع الحبوب كالدخن وغيره في قيعان الأودية والسفوح الجبلية، ثمّ ترحل إلى البادية بعد تمام المحصول وحصده(٢١٦).

وكذلك كانت هذه القبائل تقوم بدور صلة الوصل بين البادية والحضر، ذلك أنّ الدول المتاخمة للصحراء، سواء في وادي الرافدين أو في بلاد الشام، كانت تحمي نفسها من غارات أهل البادية بإقامة حراسة مشدّدة في المناطق المتاخمة الحدودية، وبالسماح للقبائل البدوية بالاستقرار في بعض هذه المناطق المتاخمة، وبالمتاجرة مع مدنها القريبة، حيث كانت هذه القبائل تحمل منتوجاتها من الألبان والأجبان والوبر والصوف لتبادلها بسلع تلك المدن. وقد تزاول هذه القبائل حرفة الزراعة أو بعض الحرف الأخرى، أو ينخرط بعض أفرادها في قوات هذه الدول ليرتزقوا. ويبدو أن دور هذه القبائل قد تطوّر عندما اتخذت الدول الكبرى، في ذلك الوقت، مناطق البادية المتاخمة لها مناطق تابعة تصدّ عنها الغارات الخارجية، كحالة الدولة الفارسية التي كانت تسيطر على منطقة وادي الرافدين، وحالة الدولة البيزنطية التي كانت تسيطر على بلاد الشام.

---

(٢١٥) لطفي يحيى: العرب في العصور القديمة، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣.

Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P19.

(٢١٦) P.Costa: Notes on traditional hydraulics and agriculture in Oman, P288.
Kamal Abdulfattah: Mountain Farmer and Fellah in Asir South West Saudi Arabia, P57.

فقد حوّلت هاتان الدولتان المنطقة البدوية المتاخمة لها إلى إمارة تابعة تساعدها وتساندها مادياً ومعنوياً، لقاء قيام هذه الإمارة بالتصدّي للغارات الآتية من بدو الصحراء. وهكذا قامت إمارة المناذرة على الحدود الغربية لوادي الرافدين، وإمارة الغساسنة على الحدود الشرقية لبلاد الشام، بهذه المهمّة(٢١٧).

ب ـ ملكية الرعي:

كانت المراعي ملكاً عامّة للقبيلة، يرعى بها القوم ماشيتهم، فلا يحقّ لأحدٍ من أفرادها، شيخاً كان أم مقاتلاً، أن يمنعهم من هذا الحق. غير أنّ هذه الملكية العامّة لم تكن ملكية دائمة، بل كانت تزول بنفاد المراعي وانتقال القبيلة إلى مكان آخر أكثر عشباً. ومع وجود المراعي العامّة، التي كان الزعماء والقادة والملوك يشاركون الناس في رعي دوابهم فيها، كانت توجد مراعي خاصّة لزعيم القبيلة أو رئيس الدولة أو لرجال الدين باسم المعبد(٢١٨)؛ وهي التي عُرفت حينذاك بنظام الحمى، ذلك أنّ هؤلاء أو أحداً منهم كان يحمي أراضي رعوية خصبة لترعى بها حيواناته الخاصّة، أو حيوانات الدولة المُعَدّة للحروب كالخيل والإبل أو المخصّصة لمؤونة الجيش من الأغنام والأبقار والإبل، أو الموقوفة للمعبد باسم الإله للنذور وغيرها. وقد وردت ألفاظ عربية جنوبية تدلّ على انتشار هذا النظام في بلاد العرب منها: محمت (م ـ ح ـ م ـ ت)، وعتهد (ع ـ ت ـ هـ ـ د)، وورېضو (و ـ ر ـ ب ـ ض ـ و)، وعشبت (ع ـ ش ـ ب ـ ت) وغيرها(٢١٩).

ويعود نظام الحمى في شبه الجزيرة العربية إلى الألف الأول قبل الميلاد، وقد مارسه الملوك وأقيال اليمن وحموا بعض المناطق لاستعمالهم الخاص. كما مارسته الدولة الأشورية، حيث كانت تمنح بعض زعماء القبائل العربية في شمال شبه الجزيرة، أراضي رعوية خاصّة بهم، لقاء خدمات يقومون بها، كالمحافظة

(٢١٧) لطفي يحيى: العرب في العصور القديمة، ص٢٩٣ ـ ٢٩٤. فيليب حتى، وأدوَرد جرجي، وجبرائيل جبور: تاريخ العرب، دار غندور، الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٧٤، ص٥٢ ـ ٥٤.

(٢١٨) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٤٩ و١٥٠.

(٢١٩) بيستون: المعجم السبئي، ص٢١ و٤٠ و١١٣ ـ ١١٤.

على الأمن والنظام في مناطقهم وعلى الحدود، وحماية القوافل التجارية من السطو والنهب من الجماعات المغامرة أو اللصوص(٢٢٠). وفي اليمن اكتُشف نقشان صادران عن الإله تالب الذي كان يُعتبر إله الرعي في جنوب شبه الجزيرة، أحدهما: يمنع الرعاة من سوق مواشيهم إلى منطقة معينة تابعة للمعبد. وثانيهما: يحمي أراضي رعوية لصالح قبيلة ويُحذّر القبائل الأخرى المجاورة من الاقتراب منها والرعي فيها(٢٢١).

جـ - مناطق الرعي ونباتاتها:

تمتاز منطقة شمالي شبه الجزيرة العربية، التي تقع بين صحراء النفود وأواسط بادية الشام، بخصب أراضيها وجودة مراعيها وخاصّة في فصل الربيع. ويستدلّ على ذلك من الكتابات التي نُقشت على الصخور المنتشرة هناك(٢٢٢)، والتي تركتها القبائل العربية التي سكنت فيها؛ وترد أسماء بعض هذه القبائل في كتابات بلاد ما بين النهرين، وفي الكتب القديمة والمقدّسة(٢٢٣).

وتنمو في منطقة وسط شبه الجزيرة الواسعة أعشاب كثيرة، وشجيرات خاصّة، وخصوصاً في حقول وقيعان بعض الأودية، ولكنّها لم تكن بكثافة أعشاب المناطق الأخرى، بسبب قلّة الأمطار وندرتها(٢٢٤).

وكانت مراعي شرق شبه الجزيرة غنيّة وثابتة، وذلك لارتفاع نسبة الرطوبة

---

(٢٢٠) I.EPH'al: The Ancient Arabs: Nomads on the Border of the Fertile Crescent 9-5 th Century B.C. second Ed., the Magnes Press, Jerusalem 1984, P90-100.

(٢٢١) A.F.I. Beeston: The TA'Lab Lord of Pastrures Texts, Bulletin of the school of Oriental and African Studies, Vol 17, London 1955, P154-156.

نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي الجزيرة العربية، ص١٥٧.

(٢٢٢) محمود محمد الروسان: القبائل الثمودية والصفوية، دراسة مقارنة، ص١٤٠ و٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٢٢٣) عن هذه القبائل وعلاقاتها مع بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام يمكن الرجوع لكتاب:

I.Eph'al: The Ancient Arabs.

(٢٢٤) عمر عبد المجيد دراز: المراعي ووسائل تحسينها في المملكة العربية السعودية، مطابع الرياض، الرياض ١٣٨٥هـ، ص٣٢ و٣٦.

Western Arabia and the Red Sea, P198.

فيه، وتكوّن الندى الذي ساعد على نمو الأعشاب والنباتات، وبسبب انتشار الواحات وخاصّة الواحات الداخلية التي تقع في أسفل سفوح المرتفعات. وتُعدّ عُمان من أهمّ مناطق تربية الإبل في بلاد العرب. أمّا أقسامه الغربية فتنتشر مراعيها المتنقّلة في الدهناء والصمان(٢٢٥).

وتتنوّع في مناطق غرب وجنوب شبه الجزيرة المظاهر الطبيعية وكميّات الأمطار المتساقطة، ويتنوّع معها تبعاً لذلك الغطاء النباتي والمراعي. وكانت المراعي تكثر في المرتفعات التي يصعب على الإنسان زراعتها، وفي السواحل التي ترتفع فيها نسبة الرطوبة وتزيد كميات الأمطار التي تنحدر من الجبال الغربية؛ كما تكثر في المنحدرات الشرقية للمرتفعات وخصوصاً في بطون الأودية الكبيرة التي تجنّب السكان زراعتها، نظراً لعِظَم السيول وشدّة تدفّقها؛ وقد كانت الأعشاب تنبت بكثافة في هذه الأودية حيث يغلب عليها النوع الثابت من الرعي(٢٢٦).

غير أنّ الإسلام قد حرّم حِمَى الأفراد من زعماء وغيرهم، وأبقى حمى الدولة والناس. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «الناس شركاء في الماء والكلأ والنار» ويقول أيضاً: «لا يُمنَع فضلُ الماء ليُمنَعَ به فضلُ الكلأ»، «ومن مَنَعَ فضلَ الله ليمنع به فضلَ الكلأ منعه الله فضله يوم القيامة»(٢٢٧). وقال أبو عبيد: «وتأويل الحِمَى المنهي عنه، في ما نرى، والله أعلم، أن تُحمَى الأشياءُ التي جعلَ رسول الله ﷺ الناسَ فيها شركاء، وهي الماء، والكلأ، والنار»(٢٢٨) وأمّا ما أباحه الرسول ﷺ للناس كافة، وجعلهم فيه أسْوة هو الماء، والكلأ، والنار.

---

(٢٢٥) عمر دراز: المرجع نفسه، ص١٤ و٣١. محمود طه أبو العلاء: جغرافية شبه الجزيرة العربية، مؤسسة سجل العرب، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٢، ص١٧٥.

Wilkinson: Water and Tribal Settlement in Southe East Arabia, P52-53.

(٢٢٦) عمر دراز: المراعي ووسائل تحسينها في المملكة العربية السعودية، ص٤٣ و٤٧. محمود طه أبو العلاء: جغرافية شبه الجزيرة العربية، ج١، ص١٧٤.

Abdul fattah: Mountain Farmer and fellah in Asir, P71.

(٢٢٧) أبو عبيد القاسم بن سلاّم: الأموال، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت تشرين الثاني، ١٩٨١، ص١٢٤.

(٢٢٨) المصدر نفسه.

وذلك أن ينزل القوم في أسفارهم وبواديهم بالأرض فيها النبات الذي أخرجه الله للأنعام ممّا لم يَنصب فيه أحد بحرْث ولا غرْس، ولا سقي، فهو لمن سبق إليه، ليس لأحد أن يحتظِرَ منه شيئاً دون غيره. ولكن ترعاه أنعامهم ومواشيهم ودوابّهم معاً، وترد الماء الذي فيه كذلك أيضاً. ويقول ﷺ: «المسلم أخو المسلم، يسعهما الماء والشجر» فنهى رسول الله ﷺ أن يُحْمَى من ذلك شيءٌ إلاّ ما كان من حِمى لله ولرسوله أي للدولة. ومذهب الحِمَى لله ولرسوله أو للدولة يكون في وجهين: أحدهما أن تحمى الأرض للخيل الغازية في سبيل الله، فقد حمى رسول الله ﷺ النقِيع وهو موضع معروف بالمدينة لخيل المسلمين. وثانيهما أن تحمَى الأرض لنعم الصدقة إلى أن توضع مواضعَها وتفرَقَ في أهلها، وقد عمل بذلك عمر بن الخطاب الذي قال: «المال مال الله، والعباد عباد الله، والله لولا ما أحْمل عليه في سبيل الله ما حميْت من الأرض شبراً في شبر». وقال أبو عبيد: «فحمَى عمر لإبل الصدقة ولابن السبيل جميعاً»[٢٢٩].

أمّا الأعشاب التي تنبت في هذه المراعي فهي كثيرة ومتنوعة نذكر منها: العرقصان، والبقل، والذرق، واليعضيد، والمكان، والشقاي، والخمخم، واليمنة، والزباد، والصفراء، والحريث، والأقحوان، والخرامن، والصمعاء، والقت، والثداء، والمكر، والخطرة، والنضيء، والسبط، والثقام، والثمام، والعرفج. ومنها بعض أعشاب الحمض: كالغمضاء، والرمث، والغصة، والرغل وهو من أطيب أنواع الحمض فإذا رعته الإبل قيل هي حوامض وأعطت لبناً طيباً، وإذا رعت السبحاء أعطت لبناً أختراً، وإذا رعت المرار جاء لبنها من أمرّ الألبان[٢٣٠]. ومن الأعشاب أيضاً: الرعم وهي من الحشائش التي ترعاها الأغنام، والعثرب الذي ينمو على أطراف الأودية وعلى حدود المناطق الزراعية وترعاه الإبل، والصليان وهو نبات له شنفة تحبه الإبل ويسمّيه العرب خبرة الإبل[٢٣١].

---

(٢٢٩) المصدر نفسه، ص١٢٥.

(٢٣٠) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٠٢.

(٢٣١) الأصفهاني: بلاد العرب، ص٢٩٧.

ثالثاً: تربية الحيوانات:

أ ـ الحيوانات الأليفة:

كان معظم سكان بلاد العرب في القديم يعملون في تربية الماشية، وكانت الإبل أهمّ هذه المواشي على الإطلاق، ويأتي الغنم والخيل والأبقار والبغال والحمير في المرتبة الثانية، أمّا الماعز فيربى في الجبال ويندر في المناطق الأخرى[٢٣٢].

وتحدّد ظروف الطبيعة، وأحوال المناخ والطقس، ولا سيما كمية الأمطار التي تتساقط في بلاد العرب، وما ينتج عنها من مراعي، أنواع المواشي التي يمكن تربيتها. ومن المشاكل التي كانت تعانيها القبائل العربية في حياتها الرعوية، قلّة المياه، وندرة الأمطار، وعدم انتظام سقوطها؛ وقد ينحبس المطر مدّة قد تطول ثلاث أو أربع سنوات، ممّا ينزل بالسكان أفدح الأخطار. وكانت القبائل تطلق على هذه السنين العجاف اسم «السنوات الرمادية» أو «سنوات الشيب»؛ فكانوا يضطرون إلى الارتحال من مواطن الجفاف بأغنامهم إلى نجود اليمن أو إلى بلاد الشام والعراق ومصر. ويُحدّثنا الأصبهاني أن بطوناً من خزاعة خرجوا إلى مصر والشام لأنّ أرضهم أجدبت[٢٣٣].

وتظهر، في حوران والبادية الشرقية من بلاد الشام، آثار مزارع وأماكن، كانت مأهولة بالسكان، وقد جاؤوا إليها من شبه الجزيرة، واستقرّوا في مواضع تتوافر فيها المياه، وزرعوا وبنوا البيوت، واشتغلوا ببعض الحرف كغزل الصوف ونسجه، ومارسوا التجارة بين الأعراب وسكان المدن والقرى البعيدة عن البادية[٢٣٤].

وكانت تربية الحيوانات قائمة على نتاج الطبيعة بوجه عام، فليس ما يحميها من القرّ والحرّ ورياح السموم والجفاف والسيول المتدّفقة التي قد تجرف القطيع والبيوت والناس[٢٣٥].

---

(٢٣٢) بلياييف: العرب والإسلام. . ، ص٨٣.

(٢٣٣) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، الجزء الثالث عشر، ص٥.

(٢٣٤) رينيه ديسو: العرب في سورية قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، طبعة مصر، القاهرة ١٩٥٩ ص٤ ـ ٦.

(٢٣٥) المرجع نفسه، ص٩٤ ـ ٩٦.

ويعتبر الجمل في العصور القديمة سفينة الصحراء، وهو أقدم الحيوانات وأعزّها عند العرب. وفي رأي بعض الباحثين كان الجمل يعيش وحشياً بموطنه في الأجزاء الشرقية أو الجنوبية ـ الشرقية من شبه الجزيرة العربية. وقد أشار الجاحظ إلى ذلك بقوله: «زعم ناس أنّ من الإبل وحشياً... فزعموا أنّ تلك الإبل تعيش في أرض وبار، لأنّها غير مسكونة»[٢٣٦] ثمّ تمّ تدجينه في الألف الثاني قبل الميلاد. وبفضل الجمل اتصل عرب الجاهلية بعضهم ببعض، وقامت مدن وقرى في مواضع نائية منعزلة من بلاد العرب، وازدهرت التجارة، وعمرت الطرق البرية بالقوافل، وكان الجمل يخترقها بغير كلل أو ملل، صابراً على الجوع والعطش[٢٣٧].

ومن المؤكّد أنّ الجمل يسير نحواً من خمسة وعشرين يوماً في الشتاء، ونحواً من خمسة أيام في الصيف دون أن يذوق الماء[٢٣٨]. وإذا توافر له القوت في المراعي الربيعية من الأوراق الخضراء والحشائش، فإنّه يستطيع البقاء حيّاً دون ماء أسابيع عدّة. والجمل قنوع ومتواضع في طعامه وشرابه، إذ يكتفي بالغذاء اليابس من العود، ومرّه القاسي من النبات الشوكي[٢٣٩]، ويشرب الماء الآسن الكدر. وفي الواحات الغنيّة بزراعة النخيل كان العرب يطعمونه نوى التمر مجروشاً، كما يطعمونه في شواطىء اليمن الجنوبية الجراد والسمك المجفّف أو المطحون[٢٤٠].

وكانت الإبل تُربّى في مختلف أقاليم بلاد العرب، وخاصّة في الواحات وحول المدن. وقد استخدمها الإنسان العربي في تنقلاته وأسفاره وحروبه، وفي أعماله الزراعية، ونقل بضائعه وتجارته التي كانت مزدهرة بين اليمن والعراق وبلاد الشام عبر مكة ويثرب وغيرهما. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه التجارة

---

(٢٣٦) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: كتاب الحيوان الجزء الأول، طبعة البابي بمصر، لا تاريخ، ص١٥٤.
(٢٣٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٩٦.
(٢٣٨) المرجع نفسه، ج٥، ص٣٣٩. فيليب حتى: تاريخ العرب، ص٢٧.
(٢٣٩) بلياييف: العرب والإسلام..، ص٨٥.
(٢٤٠) الجاحظ: كتاب الحيوان، ج٢، ص١٤٢.

في سورة قُرَيش، يقول الله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝﴾[٢٤١]. وانتفع العربي كذلك بلحم الإبل، وحليبها، وجلدها، فكان يُحيك من وبر الجمل ثيابه وخيامه، ويصنع من جلده نعالاً وهودجاً وسيوراً يحزم بها البضائع والسلع التي تنقلها القوافل، ويجعل من روثه وقوداً[٢٤٢]. أمّا بوله فكان يدخله في تحضير أدوات التجميل، ويعدّه من الأدوية الشافية، وقد ثَبُت عند البدوي أنّ بول الجمل يمنع نموّ الطفيليات المؤذية، ويُشفي من الحمى، ويقوّي الشعر وينمّيه. وكانت النساء يستعضن عن الماء النادر ببول الجمل لغسل أطفالهنّ وشعورهن[٢٤٣].

وكان أهل مكّة يرعون إبلهم في الأودية والشعاب المجاورة التي كان ينبت فيها الكلأ وبعض شجيرات رعوية في مواسم معينة من السنة[٢٤٤]. أمّا سكان المدينة المنوّرة، الذين كانوا يملكون ثورة كبيرة من الإبل، فكانوا يطعمونها من الشجيرات الرعوية ومن بعض الأشجار التي تنبت في أراضيهم[٢٤٥]. وكان للإبل وغيرها من المواشي سوق نشطة في مكّة، إذ اتخذ الأعراب الجمل مقياساً للثروة والمال، وبه كانت تُقدّر أثمان السلع والحاجيات، وتُدفع الدّيات والفديات والمهور وما شابهها[٢٤٦].

ويظهر من نقوش بلاد ما بين النهرين كثرة أعداد الجمال في شبه الجزيرة العربية مثل النقوش التي ذكرت أنّ الملك العربي جندبو قدّم ألف جمل،

---

(٢٤١) قرآن كريم، سورة قريش، آية ١ ـ ٤.

(٢٤٢) ابن سيدة: المخصص، ج٧، ص٩٣.

(٢٤٣) بلياييف: العرب والإسلام. . ، ص٨٦ ـ ٨٧.

(٢٤٤) عزّ الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزريّ المعروف بابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، الجزء الأول، دار الشعب، القاهرة ١٢٨٠هـ، ص١٠١.

(٢٤٥) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: أمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، الجزء الأول، تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة مصر، القاهرة ١٩٤١، ص٢٤٧.

(٢٤٦) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٢١٩. فيليب حتى: تاريخ العرب، ص٤٩.

كمساعدة منه، إلى أمراء الشام في حروبهم ضد شلمنصر الثالث؛ والنقوش التي أشارت إلى القبائل العربية التي أهدت أعداداً ضخمة من الجمال إلى ملوك بلاد الرافدين[٢٤٧]. وفي النقوش الثمودية والصفوية وردت الجمال بأسماء مختلفة مثل: البكرة والبكر والمطية والناقة والإبل[٢٤٨]. واشتهرت من الإبل: القطرية نسبة إلى قطر، والمهرية نسبة إلى بلاد المهرة، والجرشية نسبة إلى بلاد جرش باليمن، والأرحبية من أرحب في بلاد همدان، والصوفية والسكسكية وهي مخصّصة للنقل[٢٤٩].

وكانت الأغنام وافرة، وتُربّى في البادية والحضر، وفي كل أقاليم بلاد العرب، للاستفادة من لحومها وصوفها وألبانها، ولذبحها في بعض المناسبات الدينية. وتحدّث هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد عن نوعين من الأغنام في شبه الجزيرة العربية؛ نوع امتاز بألية سمينة في مأخرته، والآخر امتاز بذيل طويل[٢٥٠].

أمّا الماعز فكان يُربّى في المناطق الجبلية بصورة خاصّة، وعلى مختلف التلال المنتشرة هناك بصورة عامّة، وذلك للاستفادة من لحومها وألبانها وجلودها وشعرها الذي تُصنع منه الخيام السوداء. وكانت أنواع من الماعز تعيش بريّاً أيضاً[٢٥١].

وإلى جانب هذه الحيوانات، مارس العرب في القديم تربية الأبقار في المناطق الزراعية والقريبة من مصادر المياه، حيث كان المزارعون يعتمدون عليها في حراثة الأرض، وفي رفع الماء من الآبار أو الخزانات، وفي تشغيل مطاحن

---

(٢٤٧) I.Eph'al: The Ancient Arabs, P5-15, 76.

(٢٤٨) محمود الروسان: القبائل الثمودية والصفوية، ص٤٠٧.

(٢٤٩) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٦٢. الجاحظ: التبصر بالتجارة..، ص٣٥.

(٢٥٠) Herodotus: The History of Herodotus P141.

مصطفى كمال عبد العليم: هيرودوت يتحدث عن العرب وبلادهم، العصور، دار المريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول، لندن، الرياض ١٩٨٧، ص١٥.

(٢٥١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص٢٠٣.

الحبوب والزيوت. كما ربوها للانتفاع بلحومها وحليبها[٢٥٢]. واشتهرت في بلاد العرب فصائل جيدة من الأبقار مثل: الجواميس، والبقر المملعة، والجندية، والخديرية، والجيلاتية[٢٥٣].

وكثرت في بلاد العرب كذلك الخيول التي اشتهرت بأصالتها وجمالها. ويُعتقد أنّ الموطن الأول لهذه الخيول كان في منطقة بحر قزوين، ومن هناك استوردها الكاشيون والحثّيون وتعلّموا تربيتها، ونقولها إلى بلاد الشام منذ ما يزيد على ألفي عام قبل الميلاد. ثمّ أُدخلت إلى شبه جزيرة العرب قبل ميلاد النبي عيسى عليه السلام، حيث تهيّأت لها السبل للاحتفاظ بنقاوة دمها وخلوصها من الهجنة والاختلاط[٢٥٤]. وهنالك توالدت وتكاثرت، وغلب عليها الطابع العربي؛ وأضحت تُعرف باسم الخيول العربية الأصيلة، التي زاد الطلب على شرائها واقتنائها. وبذلك تحوّلت بادية العرب إلى مركز توالد لهذه الخيول ومصدّر لها. وفي القرن الثامن الميلادي أدخل العرب المسلمون الخيل إلى أوروبا عن طريق إسبانية حيث خلّفت أثرها الدائم في أنسالها من الخيول المغربية والأندلسية[٢٥٥]. وخلال الحروب الصليبية تلقّحت الخيول الإنكليزية بخيول عربية أصيلة، فاكتسبت دماً جديداً ونسلاً مميزاً. ويُعتبر «الكُحَيلان» من أهمّ الخيول العربية الأصيلة، فهو يتميّز بجمال جسمه وقوّة احتماله ونباهته وإخلاصه لسيّده وتعلّقه به، وقد اتخذه الأوروبيون مثلاً يُحتذى في تربية الخيول الجيدة والممتازة[٢٥٦].

وكان اقتناء الخيل في بلاد العرب من الأمور الكمالية، التي يسعى إليها البدوي لتحقيق أغراضه في الغزو واللهو وممارسة الألعاب الرياضية كرمي

---

(٢٥٢) Western Arabia and the Red Sea, P499.

(٢٥٣) الجاحظ: التبصر بالتجارة، ص٣٤. الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٦٢. يوسف الغنيم: الجزيرة العربية في كتاب المسالك والممالك للبكري، ص٢٧.

(٢٥٤) حتى وآخران: تاريخ العرب، ص٤٨. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٩٩.

(٢٥٥) William R.Brown: The Horse of the Desert, Ney York, 1929, P123.

(٢٥٦) حتى وآخران: تاريخ العرب، ص٤٨.

الجريد والسباق والصيد. ولذا كثر وجودها عند الأثرياء من المشايخ والملوك وكبار رجال الدولة(٢٥٧). وتؤكّد الرسومات التي تركها سكان شبه الجزيرة على صخور المنطقة على وجود هذه الخيول وأهميّتها؛ كما تؤكّد النقوش الحربية التي تعود إلى القرنين الثاني والثالث الميلاديين وما بعدهما، والتي ظهرت فيها صور فرق الفرسان، على أنّ هذه الخيول لم تصبح أداة قتالية عند العرب إلاّ في عصور متأخرة. ويبدو أنّ فرق الفرسان قد كثر وجودها في القوات الحضرمية، وذلك يعود إلى أنّ سكان حضرموت كانوا يعتمدون، في غالب الأحيان، على فرسان البدو للقتال إلى جانبهم. ولم تدخل هذه الخيول إلى اليمن إلاّ في عهد الدولة السبئية ـ الحِمْيرية، حيث بدأت تستعمل في الحروب كأداة قتالية، ممّا أدّى إلى إحداث تغيير في موازين القوى لصالح اليمنيين حينذاك(٢٥٨). وظلّ عرب الحجاز إلى ظهور الإسلام، لا يملكون أعداداً كبيرة من الخيل، مع أنّها كانت أداة قتالية مهمّة جدّاً، نظراً لسرعتها وخفّتها ومرونتها في المعركة(٢٥٩). وقد ضرب الله تعالى المثل بها باعتبارها مصدراً من مصادر القوّة لإرهاب العدو، ومصدراً من مصادر الثروة والجاه في تلك الحِقْبة من الزمان(٢٦٠).

ومن حيوانات بلاد العرب الحمير التي كان معظمها يُربّى في المدن والقرى، للاستخدام في النقل إلى مسافات قصيرة، أو للإفادة منها في الأعمال الزراعية: كرفع الماء من الآبار وحراثة الأرض وفصل الحبّ عن القش. وقد اشتهرت هجر التي تقع في شرقي شبه الجزيرة العربية بحميرها الجيدة، كما اشتهرت اليمن أيضاً بأنواع جيّدة منها مثل: الحضرمية والمعافرية(٢٦١).

---

(٢٥٧) Albert Jamme: Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis, P90 and 218
Beeston: Warfare in Ancient South Arabia, P11 j643 P45, j665 P52.

(٢٥٨) بيستون: المعجم السبئي، ص٤٦.

(٢٥٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٢٦٠) قرآن كريم، سورة آل عمران، آية ١٤. سورة الأنفال، آية ٦١. سورة النحل، آية ٨. سورة الحشر، آية ٦. سورة الإسراء، آية ٦٤.

(٢٦١) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٦٣.
F.Vedal: The Oasis of Al Hasa, P171.

أمّا البغال فكانت قليلة في بلاد العرب، ونادرة الاستخدام، على الرغم من أنّها قادرة على تأدية خدمات، يعسر على الجمل أو يعجز عن القيام بها في تلك البلاد المتعدّدة التضاريس الطبيعية[٢٦٢].

ب ـ الطيور الداجنة:

وإلى جانب الحيوانات الأليفة التي أشرنا إليها، اهتمّ العرب عامّة، وسكان المناطق الزراعية خاصّة، بتربية عدد من الطيور مثل: الدجاج والأوز والبط. وذلك لما تقدّمه هذه الطيور للإنسان من لحم طري وبيض مفيد ومغذٍّ[٢٦٣].

جـ ـ تربية النحل:

تعتبر تربية النحل من الحرف الأساسية في بلاد العرب في العصر الجاهلي. وقد اشتهرت به مدن وقرى عديدة، وصنعت له القفران، وأقامتها على أشجار البساتين، وفي الحقول والمزارع والكهوف، وبين الصخور، وبالقرب من المنازل والخيم... ويعيش النحل أيضاً في البراري والجبال، وعلى أغصان الأشجار، ويكثر وجوده في المناطق الباردة والنجود، ويقلّ في الأغوار[٢٦٤]. وفي ذلك يقول الله عزّ وجل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾[٢٦٥].

وتشير الدراسات الأثرية الحديثة إلى شهرة بعض أقاليم شبه الجزيرة العربية بتربية النحل وجودة عسلها منذ القديم. ومن هذه الأقاليم: المرتفعات الغربية في جبال السراة، ومرتفعات الجول وجبل هنوم ـ الذي يعدّه الهمداني من أكثر بلاد الله عسلاً ـ في جنوبي شبه الجزيرة، وأودية حضرموت مثل وادي عمد ووادي جردان، ومرتفعات وادي جردا وجبل العود وجبل حضور[٢٦٦].

---

(٢٦٢) جوادعلي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص٢٠١.

(٢٦٣) المرجع نفسه، ج٧، ص١٤٧.

(٢٦٤) أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات، ص٢٦٦.

(٢٦٥) قرآن كريم، سورة النحل، آية ٦٨.

(٢٦٦) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٤٧ و٢١٥ و٣٥٠ و٣٥٧.

Stabo: The Geography of Strabo, Bk16, P311.

Western Arabia and the Red Sea, P513.

وتحدّث بعض الرحالة الأوروبيين عن تربية النحل في شبه الجزيرة، فذكر ويلستد أنّ خلايا النحل كانت توجد في كهوف المرتفعات الغربية(٢٦٧)، وأشار هيوسكوت إلى طريقة تربية النحل في اليمن، معتبراً أنّها لا تختلف عن الطريقة التي كانت متبعة في مصر الفرعونية منذ عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد(٢٦٨).

وكانت تربية النحل من الأعمال المهمّة التي مارسها أهل الطائف، وكان العسل أحد مصادر ثرواتهم، فكان ممّا يُهادى به في مكّة والعراق وسائر بلاد العرب(٢٦٩). وقد ذكر البلاذري أنّ أم سلمة زوج الرسول ﷺ كان لها نسيب بالطائف يهديها عسلاً(٢٧٠). وذكر أبو حنيفة الدينوري «أنّ السّراة أكثر أرض العرب عسلاً وعنباً وتيناً وزبيباً وربّاً، والسّراة كلها باردة لذلك كثر بها النحل وقلّ النّخل، وأنّ أرض اليمن كلها عسل»(٢٧١). واشتهرت صنعاء بالشهد الحضوري الماذي الذي يُقطع بالسكاكين. وفيه قال امرؤ القيس:

كأنّ المسك والكافور بالراح اليماني
على أنيابها وهناً مع الشهد الحضوري(٢٧٢)

وكذلك اشتهر بنو سُلَيْم بتربية النحل وتصدير العسل، وكانت لهم تجارة في ذلك، وقد بقيت على شهرتها في العصر الإسلامي(٢٧٣).

ومن أجود أنواع العسل عند العلماء، ما طابت ريحه، وعذب طعمه، وصدقت حلاوته، ومتن حتى إذا مددته امتدّ، وشابه لونه لون الذهب، الذي إذا قطر على الأرض استدار، واستجمع على نفسه كما يجتمع قاطر الزئبق. والعسل مختلف الألوان والطعوم والروائح والمتانة والرّقة والصفاء والكدر وكثرة

---

(٢٦٧) Wellested: Travel in Arabia, vol 2, P256.

(٢٦٨) Hugh Scott: In the High yemen, John Murray, London 1942, P58-59.

(٢٦٩) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٩٨.

(٢٧٠) البلاذري: أنساب الأشراف، ص٤٢٧.

(٢٧١) أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات، ص٢٦٦.

(٢٧٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٩٨.

(٢٧٣) ابن مجاور البغدادي النيسابوري: صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز، المسماة بتاريخ المستبصر، ص١٤.

الحلاوة وقلّتها، وكل ذلك على قدر النبات الذي يمتصّ رحيقه النحل[٢٧٤].

وكان العسل من أشهر الأطعمة عند العرب القدماء، فيه كانوا يتغذون، ويتعالجون من عدد كبير من الأمراض. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[٢٧٥].

رابعاً: صيد الحيوانات البرّيّة والبحريّة:

تحدّثنا كتب التاريخ والأدب ودواوين الشعراء عن عدد كبير من الحيوانات البريّة التي كانت تعيش في بلاد العرب. وقد مارس العرب في القديم هواية صيد هذه الحيوانات والطيور، واستخدموا في صيدهم الكلاب وأسلحة: السهام والنبال والرماح. وكان الصيد بواسطة الخيل يُعدّ متعة ومظهراً من مظاهر الفروسية. ومن فوائد الصيد التّنزّه والاستجمام، والحصول على لحم طريّ ولذيذ، وعلى جلود نادرة جميلة[٢٧٦].

وكان الصيد من الحرف المهمّة التي اشتغل بها أهل الطائف، وقد مارسوها في الغابات المجاورة لمدينتهم على سفوح جبل غزوان. فإلى هذه الغابات، كان يأتي الصيادون من مكّة والطائف، وهم يلبسون بزّات الصيد، ويصطحبون الكلاب، لصيد الفهود والحيوانات التي تعيش هناك[٢٧٧].

وإلى جانب صيد البرّ، خبر العرب في عصور ما قبل الإسلام صيد البحر أيضاً. فمن شواطىء شبه الجزيرة العربية كان العرب يصطادون الأسماك الصغيرة: كالسردين وغيره، ويجفّفونها ويقدّمونها علفاً للحيوانات، كما كانوا يصطادون الأسماك الكبيرة، ويتّخذونها غذاءً مفيداً لهم[٢٧٨].

---

(٢٧٤) الدينوري: كتاب النبات، ص٢٦٣ و٢٦٦.

(٢٧٥) قرآن كريم، سورة النحل، آية ٦٩.

(٢٧٦) نوري القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص٧٦ ـ ٩١.

(٢٧٧) H.Lammens: La cité Arabe de Taïf.., P32.

(٢٧٨) نوري القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص٣٠٢.

الفصل الرابع

الإنتاج الصناعي والتعدين في عصور ما قبل الإسلام

تقوم بين الزراعة والصناعة صلات تفاعل وتكامل، فالزراعة تُقدّم الخامات التي لا غنى عنها للصناعة، والصناعة تُقدّم الأدوات والآلات التي لا تطوّر الزراعة بدونها. وكلّما تطوّرت واحدة منهما تطوّرت الثانية. وهذا ما حدث بالفعل في بلاد العرب في عصور ما قبل الإسلام. ذلك أنّ تطوّر الزراعة فيها انعكس إيجاباً على الحرف الصناعية التي أخذت تتقدّم شيئاً فشيئاً، وخصوصاً في المرحلة الأخيرة التي سبقت الدعوة الإسلامية مباشرة. ففي تلك المرحلة انتقلت العملية الصناعية من طور العمل الحرفي الذي يلبّي الحاجات المحلية، إلى طور الإنتاج الصناعي الذي يبغي الربح والتصدير إلى الخارج بالدرجة الأولى.

ومن العوامل الأساسية لتطور الإنتاج الصناعي في بلاد العرب حينذاك: التطور النسبي الذي طرأ على حياة العرب عموماً، وعلى سكان المدن خصوصاً، وما استتبع ذلك من ازدياد الطلب على بعض السلع الصناعية الضرورية. وكذلك التقدّم الذي أصاب القطاع الزراعي، وتوافر المواد الأولية، والخامات المعدنية التي تتوزّع في أراضي الأقاليم العربية وبخاصّة في أقاليم: اليمن والحجاز والساحل الشرقي المطلّ على الخليج العربي والمحيط الهندي، كخامات الحديد والذهب والفضّة والنحاس والرّصاص والزّمرّد والعقيق والملح وغيرها. ووجود المواد الصلصالية، والأحجار التي تقبل النحت والتشكيل كالرخام والمرمر والحجر الصابوني... وأيضاً وجود ثروة حيوانية قامت على جلودها وأصوافها ووبرها وألبانها صناعات كثيرة ملائمة لظروف البيئة وحاجات

السكان. ونمو بعض النباتات التي استُخرجت منها مواد ذات أهمية في عدد من الصناعات: كالدباغة والنسيج والعطور والزيوت والخمور... وظهور أيدي عاملة خبيرة اكتسبت مهارات مهنيّة جديدة. وبروز حركة تجارية ناشطة تمثّلت في الأسواق المحلية والموسمية في داخل البلاد وخارجها.

ولم تقتصر الصناعة في بلاد العرب على نوع معيّن أو حرفة واحدة، بل شملت جميع الصناعات المعروفة في القديم، والتي تعكس مدى الثراء والتمدّن والرّقي الذي وصل إليه العرب في ذلك الوقت. وكانت هذه الصناعات تتدرّج، من صناعات بسيطة مارسها سكان البادية، إلى صناعات متطوّرة غاية في الدقّة والإتقان زاولها صناعيو المدن والقرى ومراكز الاستقرار.

١ ـ التعدين وطرقه:

ويُعدّ التعدين من المهن الأساسية الّتي اشتغل بها العرب منذ العصور القديمة وتحديداً منذ الألف الثالث قبل الميلاد. والذي يُشير إلى ذلك اكتشاف أكثر من ٤٤ موقعاً في عُمان لاستخراج المعادن وتعدينها، تعود إلى هذا التاريخ، وخاصّة معدن النحاس الذي كانت عُمان مصدراً مهمّاً من مصادره، والذي كانت مواقع التعدين تعمل على استخراجه من باطن الأرض وتنقيته من الشوائب وصهره وربّما تصنيعه أيضاً[١].

وفي شمالي شبه الجزيرة العربية، اكتُشِف عدد من مناجم التعدين في بلاد مدين التي كان أهلها يعملون في استخراج المعادن وتصنيعها مثل معدني النحاس والذهب، وكان مركزهم في المنطقة الممتدّة من بلدة القرية (على بعد ٧٥ كيلومتراً تقريباً شمال غرب تبوك) شرقاً حتى سواحل البحر الأحمر غرباً[٢]. وقد استفاد الأنباط الذين حلُّوا بأرض مدين، وغيرهم، من هذه المناجم، واستخرجوا بعض معادنها، وحفروا مناجم جديدة في شبه جزيرة سيناء بالقرب

(١) G.Weisgeber: Evidence of Ancient Mining Sites in Oman, P17, 28.

(٢) رشيد سالم الناضوري: دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٧٣. نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية..، ص١٦٧.

من وادي فيران للحصول على معادن النحاس والتركواز، وشقُّوا الطرق التي تصل بين هذه المناجم وبين مدنهم الرئيسية في شمال شبه الجزيرة العربية(٣).

ولا ريب أنّ بلاد العرب كانت مصدراً للعديد من المعادن، وخاصّة معدني الذهب والفضّة، فقد تحدّث كتّاب العصر الهلّينستي والروماني عن أنواع المعادن المتوفّرة في شبه الجزيرة العربية، وعن تعدينها ومجالات استخدامها، فوصفوا الأواني الذهبية والفضيّة التي صنعها العرب حينذاك، والعربات والمقاعد التي زيّنوها بالذهب والفضّة، والمنازل التي رصّعوها بالعاج والذهب والفضّة وطعّموها بالجواهر الأخرى(٤).

وقد استمرّت حركة التعدين هذه، في العصور الإسلامية، فقد ذكر الهمداني، في معرض حديثه عن معادن شبه الجزيرة العربية، أنّ جالية فارسية تُقيم في معدن شمام وأخرى تقيم في معدن الرّضراض(٥). ويُعتقد أن حركة التعدين الواسعة التي شهدتها بلاد العرب في العصر العباسي، قامت على أنقاض النشاط التعديني لسكان تلك البلاد في عصور ما قبل الإسلام. وتُؤكّد الدراسات الأثرية أنّ حركة التعدين في العصور الإسلامية، لم تكن بدايات هذا النشاط، بل هي تمثّل المراحل الأخيرة منه، استناداً إلى أساليب الحفر واستخراج المعادن الخام.

ويبدو أنّ العرب في القديم قد بدؤوا عملية التعدين بجمع المعادن عن سطح الأرض، ثمّ طوّروها إلى عملية قشط للطبقة الخارجية الحاملة للمعدن،

---

(٣) G.Bowersock: Roman Arabia, Harward University Press, Cambridge Mass, 1983, P94.

(٤) Diodorus: Library of History, Bk3, P231-232. Bk19, P99. Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P349.

Polybius: Historia, Translation by W.R.Paton, Lœb classical Library, London 1925, Bk13, P427.

I.Eph'al: The Ancient Arabs.., P91.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٦٧ ـ ١٦٨.

(٥) الهمداني: الجوهرتين العتيقتين المائعتين، ص٢٥.

ومنها انتقلوا إلى حفر الأنفاق والممرات في جوف الأرض على طريقة المناجم المفتوحة[٦].

وكانت المعادن الممزوجة بالرمل والحصى، كالذهب مثلاً في أراضي قبائل زبيد في غرب شبه الجزيرة العربية، تُجمع وتُغربل حتى تسقط الشوائب، وتبقى قطع الذهب التي تتراوح أحجامها بين نواة حبة الزيتون وثمرة الجوز. وكانت هذه القطع إمّا تُستخدم مباشرة وإمّا تُصهر وتُصب في سبائك وتُرسل إلى المصانع الموجودة في داخل شبه الجزيرة العربية، أو الموجودة في خارجها[٧].

وعندما يكون الذهب مختلطاً بعروق الكوارتز والمرمر، كانت المناجم تُحفر على هيئة أنفاق عامودية أو أفقية، ثم تُكسّر القطع الحجرية، التي تحوي على نسبة عالية من الذهب، إلى قطع صغيرة، ثمّ تُطحن بالرحى حتى تتحوّل إلى بودرة ناعمة، كانت تُوضع بالماء، فيذوب التراب ويبقى الذهب[٨].

وعلى العموم فإنّ التفتيت للمعدن الخام وطحنه كان يحصل بالقرب من المناجم في أكثر الأحيان. كما كانت المادّة المطحونة تُحرق بعد ذلك في أفران قريبة من مناطق التعدين أيضاً، لتخليص المعدن من المواد المختلطة به، مثل الكبريت الذي يوجد ممزوجاً بالنحاس في عُمان أو المزوج بالذهب في غرب شبه الجزيرة العربية[٩]. وكان يلي ذلك صهر المعدن الحاصل في الأفران وجمعه في أحواض خاصّة لنقله أخيراً إلى مراكز التصنيع في المدن حيث كان يُحوّل إلى أدوات مفيدة للإنسان[١٠].

---

(٦) المصدر نفسه، ص١٢٩.

(٧) A.Kisnawi: Preliminary Survey on the Mining Survey North West Hijaz, Atlal, Vol 7, Riyadh 1983, P.77.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية ص١٦٩.

(٨) Kisnawi: op.cit. P77-78.

(٩) G.Weisgeber: Pattern of early Islamic Mattallurgey, Proceedings of the Seminar for Arabian Studies, vol 10, Institute of Archaeology, London 1980, P116.

Ministry of Petroleum and Mineral Resources: Mineral Resources of Saudi Arabia, Bulletin No1, Riyadh, P21.

(١٠) Weisgeber: op.cit. P117.

أمّا أفران التعدين فكانت تُحفر في الصخور أو تُبنى بالحجارة وتُبطّن بمادّة صلصالية كما هي الحال في أفران معدن النقرة(١١). وكانت تُستخدم إلى جانبها أدوات أخرى مثل الألواح الحجرية، ودواليب الرحى المصنوعة من الصخور الجيرية أو البازلتية أو الديورايتية التي يكثُر وجودها في أراضي شبه الجزيرة. وقد اكتُشفت أجزاء من هذه الدواليب في مناطق مختلفة من بلاد العرب، يعود بعضها إلى الألف الثالث قبل الميلاد(١٢).

٢ ـ صناعات الأواني والأدوات المعدنية:

توصّلت الدراسات الأثرية إلى اكتشاف عدد كبير من الأدوات والأواني المعدنية التي يعود تاريخ صنعها إلى عصور ما قبل الإسلام، والتي اعتُمِدَت في صناعتها على خامات معدنية محليّة مستخرجة من أراضي عربية. ومن هذه الأدوات: التماثيل واللوحات البرونزية والأقداح والصواني والمرايا والمسارج والأسلحة والمسكوكات وأدوات البناء والفلاحة...

وقد ساعد وجود معدن الحديد في بعض مناطق بلاد العرب، كمضارب قبيلة سُليْم الواقعة إلى الشرق من يثرب، وأراضي نُقُم وغُمْدان حول صنعاء، وجبل الحديد بعدن(١٣)، إلى قيام صناعة حديدية ناشطة في بعض مدن وقرى شبه الجزيرة العربية في عصور ما قبل الإسلام. وعلى بروز قبائل معينة ارتبط اسمها بهذه الصناعة، كبني أسد الذين كان يُقال لهم القيون (أي الحدادون)(١٤). وبني سُليْم الذين كانوا يصهرون الحديد مع بني أسد، ويعملون على تنقيته وتحويله إلى معدن نافع لصناعة بعض الأدوات الفلاحية ووسائل

---

(١١) Weisgeber: op.cit, P166. Prentiss S. De Jesus: Preliminary Report of the Ancient Mining survey 1981, Atlal, Vol 6, Department of Antiquities and Museums of Saudi Arabia, Riyadh 1982, P72.

(١٢) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٦٩.

Kisnawi: op.cit, P77-78.

(١٣) محمود شكري الآلوسي: بلوغ الأرب، ص٢٠٤.

الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٠٢. أبو القاسم عبد الله بن خرداذبة: المسالك والممالك، باعتناء دي غوية، مطبعة بريل، ليدن ١٨٨٩، ص١٣١.

(١٤) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ص٣١٦. الآلوسي: بلوغ الأرب، ص٦٢.

الريّ: كسكّة الحديد والمسحاة (المجرفة)، والمكتال (المعول)، والشادوف والدلو[١٥]، وإلى صناعة الأسلحة: كالسيوف والدروع، وكانت الأسلحة اليمنية، ومنها السيف اليماني والدرع اليماني، مشهورة بجودتها، يُقبل على اقتنائها الناس، ويتغنّى بها الشعراء[١٦].

وكانت الحدادة حرفة شائعة في مكة ينتسب إليها أناس من أشراف العرب أمثال: الوليد بن المغيرة، والعاص بن هشام أخو أبي جهل عمرو بن هشام[١٧]. وكان حدادو مكّة يصنعون الأدوات الزراعية، والأسلحة من سيوف ودروع ورماح ونبال وسكاكين... وكان خباب بن الأرت قيناً يصنع السيوف[١٨]. وكان سعد بن أبي وقاص يبري النبال[١٩]. وذكر الواقدي أنّه كان في قوام جيش قريش، يوم أحد، سبعمائة دارع[٢٠].

وفي يثرب نشطت صناعة الحديد أيضاً، فكان الحدادون، من العرب واليهود والموالي، يصنعون المحاريث والمساح والفؤوس ومناجل الحصاد، وغير ذلك ممّا يستخدمه الزراع من آلات. كما كانوا يصنعون الأسلحة والدروع. يحدّثنا البلاذري أنّ رسول الله ﷺ قد غنم كل ما لدى بني النضير من سلاح الحلقة والدروع[٢١]. كما غنم من بني قينقاع كثيراً من الدروع والسيوف والأقواس[٢٢]، ومن بني قريظة ألفاً وخمساية سيف وألفي رمح وخمسمائة ترس وجَحَفة وثلاثمائة درع[٢٣].

وتُشكّل الخناجر والسكاكين والسيوف والنبال أهمّ الأسلحة التي كانت

---

(١٥) بليابيف: العرب والإسلام..، ص١١٣.

(١٦) المرجع نفسه، ص٩٣. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٥، ص٤٢٣.

(١٧) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: المعارف، تحقيق ثروة عكاشة، دار الكتب بمصر، القاهرة ١٩٦٠، ص٥٧٥.

(١٨) ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الأول، ص٣٨٣.

(١٩) ابن قتيبة: المعارف، ص٥٧٥.

(٢٠) محمد بن عامر الواقدي: كتاب المغازي، دار السعادة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٨، ص١٥٩.

(٢١) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، باعتناء دي غوية، ليدن ١٨٦٦، ص١٨.

(٢٢) الواقدي: المغازي...، ص١٤٠.

(٢٣) أبو عبد الله محمد بن منيع بن سعد: الطبقات الكبرى، الجزء الثالث، باعتناء أوجين متوخ، دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ص١١٧.

تُصنع في بلاد العرب حينذاك، وتُصدِّر بعض مناطق شبه الجزيرة جزءاً منها إلى ساحل أفريقيا الشرقي(٢٤). وكانت تُصنع الدروع من رقائق الحديد وتُبطّن بطبقة من النسيج أو الجلد. وذكر الهمداني أن سيوف الحديد اليمنية كانت تُصنع من حديد جبل نقم(٢٥). واشتهرت مدينة نشق التي كانت قاعدة عسكرية سبئية بصناعة الأسلحة(٢٦).

وكانت أدوات البناء والنحت والزراعة وغيرها، تُصنع من معادن الحديد أو الرصاص أو النحاس، كالمسامير المعدنية التي كانت تُستخدم في تثبيت الأحجار الكبيرة في أبنية المسارح والقصور والسدود(٢٧). والفؤوس والمزاميل والعتل والمطارق، التي كانت تُستعمل في أعمال البناء الأخرى وعمليات التعدين وأعمال النحت وغيرها(٢٨). وبعض أجزاء السروج والألجمة مثل الحلقات والمقابض والسلاسل وغيرها التي كانت تطلبها تجارة القوافل، ووحدات الموازين والمكاييل التي كانت تُستعمل في البيع والشراء(٢٩).

ودخلت المعادن في صناعة الأثاث المنزلي وأثاث المعابد، وأذرع المقاعد وبعض المفاتيح، ومقابض الأبواب على هيئة رؤوس حيوانات كالأسد. ولا يُستبعد أنّ القصور والمعابد الكبرى كانت تُزيّن بقطع من الأثاث المرصّعة بالذّهب والفضّة، كما صُنعت منها المركبات الملكية التي وصفها الكتّاب الكلاسيكيون(٣٠). وتشمل الأواني المنزلية التي صنعها العرب من البرونز

---

(٢٤) The Periplus of the Erythean Sea, Chapter 17, P28.

(٢٥) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٥٤.

(٢٦) A.F.I. Beeston: Warfare in Ancient South Arabia, P18.

(٢٧) Gus Van Beek: Hajar Bin Humeid, Johns Hopkins, Baltimore 1967, P248.

(٢٨) Ibidem, P248 وأيضاً:

Philp Hammond: The Nabataean, their History culture and Archaeology, P71-72.

(٢٩) Hammond: op.cit, P71-72. Ray Cleveland: An ancient south Arabian Necropolis, the Johns Hopkins Press, Baltimore 1965, P128.

(٣٠) Ray Cleveland: op.cit, P121-128. B.Dœ: Southern Arabia, Thomas and Hadson, London 1971, P103.

عبد الرحمٰن الطيب الأنصاري: قرية الفاو، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، جامعة الرياض، الرياض ١٩٨٢، ص٢٨.

والنحاس والذهب والفضة، القدور والأطباق والسكاكين ومقابض الأواني والأكواب والأقداح والصواني والمرايا والمسارج[٣١].

وتُشكّل التماثيل المعدنية البرونزية أو النحاسية، نسبة كبيرة من التماثيل التي خلّفها سكان شبه الجزيرة العربية، وهي بمعظمها تماثيل صغيرة لها قواعد معدنية، كانت تُصنع لتقديمها كقرابين للآلهة تقرّباً منها أو شكراً لها. وتعكس هذه التماثيل قدرة الإنسان العربي في عصور ما قبل الإسلام على صبّ وتشكيل صور الإنسان والحيوان الصغيرة والكبيرة على حدٍّ سواء[٣٢].

وبرع العرب كذلك في صناعة بعض اللوحات المعدنية البرونزية التي كانت تحمل نقوشاً بحروف بارزة، وثقوباً لتعليقها على جدران المعابد والقصور. وقد امتازت أقاليم جنوب شبه الجزيرة العربية بهذا النوع من اللوحات، ووجدت نماذج مختلفة منها، وعُثر على ما يزيد من سبعين لوحة تتراوح أطوالها بين عدّة بوصات إلى مترين في تلك الأقاليم[٣٣].

وكان الحدادون يقومون باستخلاص المعادن من الشوائب وتركيبها بخلطها بنسب متفاوتة لإنتاج معادن ذات خصائص جديدة، كما هو الحال في الصناعات البرونزية، كما كانوا يستخدمون الحديد وما شابهه في إصلاح الكثير من الأدوات، وخاصّة الأدوات الحجرية التي تُصنع محلياً[٣٤].

وقد استعمل هؤلاء في حوانيتهم بعض الآلات مثل: الكير الذي هو عبارة عن منفاخ يساعد على إشعال النار التي تستخدم في صهر المعادن وإذابتها، والأفران المبنية من الحجارة والطين التي توقد فيها النيران لعملية الصهر،

---

(٣١) الأنصاري: قرية الفاو..، ص٢٨ ـ ٢٩.

Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P349.

Ray cleveland: op.cit, P121-122.

(٣٢) الأنصاري: قرية الفاو..، ص٢٥ ـ ٢٦.

Ray Cleveland: op.cit, P93.

(٣٣) Jamme: Sabaean Inscriptions from Mahram Bilquis, P245. B.Dœ: op.cit, P160.

(٣٤) Van Beek: Hajar Bin Humeid, P369.

نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٩٨.

والبوتقات التي كانوا يستعملونها في نقل المعادن الذائبة، والمطارق التي يُطرق فيها الحديد على الفرازيم، والمبرد الذي تُبرد به أدوات الحديد وتُهذّب(٣٥).

٣ ـ الصناعات المعدنية الثمينة:

كان الذهب من المعادن الثمينة الذي عرفه العرب في عصور ما قبل الإسلام، ومارسوا تعدينه كما ذكرنا قبلاً. وكانت بلاد اليمن أغنى شبه جزيرة العرب بهذا المعدن الثمين الذي يوجد في مواضع: بيش، وضَنْكان بمخلاف تِهامة اليمن، ومأرب، وذمار، والقفاعة، والمُخَلَّفة من أرض حَجُور، وبأرض بني سابقة بالحدّ ما بين صعدة ونجران، والمنطقة بين القنفذة وعَشْوَد، وفي وادي التثليث على مقربة من حمضة وعلى مسافة ١٨٣ ميلاً من نجران(٣٦). وليس أدلّ على وفرة الذهب في أرض اليمن ما قاله سيف بن ذي يزن لكسرى عندما نثر دراهمه على خدم القصر: «ما أصنع بالمال وتراب أرضي ذهب وفضّة»(٣٧). وكان يوجد الذهب أيضاً بديار بني سُلَيْم وخصوصاً في منجم الذهب الّذي عُرف بـ«معدن بني سُليم» وفي أرض مَدْيَن وما والاها في شمالي وادي إضم الذي بدأ التعدين فيه قبل الميلاد بمئات السنين. كما وجد في معظم مناطق اليمامة كمعدن الحسن، ومعدن الحفير، ومعدن الضُبَيْب، ومعدن ثنية، ومعدن العَوْسَجة، ومعدن تياس ذهب(٣٨).

وكانت عملية تعدين الذهب عبارة عن جمع التبر واستخلاص الذهب منه بتنقيته من شوائبه. أمّا الأدوات التي استخدمها العرب حينذاك فكانت: رحى

---

(٣٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٥٥٧.

(٣٦) الهَمْدَاني: الجوهرتان العتيقتان المائعتان الصفراء والبيضاء، ص١٣٩. أبو علي أحمد بن عمر بن رسته: الأعلاق النفيسة، باعتناء دي غوية، ليدن ١٨٩١، ص١١٣. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٨٣.

(٣٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٥٩. ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الأول، ص٦٣. وهب بن منبه: كتاب التيجان في ملوك حمير، حيدر آباد ـ الدكن، الهند، ١٣٤٧هـ ص٣٠٤.

(٣٨) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٣١ ـ ١٦٥٤. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٩٣ ـ ١٩٤.

وأدوات تنظيف، ومدقّات، ومصابيح. وتُشير بعض المصادر إلى أنّ الذهب كان يُستخرج في مواضع من شبه جزيرة العرب خالصاً نقيّاً، لا يعالج بالنار، ولا يُصهر لتنقيته من الشوائب الغريبة(٣٩).

وإلى جانب معدن الذهب، كان في اليمن معدن الفضّة بالرّضْرَاض، وهو معدن جيد لا نظير له(٤٠). ومعدن الرصاص بين فهم وخولان، وقد استخدمه اليمنيون في كثير من الأعمال، منها صبّه في أسس الأعمدة، وتحويله إلى حلى ونقود لأنّه من المعادن النفيسة المستعملة كالذهب(٤١).

كانت صناعة الحليّ من الحرف المنتشرة في بلاد العرب، وتقوم على تحويل المعادن المتوفرة فيها، سواء كانت من المعادن الثمينة أو المعادن الرخيصة كالنحاس والبرونز، إلى قطع من الحلي تتزيّن بها النساء. وقد يضيف إليها الصائغ قطعاً من الجواهر الثمينة: كالعقيق والجزع والياقوت والزمرد والشذر واللؤلؤ والزجاج. وأهمّ أنواع الحلي: القلائد والأساور والخلاخل والخواتم والتيجان والأقراط والسلاسل. وقد عثر على الكثير من قطع الحليّ، سواء الذهبية منها أو المصنوعة من البرونز والنحاس، في مدن شبه الجزيرة العربية كالفاو، ومأرب، والبحرين، والبتراء، وتدمر(٤٢). كما عُثر في مقابرها على أقراط وحلى نسائية، كان من بينها قلادة من الذهب على شكل هلال بداخلها زخارف ونقوش بالأحرف القتبانية، وُجدت في مقبرة قديمة من مقابر «تمنع» عاصمة دولة قتبان(٤٣). كذلك عُثر فيها على أحجار كريمة يعود أصلها إلى العراق ومصر، وعلى أحجار كريمة يعود أصلها إلى اليونان أيام الرومان

---

(٣٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص١٩٣.

(٤٠) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٠٢.

(٤١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص١٣٨.

(٤٢) الأنصاري: قرية الفاو..، ص٢٨.

B.Dœ: Southern Arabia, P118. Van Beek: The land of Sheba, P59. Hammond: The Nabataean their history.., P70. Ray Cleveland: An Ancient South Arabian Necropolis, P129.

(٤٣) ويندل فيليبس: كنوز مدينة بلقيس، ترجمة عمر الديراوي، بيروت ١٩٦١، ص١٣١.

وأيام العصور الهلّينستية، وقد نُحتت على بعض منها حروف بالمسند، تُعبّر عن بعض المعاني الدينية أو عن أسماء أصحابها. ويُعتقد أنّها كانت تستعمل خاتماً للزينة أو لختم الوثائق والرسائل(٤٤).

وفي حفريات عاصمة كُندة وجد المنقبون مجموعة حلي، وهي عبارة عن أساور من المعدن والزجاج والعظام والعاج، وخواتم فضيّة ونحاسية وحديدية، وخرز بأشكال مختلفة من العقيق والبلور الصخري والشيست والدولوميت والياقوت والزجاج المعتّم والشفّاف، وفصوص من العقيق متعدّدة الألوان والأحجام، وأقراص زجاجية لعلّها فصوص خواتم(٤٥).

وعُثر في مدافن جرن بديع بنت سعود، التي تقع على بعد حوالي ٢٥ كيلومتراً من وسط مدينة العين، على صفائح رقيقة من الذهب وأقراط ذهبية وتشكيلة من الخرز المصنوع من الصدف والعقيق. كما عُثر في موقع الرميلة، الذي يبعد عن متحف العين بحوالي ثلاثة عشرة كيلومتراً لجهة الغرب، على مجموعة من الحلي البرونزية خاصة الأساور الكبيرة الحجم(٤٦).

وممّا لا ريب فيه أنّ هذه الحليّ الأثرية، تدلّ دلالة واضحة على أنّ صناعة الحليّ والمجوهرات، كانت رائجة في بلاد العرب في المرحلة التاريخية التي سبقت ظهور الدعوة الإسلامية.

ويبدو أنّ سكان جنوب شبه الجزيرة العربية قد برعوا في هذه الصناعة، ولا يزال الصّاغة إلى الآن، يُقلّدون أشكال الحليّ القديمة في مصوغاتهم. وكان لعقيق اليمن ولجزع ظفّار شهرة واسعة بين القبائل والأمم. ويُروى أن عقد عائشة زوج رسول الله ﷺ كان من جذع ظفّار، وكذلك قلادة زينب بنت أبي العاص(٤٧).

أمّا يثرب في الحجاز فقد فاقت غيرها من المدن في هذه الصناعة، ففي

(٤٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٧٤.

(٤٥) الأنصاري: قرية الفاو. . ، ص٢٨ و١٢٧.

(٤٦) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٤٧ ـ ٤٨.

(٤٧) ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الثاني، ص٢٩٧. الواقدي: مغازي رسول الله، ج، ص٩٩.

قرية زُهْرة وحدها ـ وهي أكبر قرى يثرب بين حرّة واقم والسافلة ـ ثلاثمائة صائغ[٤٨]، كانوا يصوغون الأساور والدمالج والخلاخيل والأقراط والخواتم والفتح والعقود، من الذهب أو من الجواهر والزمرّد أو من الجزع الظفاري[٤٩].

وكان يهود المدينة أهل هذه الصناعة ومُحترفيها. وكان ليهود بني قينقاع سوق تباع فيه الحليّ والمجوهرات، فكان يأتيه الناس من يثرب وغيرها لشراء ما يطلبونه من مصاغ[٥٠]. وقد بلغت ثرو هؤلاء اليهود من الحليّ مبلغاً كبيراً. ففي غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ كنز بني النضير الذي وجده في جلد جمل، والذي كان يتألف من حليّ ذهبية فيها: أساور ودمالج وخلاخيل وأقراط وخواتم ونظم من جوهر وزُمرّد وفتح بجزع ظفّار مجزّع بالذهب[٥١].

وكان نساء الطبقة الغنية ورجالها يتسابقون على اقتناء الحلى والمجوهرات والتزيّن بها، فعبد الله بن جدعان ـ أحد أثرياء مكّة ـ كان لا يشرب ولا يأكل إلاّ بآنية من ذهب وفضة، فعُرِف لذلك بـ«حاسي الذهب»[٥٢].

وغزارة الحِليّ الظاهرة في المنحوتات التدمرية، تُبيّن أنّ نساء تدمر كنّ يتحلّين بالقلادات والعقود والأساور والأقراط والخواتم والمرصعات التي كانت مصاغة من الذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة.. وقد تغنّى العرب قديماً بالأذن التدمرية، كناية عن جمال الأقراط التي تزيّنها[٥٣].

وعلى الرغم من اتساع حرفة الحلي والمجوهرات في بلاد العرب، فإنّ

---

(٤٨) نور الدين علي بن جمال الدين أبو المحاسن عبد الله شهاب الدين بن العباس السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣٢٦هـ، ص٣١٩.

(٤٩) أحمد إبراهيم الشريف: مكّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٣٧٧.

(٥٠) أبو محمد علي بن أحمد بن حزم: جوامع السيرة وخمس رسائل، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف، مصر لا تاريخ، ص١٥٤. الواقدي: مغازي رسول الله، ج، ص١٣٨.

(٥١) المقريزي: إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، ص٣٢٠.

(٥٢) محمد أحمد جاد المولى وآخرون: أيام العرب في الجاهلية، طبعة مصر، القاهرة ١٩٤٢، ص٢٤٨.

(٥٣) عدنان البني: تدمر والتدمريون، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨، ص٢٩٢.

الأدوات التي كان يستخدمها الصائغ قليلة ومحدودة منها: العسقلان (أصغر مطرقاته)، والغداف، والجبأة (الخشبة بين يديه)، والحِمْلاَج (منفاخه)، والكير، والمثقب، والكلبتان[٥٤].

٤ ـ صناعة النقود المعدنية (المسكوكات):

عرف العرب صناعة النقود المعدنية منذ عصور ما قبل الإسلام، وتحديداً منذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد. وذلك يعود إلى الازدهار التجاري الذي شهدته الدول العربية التي نشأت في القديم. ويبدو أنّ هذه الدول قد استخدمت في صناعة العملات، التي اصطلح على تسميتها بالمسكوكات[٥٥]، معادن الذهب والفضّة والنحاس والبرونز، وإن كان معدنا الفضّة والبرونز يشكّلان النسبة الكبرى منها.

وكانت سبأ أولى هذه الدول التي سكّت نقوداً، وقلّدت في بادىء الأمر العملة الأتيكية، وتأثّرت في الفترة المتأخّرة بالعملة الرومانية. وكانت مراكز سكّ النقود السبئية، التي حُفر بعض أسمائها على هذه النقود، متعدّدة منها: نجران وحضور وخمر. وورثت الدولة الحِمْيرية العملة السبئية وسكّت نقوداً مشابهة لها في مركزها بمدينة ظفّار، وبذلك أضحت العملة الحميرية استمراراً للعملة السبئية، مضافاً إليها رسوماً ونقوشاً جعلت الطابع العربي فيها أكثر وضوحاً من الطابع الأجنبي[٥٦].

أمّا الدولة المعينية فقد سكّت نقوداً خاصة بها، وحفرت عليها نقوشاً

---

(٥٤) الألوسي: بلوغ الأرب، ص٤٠٤.

(٥٥) السّكّة: هي الحديدة التي تطبع عليها الدراهم، ولذلك سميت الدراهم المضروبة سكّة. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري: الأحكام السلاطنية في الولايات الدينية، تحقيق خالد عبد اللطيف السّبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٢٧٥. وجاء في «المنجد في اللغة والأعلام» أنّ السّكّة جمع سِكَك، وهي حديدة منقوشة تُضرب عليها الدراهم، والسِكّي: الدينار، والسّكّاك الذي يضرب السّكّة. المنجد في اللغة والأعلام، ص٣٤١.

(٥٦) G.F.Hill: Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia, British Museum, London 1922, PIV, XVI-XVII.

عربية، منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، ولكن هذه النقود جاءت محاكاة للنقود اليونانية أيام الإسكندر المقدوني. وقد تميّزت النقود المعينية والنقود النبطية عن العملات العربية الأخرى بسعة انتشارهما وانتقالهما إلى خارج حدود شبه الجزيرة العربية(٥٧). وفي الفترة الممتدّة من عام ٥٠ إلى عام ١٥٠ ميلادية سكّت الدولة القتبانية، في مركزها بمدينة تمنع، نقوداً خاصّة بها. كذلك استمرت الدولة الحضرمية في سكّ عملة لها حتى القرن الثالث الميلادي. وكانت هذه العملة تحمل صورة وجه الملك على الجهة المحدّبة وصورة نسر على الجهة الأخرى المقعّرة، إلى جانب صورة رأس ثور في بعض الأحيان، ويسجّل عليها اسم الإلّه سن(٥٨). وتعامل الناس في دولة كندة بالعملات المحليّة ذات الطابع العربي، والتي كانت تحمل على وجهها المحدّب صورة إنسان من المرجّح أن تكون صورة الملك، وتحمل على وجهها الآخر المقعّر نقوشاً تشير إلى إله الدولة كهل(٥٩).

وبدأ الأنباط في شمالي شبه الجزيرة العربية بسكّ عملة خاصة بهم، منذ عهد الملك الحارث الثالث، مقلّدين بذلك العملات اليونانية في العهد الهلّيني، وتحديداً الدراخما الأثينية أو الدراخما التي كانت تسكّها مدينة صيدا(٦٠). وبمرور الوقت تطوّرت النقود النبطية وأخذت طابعها العربي في رسومها ونقوشها التي حفرت عليها، ولكن ما لبث الأنباط أن عادوا وتأثّروا بالغرب أيام الإمبراطورية الرومانية، وضربوا نقوداً تتبع في وزنها الدينار الروماني(٦١).

وبرز في شرقي شبه الجزيرة العربية مركزان لسكّ العملة في تلك

---

(٥٧) Otto Morkholm: New Coins Finds from Failaka, Kuml, Jysk Archeologist Selskab, Denmark 1981-1982, P232.

(٥٨) J.Walker: The Moon god on Coins of the Hadramaut, Bulletin of the- School of Oriental and African Studies, vol 14, London 1952, P623-626.

(٥٩) الأنصاري: قرية الفاو..، ص١٢٤ ـ ١٢٥.

(٦٠) Y.Mesharer: Nabataean Coins, the Institute of Archaeology, Jerusalem 1975, P8.

(٦١) Hill: op.cit, PXXI.

المرحلة. الأول في الجرهاء التي كانت تقلّد في رسومها العملة اليونانية في العهد السلوقي. والثاني في مملكة هجر التي يُعتقد أنّ مقرّها كان هناك، والتي كانت تقلّد العملة اليونانية في العهد السلوقي أيضاً، وتحمل نقوشاً عربية باسم ملك البلاد(٦٢). وسلكت مملكتا تدمر وخاراكس سبيل أخواتها العربيات وسكّتا نقوداً خاصة بهما. ويبدو أن دار سكّ العملة التابعة لمدينة خاراكس قد استمرت في صناعة النقود وضربها حتى العهود الإسلامية الأولى وتحديداً حتى العهد الأموي(٦٣).

وتميّزت العملات العربية هذه، برموزها التي تشير إلى اسم المدينة التي سكّت فيها النقود، أو إلى شعار الدولة وإلّهها الرسمي، أو إلى اسم الأسرة التي امتهنت صناعة العملات. ممّا يدلّ على وجود أسر متخصّصة في عملية السكّ، كما هو الحال في دولة الأنباط في الشمال، وفي دولة سبأ في الجنوب حيث حازت أسرة «حي ايلتم» على حقّ سك العملة السبئية لمدّة طويلة(٦٤).

كما تميّزت العملات العربية في اليمن بدقّة أوزانها التي كانت تتبع الدراخما البابلية التي تبلغ ٥,٠٦ غرامات. وكان السّكّاك في دار الصناعة يصبّ المعدن المنصهر بالوزن المحدّد في قوالب برونزية خاصّة ثم يبرّده بالماء، وهكذا حتى يتمّ صنع النقود التي يتداولها الناس في الأسواق(٦٥).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ العرب قبيل الدعوة الإسلامية لم يعد لديهم سكّة خاصة بهم، ولا نقود تحمل اسمهم، ولكن عندما كانوا يتّصلون بالأمم المجاورة لهم عن طريق التجارة كانوا يرجعون إلى بلادهم حاملين معهم دنانير بيزنطية من بلاد الشام ومصر، ودراهم فارسية من العراق، وقطع فضيّة غير مضروبة ولا منقوشة يمانية ومغربية(٦٦). وكانوا يُعبّرون عن الذهب بالعين،

---

(٦٢) Morkholm: op.cit, P232.

(٦٣) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . ، ص١٧٦.

(٦٤) Mesharer: op.cit, P72-78. A.Jamme: Garnegie Museum 1974-1975, Yemen Expedition, P133.

(٦٥) Hill: op.cit, PXVI. B.Dœ: Southern Arabia, P120.

(٦٦) عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمّى التراتيب الإدارية، ص٤١٤ ـ ٤١٥.

وعن الفضّة بالورق، وكانوا يتعاملون بهذه الدنانير والدراهم وزناً باعتبارها تبراً، وليس عدّاً كما هو الحال في أيامنا، ويغضّون النظر عن كونها نقوداً مضروبة، وذلك لاحتملا أن تنقص الدنانير من كثرة تداولها، وإن كانت حينذاك ثابتة الوزن(٦٧).

٥ ـ الصناعات الحجرية:

ساعد وجود أنواع عديدة من الأحجار القابلة للقطع والنحت في بلاد العرب وخاصّة في أراضي شبه الجزيرة العربية، كأحجار المرمر والرخام والبلور الخشن والأحجار الجيرية والغرانيت والبازلت والديورايت والحجر الصابوني، على قيام صناعة حجرية متطوّرة، تمثّلت بصناعة الأدوات والأوعية التي كانت تستخدمها الشعوب العربية في تلك المرحلة.

وقد صُنع من أحجار المرمر والرخام أوعية لحفظ مواد الزينة: كالعطور واللبان والدهان، على هيئة جرار صغيرة أو صناديق لها أغطية كانت تُزين بالنقوش أو الصور المحفورة عليها. كما صُنع من هذه الأحجار الأطباق والمجامر (المباخر) والتماثيل البشرية والحيوانية وقواعدها. ودخلت هذه الأحجار في المعابد كأجزاء منها مثل: المذابح والأفريزات التي كانت تُبنى في مقدّمة المعبد وتُزخرف بالنحت البارز(٦٨).

وصُنعت من الحجر الصابوني، الذي تنتشر مقالعه في اليمن وعسير ونجد (قرب الدوادمي)، وفي حجلة جنوبي الطائف، وفي إقليم عُمان، أواني الطبخ كالقدور. وكانت هذه الأواني تُصنع بدق الحجر الصابوني ومزجه مع بعض المواد مثل: القش أو الحصى الصغير أو ذرات الكلس، وذلك لتقوية العجينة

---

(٦٧) أبو الحسن البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٥٢ ـ ٤٥٣. عبد القديم زلّوم: الأموال في دولة الخلافة، دار العلم للملايين، بيروت نيسان ١٩٨٣، ص١٩٩ ـ ٢٠٠. فؤاد علي رضا: أم القرى: مكة المكرمة، دار المعارف، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧، ص١٦٠.

(٦٨) Frank P.Albright: Catalogue of Objects found in Marib, Johns Hopkins Press, Baltimore 1958, P273. Gus Van Beek: Hajar Bin Humeid, P376.

حتى تتحمّل الحرارة سواء أثناء عملية الصناعة أو عند الاستعمال، وهذا ما أعطى لهذه الأواني لونها الأسود والرمادي(٦٩).

وصُنعت من أحجار الديورايت والغرانيت دواليب الرحى والمساحق اللازمة لطحن الحبوب، أو لطحن وتكسير الصخور التي تحتوي على نسبة عالية من المعادن، كإحدى الوسائل التي كانت تستخدم لاستخلاص المعدن الخام منها، وخصوصاً في مناجم الذهب والنحاس(٧٠).

وصُنعت من حجر المسن مقابض السكاكين، ومن حجر الشذب ألواح وصفائح وقوائم السيوف ونصل السكاكين. وصُنعت من الحجر الهيصمي، الذي يسميه الحسن الهمداني بهذا الاسم والذي يشبه الرخام إلاّ أنّه أشدّ بياضاً منه، الآنية. كذلك صُنعت هذه الآنية من حجر الحرض، وهو حجر يمتاز بخاصيّة الاحتفاظ بالحرارة مدّة طويلة(٧١).

وصُنع من بعض الأحجار عدد من الآلات التي كانت تُستخدم في عزق الأرض كآلات الحفر التي وجدت في حقول تيماء وثاج، وتعود إلى منتصف الألف الأول قبل الميلاد. كما صُنعت منها آلات بسيطة كانت تُستخدم في قطع الأحجار والزجاج، وفي ذبح الحيوانات، وأعمال الحلاقة، وفي الطب كالعمليات الجراحية، وفي صناعة الجلود والمنسوجات وبعض أنواع القداح التي كانت تستعمل في إشعال النار(٧٢).

وتُظهر الأواني والآلات الحجرية، التي اكتشفتها البعثات الأثرية في مواضع مختلفة من بلاد العرب، المستوى الرفيع الذي بلغته هذه الصناعة في مجالات النحت والتشكيل والزخرفة الفنيّة(٧٣).

---

(٦٩) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . ، ص١٧٧.

(٧٠) A.Kisnawi: Preliminary report on the mining Survey, North West Hijaz, P179-180.

(٧١) الحسن الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١١٧ و٣٦٣ ـ ٣٦٥.

(٧٢) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في جزيرة العرب، ص١٧٨.

(٧٣) Gus Van Beek: Hajar bin Humeid, P370.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ أحجار جنوب شبه الجزيرة العربية كانت تُقطع بشكل واسع في عصور ما قبل الإسلام ليس فقط للاستعمال المحلّي بل للتصدير إلى خارج البلاد(٧٤). ويبدو أن هذه الأحجار قد نالت شهرة عالمية، وخاصّة عند الإغريق، فقد امتدحها ديودوريس وقارن بينها وبين أحجار جزيرة باروس (Paros) التي اشتهرت بجودة أحجارها الرخامية، فوجد أنّ أحجار بلاد العرب تفوقها جودة في نصاعتها وثقل وزنها وملاسة سطحها؛ وذلك لشدّة حرارة الشمس في تلك البلاد(٧٥).

وإلى جانب الصناعات الحجرية التي أشرنا إليها نشأت في بلاد العرب حينذاك عدّة حرف ذات صلة بوجود الحجارة ومنافعها نذكر منها:

حرفة قطع الأحجار من المحاجر وتهذيبها ونقلها إلى الأماكن المعدّة لها. وحرفة حفر الآبار وأساسات المباني وحفر المقابر التي كانت تتطلّب جهوداً كبيرة، والتي كانت تُحفر في باطن الأرض أو في صخور الجبال، وتتألف من عدّة غرف أو مدفن. وقد عُني بحفرها جيداً وبُطّنت جدرانها بألواح حجرية وطُليت بالجص. وخير شاهد على هذه القبور، قبور الحجر (مدائن صالح) وقبور البتراء التي أقامها عرب الأنباط في الصخور والجبال والأودية(٧٦).

وحرفة النحت التي كانت فنّاً راقياً، والتي امتهنتها جماعة وأدخلتها في أعمال البناء لزخرفة الجدران والإفريزات، ولإضافة بعض المنحوتات عليها كالتماثيل وغيرها. وقد استخدم النحاتون في عملهم أنواعاً مختلفة من الحجارة المحليّة: كالرخام والمرمر والحجر الرملي وغيره. وتتجلّى قدرة النحّات العربي في هذا الفنّ في أحد صالات معبد محرم بلقيس إذ عمد إلى نحت ٦٤ نافذة في جدران هذه الصالة تدلّ على قدرته وإبداعه(٧٧).

---

(٧٤) The Periplus of the Erythean Sea, Chapter 24, P31.

(٧٥) Diodorus: Library of History, Bk2, P59.

(٧٦) عبد الرحمٰن الأنصاري، وأحمد حسن غزال، وجيفري كنج: مواقع أثرية وصور من حضارة العرب، قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٤هـ، ص٥٢.

(٧٧) Gus Van Beek: The land of Sheba, P52. F.Albright: op.cit, P223.

وأيضاً حرفة بناء القصور والمنازل والمعابد والمقابر والمسارح وشق الطرق وإقامة مشاريع الريّ، وما رافق هذه الحرفة من أعمال تابعة لها، كعمل تحضير الملاط سواء من الطين أو الجص أو الأسمنت. وقد عُثر على أجزاء كثيرة من المباني والقبور المجصّصة[(٧٨)] وكذلك مشاريع الريّ. وكان يشرف على أعمال البناء، كما يظهر من بعض النقوش، متخصّصون وأهل خبرة وعلم هم بمثابة مهندسي العمارة في زماننا. وقد استخدم عمال البناء الفؤوس والأزاميل في أعمالهم؛ وترك العديد من هؤلاء أسماءهم على واجهات الحجارة، تعبيراً عن افتخارهم بما كانوا يقومون به من أعمال وما يبنونه من منشآت[(٧٩)].

٦ ـ صناعة استخراج الملح:

عرف العرب القدماء الملح واستخرجوه من جبل الملح في منطقة مأرب والذي امتاز بصفائه كالبلور. كما استخرجوه من ممالح نجد، ومن ممالح تِهامة التي قال فيها الهَمْدَاني إن كثيراً من مياهها أملاح، وكل ما قارب الساحل أملاح إلاّ اليسير. واستخرجوه من مدينة شبوه التي تقوم على منجمين للملح وتكثر في شرقي شبه الجزيرة السبخات الملحية التي كانت مصدراً هامّاً لهذه المادّة، ويُعتقد أنّ ظهور مدينة ثاج قد ارتبط بوجود سبخة للملح هناك، وبكونها مركزاً تجارياً له. كما تكثر السبخات الملحية في وادي السرحان التي عُرفت قراه «بقرى سبخات الملح»[(٨٠)].

---

(٧٨) الأنصاري: قرية الفاو..، ص٢٠ ـ ٢١.

(٧٩) نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية..، ص١٩٩ ـ ٢٠٠.

F.Albright: op.cit, P218. P.Hammond: The Nabataean, their history culture and Archaeology, P112.

(٨٠) حسن الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٥٥ و٢٠١.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية..، ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

Western Arabia and the Red Sea, P39.

٧ ـ صناعة الغزل والنسيج:

كان من الطبيعي أن تنشط صناعة غزل الخيوط وحياكة الأثواب وخياطتها عند العرب في عصور ما قبل الإسلام، وذلك لتوافر الخامات الأولية لهذه الصناعة، من صوف غنم ووبر جمل وشعر ماعز، ومن خامات الكتان والقطن والأصبغة من جهة، ولتوافر الأيدي العاملة الخبيرة من جهة ثانية. وتُشير المصادر الكلاسيكية إلى ملابس سكان شبه الجزيرة العربية المطرّزة والموشّاة بالذهب، كما تشير إلى وجود القطن ضمن محاصيل بلاد العرب وخصوصاً في البحرين، وإلى وجود بذور الكتان في جنوب شبه الجزيرة(٨١). ويذكر صاحب كتاب الطواف أن عمانا (صحار) كانت تُصدّر الثياب العربية إلى الخارج، وأنّ العرب كانوا يستوردون الأنسجة، إمّا كثياب جاهزة، وإمّا كمنسوجات يتمّ تصنيعها محليّاً(٨٢).

وكانت جماعة في مكة قد احترفت صناعة الغزل والنسيج، منها: مُجمّع الزاهد الذي كان حائكاً، والعوّام أبو الزبير، وعثمان بن طلحة، وقيس بن مخرمة، وجميعهم كانوا خياطين(٨٣). وكشفت الدراسات الأثرية عن وجود كميات من بقايا الأنسجة في قرية الفاو، تدلّ على تطور قيام هذه الصناعة فيها، ويظهر من القطع التي عُثر عليها هناك مدى دقّة وإتقان هذه الصناعة، حيث يتجلّى فيها تمازج الألوان لدرجة تثير الدهشة والإعجاب(٨٤).

واشتهرت اليمن ونجران بنسج الحلل والثياب الملوّنة والمزركشة: كالخال وهو ثوب ناعم وضرب من البرود. والوصائل وهي ثياب يمانية حمراء أو بيضاء، أو مخطّطة بالأبيض والأحمر. والعَصْب وهو نوع من البرود اليمنية،

---

(٨١) يوسف الغنيم: الجزيرة العربية في كتاب المسالك والممالك للبكري، ص٣٨.

Gus Van Beek: Hajar Bin Humeid, P401.

(٨٢) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . ، ص١٩٤.

The Periplus of the Erythean Sea, P36.

(٨٣) ابن قتيبة: المعارف، ص٥٧٧.

(٨٤) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . ، ص١٩٤.

يُعصب غزله ويُدرج ثمّ يُصبغ ويُحاك[٨٥]. والمُمَرجَل وهي ثياب من الوشي فيها صور المراجل، والحَبَرة وهي من برود اليمن الموشّاة والثوب الجديد الناعم. والمعاجر وهي من الثياب المصنوعة في اليمن. والسَّحْل وهي ثوب أبيض رقيق، أو من القطن المصنوع في بلدة سحول اليمنية. والسيراء وهي برد مخططة بخيوط صفراء، أو يخالطها حرير وذهب خالص، أو هي ثياب مخططة تنسج من حرير القزّ. والمُرحَّل وعليه صور الرِّحال[٨٦].

وتُشير التوراة إلى الثياب المطرّزة والأنسجة البنفسجية التي كان يجلبها تجار سبأ إلى فلسطين. وفي صلح المسلمين مع أهل نجران، كان على النجرانيين أن يدفعوا جزية سنوية من بينها ألفا حلّة ـ ألف حلّة في شهر صفر وألف حلّة في شهر رجب[٨٧]. وتروي المصادر أنّ كسوة الكعبة في عصور ما قبل الإسلام كانت من الأنطاع والمعافر، وأنّ أحد تبابعة اليمن ويُدعى تبان أسعد أبي كرب هو أول من كسا الكعبة بالوصائل اليمنية، وهي ثياب يمنية تُصنع في المعافر[٨٨]، وكساها رسول الله ﷺ الثياب اليمنية أيضاً[٨٩]، وقد استمرّت الكعبة تُكسى من اليمن حتى عهد الخليفة عثمان بن عفّان.

وترتبط الصباغة ارتباطاً وثيقاً بصناعة الغزل والنسيج، وكان العرب عامّة، وأهل اليمن خاصّة يستخدمون أصباغاً مستخرجة من النباتات الطبيعية: كالورس والعصفر وقِرْف الأرطي وقِرْف السِدر والفوّة والعصب والأيدع وغيرها، لتلوين الثياب والأقمشة باللون الأحمر أو الأصفر أو الأخضر، أو بمزج الألوان للحصول على صبغة أكثر ثباتاً وتركيزاً. وهكذا حتى راجت الأقمشة والثياب

---

(٨٥) ابن سيدة: المخصص، ج٤، ص٦٣ ـ٦٤.

(٨٦) أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج٣ طبعة مصر القاهرة ١٩٥٢ ص٥٤ و٣٩٣. محب الدين أبو الفيض محمد بن مرتضى الزبيدي: شرح القاموس، الجزء الثالث، طبعة مصر ١٣٠٦هـ، ص٧ و١١٨ و٣٤١ و٣٨٣.

(٨٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص٦٤.

(٨٨) عبد السلام هارون: تهذيب سيرة ابن هشام، ج١، دار سعيد، مصر ١٩٥٥، ص١٢.

(٨٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٧.

اليمنية في الأسواق، وأقبل عليها الناس من مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، وكان أثرياء العرب يتباهون بلبسها ويتفاخرون(٩٠).

واشتهرت عدن أيضاً بصنع البرود، كما اشتهرت قطر بحياكة الثياب الملوّنة(٩١).

وإلى جانب إنتاج الثياب والحلل والبرود، راجت في شبه الجزيرة العربية صناعة الخيم والملاحف والأغطية والوسائد والبسط التي كانت تُحاك من صوف الغنم وشعر الماعز ووبر الجمل. وكان يعمل في هذه الصناعة الرجال والنساء، وينتجون أنواعاً عديدة من البسط، كالبسط العبقري التي راجت في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، لجودة أصباغها ونقوشها(٩٢).

وكانت حياكة الخيام، التي تُصنع من وبر الجمل أو شعر الماعز أو صوف الغنم أو جلود الأنعام، مزدهرة عند عرب الجاهليين. وكانت خيام الجلد أفضل أنواعها، لأنّها تحمي ساكنيها من البرد والرياح والأمطار(٩٣).

أمّا طريقة صناعة الألبسة كانت تعتمد على أساليب بسيطة، منها حلج القطن بعد قطفه بمحالج خشبية تُدار يدوياً، ثمّ يغزل بمغازل يدوية، وتُحاك منها الإزارات والبرود والحلل والرِيَاط والأقطاع(٩٤). وأشارت النقوش المكتشفة إلى وجود مصانع النسيج في بعض مدن شبه الجزيرة العربية، كانت تُستخدم فيها عدد من الآلات: كالمنوال والمشبحة والثناية والعدل والمغزل(٩٥).

وعلى الرغم من التقدّم الذي بلغته صناعة الثياب والأقمشة في شبه جزيرة

---

(٩٠) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص١٧٢. حسن صالح شهاب: أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص١٦٢ ـ ١٦٣.

(٩١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٧٣.

(٩٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٥٩٧. الزبيدي: تاج العروس ج٣، ص٣٧٩.

(٩٣) جواد علي: المفصل، ج٨، ص١٧٤.

(٩٤) حسن صالح شهاب: أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص١٥٨.

(٩٥) الأنصاري: قرية الفاو، ص٢٢. جواد علي: المفصل، ج٧، ص٥٩٤.

A.Jamme: South Arabian inscriptions, In the ancient near East, P234.

العرب في عصور ما قبل الإسلام، إلاّ إنّ العرب ظلّوا يستوردون المنسوجات النفيسة الغالية من بلاد فارس والهند ومصر والعراق، كالديباج والإستبرق والسندس وغيرها. ويُعتبر الديباج من أغلى الأقمشة الحريرية الذي كان يتنافس الأثرياء على شرائه واستخدامه(٩٦). كما كانوا يستوردون من الهند والصين الأنسجة الحريرية والقطنية والصوفية، ثم يقومون بصناعتها محلياً لتلائم أذواق سكان شبه الجزيرة، كالثياب المطرزة بالخيوط الحريرية والذهب(٩٧).

٨ ـ الصناعات الجلدية والدباغة:

كانت دباغة الجلود من المهن الصناعية الرّائجة في شبه جزيرة العرب في عصور ما قبل الإسلام. وذلك لسدّ متطلبات الزراعة ووسائل الريّ، إلى بعض الآلات والأدوات كالقرب والدلاء، وإلى سدّ بعض حاجات الناس إلى النعال وغيرها.

وكانت الطائف في الحجاز من المدن الحضرية التي اشتهرت بدباغة الجلود. وقد كثرت مدابغها بحيث أنّ مياه المدابغ التي يدبغ بها الأديم، كانت رائحتها تصرع الطير إذا مرّت بها(٩٨). ويقول الهَمْداني أنّ الطائف بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة وفيها الأديم المليح والثقيل(٩٩).

وكان يقوم في صعدة اليمن مركز دباغة الأدم، وذلك لوقوعها في بلاد القَرَظ، ومنها يؤخذ الأدم الجيّد، وفيها تُصنع الركاء الجيّدة والأنطاع الحسنة(١٠٠). وكذلك كان يوجد مركز في جرش ومركز في نجران. ويُعتقد أنّ مراكز الدباغة توزّعت في جزر البحر الأحمر ومنطقة الحجاز ومدن جنوب شبه الجزيرة(١٠١).

---

(٩٦) ابن سيده: المخصص، ج٤، ص٧٦. الفيروزآبادي: القاموس، ج١ ص١٩٣.

(٩٧) Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P349.

(٩٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٩.

(٩٩) الهَمْداني: صفة جزيرة العرب، ص١٢٠.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص٢٠١. المقدسي: أحسن التقاسم، س٨٧.

(١٠١) A.Khan: The Tanning Cottage industries in Pre-Islamic Arabia, Pakistan Historical Society, Karachi 1971, P89.

وكانت جلود البقر في بلاد اليمن تُدبغ للنعال الغالية الثمن، بحيث يبلغ النعل الواحد منها عشرة مثاقيل إلى عشرين[١٠٢]. وقد ذاع صيت الجلد اليمني المدبوغ في جميع مناطق شبه الجزيرة، وذلك لجودته وحسن صنعه. وقد شبّه طرفة بن العبد مشافر ناقته بجلد يمني لا يتجعّد، وذلك في البيت التالي:

وخدٌّ كقرطاس الشآمي ومشفرٌ كسِبْت اليماني قدُّه لم يُحرَّد[١٠٣]

وكانت الدباغة بالبحرين تتمّ بالتمر والأرطي، فتجيء الجلود ليّنة متينة[١٠٤].

وعلى العموم فإنّ الجلود كانت تدبغ بالقَرَظ والأرطي والسَّلَم والظُّيّان والآلاء والعلق والغَرَف والصِرْف وغيرها. وأجود أنواعها ببلاد العرب ما يُدبغ بورق القَرَظ، وكان يُقال لقاطف ورق القرظ القارظ ولبائعه القَرَّاظ[١٠٥]. وكان دبغ الجلود بورق الشث ألين من القرظ، ولذلك كان يُخلط بالقرظ يبتغي لينه، فيُليّنه الشث ويُحمّره القرظ. وشرّ الجلود ما دُبغ بالآلاء، وكل ما يُدبغ بالقرظ فإنّما يُحمّر بالأصباغ كاللُّك والفوّة[١٠٦].

وكانت عملية الدباغة تتمّ بإلقاء الجلود، قبل مرط شعرها أو صوفها، في الدباغ للحصول على النعال المشعرة أو بالفراء. وإن أرادوا عكس ذلك مرطوا شعره أو صوفه، ثمّ ألقوه إمّا في ماء ضرب بالغلقة، وهي عشبة تُجفّف وتطحن ثم تُضرب بالماء وتُنقع فيه الجلود، فتمرط ويُستنقى ما فيها من بقايا اللحم، ثمّ تُطرح في الدباغ، وإمّا أن تُعطن، وعطنها أن تكبس في حفيرة وتدفن فيها حتى يسترخي شعرها وصوفها، أو يُلفّ وينضد بعضها على بعض، فتمرط حينئذ ثمّ تُلقى في الدباغ[١٠٧].

---

(١٠٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٠١.

(١٠٣) ديوان طرفة بن العبد، ص٤٢.

(١٠٤) أبو حنيفة الدينوري: كتاب البنات، ص١١٩.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص١٠٥.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص١٠٦ و١١٨ ـ ١٢٠.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص١١٥.

ومن الطبيعي أن لا تعطن جلود البقر قبل دبغها. وكان العرب يطلقون على الجلود المدبوغة عامّة، وعلى جلود البقر خاصّة اسم «سِبْت»[١٠٨] وهناك من يطلق على الحذاء اسم سِبْت، فيقال أيضاً: نعل السِّبْت، ونعال السِّبْت، وفي ذلك يقول عنترة:

بـطـل كـأنّ ثـيـابـه فـي سَـرْحَـةٍ   يحذى نعال السِّبْت ليس بتوأم[١٠٩]

أمّا الآلات التي كانت تُستخدم في دباغه الجلود وصنعها فهي: الإشفى والمِبْقَر والمِسْرَد والمِخْصَف والمِغْراص والمِجْوَف والمنحاز والأزاميل[١١٠]، والمحط وهو نوع من الخشب وقيل من الحديد كان يستعمل لصقل الأديم، وهناك المحلاة وكانت تُستعمل لإزالة شعر الجلد، واستُخْدم الجير لهذه الغاية أيضاً[١١١]. وأشارت بعض المصادر إلى ضخامة حجر الطواحين الذي يطحن به ورق القرظ لدباغة الأديم[١١٢].

وكانت هذه الجلود بعد تجهيزها تدخل في مختلف الصناعات الجلدية التي يحتاج إليها الناس في حياتهم اليومية، والتي كانت تُعرف باسم الخرازة، ومن الأدوات الجلدية التي صنعها العرب الخرازون هي: الجفان والأنطعة والسيور والنعال، وقد عُثر على صور وتماثيل لشخصيات تنتعل نعالاً جلدية. كما صنعوا ملابس جلدية من جلود الحيوانات البريّة كالأسود والنمور، وصنعوا منها الخيام وهي بيوت غالية الثمن لا يستطيع امتلاكها إلاّ الأغنياء[١١٣]. وقد ذكر الهمداني أنّ العرب اتخذوا من جلود النمور النفيسة السروج والفرش وأجلة للخيل[١١٤]، وصنعوا أيضاً الأشلة وهي جلد من صوف أو شعر مطرز يجعل

---

(١٠٨) المصدر نفسه، ص١٠٥ و١١٥.

(١٠٩) ديوان عنترة، دار صادر، بيروت ١٩٥٨، ص٢٧.

(١١٠) المِغْراص: حديدة عريضة للقطع. والمِجْوَف: حديدة يُخصف بها. ابن سيدة: المخصص، ص١١٥.

(١١١) Khan: The tanning Cottage industry in Pre-Islamic Arabia, P86.

حسن صالح شهاب: أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص١٦٠.

(١١٢) ابن مجاور البغدادي النيسابوري: صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز، ص٢٠.

(١١٣) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية..، ص١٩٣.

(١١٤) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص.

على عجز البعير(١١٥). وكذلك الغروب والدلاء الجلدية التي تُستخدم في رفع الماء من الآبار، والقرب التي كانت تستعمل لنقل الماء وحفظه، ومنها ما يُحفظ فيه العسل واللبن والخمر والسمن. ومن الجلد صنعوا البسط والأحزمة والمساند، وأدوات الحرب من دروع وخوذ، وأجربة السكاكين والسيوف والخناجر(١١٦). ويُروى أن هذه الجلود كانت تستعمل في بعض الأسلحة الهجومية لحماية من في جوفها من نبال وسهام العدو. يقول البلاذري «إنّه كان مع المسلمين وقت حصار الرسول ﷺ لمدينة الطائف المحصّنة دبابة صُنعت من جلود البقر، فكانوا يدخلون في جوفها، ثم يدفعونها في أصل الحصن فينقبونه وهم في داخلها»(١١٧).

٩ ـ صناعة استخراج الأصباغ والعطور:

اهتم العرب في العصور القديمة بتحضير الأصباغ والألوان، لتلوين الثياب والأقمشة والجلود. وكانت معظم هذه الأصباغ تُستخرج من النباتات البريّة والمزروعة كالوَرْس، والعصفر، والحلق، وقرف الأرطي، وقرف السِّدر، والفوّة وهو نبات له عروق حمراء وحبّ شديد الحمرة كثير الماء، يطبخ ويصبغ بمائه. والعَنْدَم وهو البقّم، والبَقّم شجر ساقه أحمر، يطبخ ويلوّن بمائه الأحمر، ولكنه ليس من نبات أرض العرب، والعندم شجر أحمر(١١٨). قال الأعشى في وصفِ الخمر:

فبتّ كأنّي شارب بعد هَجْعَةٍ ... سخامية حمراء تُحْسَبُ عَنْدَما
بكأس وإبريق كأنّ شرابه ... إذا صبّ في المصحاة خالط بَقَمًّا(١١٩)

---

(١١٥) أحمد فاروق: دباغة الجلود وتجارتها عند العرب في مستهل الإسلام، دار اليمامة للنشر، الرياض ١٣٩٦هـ، ص٥٣٨.

(١١٦) Herodotus: The History of Herodotus, Pk3, P11. The Periplus of the Erythean Sea, chapter 27, P32.

(١١٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص٥٥.

(١١٨) أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات ص١٧١ و١٩٤ ـ ١٩٥.

(١١٩) ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، شرح وتعليق الدكتور محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر ١٩٥٠م، ص٢٩٣. سخامية: الخمر السلسة في الحلق. المصحاة: قدح من فضة يُشرب به.

أمّا الوَرْس فيزرع زرعاً في اليمن، ويبقى في الأرض عشرين سنة لا يتعطّل، ويُخرج الورس الحبشي صبغاً أصفر خالص الصفرة، والورس البادرة في صبغها حمرة. وأمّا العصفر فمنه بريّ، ومنه ريفي يُزرع زرعاً، وكلاهما ينبت في أرض العرب، وليس في البريّ منه منفعة. والزعفران نبات لون زهره أصفر، ومصدره من بلاد العجم، وقد حرّفته العرب فقالوا: «ثوب مزعفر، وزعفر ثوبه، يزعفره زعفرة». وقرف الأرطي وقرف السّدر وهي قشور عروقها حمراء. والنكع وهو نبات أحمر. والصرف وهو أحمر يُصبغ به شرك النعال. واللك نبات صبغه أحمر، يُصبغ به الأدم. والعظلم وله صبغ شديد الحمرة، والأيدع يُعطي لوناً أحمر، وهو خشب البَقّم ويُصبغ بحبّه، وقد استعمله أهل البادية. وكذلك النيلة وهي صبغة تُؤخذ من نبات ينمو في المرتفعات ما بين ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ قدم[١٢٠].

ومن الأصباغ الأرقان وهو شجر له صبغ أحمر. والحلق شجرة تنبت نبات الكرم، وترتقي في الشجر، لها ورق حامض، يُطبخ ويُجعل ماؤها في العصفر فيكون خيراً له من حب الرمان، ويُجفّف ورقها فيُحمل في البلاد لهذا الشأن. ولوّن العرب بصبغة الشيان الحمراء. واستخدموا الحناء ومنابته بأرض العرب كثير، ويعظم شجره حتى يكون كالسّدر، وكان يختضب به الرجال والنساء، وذكر أنّ الحناء استُعمل في صبغ الأنسجة الحريرية. واستخدموا ماء الشقائق في الخضاب الأسود، ولا سيما إذا كبس فإنّه شديد السواد، يُصبغ به الشعر وغيره. وامتشطت النساء بورق العِشْرِق الذي يُسوّد الشعر وينبته. كما امتشطت بورق القان الذي يُجعّد الشَعر ويُسوّده[١٢١].

وكانت عملية استخراج الأصباغ تتمّ إمّا بنقع هذه الخامات بالماء أو بطبخها على النار، حتى تصبح مادّة صالحة لتلوين الجلود والأقمشة والثياب.

---

(١٢٠) أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات، ص١٦٥ ـ ١٧٤. الهمداني: صفة جزيرة العرب، ٣٦٠. ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص٣٦٣ ـ ٣٦٤.

Western Arabia and the Red Sea, P495. Theophrastus: Enquiry into Plants, Bk7, P113.

(١٢١) أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات، ص٩١ و٩٧ و١٧١ و١٧٩ ـ ١٨٣.

وبعد أن اكتسب الصبّاغون خبرة ومهارة في تحضير الألوان والأصباغ، أخذوا يمزجون الأصباغ، إمّا لتركيزها، وإمّا للحصول على ألوان جديدة. وكانت شهرة اليمن بصبغ الجلود وتلوين الألبسة والحلل قد امتدت إلى جميع أقاليم شبه الجزيرة العربية. وذكر الأصمعي ثلاثة أشياء لا تكون إلاّ في اليمن: الوَرْس، واللُّبان، والعَصْب[١٢٢].

ومن المهن التي امتهنها العرب في عصور ما قبل الإسلام. حرفة استخراج الروائح والعطور من الأزهار والورود، كعطر الورد (ماء الورد) الذي ذُكر في كتب الحديث باسم «الجلاّب»[١٢٣]. والطّيب الذي اشتهرت به اليمن، والذي كان يتمّ تركيبه بمزج عدد من مواد العطور بالماء أو الدهون. والمسك الذي هو نوع من الطيب الثمين، وكان يذكر معه العنبر، وأجوده المسك العُماني[١٢٤]. وأجود أنواع العطور، عطور اليمن التي كانت تُصدّر إلى مكّة، وتباع في دكاكينها، وكانت أمّ أبي جهل عطارة، تتاجر بالعطور التي تجلب لها من اليمن[١٢٥].

ومن المواد العطرية أيضاً اللُّبان ومنه الرند والأدن والضرو والحذق والقُسْط والسياع وهو الكندر والكادي والمقل والضجاج والمر والصبر والعفص، وجميع هذه المواد تُستخرج من نباتات تنمو في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة، وخاصّة في الجنوب. أمّا العنبر فهو مادة بحرية تجمع في فصل الشتاء ويُعثر عليها في السواحل الجنوبية من بلاد العرب، وأشهرها العنبر الشحري ومن أنواعه الأبيض والأسود والدخني الذي هو أجوده[١٢٦]. وورد في النقوش العربية كذلك العديد من العطور مثل: نعم وقبلت وقلم وسليخة وغيرها.

---

(١٢٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٠٠.

(١٢٣) صحيح البخاري بشرح الكرماني، ج٣، ص١٢٠.

(١٢٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٩٣.

(١٢٥) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج١، ص٦٤ ـ ٦٥.

(١٢٦) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز المسماة بتاريخ المستبصر، ص١٨٥. حسن شهاب: أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص١٤٩.

وتحتوي معظم صموغ هذه المواد على مادة زيتية لها رائحة عطرة استُخدمت في صناعة الطيب. فالمرّ الذي ورد ذكره في النقوش العربية(١٢٧) يحتوي على ١٧٪ من حجمه زيتاً إذا كان طريّاً، ويُعرف بدهن المرّ الذي كان يدخل في تركيب العطور ليحافظ على رائحتها لمدّة طويلة، حدّدها ثيوفراستوس بعشرة أعوام(١٢٨). وقد أكّد بلينوس على هذه الميزة حين ذكر أن المرّ واللُّبان كانا يضافان إلى العطور لحفظ رائحتها لمدّة طويلة(١٢٩). وكان يُصنع من المرّ الأدوية، ويُضاف إلى الخمور لإكسابها رائحة زكية(١٣٠).

وكان العطّارون يعتصرون ثمار بعض النباتات وأزهارها ويصنعون منها دهناً. ثمّ يُرببون الدهن بالظيان وغيره، ليصيّروه عطراً يتطيبون به. ومن أفضل أنواع الدهون عندهم أدهان حَجْر(١٣١)، ودهن الزنبق، وفيه يقول الأعشى:

وكسرى شهنشاه الذي سار ملكه ... له ما اشتهى راح عتيق وزَنْبَقِ(١٣٢)

واشتهرت في شبه الجزيرة العربية بعض المدن بصناعة الطيب مثل: عدن التي كان يقصدها التجار من الهند والسند وفارس وبلاد الروم للحصول على طيوبها. وكان أشهر هذه الطيوب الغالية التي تتكون من دهن العنبر والزباد والمسك والبان. وينمو نبات البان في تِهامة، ويُستخرج من بذوره دهن زكي الرائحة. ومن هذه الطيوب أيضاً عطر العبير الذي يدخل في تركيبه الزعفران، والذريرة التي هي خليط من مواد جافة مطحونة أشهرها: الحلب الأبيض، وبسباس الطيب، وجوز الطيب، وزهر الكافور. وقد اشتهر حوض وادي تبن في منطقة لحج بصناعة هذا العطر وذلك لكثرة ما ينمو فيه من المواد الداخلة في تركيبه(١٣٣).

---

(١٢٧) المعجم السبئي، ص٧٨ و١٠٣ و١٠٥ و١٢٦.

(١٢٨) Theophrastus: Enquiry into plants, Bk9, P357, 367.

(١٢٩) Pliny: Natural history, Bk13, P3.

(١٣٠) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٩٠ - ١٩١.

(١٣١) أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات، ص١٩٥ و٢١١.

(١٣٢) ديوان الأعشى الكبير، ص٢١٧.

(١٣٣) حسن صالح شهاب: أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص١٤٦.

أمّا الزباد، الذي يدخل في تركيب عدد من العطور، فهو مادة دهنية ذات رائحة طيبة، تستخرج من غدّة تحت ذيل حيوان السنور الذي يعيش بكثرة في جزيرة سوقطرة(١٣٤). ولم يعتمد العطّارون في عدن على المواد المستخرجة محليّاً في صناعة العطور، بل كانوا يستوردون من الهند وغيرها مواداً أخرى يصنّعونها طيوباً فاخرة حيث يقومون بتصديرها إلى الخارج، وخصوصاً إلى بلاد فارس وبلاد الروم(١٣٥).

ومن المدن التي اشتهرت أيضاً بصناعة العطور البتراء ـ عاصمة الأنباط ـ التي أشار ديودوريس إلى اشتغال أهلها بتجارة الطيوب المصنّعة محليّاً من دهون المرّ واللبّان والبلسم. وكانت هذه الطيوب تُعبّأ في جرار رقيقة من الفخار التي اكتُشفت أعداد كبيرة منها هناك. ممّا يؤكّد على ازدهار هذه الصناعة في هذه المدينة حينذاك(١٣٦).

١٠ ـ الصناعات الخشبية:

اهتمّ العرب في العصور القديمة بالصناعات الخشبية اهتمامهم بالصناعات الأخرى، وكانت هذه الصناعات تهدف إلى تأمين بعض الحاجيات المنزلية، وبعض أدوات الزراعة ووسائل الريّ والصيد، وبعض ما يتطلبه بناء المنازل والحظائر وغيرها. وقد ساعد في قيام هذه الصناعات نموّ عدد كبير من الأشجار في مرتفعات شبه الجزيرة وخصوصاً في جهتها الغربية، وفي جنوبها الشرقي وفي بطون أوديتها، وفي الأقاليم العربية الأخرى. كما ساعد في قيامها استيراد بعض الأخشاب، التي تمتاز بالقوّة والصلابة مثل الساج والأبنوس والصندل، من الهند وشرقي أفريقيا.

---

(١٣٤) المرجع نفسه، ص١٤٧.

(١٣٥) Patricia Cone: Meccean trade and the Rise of Islam, Basil Blockwell, Oxford 1978, P95.

(١٣٦) Diodorus: Library of history, Bk2, P47. Hammond: The Nabataean their history, culture and Archaeology, P66.

وإلى جانب الصناعات الخشبية، استُخدمت جذوع الأشجار وقوداً إمّا مباشرة وإمّا بعد تحويلها إلى فحم، وذلك بحرق الجذوع ثمّ إطفائها، كما هو الحال في المشاحر التي تقام في بعض القرى والأحراج في أيامنا، ثم يُنقل الفحم إلى المدن والأسواق للبيع والاستهلاك المنزلي(١٣٧).

ومن أشهر الأشجار التي أدخلها العرب في صناعاتهم: النخلة، الجوز، العتم، الطلح، العوسج، الأثل، الميس، السمر، العرعر، المَرْخ، السرح، الخزم، النشم، الضرو، الأذخر، الحماط... وغيرها.

وكان النجارون يستخدمون أخشاب أشجار الطلح والسمر والعرعر والأذخر والجوز والسرو في صنع أبواب المنازل ونوافذها وسقوفها، وفي بناء حظائر الماشية. واستعملوا شجر المَرْخ في إنشاء هياكل الخيام(١٣٨). وقد عُثر في محرم بلقيس على أجزاء من أخشاب السِّدر التي استُخدمت فيما يبدو في تسقيف المدخل، وكانت هذه الأخشاب تُعالج بالقطران وزيت الخردل لكي تبقى مدّة أطول(١٣٩). كما صنعوا من خشب الجوز والأثل والضرو: القصاع، والجفان والآنية والمكاييل والصيعان والأقداح(١٤٠)، ومن خشب المَيْس الرحال حتى أصبح معنى الميس الرحل لغلبة استعماله، قال الأعشى:

زيّافة بالرَّحْل خطّارة تلْوي بشرخي مَيْسة قاتر(١٤١)

وصنعوا من جذوع الأشجار السروج والهوادج المستخدمة في الإبل والخيل، واتخذوا منها خلايا النحل، والعجلات التي استعملت في رفع الماء من الآبار(١٤٢). كما صنعوا بعض وسائل الريّ وأدوات الزراعة: كالمحراث

---

(١٣٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٩٣.

(١٣٨) Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P311.

نوري القيس: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص٧٩.

(١٣٩) زيد بن علي عنان: تاريخ حضارة اليمن القديم، المطبعة السلفية، القاهرة ١٢٩٦هـ ص١٧.

(١٤٠) أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات، ص١٣. الدمياطي: معجم أسماء النباتات الواردة في تاج العروس للزبيدي، ص٨٥ و١٥١.

(١٤١) ديوان الأعشى الكبير، ص١٤٧.

الخشبي ومقابض الفؤوس والمزاميل والمسحاة والمطارق[١٤٣]. ودخلت الأخشاب صناعة الأثاث المنزلي كالأسرّة والأرائك والصناديق الخشبية التي تستخدم في حفظ القطع الثمينة والوثائق الخاصّة، والتي كانت أرجلها تُحفر على هيئة أرجل حيوانات وتجعل أظلافها من المعادن كالذهب والبرونز[١٤٤]. وصنعوا من الخشب التوابيت واستوردوا أخشاب الصندل لهذه الغاية[١٤٥]. ويشير بعض كتّاب الأغريق إلى العربات المذهّبة التي صنعها العرب في القديم[١٤٦].

واتخذ العرب من الأخشاب بعض الآلات البسيطة، فمن العوسج اتخذت النساء مغازل للصوف والشعر، كما اتخذت من شجر التَرْمان الأمشاط، ومن العَفَار والمرخ والحرمل والأثاب والأثرار اتخذت الزناد لإشعال النار وذلك لشدّة قابليتها للاحتراق. ومن أغصان وجذور بعض الأشجار اتخذت الأسوكة مثل الأراك والعتم والبطم والغرو والأسحل ومن بعض الأشجار اتخذت أعمدة الأخبية والأوتاد[١٤٧].

وكان العرب يصنعون من الأخشاب بعض أنواع الأسلحة مثل القسي التي كانت تصنع من أشجار: التألب والشَوْحَط والنَشَم والنَبْع، التي تمتاز أخشابها بالشدّة واللين معاً. وتُصنع أيضاً من العرعر والأثل والسرو والقان الذي كان

(١٤٢) الأصمعي: كتاب النبات، ص٣٥. الدمياطي: معجم أسماء النبات، ص١٣.

(١٤٣) أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات، ص١٣.

Gus Van Beek: Hajar Bin Humeid, P368.

(١٤٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧ ص٥٤٩.

Gus Van Beek: The land of Sheba, P60.

(١٤٥) عُثر في الفاو على تابوت من خشب الصندل صُنع بطريقة التعشيق موجود في متحف كلية الآداب جامعة الملك سعود. نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية..، ص١٨٧. الأنصاري: قرية الفاو..، ص٢١.

(١٤٦) Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P349.

(١٤٧) الأصمعي: كتاب النبات، ص٣٤. الأنصاري: قرية الفاو..، ص١٠٩. جواد علي: المفصل في تايخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٨١. الدمياطي: معجم أسماء النباتات، ص٩ ـ ١١ و٣١. الجاسر: في سراة غامد وزهران، ص٣٩٣.

يُصدّر من شبه الجزيرة لهذا الغرض[١٤٨]. وصنعوا من أغصان النبع السهام[١٤٩]. ومن شجر الوشيج الرماح حتى غلب اسمه على الرماح نفسها وفيه يقول الأعشى:

وترى الجياد الجرد حول بيوتنا   موقوفة وترى الوشيج مسنّدا[١٥٠]

وازدهرت الصناعات الخشبية كثيراً في عصور ما قبل الإسلام، في كافة مدن شبه الجزيرة العربية. ففي مكة مثلاً كان عتبة بن أبي وقّاص ـ أخو سعد بن أبي وقّاص ـ نجاراً[١٥١]. وكانت أدوات النجارين في معالجة الخشب وقطعه ونشره وتسويته: الفأس، والحصين (فأس ذات خلف واحد)، والحَذْأة (فأس ذات رأس) وفيها يقول الشماخ:

ويباكرن العِضَاة بمقْنعات   نواجذهن كالحداء الوقيع[١٥٢]

والقدوح (فأس صغيرة)، والمنشار، والمِحْفَرة، ومثلها المنقار، والمِسْحَل (مبرد أخشن من مبرد الحديد) يُسحل به الخشب أي يُنحت، والصغير منه مسرد، ومنها المِثْقَب، والكلبتان (الكماشة)، والعتلة (آلة من حديد كأنها رأس فأس يُهدم بها الحائط) وغير ذلك من أدوات[١٥٣].

١١ ـ صناعة السفن:

عرف العرب في عصور ما قبل الإسلام صناعة السفن في بعض المناطق، وخصوصاً عرب اليمن، الذين كانت لهم في القديم تقاليد عريقة في إنشاء السفن وفي التجارة البحرية. وكان العرب يصنعون سفنهم من أخشاب بعض

---

(١٤٨) الأصمعي: كتاب النبات، ص٣٥. الجاحظ: التبصر بالتجارة، ص٣٤. الدمياطي: معجم أسماء النبات، ص١٢١.

(١٤٩) الدمياطي: معجم أسماء النبات، ص١٤٩.

(١٥٠) ديوان الأعشى الكبير، ص١٤٧.

(١٥١) ابن قتيبة: المعارف، ص٥٧٥.

(١٥٢) الزبيدي: تاج العروس، ج١، ص٥٥. الألوسي: بلوغ الأرب، ص٣٩٨.

(١٥٣) الزبيدي: تاج العروس، ج٧ ص٣٧٢ وج٨ ص٤. الألوسي: بلوغ الأرب، ص٣٩٩. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٥٥٧.

الأشجار المحليّة أو المستوردة من أفريقيا والهند. وأشار صاحب كتاب الطواف إلى استيراد الأخشاب القوية الصالحة لبناء السفن مثل أخشاب الساج، وأنّ هذه الأخشاب كانت تصل إلى ميناء عُمانا (صُحار) في الجنوب ـ الشرقي من شبه الجزيرة العربية[١٥٤].

ويبدو أنّ العرب صنعوا السفن الكبيرة والقوارب التي استخدموها في رحلاتهم البحرية. وكانت القوارب أنواعاً، منها القوارب الصغيرة التي كانت تُستخدم في رحلات الصيد، وفي رحلات الغوص للؤلؤ من السواحل القريبة. وكانت هذه القوارب الصغيرة بسيطة الصنع تتكوّن من جذوع الأشجار والقرب المنفوخة. وقد اشتهر في صنعها سكان السواحل، وما تزال صناعتها قائمة في بعض القرى الساحلية حتى اليوم[١٥٥]. ومنها القوارب التي كانت تُصنع من جريد النخيل المخيّط بحبال أليافها، والمغطّى هيكلها بلحائها[١٥٦].

أمّا السفن الكبيرة فكانت تتألف من سقائف تُخرز باللّيف، ويُجعل في خللها القار؛ وتصنع من ألواح خشبية تُشدّ بعضها ببعض بخيوط من الألياف، وتُستعمل فيها الأشرعة المربعة، وكانت قادرة على الإبحار في المحيط الهندي مع الرياح الموسمية، ونقل ما يصل وزنه إلى ٢٠٠ طن دفعة واحدة. ويبدو أن هذه السفن ظلّت معروفة في البحر الأحمر والمحيط الهندي حتى القرن الخامس عشر الميلادي[١٥٧].

وقد أطلق العرب على سفنهم أسماء مثل: عَدَوْلي وخلية، وفيها قال طرفة بن العبد:

كـأنّ حُـدُوجَ الـمـالِـكـيّـة غُـدْوةً   خَلايَا سَفِينٍ بالنَّواصِفِ من دَدِ
عَدَوْلِيَّة أو من سَفِينِ ابن يَامِنٍ   يجورُ بها الملاّح طَوْراً وَيَهْتَدِي[١٥٨]

---

(١٥٤) The Periplus of the Erythean Sea, chapter 36, P36.

(١٥٥) Pliny: Natural history, Bk6, P469.

حسن صالح شهاب: فن الملاحة عند العرب، دار عودة، بيروت ١٩٨٢، ص٣٤.

(١٥٦) وزارة الإعلام والثقافة العُمانية: تاريخ عُمان البحري، مسقط ١٩٧٩، ص١٥٢.

(١٥٧) فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨، ص٢٥٠.

(١٥٨) ديوان طرفة بن العبد، ص٣٠ ـ ٣١ .

وكان على شواطىء اليمن فرض (موانىء) ترسو عندها السفن القادمة من الهند أو وادي الفرات أو وادي النيل. وكانت لهم فرضة اسمها «موزا» يبنون فيها السفن الكبرى للسير في المحيط الهندي. ومن الفرض التجارية المشهورة في اليمن حينذاك: عدن، وحصن الغراب، وظفّار، ومسقط، وعُمانا(١٥٩). واشتهرت عُمان منذ القديم بصناعة القوارب والسفن وبتصديرها إلى المناطق العربية الأخرى، كما اشتهرت جزيرة البحرين بهذه الصناعة على حدّ ما جاء في رواية ثيوفراستيس(١٦٠).

١٢ ـ صناعة الألياف والعيدان:

وإلى جانب صناعة السفن والأثاث المنزلي، صنع العرب في عصور ما قبل الإسلام من ألياف بعض الأشجار وعيدانها: الحبال والحصر والسلال والغرابيل وشباك صيد السمك وغيرها(١٦١). فمن نباتات: الخزم والعرفط والأَسل وليف النخيل والعراب صنعوا الحبال والأرشية، ومن القنب الذي هو نوع من الكتان الغليظ صنعوا الحبال، ومن المصاص اتخذوا الحبال المستعملة في الخرازة(١٦٢). من سعف بعض النباتات كسعف النخيل صنع العرب: السلال والحصر والبسط والمراوح والمكانس، والقفف لنقل المواد الغذائية، والأكياس لكبس التمور(١٦٣). ومن أجزاء بعض النباتات: كالطرف والخرفع والسراء والعشر، صنع العرب أشياء كثيرة كحشو الوسائد والفرش والمراتب ورحال الإبل. وكان نبات السراء ونبات العشر ينتجان ثماراً تنفلق

---

(١٥٩) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢١٢.

(١٦٠) Theophrastus: Enquiry into plants, Bk5, P445.

(١٦١) أبو حنيفة الدينوري: كتاب النبات، ص٢٤٢ و٢٤٨ ـ ٢٥٢.

(١٦٢) الأصمعي: كتاب النبات، ص٢١. الدمياطي: معجم أسماء النباتات، ص٩٩ و١٠١ و١٢٩. الأَرشِيَة: الحبل عموماً أو حبل الدلو. أرشية النبات: خيوطه إذا امتدّت. الخِرَازة: حرفة الخَرّاز وهي صناعة خيطان المسابح والعقود.

(١٦٣) الأصمعي: كتاب النبات، ص١٣٥. الجاسر: في سراة غامد وزهران، ص٣١٨. الأنصاري: قرية الفاو. . ، ص١١٢ ـ ١١٣.

عن وبرٍ شبيه بالقطن يُحشى به، وكان لنبات الخرفع زغب مثل القطن يُحشى به أيضاً[١٦٤].

وقد تخصّصت في صناعة الحبال فئة من العرب، كانت تقوم بفتل لحاء الشجر وبرمه بواسطة المغازل والمبارم، لكي تُكسبه قوّة ومتانة، وقد تُضيف إليه الزيوت المقوّية والمرطّبة، أو تُضيف إليه الجلد، ثمّ تفتله وتبرمه على شكل مجموعات وتشدّه شدّاً قويّاً حتى يمتن ويشتدّ[١٦٥].

١٣ ـ الصناعات الفخارية:

عرف العرب منذ آلاف السنين صناعة الفخّار، وتركوا لنا آثاراً فخّارية كثيرة تدلّ على نموّ هذه الصناعة وتطورها. وقد عثر علماء الآثار على أوانٍ فخّارية وخزفية في وسط شبه الجزيرة العربية وفي جنوبها وخصوصاً في اليمن، وفي عاصمة كندة، كما عثروا على أواني فخارية ملوّنة ومزيّنة بنقوش هندسية أو نباتية أو حيوانية في شرق شبه الجزيرة وتحديداً في موقع هيلي الذي يشكّل حالياً جزءاً من مدينة العين، وفي أمكنة أخرى مختلفة.

وكانت أنواع الفخّار المكتشفة كثيرة ومتنوّعة منها: فخّار سميك خشن ممزوج بالرمل ومتعدّد الألوان ويغلب عليه اللون الأحمر أو البني أو الأخضر، ومادّته مساميّة، ومزخرف بالخطوط المتموّجة والتنقيط. وقد وجد هذا النوع في وسط شبه الجزيرة، وفي جنوبها في حجر بن حميد، وحريضة في حضرموت، وفي قرية الفاو[١٦٦]. ومنها فخار خشن ممزوج بالحجر الصابوني، وقد اكتشف

---

(١٦٤) الدمياطي: معجم أسماء النباتات، ص١٠٣. الرحال: ما يُجعل على ظهر البعير كالسرج. والرِحَال: الطنافس المصنوعة بالحيرة.

(١٦٥) Pliny: Natural history; Bk12, P117. Theophrastus: Enquiry into plants, Bk9, P237.

جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص١١٢ ـ ١١٣.

(١٦٦) Gus Van Beek: Hajar bin Humeid, P90. Juris Zarins: The Preliminary Report on the third phase of the Comprehensive Archaeological survey program, the Central Province, P32.

في وسط شبه الجزيرة، وفي وادي بيحان. وهناك فخار خشن ممزوج بالرمل وذو لون أسود أو أحمر، وُجد منه في وسط شبه الجزيرة، وفي منطقة مأرب، وفي حضرموت، ونظراً لانتشاره في أثيوبيا فقد عدّه البعض أثيوبي الأصل(١٦٧). ومنها أيضاً فخار رقيق جداً، تتراوح رقّته ما بين ١ ـ ٤ مليمترات، وله ألوان كثيرة منها الأحمر والأسود، ومزخرف بأشكال عديدة مثل الأزهار وأوراق الأشجار. وكذلك يوجد الفخّار المزجّج الذي عُثر عليه في ثاج بشرق شبه الجزيرة، وفي شمالها، وفي قرية الفاو. وكانت القطع الفخّارية مزجّجة من الداخل والخارج معاً، أو مزجّجة من الخارج فقط، أمّا ألوانه فكثيرة منها: الأصفر والأسود والأخضر(١٦٨).

وقد اشتهرت مكّة واليمن بصناعة الأواني الفخارية، وكان ممن اشتغل بهذه الحرفة في مكّة أمية بن خلف(١٦٩)، كما اشتغل بها الأنباط؛ وكانت الأواني الفخارية التي صنعوها من الدقّة والرقّة بحيث أنّها فاقت جودة خزف الشعوب الأخرى(١٧٠).

وكان أهل يثرب يحملون الخمر في جرار يطلقون عليها اسم «الحنتمة». وقيل أنّ الحنتم هو الخزف الأخضر، أو الجرار التي دُهنت باللون الأخضر. وكانت قرية «هجر» التي تقع على مقربة من مدينة يثرب تصنع القلال أي الجرار الكبيرة، فقيل «قلال هجر». واشتهرت الأحساء بالقلال أيضاً(١٧١).

وعلى العموم فإنّ الجرار التي كانت أكثر الفخار استعمالاً، تُستخدم في تخزين الطعام بالمنازل كالحبوب والدقيق والزيت، وفي تخزين الدبس والتمور برصّها في الجرار، وفي حفظ مياه الشرب حيث كانت توضع في الخوابي ـ وهي

---

(١٦٧) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٨٢.

Gus Van Beek: Hajar bin Humeid, P92.

(١٦٨) Shmitt korte: A Contribution to the Study of Nabataean Pottery, Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Amman 1971, vol 16, P12.

الأنصاري: قرية الفاو. . ، ص٣٠.

(١٦٩) ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص٥٧٦.

(١٧٠) فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ص٤٣١.

(١٧١) ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٥٦٥، وج١٢، ص١٦١ ـ ١٦٢.

الجرار الضخمة ـ لتصفو من كدرها وشوائبها ولتبرد نسبيّاً، وفي خزن بعض الأشياء الثمينة حيث كانت تُسدّ وتُدفن تحت الأرض كي لا يقف عليها اللُّصوص؛ وقد عُثر على كنوز مخبّأة في جرار طمُرت تحت التراب(١٧٢). وكان الأنباط يصنعون الجرار الصغيرة ويستخدمونها في حفظ العطور والمراهم والبلسم، ويُصدرونها إلى الخارج؛ وكانت هذه الجرار غير قابلة للاستعمال مرّة أخرى، فلا بدّ من كسرها للحصول على ما بداخلها، وقد عُثر منها على كميات كبيرة محطّمة وبأحجام مختلفة، ولكنّ معظمها يميل للصغر(١٧٣).

وإلى جانب الجرار صنع العرب، في القديم، الأدوات والأواني الفخارية والخزفية من أهمّها: القدور خاصّة من الفخار الممزوج بالحجر الصابوني لتحمّلها لدرجات الحرارة العالية، والأطباق بكافة أحجامها، والصحاف الكبيرة الواسعة، والجفان، والأباريق، والأقداح، والأزيرة الكبيرة التي ما زالت تُستخدم في معظم المناطق. كما صنعوا الكيزان، والأكواب، والراقود وهو دنّ يُصبغ باطنه بالقار ويُستخدم للشرب، والقاقزة أو القاقوزة أو القزوزة وهي مشربة، أو الصغير من القوارير والطاس(١٧٤).

وصنع العرب أيضاً المجامر (المباخر) من الفخار وإن كانت قليلة الانتشار، وبعض التماثيل البشرية والحيوانية وانفرد القتبانيون بصناعة الصنابير الفخارية لتصريف المياه واستخدموها في عمليات الريّ. واستعمل الأنباط الأنابيب الفخارية في تصريف مياه المباني كالمسارح وغيرها(١٧٥).

---

(١٧٢) أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي: المعرّب، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، طبعة مصر، القاهرة ١٩٦٩، ص١٦٨. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٦٠.

(١٧٣) P.Hammond: The Mabataean their history culture and Archaeology, P70-71.

(١٧٤) الجواليقي: المعرّب، ص٢٠٨ و٣٢١ ـ ٣٢٢.

Thompson Caton: The Tombs and Moon Temple of Hureida «Hadramaut», P115.

(١٧٥) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . ، ص١٨٣ ـ ١٨٤.

Richard Bowen: Irrigation in Ancient Qataban, P64. Philp Hammond: The Excavation of the Main theater of Perta: 1961-1962, Colt Archaeological Institute Publication, London 1965, P54.

ويبدو أنّ صناعة الفخار قد انتشرت في كافة المناطق العربية، وتخصّصت كل منطقة بنوع معيّن منها، واختلفت عن غيرها من حيث المادّة وطريقة الصناعة والزخرفة، لذا أطلق الأثريون اسم المنطقة على الفخار الموجود فيها، فقالوا: هناك فخار قرية، وفخار الخريبة (ديدان)، وفخار نبطي، وفخار الفاو، وفخار ثاج، وفخار حريضة، وفخار هجر بن حميد.. وهكذا. وقد ساعد ذلك على تحديد تاريخ المناطق، عن طريق مقارنتها مع بعضها البعض.

وكانت المواد المستخدمة في صناعة الفخار كثيرة نذكر منها:

الرمل الذي دخل في صناعة الفخّار في معظم المناطق وخصوصاً في المناطق الوسطى والشمالية من شبه الجزيرة؛ وكانت مدينة مأرب أهم مراكزه في الجنوب. كما دخل في صناعته بأثيوبيا بشكل واسع ممّا جعل الأثريون يعتقدون أنّه أثيوبي الأصل. وتتميّز الأواني الفخارية المصنوعة من الرمل بثقل الوزن، وبلونها الأحمر الغامق أو الأحمر المائل للبني بعد حرق مادّتها، وبسطحها الخشن حتى بعد محاولة تمليسها[١٧٦].

والحجر الصابوني الذي كان يُستخدم بكثرة في شبه الجزيرة العربية.

والصلصال الذي كان يُعدّ مادة الفخار الأولى، والذي كان يُصنع منه الطين الذي يُسوّى بدوره أشكالاً فخارية، تُوضع تحت أشعة الشمس لتجفّ، ثمّ تُدخل إلى آتون النار لتحويلها إلى أوانٍ خزفية جاهزة للاستعمال[١٧٧].

والقش الذي يُعرف باسم التبن في بعض الأقاليم العربية، والذي وُجد ممزوجاً مع الفخّار وخاصّة في المناطق الزراعية كجنوب شبه الجزيرة العربية حيث كان يُشكّل ما نسبته ٨٣٪ منه، كما وُجد ممزوجاً معه في وسط شبه

---

(١٧٦) J.Zarins: Preliminary report on the third phase of the comprehensive archaeological Survey Program, Atlal, vol 3, Riyadh 1979, P32.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٧٩.

(١٧٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨ ص٥٩. نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٧٩.

الجزيرة كمنطقة القصيم. وكانت قطع القش تتراوح ما بين نصف وواحد مليمتراً(١٧٨).

ويُعدّ أتّون النار القسم الرئيس في معمل الفخار، وهو عبارة عن «كور» في أسفله موقد تُوقد فيه النيران، فيرتفع لهيبها وتُصعد حرارتها، من خلال فُتحات وثقوب تكون في قاع الآتون إلى أعلى مارّة بين أشكال الطين لتشويها وتحويلها إلى خزف وفخار. وللآتون فتحة في أعلاه وفتحة في جانبه تُغلق في أثناء العمل، وتُفتح بعد نضوج الخزف والفخّار(١٧٩).

وكان معظم الفخّار العربي يُصنّع بواسطة عجلة أو دولاب يُعرف «بدولاب الفخّار» وهو عبارة عن دولاب يدير قرصاً من خشب، فكان عامل الفخار يضع الطين على القرص، ثمّ يُحرّك القرص بالدولاب، وخلال عمليّة الدوران كان العامل يعالج الطين بيده ليسوّي منه الشكل الذي يريده(١٨٠).

ويبدو أنّ عامل الفخّار قد اعتمد في عمله على أساليب يدويّة عدّة من أهمّها: استخدام قالب من الفخّار أو الخشب أو غيره كنموذج تُوضع فيه المادّة الفخّارية، ثمّ تضغط باليد حتى تأخذ شكل القالب. وقد صُنعت بهذه الطريقة الأواني والأطباق، كما صُنعت الجرار ولكن على جزئين يُلصقان ببعضهما في النهاية(١٨١). ومنها استخدام اليدين في صنع الإناء المطلوب، وذلك بأخذ قطعة صلصالية وتشكيلها باليد دون الاستعانة بنموذج معين، وقد تبدو آثار أصابع يد العامل على هذا الإناء. ومنها أيضاً استخدام الحصر في صناعة الأواني الفخارية وإعطائها اللمسات الأخيرة. وتعتمد هذه الطريقة على إدارة الحصر أثناء تشكيل الإناء الذي لا تزال آثار الحصر السعفية بارزة فيه(١٨٢). ومنها كذلك استخدام

---

(١٧٨) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٧٩.

Gus Van Beek: Hajar bin Humeid, P89.

(١٧٩) جواد علي: المفصل في تارخي العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٥٩.

(١٨٠) Gus Van Beek: Hajar bin Humeid, P87.

(١٨١) Thompson Caton: The Tombs and Moon Temple of Huriedha, P115.

(١٨٢) Gus Van Beek: Hajar bin Humeid, P370. Shmitt Korte: Nabataean Pottery.., P34.

الحبال الطينية في صناعة الجرار الكبيرة التي لا يستطيع العامل السيطرة عليها لثقلها، لذا فإنّها تُصنع على أجزاء، ثم تُركّب بإضافة سائل شبه صلصالي إلى السطح الخارجي في موضع الجزء المراد لصقه، ثمّ يضغط على السطح الذي يتصل به، وعادّة يتمّ ذلك قبل أن يجفّ كل من الجزئين أو بعد تليينهما بلمسات خفيفة بقطعة من الخشب أو العظم في منطقة الاتصال، تخفى آثار هذه العملية(١٨٣).

ولإخفاء الآثار التي ظهرت على الإناء خلال عملية الصنع، ولتلميعه وإعطائه لمسة جمالية، كان الإناء يُدهن من الداخل والخارج بسائل صلصالي بقطعة من القماش، أو يُغمر الإناء بكامله في هذا السائل. كما كان الإناء يُغسل بمادة ملوّنة بعد حرق مادته الفخارية، على غرار ما كان يفعله صنّاع الفخار في جنوب شبه الجزيرة العربية. وكذلك كان الإناء يلمّع من الداخل والخارج باستخدام الدولاب أو باستخدام قطعة من الحجر أو المعدن أو الخشب أو الصوف أو غيره. وتُعرف هذه العملية باسم «العقل»(١٨٤).

وكانت الأواني الفخارية تُزخرف، في نهاية العملية الصناعية، من الخارج، ما عدا بعض الأواني التي كانت تُزخف من الداخل كالأطباق والسلطانيات (الصحاف) الكبيرة الواسعة. أمّا أنواع الزخرفة فهي: الخطوط المتموّجة والأشكال الهندسية التي تُضاف إليها التماثيل البارزة أو الأشكال الدائرية. وأحياناً تقتصر الزخرفة على علامات يرسمها الصانع بإصبع يده. وأضاف الأنباط إلى الأشكال الهندسية التي رسموها على آنيتهم الأزهار وأوراق الأشجار وثمار الفاكهة كالعنب والرمان وغيرهما(١٨٥).

---

(١٨٣) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٨٠ ـ ١٨١.

Gus Van Beek: Hajar bin Humeid, P81.

(١٨٤) Van Beek: op.cit, P89 and 95. P.Hammond: The physical nature of Nabataean Pottery, American Journal of Archaeology, vol.68, New york 1964, P262.

(١٨٥) Van Beek: op.cit, P84-94. Shmitt Korte: A contribution to the Study of Nabataean Pottery, P51-52..

هاردنغ لانكستر: آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، عمان ١٩٧١، ص١١٦.

وقد تميّز فخار شبه الجزيرة العربية بألوانه الزاهية التي يُعتبر نوعاً من أنواع الزخرفة، مثل: الزهر والأحمر المائل إلى البني والبني الخفيف والبني الثقيل والرصاصي والأسود الذي اشتهر به فخار الأنباط. ويبدو أن اللون الأحمر بنوعيه الخفيف والثقيل هو أكثر الألوان انتشاراً في بلاد العرب[١٨٦].

١٤ ـ صناعة الأواني الزجاجية:

تدلّ الأواني الزجاجية التي عثر عليها الأثريون في بلاد الشام وفي مواضع أخرى من شبه الجزيرة العربية على معرفة العرب في عصور ما قبل الإسلام بالزجاج وبصناعة الأواني الزجاجية.

ويبدو أنّ الأواني الزجاجية التي صنعها هؤلاء كانت كثيرة وفاخرة، منها: الجرار والأطباق والأسرجة والقناديل والأقداح والقوارير، وأدوات الزينة والحلي كالأساور والخرز والفصوص والخواتم. والمرآة التي كانت تُصنع أيضاً من المعادن كالنحاس. والكأس للشرب الذي كان يُصنع أيضاً من المعادن مثل الذهب والفضّة والنحاس والحديد أو من الفخار. والراووق الذي هو المصفاة، وقيل الناجود أو الباطية التي هي إناء واسع الأعلى ضيّق الأسفل. وذكر بعض علماء اللغة أنّ الراووق هو الكأس[١٨٧].

أمّا الأسرجة فهي المصابيح التي صُنعت من الزجاج، والسّراج، يقول ابن منظور «بأنّه المصباح الزاهر الذي يُسرج بالليل، والمسرجة التي فيها الفتيل»[١٨٨]. والقناديل التي أشير إليها في التوراة هي مصابيح محمولة، وكانت تعلّق أو تُحمل، وتُستخدم في بيوت العبادة، وفي منازل الأغنياء. وكانت تُصنع من الزجاج أو من الفضّة والذهب والبرونز. ولفظة قنديل أعجمية لاتينية، وهي (Candela) التي تعني المصباح والسراج والنبراس في آن واحد[١٨٩].

---

(١٨٦) Van Beek: op.cit, P98. Korte: op.cit, P50.
نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٨٢.

(١٨٧) الجواليقي: المعرب، ص١٣١. الزبيدي: تاج العروس، ج٦، ص٣٦٣. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٦٤.

(١٨٨) ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٢٩٧.

(١٨٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٦٤.

وعرف أهل اليمن وجوارها البلّوْر الذي كانوا يستخرجونه من نوع خاص من الحجارة، ويصقلونه بعناية، وكان يغلب عليه اللون الأبيض. وتمتاز الصناعات الزجاجية بتعدّد ألوانها كالأسود والأخضر والأزرق والبنفسجي والأصفر الذي يميل إلى لون العنبر. كما تمتاز بطريقة مزج الألوان لإكسابها جمالاً. وقد زُخرفت معظم الأواني الزجاجية برسوم تنمّ عن ذوق رفيع وتطوّر في الصناعة، وكانت الكؤوس تُزيّن بالنقوش والزخارف، وباللؤلؤ، وبالحجارة الكريمة(١٩٠).

ومن أشهر مراكز تصنيع الزجاج التي كشفت عنها الدراسات الأثرية حتى الآن: قرية الفاو، ومنطقة عدن. وكانت هذه المراكز تصنع الأواني الزجاجية بطرق وأساليب مختلفة: بعضها بالضغط، وبعضها الآخر بالقالب، وبعضها الثالث بالنفخ(١٩١).

١٥ ـ صناعة المواد الغذائية:

انصبّ اهتمام العرب في عصور ما قبل الإسلام على تطوير غذائهم وتحسين أطعمتهم. واستخدموا لذلك أدوات وآلات كثيرة، منها: المطاحن الآلية التي تدور بقوّة الماء، ومنها الرحى والجواريش التي هي مطاحن حجرية يدوية تُستخدم في المنازل لطحن الحبوب والسويق والجريش والبهارات. ومنها أيضاً المعاصر لعصر العنب وصنعه خموراً، ولاستخراج الزيوت من البذور. وكانت هذه المعاصر توجد في الحقول، كما كانت توجد في البيوت ومحلات الزيوت والخمور. وقد سُمّيت المعصرة «موهت» في المسند، وهي تتألّف من

---

(١٩٠) المرجع نفسه.

Caton: The Tombs and Moon Temple of Hureidha, P69 and 98-99. B. Dœ: Southern Arabia, P118.

(١٩١) الأنصاري: قرية الفاو، ص٢٩.

Arthur Lane: Pottery and glass fragments from Aden, In studies in Arabian History and Civilization, edition by r.B.Serjeant, Variorum Reprints, London 1981, P129.

حجارة قُطعت من الصخور، وفي الحجر الأعلى ثقب، وموضع لإدخال الأعناب أو المواد الأخرى المراد عصرها، والحجر الأسفل ثابت يحيط به منخفض يشبه الساقية ليجري منه العصير أو الزيت الذي يتجمّع في مكان أو حفرة أُعدّت له، ثمّ يُعبّأ في أوعية للاستخدام المنزلي(١٩٢).

وكانت صناعة السمن من لبن الماعز والغنم والبقر من الصناعات الرائجة عند العرب في عصور ما قبل الإسلام، وكان بنو سُلَيْم يبيعون السمن في أسواق يثرب(١٩٣).

ويُعدّ التمر مادّة غذائية رئيسة عند العرب، فكانوا يأكلونه رطباً ومجفّفاً، ويصنعون منه دبساً وشراباً وخمراً، ويعملون منه دواءً يستطبّون به لمالجة عدد من الأمراض(١٩٤).

أمّا العنب الذي اشتهرت به بلاد اليمن والطائف، فقد تناوله العرب رطباً، وجفّفوا الفائض زبيباً. وكان زبيب الطائف يُضرب بحسنه المثل(١٩٥). ويُعرف الزبيب باسم «فُصمم» أي «فصيم» في اللهجة الحِمْيرية. وقد وردت هذه اللفظة في نصّ أبرهة بمناسبة توزيعه الزبيب على العمال الذين ساهموا في ترميم سدّ مأرب(١٩٦).

وعرف العرب في العصر الجاهلي صناعة الخمور. وقد صنعوها من العنب وخصوصاً في المناطق التي اشتهرت بزراعة الكروم كالمرتفعات الجنوبية والحجاز وشمال غرب شبه الجزيرة(١٩٧). وصنعوها من التمور التي ورد اسمها في النقوش العربية الجنوبية باسم «مزروم التمر»(١٩٨) والّتي أشار صاحب كتاب

---

(١٩٢) جواد علي: المفصل في تايخ العرب قبل ازسلام، ج٨، ص٢٦٤ و٢٧٩.
(١٩٣) السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ص٥٤٤.
(١٩٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص٢٧٠.
(١٩٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٩.
(١٩٦) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٢٦٢ ـ ٢٦٣.
(١٩٧) B.Dœ: Southern Arabia, P167.
(١٩٨) بيستون وآخرون: المعجم السبئي، ص٨٩.

الطواف إلى وجودها ووفرتها محلياً وتصديرها للهند[١٩٩]. كما صنعوها من العسل والحبوب كالذرة، وصنعوا النبيذ من الزبيب[٢٠٠]. وكانت المدن النبطية في حوران من أهمّ المراكز العربية شهرة في صناعة الخمور وتجارتها[٢٠١].

وعرف العرب أيضاً في ذلك العهد صناعة الزيوت التي كانت تُستخدم في الأكل، وفي الإنارة، وفي بعض الصناعات. ومن أشهر هذه الزيوت زيت الزيتون الذي اشتهرت به مدينة تدمر التي وُصف إلهها بحامي الزيتون الذي تنتشر زراعته في المناطق المحيطة بها[٢٠٢]. ومنها أيضاً الزيوت التي استخرجت من السمسم والكمون والكتان، والزيوت التي استخدمت في الإنارة والصناعات مثل القطران، والتي استخرجت من أشجار العرعر والأثرار[٢٠٣].

وكذلك عرف العرب حرفة استخراج الدبس من التمور بعد رصّها في أبراج مبنيّة على قواعد خشبية، ولها منافذ لخروج الدبس من أسفلها. وكان الدبس الذي يُطلق عليه عسل التمر، يؤكل كغذاء، ويدخل في صناعة الحلوى[٢٠٤].

وعرفوا حرفة الخبازة التي كان يقوم بها الخبّاز الذي يعمل بتحويل الطحين إلى أنواع مختلفة من الخبز[٢٠٥]. وحرفة الجزارة التي كانت منتشرة في أقاليم شبه الجزيرة العربية، بسبب نحر الحيوانات في المناسبات الدينية والأعياد[٢٠٦].

---

(١٩٩) The Periplus of the Erythean Sea, Chapter 36, P36.

(٢٠٠) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٥٤١.

(٢٠١) F.E.Peter: The Nabataean in the Hawran, Journal of American School of Oriental Society, Vol 97, Part 3, New Haven 1977, P268.

(٢٠٢) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص١٨٩.
Pliny: Natural History, Bk12, P29.

(٢٠٣) Van Beek: Hajar Bin Humeid, P401-402.
عرام: أسماء جبال تهامة وسكانها، ص١٨.

(٢٠٤) F.Vedal: The Oasis of Al Hasa, P168.

(٢٠٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٤٧٢.

(٢٠٦) المرجع نفسه، ص٥٧٢.

الفصل الخامس

القطاع التجاري والأسواق
في عصور ما قبل الإسلام

أولاً: القطاع التجاري:

كان لموقع شبه الجزيرة العربية في قلب العالم القديم بخاصّة، والعالم العربي بعامّة، أهميّة خاصّة في التاريخ القديم والحديث على حدٍّ سواء، إذ جعل هذا الموقع من بلاد العرب همزة وصل بين قارتي آسيا وأفريقيا، وعبرهما إلى أوروبا فالمحيط الأطلسي، ممّا يسمح بنسبتها إلى كل من القارتين. فهي بطبيعتها الإقليمية تعتبر جزءاً من صحارى أفريقيا الشمالية، رغم وجود البحر الأحمر الذي يظهر طريقاً واصلاً أكثر منه فاصلاً، بين سواحل مصر والحجاز، وبين سواحل اليمن والحبشة والصومال عند مضيق باب المندب بشكل خاص. ويؤيد ذلك ما يقوله الإصطخري من أنّ طريق القوافل بين سواحل عُمان وبين تِهامة غرباً، وبين سواحل عُمان والبحرين شرقاً كانت من الصعوبة بحيث كان طريق المواصلات فيما بينها هو الطريق البحري[1]. أمّا عن برزخ السويس، فكان البوابة الكبرى لعبور الهجرات السكانية من آسيا وشبه الجزيرة العربية إلى مصر والمغرب العربي. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار شبه جزيرة العرب من أفريقيا.

وكذلك بالنسبة لآسيا، فإذا كان الخليج العربي يفصل بلاد العرب في الجنوب والشرق عن إيران وأفغانستان وقلب آسيا، فإنّه كان قديماً صلة وصل

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري: المسالك والممالك، طبعة مصر، القاهرة ١٩٦١، ص٢٨.

جيدة بين الساحل العربي والساحل الفارسي، فعبره كانت تنتقل الجماعات البشرية من كلا الجانبين خلال العصور. وأيضاً كان الأمر بالنسبة لسهول دجلة والفرات، التي كانت تشكّل حلقة وصل بين بلاد العرب وأواسط آسيا، ومن هذا القبيل تُعتبر بلاد العرب من قارة آسيا.

وبناء عليه، فإنّ مناطق شبه الجزيرة العربية عموماً، والحجاز واليمن خصوصاً، كانت ملتقى للطرق العالمية البحرية والبريّة التي تربط بين الشرق والغرب. ويُعدّ الحجاز وكذلك اليمن المنطقتين الاستراتيجيتين الأكثر أهمية في بلاد العرب. فمنهما وبموازاتهما يمرّ طريقان رئيسان من طرق التجارة العالمية آنذاك.

الأول: الطريق البرّي الذي تسلكه القوافل بين اليمن والشام عبر الطائف ومكّة ويثرب، وتتفرّع منه خطوط تتّجه صوب الغرب والشرق والشمال الشرقي.

والثاني: طريق البحر الأحمر الموصل إلى شرقي أفريقيا وإلى الهند وجنوب شرقي آسيا وإلى سيلان والصين. ولذلك كانت الحجاز واليمن جسرين، يربطان بلاد الشام وحوض البحر المتوسط بالحبشة وشرقي أفريقيا والبلاد المطلّة على المحيط الهندي. وكان لهذا أعظم الأثر في قيام محطّات تجارية أهمّها: مكّة على الطريق البرّي، وثغور تجارية على الطريق البحري مثل: أيْلة في الشمال، وينبع ميناء يثرب، والشعيبة ميناء مكّة القديم، وموزا (مخا) وعدن، وقنا (حصن غراب) وظفّار، ومسقط في الجنوب[٢].

ويبدو أنّ الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين قد لاحظوا أهميّة بلاد العرب بالنسبة للمواصلات الدولية، فحاولوا السيطرة عليها أو الهيمنة على بعض أجزائها ووضع هذه المواصلات وما يمرّ عبرها من قوافل وأساطيل تحت إشرافهم المباشر، ولكنّ محاولاتهم باءت بالفشل في نهاية المطاف، وانسحب الأحباش من اليمن، وانحسر نفوذ الروم عن شمالي الحجاز والبحر الأحمر،

---

(٢) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢١٢. انظر خريطة طرق المواصلات البريّة والحبرية في ملاحق الكتاب.

وأصبح يقتصر على فلسطين وأعالي البحر الأحمر، وعاد للطريقين البرّيين إلى الهند عبر الفرات ودجلة من جهة، وعبر اليمن والشام عن طريق مكّة من جهة ثانية نشاطهما ومكانتهما الأولى. أمّا الطريق عبر البحر الأحمر، فلم تقوَ بحرية الحبشة على ملء الفراغ فيه، بعد هزيمتهم أمام الفرس وانسحابهم من اليمن عام ٥٧٥ ميلادية ممّا هيّأ ظروفاً مؤاتية لنشاط العرب التجاري(٣).

١ ـ التجارة في جنوبي شبه الجزيرة العربية:

أدرك اليمنيون خصوصاً وسكان جنوبي شبه الجزيرة عموماً، أهميّة الموقع التجاري الذي تتمتّع به بلادهم، فسارعوا إلى الإفادة منه، فأنشأوا صلات تجارية مع بلدان وأقوام الشرق الأدنى القديم، والهند وجنوب شرقي آسيا المعاصرة لهم، وأرسلوا القوافل التجارية من اليمن عبر الحجاز إلى سوريا وفلسطين شمالاً، وإلى منطقة الخليج العربي والعراق شرقاً، وإلى مصر غرباً، وفرضوا سيطرتهم على طرق الملاحة البحرية(٤). وخبروا البحر، واكتشفوا مواعيد هبوب الرياح الموسمية، وتبدّل اتجاهاتها بين الصيف والشتاء، وسيّروا سفنهم الشراعية إلى الهند وإلى بلاد الحبشة وشرقي أفريقيا، مدفوعة بقوّة هذه الرياح، تبعاً لأوقاتها التي تتبدّل اتجاهات هبوبها حسب المواسم وكانت بعض هذه السفن تتّخذ طريقها بجوار سواحل شبه الجزيرة، انطلاقاً من الخليج العربي ومروراً ببحر عُمان وبحر العرب والبحر الأحمر، قاصدةً على الغالب مصر ودول شرقي أفريقيا. وعلى هذا الطريق شُيّدت الثغور العربية القديمة، مثل مسقط وظفّار وعَدَن(٥).

وعلى طريق القوافل التي تربط بين جنوبي شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام، وعلى الطرق المتّصلة بها، أقام اليمنيون محطّات تجارية لهم. ففي عهد

---

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال، ص٦٤. المسعودي: مروج الذهب. . ، ج٢، ص٨١ ـ ٨٢.

(٤) أحمد سوسة: حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، ص١٩٣. نورة العلي النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . ، ص٢١٠ ـ ٢١٧.

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٦٦. عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، الطبعة الثانية، دار الشورى. بيروت ١٩٨١، ص٢٣.

الدولة المعينية التي سيطرت على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب، ازدهرت التجارة في بلاد اليمن، وخصوصاً بعد أن نما نفوذهم وامتدّ إلى شمالي الحجاز، حيث دخلت مُعان وديدان (العُلا الحديثة) تحت سيطرتهم، كما تؤكّده الكتابات المعينية التي اكتشفها الأثريون في منطقة معان وديدان. وفي ذلك يقول ألويس موسل: «خلال الألف الأول قبل الميلاد كان الجزء الأعظم من التجارة العالمية في بلاد العرب، واقعاً في يد السبئيين والمعينيين الذين كانوا يسيطرون على الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة. . .، وكانت تُقيم، في كلّ واحة من الواحات المهمّة التي تقع على طول الطريق التجاري، جالية من عرب الجنوب، وكان يُقيم مع هذه الجالية مقيم من أهل الجنوب كذلك، كانت مهمّته الإشراف على ملوك الإقليم ورؤسائه ومراقبتهم، لكي لا يفعلوا شيئاً من شأنه أن يضرّ بمصالح أسياده السبئيين أو المعينيين، تبعاً لاختلاف العهود التاريخية»[٦].

وفي كل واحة من الواحات التي تقع على الطريق التجاري البرّي التي تربط بين اليمن وبلاد الشام ومصر، والتي كانت تحت نفوذ المعينيين الجنوبيين، تُقيم طائفة من حكام معين، تؤيّدها حاميات عسكرية، وجاليات جنوبية من الأوساط التجارية، كما كانت تقيم معها جالية من الأفريقيين الكوشيين باعتبار أنّ هؤلاء الكوشيين كانوا يمارسون التجارة مع المعينيين بحكم الجوار. ويبدو أن القوافل المعينيّة كانت تسلك الطريق الغربي في شبه الجزيرة أكثر ممّا تسلك الطريق الشرقي فكانت تنطلق غالباً من اليمن، مارّة بمكّة ويثرب ومدائن صالح حتى البتراء. ومن هنا تتوزّع بين فلسطين وسورية والعراق ومصر. ويعتقد بعض المؤرخين أنّ مكّة كانت تحت نفوذ معين، وأن مُعان لم تكن نقطة ارتكاز لمعين وحسب، وإنما كانت مدينة تابعة لها، مزوّدة بالحراس والمسالح دفاعاً عن مصالح الدولة المعينية[٧].

---

(٦) الويس موسل: شمال الحجاز، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني، طبعة مصر الإسكندرية ١٩٥٢، ص١ ـ ٢.

(٧) المرجع نفسه، ص٨٧ ـ ٨٨. عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص٢٣.

ولتسهيل أعمال البيع والشراء، اقتبس المعينيون من الفينيقيين أبجديتهم وعلومهم في المحاسبة، وذلك لتدوين حساباتهم التجارية. وقد عُثر في أور والوركاء في العراق، وفي الجيزة بمصر، وفي جزيرة ديلوس اليونانية، على كتابات معينية ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد. تشير إلى الصلات التي كانت تربط العراق ومصر واليونان بالدولة المعينية(٨). كما تشير إلى أنّ المعينيين حتى بعد سقوط دولتهم بزمن طويل ظلّوا يحتفظون بكيانهم الاجتماعي وتقاليدهم التجارية(٩).

وحين قضى السبئيون على دولة معين، أقاموا دولتهم على أنقاضها، وورثوا لغتها وديانتها وتقاليد شعبها وورثوا مكانتها التجارية أيضاً، صاروا يشتغلون بنقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق، حتى أصبحوا في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء التجارة في العالم القديم، وعلى وجه الخصوص مع الحبشة والهند ومع الشام ومصر. وقد استطاعت دولة سبأ أن تنمو وتزدهر ويثرى شعبها نتيجة احترافهم الزراعة من جهة(١٠)، وسيطرتهم على الطريق التجاري البرّي الذي يربط بين الجنوب والشمال من جهة ثانية. ذلك أنّ نفوذ دولة سبأ كان يصل إلى نجد والحجاز في شمالي شبه الجزيرة العربية، كما كانت تفرض نفوذها على طريق التجارة التي تربط جنوب شبه الجزيرة بسوريا ومصر. ولم تكتف سبأ بذلك بل افتتحت خطوطاً برّيّة جديدة بين اليمن والشام تحاذي ساحل شبه الجزيرة الغربي وتؤدّي إلى مكّة والبتراء ومنهما تتشعب إلى مصر والشام وما بين النهرين. وكان الفرع الشامي ينتهي على البحر المتوسط عند غزة. ومن حضرموت، أغنى الأقطار باللبان، كانت تمتدّ طريق تسلكها القوافل حتى مأرب عاصمة سبأ حيث تتصل بشريان التجارة الهام(١١).

---

(٨) H.Philby: The Background of Islam, Whitehead Morris Press, Alexandira 1949, P42.

جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص٣٨٥ ـ ٣٩٧.

(٩) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٢٢.

(١٠) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢، ص١٠٦.

(١١) فيليب حتى، وآخران: تاريخ العرب، ص٨٢.

وكانت حكومة سبأ تبعث موظفين ليقيموا في الواحات الشمالية التي تقع على هذه الطرق، إلى جانب حاميات عسكرية، لتضمن بقاء هذه المحطّات التجارية تحت سيطرتها. وكانت واحة ديدان المركز الرئيس الذي تمارس فيه سبأ نفوذها على شمالي بلاد العرب[١٢].

وعلى الرغم من قوّة السبئيين واتساع نفوذهم إلاّ أنّ قوافلهم التجارية لم تسلم من تعدّيات البدو في أثناء سيرها على الطرقات. كما أنّها لم تستطع على الدوام تحمّل مشقّات السفر البرّي. فلذا اتجهت أنظارهم وجهة أخرى وراحوا يسافرون عن طريق البحر لأنّهم وجدوه أكثر أمناً وأقصر مسافة. فمنتوجات الهند وأفريقيا كانت تأتي وتُخزن في مرافىء السبئيين كموزا وعدن، ومنها تُنقل بالسفن بحراً إلى مرفأ أيلة (العقبة)، ومنه بالبرّ إلى فلسطين والشام ومصر. أو تُنقل إلى مرفأ القصير على البحر الأحمر، ومنه إلى قُفط على النيل[١٣].

وبعد أن دبّ الضعف في دولة سبأ بسبب الصراعات والحروب التي قامت بين القبائل الخاضعة لها، ظهرت إلى الوجود مملكتا أوسان وحضرموت اللتان تمكّنتا من اقتسام نفوذ السبئيين في جنوبي البلاد وغربها، ومن ثمّ السيطرة على طرق التجارة، والتحكّم بتجارة البخور والأفاويه التي كانت رائجة حينذاك[١٤].

وكان للقوافل بين حضرموت وبلاد الشام ومصر والعراق طرق خاصّة، فيها محطّات ومرافق ومعدّات وأقوام من أهل البادية يخفرونها. فالقافلة كانت

---

(١٢) المرجع نفسه، ص٨١ ـ ٨٢.

(١٣) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢١٤.
ركب المصريون البحر الأحمر من عهد رعمسيس الثالث (هاكون) الذي بنى أسطولاً وأنزله البحر الأحمر، وسافر فيه لارتياد بلاد البنت (الحبشة والصومال)، والأرض المقدّسة (بلاد العرب)، وكان غرضه الرئيس تسهيل التجارة البحرية بين مصر وأقصى الشرق، ثمّ أنشأ طريقاً تجارياً بريّاً بين القصير والقفط، وطريقاً بحريّاً بين المحيط الهندي والنيل من طريق بلاد العرب. ولمّا تولّى سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة الحكم في مصر، احتفر قناة وصلت نهر النيل بالبحر الأحمر، وذلك تسهيلاً للعلاقات التجارية بين مصر وشبه جزيرة العرب، أو للدفاع أو الهجوم عند الحاجة. ومن جاء بعد سيتي الأول أهمل القناة والأسطول البحري، فضعفت الملاحة البحرية أو بطلت تماماً.

(١٤) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعهد الرسول، ص٩٦ ـ ٩٧.

تنتقل من حضرموت أو عُمان وتسير شمالاً يخفرها عرب قيدار، فيقطعون بها بادية الدهناء وما بعدها حتى تصل إلى ديدان، فتتّجه غرباً في نجد حتى تأتي الحجاز، ومن هناك يستلم خفارتها المديانيون والآدوميون أو الأنباط، ويعرجون بها إلى مكّة أو ينبع أو المدينة المنوّرة، ومنها إلى البتراء عن طريق مدائن صالح، ومن البتراء تسير إمّا شمالاً إلى فلسطين والساحل السوري فتدمر، وإمّا غرباً إلى مصر. غير أنّ السّلع التي تصل إلى شرقي شبه الجزيرة كانت تُحمل إلى العراق بالقوافل رأساً أو بالسفن بحراً عبر الخليج العربي، ومنه تُنقل بالقوافل إلى تدمر(١٥).

أمّا في عهد الحِمْيريين الذين ورثوا أمجاد من سبقهم من دول وشعوب، حاول الرومان الاستيلاء على اليمن، بغية السيطرة على طرق التجارة التي كان يحتكرها عرب الجنوب، إلاّ أنّ محاولتهم باءت بالفشل، لأنّ قائدها ايليوس غالوس، الذي كان حاكماً على مصر من قبل الرومان، عجز عن دخول مأرب بسبب مقاومة أهلها الذين استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم(١٦).

وقد لاقى جنود الرومان في عودتهم التي بلغت ستين يوماً الكثير من المصاعب والأهوال وفتك بهم العطش والمرض(١٧). ويعزو الجغرافي اليوناني سترابو هذه المصاعب والأخطار إلى خيانة الدليل سيلاّوس سفير الأنباط وممثل ملكهم أبو داس (عبيدة)(١٨). وخيّبت حملة ايليوس غالوس آمال الرومان في بلاد العرب، إذ كانوا يظنّون أنّهم سيخترقون جنات يانعة وعمراناً متّصلاً. واضطروا تحت ضغط الطبيعة والبشر إلى العدول عن خطتهم في احتلال شبه الجزيرة العربية(١٩). واكتفوا بالسيطرة على التجارة البحرية وخصوصاً تجارة البحر الأحمر، وعلى ميناء لويكي كوما أو المدينة البيضاء، أهم الموانىء

---

(١٥) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٢١٣ ـ ٢١٤.

(١٦) فيليب حتى وأدورد جرجي وجبرائيل جبّور: تاريخ العرب، ص٧٧.

(١٧) Philby: The background of Islam, P101.

(١٨) Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, Chapter 4, P23.

(١٩) فيليب حتى وآخران: تاريخ العرب، ص٧٧.

التجارية على سوالح الحجاز في أيام البطالسة؛ وبإقامة علاقات وديّة مع حكومة الحبشة. وقد أضرّ ذلك باقتصاديات اليمن وتجارتها إضراراً بالغاً أكثر ممّا أضرّ بها انهيار سدّ مأرب(٢٠). أمّا القوافل التي تذهب من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، كانت تنزل في المراكز التي عيَّنتها الدولة الرومانية، وذلك لكي تُحصِّل منهم مكوس التجارة، وتراقب تحركات الرجال الذين قدموا معها. وكانت أيْلة أول مركز في البلاد الشامية تنزلها القوافل، ومنها تتوجّه إلى غزّة حيث تتّصل من هناك بتجّار البحر المتوسط، بينما يتابع بعض التجار طريقهم إلى بُصرى. وكانت تتولّى حماية قوافل الشام، بعض القبائل العربية، ممّن كانت منازلهم على طرق التجارة، أو ممّن كانت لهم أحلاف مع القبائل النازلة هناك، وذلك في مقابل جُعْل يتقاضونه من هذه القوافل، ومن تقاليد العرب في هذا المجال، أنّ القبائل الحامية كانت كثيراً ما تُعيد الجُعْلَ إلى أصحابه إذا ما تعرّضت القافلةُ إلى اعتداء لم تتمكّن من ردّه(٢١).

وعلى العموم كان عرب الجنوب يتاجرون بمنتوجات بلادهم وفي طليعتها: البخور واللّبان والعطور والطيوب، التي كانت لها أهميّة كبرى عند الناس في التاريخ القديم. فقد كانت تُستعمل في المعابد والطقوس الدينية، وللتحنيط، كما كانت تُستخدم أحياناً في الأطعمة(٢٢). ولذا سماها استرابو «ببلاد الطيوب». كما كانوا يتاجرون بالسلع والبضائع التي جلبوها من شرقي أفريقيا كالتبر والعبيد والأخشاب وريش النعام والعاج والقرود. ومن الهند كالأفاويه والأنسجة والسيوف، ومن الصين كالحرير، ومن الخليج العربي كاللؤلؤ. وكانت جميع هذه السلع تجد طريقها إلى أسواق بلاد العرب(٢٣). ويورد مؤلف كتاب الطواف حول البحر الأرثيري وصفاً رائعاً لسوق موزا (مخا) جاء فيه: «كان يردها من البضائع أنواع الأقمشة الأرجوانية، ناعمها وخشنها،

---

(٢٠) Ignacion Guidi: L'Arabie antéislamique, Paris 1921, P67.

(٢١) عرفان محمد حمّور: أسواق العرب: عرض أدبي ـ تاريخي للأسواق الموسمية العامّة عند العرب، ص٢٠ ـ ٢١.

(٢٢) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص١٩.

(٢٣) فليب حتى وآخران: تاريخ العرب، ص٨١.

وألبسة خيطت على الزيّ العربي، ذات أردان قد تكون بسيطة، أو عادية، أو مطرّزة، أو موشّاة بالذهب، والزعفران، وقصب الذريرة، وأنسجة القطن الشفّافة، والأعبئة، والأحرمة، وهي ليست كثيرة، بعضها بسيط، وبعضها مصنوع على الطريقة البلدية، ومناطق ذات ألوان عديدة، ودهون عطرية بكميات معتدلة، والخمر، وقليل من الحنطة لأنّ البلاد لا تنتج منها إلاّ اليسير. وتُصدّر البلاد حاصلات أراضيها: فاخر المرّ والصمغ المعيني والرّخام الليّن (المرمر)[٢٤].

وكانت السفن التي تحمل السلع، تسلك طريقين: أحدهما طريق الخليج، وتفرغ بضائعها إمّا في ميناء الأبلّة عند رأس الخليج، وإمّا في موانىء البحرين، وخصوصاً في ميناء الجرهاء، حيث تُنقل إلى العراق، ومنه إلى سورية والبحر المتوسط. والآخر طريق البحر العربي، فبحر القلزم (الأحمر)، وتفرغ بضائعها في الموانىء المصرية الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربي، أو في ميناء أيْلة عند خليج العقبة، حيث تنقل منها إلى بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط وخصوصاً ميناء غزة[٢٥].

وتحاشياً للأخطار التي قد تتعرّض لها هذه السفن، كالأعاصير والدوّامات والحيوانات البحرية أو الشعاب المرجانية والصخور أو اللصوص، كان التجار يفضلون سلوك الطرق البريّة. فلذا كانت السفن الآتية إلى الخليج العربي تُفرغ حمولتها في ميناء جرها، ومنه تُنقل برّاً إلى العراق، وإلى بلاد الشام عبر الصحراء. وأمّا السفن الآتية إلى البحر العربي فكانت تُفرغ بضائعها في ميناء عدن، ومنه تُنقل برّاً، عبر اليمن والحجاز، إلى مصر وفلسطين، أو إلى بلاد الشام[٢٦].

وكان لا بدّ للقوافل من أن تقطع صحراء البلاد العربية، سالكة الوديان أو القفار، لذا كان التجار يخرجون في متاجرهم بشكلِ قوافلَ عظيمةٍ مع استعدادٍ

---

(٢٤) The Periplus of the Erythraean Sea, P24.

(٢٥) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٤٤.

(٢٦) المرجع نفسه، ص٤٤.

عظيم وحِيْطَةٍ كبيرة، تتقدّمها فرقة الكشّافة كي تتعرّف إلى ما في الطريق، وأمامها ومن جانبيها ومن خَلْفِها الهداةُ يهدونها الطريقَ الصحيحَ، والحرّاسُ والحماةُ يخفرونها ويدفعون عنها الأذى[٢٧]. ومن أهم المصاعب التي كانت تلاقيها هذه القوافل هي قلّة المياه في الصحارى والطرق، ولذلك كثرت محطّات القوافل حول الآبار والعيون. وقد ساعد ذلك على قيام مراكز تجارية على طول هذه الطرق بالقرب من هذه الآبار والعيون والواحات. وقد تحوّل العديد من هذه المراكز إلى مدن تجارية كانت تقدّم للقوافل الحماية والماء والغذاء وغيرها من الخدمات التي كانت متاحة حينذاك.

وتُعدّ شبوة من المراكز الاقتصادية المهمّة التي لعبت دوراً تجارياً رائداً في التاريخ القديم؛ وهي تقع في وادي عرما (وادي عطف) في الطرف الغربي من وادي حضرموت، وتقوم على مناجم للملح الصخري، ويُعتقد أنّ نشأتها التجارية كانت مرتبطة بتجارة هذه المادّة. وكان يمرّ بهذه المدينة، التي هي قاعدة لإقليم حضرموت، عدد من الطرق التجارية المتّجهة نحو الشمال؛ وقد استطاع ملوك الدولة الحضرمية الأقوياء من توجيه تجارة اللبان إليها واتخاذها عاصمة لهم، وخصوصاً بعد أن مدّوا نفوذهم إلى مناطق إنتاج اللبان في شرقي شبوة حتى ظفّار[٢٨]. وكانت نظم التجارة للدولة الحضرمية، تفرض على أصحاب القوافل المرور بالمدينة، التي تحوّلت إلى مركز تجاري رئيسي، لدفع الضرائب المتوجبة عليها[٢٩]. وقد استمرت مدينة شبوة مركزاً تجارياً، وخصوصاً للمواد العطرية، حتى القرن الرابع الميلادي، حيث أخذت بعد ذلك بالضعف، بسبب اضطراب الأوضاع السياسية في جنوبي شبه الجزيرة، وتدهور التجارة العربية فيها تبعاً لذلك[٣٠].

ومن هذه المراكز ميفعة التي تُعرف اليوم بنقب الحجر، وهي تقع على

---

(٢٧) عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص٢٠.

(٢٨) Philby: The background of Islam, P79.

(٢٩) Pliny: Natural history, Bk12, P45-47.

(٣٠) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٢٢.

وادي ميفع الذي يخترق مرتفعات الجول، ويعتبر أحد الطرق المهمّة القادمة من قنا والمتّجهة نحو شبوة أو بيحان، ومن موقعها الاستراتيجي هذا استطاعت أن تسيطر على الطريق التجاري(٣١). واستمرت مدينة ميفعة محافظة على مركزها التجاري حتى القرن الثاني الميلادي، حيث ورد ذكرها عند بطليموس ووصفها بأنّها متروبولوس(٣٢).

ومنها تمنع (هجر كحلان) التي تقع إلى الغرب من صحراء صيهد، وعلى حافة وادي بيحان في جزئه الشمالي. وقد تميّزت هذه المدينة بكونها عاصمة للدولة القتبانية التي أقامت علاقات تجارية مع اللحيانيين، وبكونها سوقاً تجارياً مهمّاً في المنطقة، كانت تُقيم فيها جاليات تجارية من خارج قتبان مثل الجالية المعينية وكانت على علاقات تجارية مع المراكز التجارية التي تقع خارج شبه الجزيرة العربية؛ وكما كانت شبوة مركزاً لتجارة اللبّان كانت تمنع مركزاً لتجارة المرّ(٣٣).

ومنها أيضاً هجر بن حميد التي تقع على حافة وادي بيحان، وعلى بعد تسعة أميال جنوبي مدينة تمنع، والتي تُعتبر أقدم مدينة على هذا الوادي، وتُشرف على ممرّ مبلقا الذي يصل بين وادي بيحان ووادي حريب، ومن البقايا الأثرية التي اكتُشفت في هذه المدينة يتبيّن أنّها كانت مركزاً صناعياً مهمّاً، وداراً لسكّ العملة القتبانية، وسوقاً تجارياً في شبه الجزيرة، ومركزاً تجارياً عالمياً كانت على اتصال بعدد من المراكز الحضارية في بلاد الرافدين وبلاد الشام وببلاد اليونان والرومان، وبآسيا الصغرى(٣٤).

---

(٣١) B.Dœ: Momuments of Southern Arabia, P144.

(٣٢) Ibidem, P98.

(٣٣) Pliny: Natural history, Bk6, P453. Richard Bowen: Irrigation in Ancient Qataban, P43-88. B.Dœ: op. cit, P94.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٢٣.

(٣٤) Van Beek: Hajar Bin Humeid, P367-368. B.Dœ: Momuments of Southern Arabia, P119.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . ، ص٢٢٣ ـ ٢٢٤.

ومنها أم العادية التي تقع على الطريق القادم من عدن والمتجه نحو تمنع ومأرب، والتي تُشرف على ممر عقبات ثيرا؛ ويبدو أنّ هذه المدينة كانت تابعة لمملكة قتبان، ويقتصر دورها على استقبال التجار في خاناتها، وخزن البضائع في مخازنها، وتسجيل السلع المارة فيها لاستيفاء الضرائب الجمركية. وكانت معظم هذه السلع تصل من خارج شبه الجزيرة إلى عدن، ومنها إلى أم العادية(٣٥).

ومنها قرناو (معين) التي تقع على بعد سبعين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من مأرب في جنوبي وادي الجوف. وقد وردت في النقوش العربية بهذين الاسمين، وكانت قاعدة للدولة المعينية، ومركزاً تجارياً رئيساً في طريق التجارة البريّة(٣٦).

ومنها مَأْرِب التي تقع على ضفة وادي أذنة، وعلى مرتفعات تغطّيها الأشجار الكثيفة، وكان بعض أهلها يعملون في الزراعة، وبعضهم الآخر يعملون بالتجارة، وخصوصاً تجارة البخور المحلّي، والمستورد من أثيوبيا على قوارب جلدية. وتميّزت مأرب بكونها عاصمة الدولة السبئيّة التي كانت من أكبر الدول الجنوبية وتشرف على مناطق واسعة، وبكونها سوقاً محليّاً مزدهراً، ومركزاً تجارياً رئيساً تتجمّع فيه منتوجات المناطق الزراعية والصناعية ليعاد تصديرها إلى الخارج. وقد حقّقت مأرب من جرّاء ذلك شهرة عالمية وثراءً واسعاً انعكس على عمارتها حتى أضحت تضاهي المدن الكبرى في العالم حينذاك(٣٧).

---

(٣٥) Le Baron Richard Bowen: Ancient trade routes, Johns Hopkins Press, Baltimore 1958, P36.

S.Perowne: IM'adiya and Beihan, Aden Protectorate, Antiquity, Heffers Printer, Cambridge 1939, P133.

(٣٦) محمد توفيق: آثار معين في جوف اليمن، ص٢ - ٣.

B.Dœ: Monuments of Southern Arabia, P126.

(٣٧) Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P349. A Grohman: Encyclopidia of Islman, «Ma'rib», Vol 3, E.J.Brill, Leiden 1936, P280. Nigel Groom: The Frank in cense and Myrrh, Longman, London 1981, P184.

ومنها يثل (براقش) التي كانت تُعدّ قلعة سبئية ومحطّة تجارية مهمّة، والتي تقع على الحدود السبئية ـ المعينية، ضمن منطقة زراعية خصبة. وقد وردت عند استرابو باسم أثرولا في أثناء حديثه عن الحملة الرومانية التي قادها اليوس غالوس على بلاد العرب(٣٨).

ومنها ظَفَارِ التي تقع في منطقة جبلية تحيط بها سهول زراعية وتكثر فيها السدود، وبالقرب من يريم الحالية وعلى بعد ٢٤ فرسخاً من صنعاء. ومن أهمّ مرتفعاتها جبل ريدان الذي كان المقرّ الملكي لحِمْير، وكانت ظَفَارِ عاصمة الدولة الحِمْيَرية وقاعدة بلاد الشِّحْر. وقد حلّت مكان مأرب بعد أفول نجم الدولة السبئية، وظهور نجم الحِمْيريين في سماء جنوبي شبه الجزيرة، وأصبحت مركزاً تجاريّاً تبعث السفن إلى الهند وغيرها، وكان يصلها بمرفأ موزا طريق برّي عبر أراضي المعافر(٣٩).

ومنها كذلك نَجْران التي تقع على وادي نجران، وعلى مفترق الطرق القادمة من الجنوب والمتّجهة نحو الشمال والشرق أو الآتية من الشمال في طريقها إلى الجنوب. وقد ظهرت هذه المدينة كمحطّة تجارية، ومركزٍ صناعيٍّ للعديد من الصناعات المعدنية والزراعية كالزيت مثلاً(٤٠).

---

(٣٨) Strabo: op.cit, P361. B.Dœ: Monuments of Southern Arabia, P127.

(٣٩) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الخامس، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامّة للتأليف، ص١٢ ـ ١٣. أحمد حسين شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي، ص٥٧.

The Periplus of the Erythean Sea, chapter 23, P30. B.Dœ: op.cit, P79.

الفَرْسَخ جمع فَرَاسخ وهو الطويل من الزمان. وفَرْسَخ الطريق: ثلاثة أميال هاشمية، وقيل اثنا عشر ألف ذراع وهي تقريباً ثمانية كيلومترات.

المنجد في اللغة والأعلام، ص٥٧٦.

(٤٠) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٧ و٤٠ ـ ٤١. نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

A.Jamme: Inscription from Mahram Bilquis, P303-304.

ومنها مدينة أوبار القديمة البائدة التي اكتُشفت في عام ١٩٩٢، والتي تقع في جنوبي سلطنة عُمان وعلى طريق القوافل التجارية البريّة. وقد نشر علماء من الولايات المتحدة الأميركية صوراً لهذه المدينة التقطها رادار المكوك الفضائي الأمركي «انديفور» في شهر نيسان من عام ١٩٩٤. وتقول المتحدّثة باسم مختبر تسيير الطائرات في باسادينا بكاليفورنيا ميري هاردين أنّ القوافل مدفونة في الرمال، وأنّ هذه الصور تُقدّم معلومات أفضل عن هذه المدينة من تلك التي توافرت عنها قبلاً. ويعتقد علماء الآثار أنّ نشأة مدينة أوبار قد بدأت منذ عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد واستمرت قائمة حتى عام ٣٠٠ ميلادية، وأنّها كانت قاعدة أمامية ونائية في الصحراء، حيث كانت القوافل تتجمّع فيها من أجل نقل مادة اللبّان عبر الصحراء إلى مراكز التجارة العالمية في ذلك الوقت(٤١).

ومنها قرية ذات كهل (الفاو) التي كانت تابعة لدولة كندة أو عاصمة لها. والتي كانت محطّة تجارية في الطريق البرّي المتّجه نحو الخليج العربي. وقد كشفت الدراسات الأثرية عن دورها التجاري العالمي، وعن دورها الصناعي وخصوصاً في صناعة النسيج، اللذان حققا لها ازدهاراً اقتصادياً كبيراً، ساعداها في سكّ عملة خاصة بها. وقد سمّيت هذه القرية حديثاً بالفاو لأنّها تقع عند تقاطع وادي الدواسر مع جبال الطويق عند فوهة مجرى قناة تُدعى بالفاو. وهي تبعد ٧٠٠ كيلومتر عن مدينة الرياض، وفي الجهة الجنوبية ـ الغربية منها. وتُشرف على الحافّة الشمالية ـ الغربية للربع الخالي، فهي بذلك تقع على الطريق التجاري الذي يربط بين جنوبي شبه الجزيرة وشمالها الشرقي، ماراً بمنطقة اليمامة (الخرج) ومنطقة زبيدة الأثرية بالقصيم، فهي بذلك تُعتبر مركزاً تجارياً واقتصادياً في وسط شبه الجزيرة. وقد كشفت التنقيبات الأثرية في هذا الموضع عن عدد كبير من البقايا العمرانية مثل: مقابر ومعبد ومركز سوق

(٤١) جريدة السفير، السبت في ١٩٩٤/٧/٣٠.

واسع، ممّا يدلّ على الدورين التجاري والحضاري اللذين تمتاز بهما هذه القرية ـ المدينة[٤٢].

وإلى جانب هذه المراكز التجارية البريّة في جنوبي شبه الجزيرة العربية نشأت مراكز تجارية بحرية فيه من أهمّها مرفأ موزا الذي يقع في الجنوب ـ الغربي من شبه الجزيرة، وعلى ساحل البحر الأحمر، وعلى بعد ٢٥ ميلاً إلى الشمال من ميناء مخا الحالي. وكان يُعرف في بعض الأحيان باسم موزع، وتابعاً للدولة السبئية في أيام عزّها، ثمّ تبع الدولة الحِمْيرية منذ القرن الأول الميلادي حيث أصبح ميناءها الرئيس[٤٣]. وكانت موزا ميناءً عالمياً ترده السفن من مصر وشرقي أفريقيا ومن الهند، كما كانت مدينة داخلية يربطها بعاصمة الدولة ظفّار طريق برّي. وإلى جانب الميناء فقد نشأت في هذه المدينة سوق تجاري مهمّ كانت تتجمّع فيه السّلع الجيّدة من كل الأصقاع، ويعمل جلّ سكانها بالبحر والتجارة[٤٤].

ومنها مرفأ أوكليس الذي يقع في أقصى جنوبي البحر الأحمر، وبالقرب من مضيق باب المندب ومن جزيرة بريم. وهو من أقدم مرافئه التي ازدهرت في القرن الخامس قبل الميلاد، أيام الدولة الأوسانية، حيث كان مركز اتصالها بالساحل الأفريقي. وقد سيطرت عليه دولة قتبان فترة من الزمان، ثمّ تلتها الدولة السبئية في عزّ ازدهارها، ثمّ الدولة الحِمْيرية. وقد كان هذا المرفأ آخر محطّة تقف فيها السفن الهندية التي لم يكن يُسمح لها بالإبحار شمالاً نحو البحر الأحمر، وخصوصاً في الفترة السابقة لقيام الرحلات المباشرة بين الهند

---

(٤٢) عبد الرحمٰن الأنصاري: أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، مطابع الجامعة، الرياض ١٩٧٩، ص٩.
الأنصاري: قرية الفاو. . ، ص١٧. الدليل الأثري والحضاري. . ، ص٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٤٣) J.W.McCrindle: The Commerce and navigation of the Erythean Sea, Trubner Co. Bombay 1987, P78. H.Von Wissman: Himyar, Ancient history, Le Mus'eon, Publiée par l'Association sans But lu cralif, Louvain 1964, P449.

(٤٤) The Periplus of the Erythean Sea, Chapter 23, P30. Dœ: Monuments of Southern Arabia, P53. N.Groom, The Frankincense and Myrrh, P243.

ومصر. وكانت هذه السفن تُفرغ حمولتها في أوكليس، ومنها تُنقل برّاً إلى موزا حيث تُباع هناك للسفن البطلمية وبعد ذلك للسفن الرومانية(٤٥).

ومنها مرفأ عدن، الذي يقع على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية؛ وهو فُرْضة اليمن وأعظم مراسيه ومحطّ رحال التُّجّار وعليه ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسِّنْد والهند والصِّين والحبشة، ولا يخلو أُسْبوع من عدّة سفن وتُجّار واردين عليه. وقد ازدهر هذا الميناء منذ القرن الثاني قبل الميلاد، وأصبح ينافس ميناء الإسكندرية. وكان يتبع الدول التي مرّت على المنطقة مثل: أوسان وقتبان وسبأ والدولة الحِمْيرية التي ضعف في عهدها بسبب اهتمامها بمرفأ موزا(٤٦). وكان لمرفأ عدن أهميّة طبيعية خاصّة، فهو يلائم رسوّ السفن، وتحميه جزيرة صبرة التي تقع بالقرب منه، من الرياح الموسمية التي تهبّ على المنطقة من الجهة الشمالية ـ الشرقية، وتتوافر فيه المياه العذبة التي حُفرت لها الخزانات التي حُفرت أيضاً لتجميع مياه السيول عند تساقط الأمطار، وهذا ما ساعده في القرن الرابع الميلادي على استعادة نشاطه التجاري الذي استمر مزدهراً حتى العصور الحديثة، وكان يرتبط بهذا المرفأ عدد من الطرق البريّة التي تصل بينه وبين عدد من المدن التجارية الداخلية(٤٧).

ومنها مرفأ قنا (حصن الغراب) الّذي يقع على ساحل بحر العرب، وإلى الشرق من عدن. وهو ميناء إقليم حضرموت الرئيس، ومنفذ الدولة الحضرمية إلى الخارج، ومرسى السفن التجارية القادمة من جزيرة سوقطرة، حيث كانت

---

(٤٥) The Periplus of the Erythean Sea, Chapter 7, P25. Dœ: op.cit, P71.
نقولا زيادة: دليل البحر الأرثيري وتجارة الجزيرة العربية، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الثاني، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٤هـ، ص٣٧٤.

(٤٦) القلقشندي: صبح الأعشى..، ج٥، ص١٠ ـ ١١. نقولا زيادة: المرجع السابق، ص٣٧١. نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٥٥.
The periplus of the Erythean Sea, chapter 7, P32.

(٤٧) Dœ: Monuments of Southern Arabia, P53. Western Arabia and Red Sea, P544-550. H.T.Norris and F.W.Penkey: An archaeological and historical survey of the Aden tanks, Aden Government Press, London 1955, P11-23.

تُفرغ حمولتها في مخازنه، لكي يعاد تصدرها عن طريقه. كما أنّه الميناء الأول لتجارة اللّبان، حيث كانت تتجمع فيه المحاصيل الآتية من مناطق ظفّار ووادي الحجر والساحل الأفريقي وغيرها. ويبدو أن هذا المرفأ الذي كان سوقاً تجارياً على ساحل بحر العرب، وملتقى لعدد من الطرق البريّة، قد وقع تحت سيطرة الدولة الحِمْيرية لفترة من الزمان. وعلى الرغم من أنّ الدولة الحضرمية قد استعادته وبنت سور القلعة الذي يفصل بين حدودها وحدودِ جارتها، إلاّ أنّ هذا الميناء لم يبق مزدهراً، فقد تدهورت التجارة فيه في القرن الرابع الميلادي، على أثر تدهور تجارة اللبان والطيوب في جنوبي شبه الجزيرة العربية(٤٨).

ومنها مرفأ رأس فرتك الذي يقع تقريباً في وسط الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة بين مرفأي قناوموشا، وهو ميناء محلي كان مخصّصاً لشحن اللبّان من المناطق الساحلية التي كانت تُعرف باسم الساشليت، ومن ظفّار التي كانت تُعرف بأرض اللبّان، ويبدو أنّ هذا الميناء كان يستقبل فقط السفن العربية التي تتاجر مع السواحل العُمانية وسواحل شرقي أفريقيا، والتي تنقل اللّبان من مستودعاته إلى مرفأ قنا(٤٩).

ومنها مرفأ موشا الذي يقع في خليج القمر في ساحل الساشليت من جنوبي شبه الجزيرة العربية. وهو مخصص لتصدير اللبّان الظفاري، وفيه ترسو السفن القادمة من غربي شبه الجزيرة، والسفن العائدة من الهند. وتذكر النقوش الأثرية التي عُثر عليها في هذا الميناء أنّ الملك الحضرمي «ايلعز بلط» قد أسّس موشا في القرن الأول قبل الميلاد، ونقل إليها ثلث سكان شبوة، وأنّ ميناءها كان يُستخدم لجمع اللؤلؤ من قاع البحر بواسطة القرب الجلدية المنفوخة، وأنّ

---

(٤٨) Pliny: Natural history, Bk6, P417. The periplus of the Erythean Sea, chapter 27, P32. Wissman: Himyar Ancient history, P444.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٥٦.

(٤٩) The Periplus of the Erythean Sea, chapter 30, P33. Jacquleine Pirenne: The incense port of Mosha in Dhofar, Journal of Oman Studies, The ministry of information and culture, Oman 1975, P93.

نشاطه التجاري، وخصوصاً النشاط التجاري الهندي قد استمر حتى القرن السابع الميلادي(٥٠).

ومنها أيضاً موانىء خليج عُمان، كمسقط الذي يعني اسمه الميناء الخفي، وذلك لأنّ الصخور تفصل بينه وبين البحر، وهو من الموانىء الواقعة عند مدخل خليج عُمان. ومرفأ قلهات الذي يُعتبر نقطة انطلاق للسفن المتّجهة إلى الهند، ومركزاً تجارياً، وسوقاً لسكان المدن والجزر المجاورة. ومرفأ عمانا (صحار) الذي كان مركزاً لعدد من الصناعات مثل: القوارب والخمور والثياب العربية والأصباغ، التي تُشكّل جزءاً من صادراته، كما كان ملتقى للطرق البريّة التي تصل بين جنوبي شبه الجزيرة وشرقها. ويتميّز هذا الميناء بحركته ونشاطه التجاري الواسع، وخاصّة مع ساحل كرمينيا وشمالي الخليج العربي وموانىء الهند الشمالية ـ الغربية والجنوبية ـ الغربية وساحل أفريقيا الشرقي(٥١).

٢ ـ التجارة في الحجاز:

إنّ الصراعات التي قامت بين القبائل والقوى المتواجدة في جنوبي شبه الجزيرة العربية، وانهيار سدّ مأرب، واحتلال الأحباش لليمن عام ٥٢٥ ميلادية، قد أفضى كل ذلك إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في تلك الأقاليم، ومن ثمّ إلى تقلّص نفوذ الجنوبيين على مسرح التجارة الدولية، ممّا أفسح في المجال أمام أهل الحجاز عموماً وأهل مكّة خصوصاً من أن يلعبوا دوراً رئيساً في هذا المضمار، وأن يتبوأوا مركز الزعامة التجارية في شبه الجزيرة العربية على امتداد المرحلة التاريخية التي سبقت ظهور الدعوة الإسلامية بقليل.

---

(٥٠) the Periplus of the Erythean Sea, Chapter 27, P32 and Chapter 32, P35. Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P361. J.Pirenne: op.cit, P81 and 91.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . ، ص٢٥٧.

(٥١) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكّة والحجاز المسماة بتاريخ المستبصر، ص٢٨٣.

Pliny: Natural history, Bk6, P435 and 453.

Pliny: op.cit, P443. The Periplus of Erythean Sea, chapter 36, P36.

والواقع أنّ مكّة قد ظهرت على مسرح التاريخ كمركز ديني أولاً، وكمحطّة تجارية ثانياً. ذلك أنّ النبي إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام قد بنيا الكعبة الشريفة(٥٢)، بأمر من الله سبحانه وتعالى؛ وأنّ إسماعيل عليه السلام هو الجدّ الأعلى لعرب الشمال العدنانيين؛ وأنّ أم القرى بُنيت ونمت حول الحرم، وحول هذه الكعبة التي كانت تُعرف بالبيت العتيق قديماً.

وعلى مقربة من الكعبة ظهر نبع الماء زمزم الذي اكتشفه الطفل إسماعيل وأمّه هاجر، وأعاد حفره زعيم قريش عبد المطلب جدّ النبيّ محمد ﷺ. وتُعتبر المياه المتدفّقة من هذا النبع مقدّسة، وكذلك الكعبة الشريفة. وبهذا المعنى صارت المياه والكعبة محجّة للنّاس وأمناً، لا يُمنع أحد من التعبّد عندها والطّواف حولها. وكانت مناسك الحجّ والسّعي بين الصفا والمروة تتمّ حسب تعاليم النبيّ إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام(٥٣).

وتوالى أبناء إسماعيل عليه السلام بعده على حراسة البيت وخدمته؛ ثمّ وفدت قبيلة خزاعة من اليمن، بعد سيل العرم وانهيار سدّ مأرب، فنزلوا بظاهر مكّة، وغلبوا الجرهميين وطردوهم منها. وكان أوّل من ولي أمر البيت من خزاعة عمرو بن لحي، فغيّر دين إبراهيم وبدّله بعبادة الأوثان، بعد أن استحضر أصناماً من بلقاء الشام ونصبها حول الكعبة(٥٤). فطغت الوثنية على مكّة، وعلى كامل بلاد الحجاز، ومن ثمّ على معظم مناطق شبه الجزيرة العربية، وظلّت مكّة محجّة العرب من وثنيين وغير وثنيين، وامتلأت الكعبة بالأصنام والأوثان.

وكان الحجّ إلى جانب التجارة مورداً مهمّاً لقريش، فتبيع ما عندها للأعراب القادمين إليها من البادية، ولأهل القرى والمدن البعيدة عنها، وتشتري ما يحملونه معهم من مواد وسلع، ثمّ تقوم قوافل قريش بنقل ما تكدّس عندها

---

(٥٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٥٣) الأزرقي: أخبار ممكّة وما جاء فيها من الآثار، ص٢٢ ـ ٢٣.

(٥٤) هشام بن محمد بن السائب بن الكلبي: كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٤، ص٨. ابن هشام: السيرة النبوية، قسم ١، ص٧٩. أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، الجزء الأول، مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١، ص٢١١.

من بضائع إلى أسواق الشام والعراق، وتشتري في مقابل ذلك، ما يحتاجه أهل الحجاز وأعراب البادية من مواد وسلع[٥٥].

وبوحي من ضرورات الإفادة المطلقة، العائدة لصالح تجار قريش، وصالح المتعاملين معهم، من أمراء ومشايخ القبائل العربية، نظّم زعماء قريش حركة البيع والشراء، ووضعوا لها الأصول والقواعد، وأقاموا الأسواق الموسمية مثل: سوق عكاظ الذي كان يُقام في موضع نخلة بين مكّة والطائف[٥٦]. وسوق مِجَنَّة الذي كان في أسفل مكّة لبني كنانة، وسوق حُبَاشَة في تِهامة كانت تقام بديار بارق الذين كانوا من الأزد، وسوق ذي المجاز وكانت لهذيل بالقرب من عَرَفَة. وقد حدّدت القبائل العربية أوقات هذه الأسواق مع الأشهر الحرم التي يسود فيها الأمن والسلام بين الفئات المتنازعة[٥٧].

وفي كتابه أخبار مكّة، يُقدّم الأزرقي وصفاً رائعاً لحركة هذه الأسواق فيقول: «إنّ الناس كانوا يخرجون في موسم الحج، في شهر ذي الحجّة، فيصبحون بعكاظ بين مكّة والطائف، يوم هلال ذي القعدة، فيقيمون به عشرين ليلة، تقوم فيها أسواقهم بعكاظ، والناس على مداعيهم وراياتهم، منحازين في المنازل، تضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها، ويدخل بعضهم في بعض، للبيع والشّراء، ويجتمعون في بطن السوق، فإذا مضيت العشرون، انصرفوا إلى ذي المجاز، فأقاموا به ثماني ليالٍ، أسواقهم قائمة، ثمّ يخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عَرَفة، فيرتوون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز»[٥٨].

وكان كسرى يُجهّز كل عام قافلة تجارية، يُرسلها إلى سوق عكاظ قرب الطائف، وكذلك كانت تأتي قوافل أخرى من بلاد الروم والحبشة وغيرها،

---

(٥٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص١٥٨.

(٥٦) عمر فرّوخ: تاريخ الجاهلية، ص١٦٢.

(٥٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص١٥٨ ـ ١٥٩. عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص٩٧ و١٦٠ و١٦٢.

(٥٨) الأزرقي: أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، ص١٢٩.

فضلاً عن الأفراد. وكم بهذا الاختلاط من فوائد متبادلة لم تكن تقتصر على العرب وحدهم[٥٩].

ونظّم القرشيون أيضاً المكاييل: كالصاع والمد والمكوك، والموازين: كالرطل والنش (نصف الأوقية) والدرهم والمثقال[٦٠]. ووضعوا أصولاً للإجارة والديْن والرهان والمزارعة[٦١]. وفرضوا ضرائب في الأسواق على التجّار الغرباء، وعلى التجار العرب الذين لا يرتبطون مع قبائل قريش بحلف[٦٢]. وقد تطوّرت هذه الضرائب لتصبح ضرائب على أرباح كل دخل أو وارد، سواء أكان ذلك من بيع، أو من إجارة، أو من إرث[٦٣].

وممّا لا ريب فيه، أنّ تجّار قريش قد اكتسبوا خبرة واسعة في أعمال البيع والشراء، ومرونة كبيرة في التعامل مع القبائل العربية وغير العربية، حتى أضحوا وسطاء التّجارة والسّياسة في آن. ذلك أنّ زعماء قريش قد أدركوا مكانة بلادهم وأهميّة دورهم، فلم يتورّطوا في الصّراعات التي كانت تقوم بين القبائل العربية، ولم ينخرطوا في أي صراع كان يقوم بين المعسكرين الكبيرين: المعسكر البيزنطي والمعسكر الفارسي، اللذين كانا يتنازعان السيطرة على البلاد العربية في آسيا وأفريقيا. ويبدو أنّ هذه السياسة قد أفادت مكّة كثيراً، فمن جهة أظهرت قريش زعامتها على القبائل كلها، ومن جهة ثانية دفعت القبائل لتعترف لها بالتفوق عليها، وجعلتها تحضر في مواسمها، حتى صارت مكّة عند ظهور الدعوة الإسلامية زعيمة عرب الحجاز دون منازع.

وانطلاقاً من هذه السياسة، فقد انفتحت مكّة على رحاب شبه الجزيرة العربية والعالم الخارجي، وعقدت اتفاقات ومعاهدات تجارية مع الدول اكبرى

(٥٩) محمد جميل بيهم: دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل، بيروت ١٩٧٤، ص٥٦ ـ ٥٧.

(٦٠) عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمّى التراتيب الإدارية، الجزء الأول، ص٤١٥.

Henri Lammens: La Mecque à la veille de l'Hegire, Beyrouth 1924, P128.

(٦١) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة، ص٢١٦.

(٦٢) المسعودي: مروج الذهب. . ، ج٢، ص٥٨. الفاسي: شفاء الغرام. . ، ص٧٢.

H.Lammens: La Mecque à la veille de l'Hegire, P130.

(٦٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص١٥.

المجاورة، كبيزنطية وفارس والحبشة، لتأمين تجارتها وتجّارها[٦٤]. وكان يُمثّل الأمبراطور البيزنطي في توقيع المعاهدة عظيم بُصرى، بينما مثّل كسرى الفرس مرزبان البحرين[٦٥].

وكان لأولاد عبد مناف زعيم قريش، هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل، السيادة على مكّة في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي. فإليهم يرجع الفضل في عقد هذه الاتفاقات، وتنظيم الرحلات التجارية الكبرى. فقد عقد هاشم معاهدة تجارية مع ملوك الروم والغساسنة؛ ويروي البعض أنّه هو أوّل مَن سنَّ رحلتي الشتاء والصيف[٦٦]، فكانت رحلة الشتاء إلى اليمن جنوباً، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام شمالاً. وفي هاتين الرحلتين أنزل الله تعالى قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝﴾[٦٧]. وعقد عبد شمس اتفاقية تجارية أخرى مع نجاشي الحبشة، فاختلف تجّار مكّة بذلك السبب إلى أرض الحبشة آمنين. وأخذ نوفل لقريش اتفاقاً مع أكاسرة الفرس، فاختلف تجّار قريش إلى أرض العراق وأرض فارس آمنين. وأخذ المطلب لقريش «حبلاً» مع ملوك حِمْير، فاختلف تجّار مكّة إلى اليمن آمنين[٦٨].

وعلى الرغم من الارتباط التجاري بين بيزنطية والعرب، فإنّ أباطرة الروم، لم يسمحوا لتجّار العرب، بحرية الإقامة والتجارة إلاّ في عدد ثابت من المدن الشاميّة. ففي فلسطين كان يُسمح للعرب بحرية التجارة في مينائي أيْلة وغزّة وفي مدينة القدس. أمّا في سوريا فقد كان سوق بُصرى مفتوحاً لهم، وهو السوق الأكبر بالنسبة للحجازيين، والمحطّة الأخيرة لقوافل قريش[٦٩].

---

(٦٤) H.Lammens: La Mecque à la veille de l'Hegire, P26.

(٦٥) Ibidem, P32.

(٦٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص١٨١. ابن هشام: السيرة النبوية، قسم ١، ص١٤٧. عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٢٣٦.

(٦٧) قرآن كريم: سورة قريش، الآيتين ١ ـ ٤.

(٦٨) البلاذري: أنساب الأشراف، ص٥٩.

(٦٩) عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٢٥٠.

وعقد القرشيون كذلك معاهدات مماثلة مع أمراء العرب في شبه الجزيرة العربية، ومع شيوخ قيس، وأقيال اليمن، وأمراء اليمامة، وملوك غسّان، وسادات تميم، وحكام بلاد الشام والعراق. وقد عقد المكّيّون هذه المعاهدات لتوفير الأمن لقوافلهم التجارية، التي كانت تذهب إلى بلاد الشام والعراق واليمن، وغيرها من اعتداءات القبائل ومشاكستها. وذلك بدفع جعالات معيّنة، أو بتقديم هدايا وألطاف مناسبة ومغرية لهم، أو بإشراكهم في تجارتهم، أو بحمل بضائعهم بلا أجر. وقد أكّد ابن سعد في طبقاته الكبرى هذا الأمر عندما قال: «وأمّا القبائل الضاربة على طرق القوافل، فقد ألّفهم هاشم على أن تحمل قريش بضائعهم بلا أجرة»[٧٠]. ويذكر الجاحظ في رسائله أنّ هاشماً قد أشرك «في تجارته رؤساء القبائل من العرب... وجعل لهم معه ربحاً»[٧١].

وقد كان لتنظيم العلاقات التجارية، بين مكة وأمراء العرب والدول الكبرى المجاورة، أثر كبير على تطوّر الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية في الحجاز والبادية. فنتيجة لهذه العملية التنظيمية نشطت التجارة الداخلية والخارجية، وازداد التقارب والتآلف بين العرب أنفسهم، وذلك بربط أعداد وفئات كثيرة من سكان المدن والبادية بالعملية التجارية، سواء أكان بمشاركة بعضهم في تمويل القوافل، أو بتشغيل قسم كبير منهم كأدلاء وحراس للقوافل؛ ذلك أنّ وجهاء مكّة وأثرياءها كانوا يستخدمون لقوافلهم أدلاء وحراساً وعمالاً، يتولّون تحميل البضائع وتفريغها، وسائقين للإبل من قبائل البدو المجاورة، لقاء مبالغ محدّدة من المال؛ فضلاً عن مقدّمي الخدمات في المحطّات المنتشرة على طول الطرق البرية، وفي الثغور البحرية[٧٢].

وكان في مكّة واليمن ونجد تجار من الروم أو الفرس، قد ساكنوا المكيين وتحالفوا مع أثريائهم. ومنهم من أقام بمكّة، نظير دفع جزية مادية

---

(٧٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى، الجزء الأول، ص٤٥.

(٧١) أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ: رسائل الجاحظ، جمع السندوبي، المطبعة الرحمانية بمصر، القاهرة ١٩٣٣، ص٧٠.

(٧٢) بلياييف: العرب والإسلام..، ص١٣٥ ـ ١٣٦.

لحمايته وحفظ أمواله، ومنهم من استقرّ في عدن التي كانت السفن ترد إليها من مختلف جهات المحيط الهندي[٧٣]، والتي كان يصل إليها تجّار من الروم والفرس بسفنهم ليشتروا ما يجدونه من بضائع وسلع، أو ليتزودوا بالماء والطعام[٧٤].

وكان كبار تجار قُريش يقومون بدور الوسطاء التجاريين، فكانوا ينقلون تجارة أهل اليمن وتجارة أفريقية الشرقية إلى أسواق فلسطين وسوريا: كما كانوا يحملون تجارة الشام وبلدان حوض البحر المتوسط إلى الحجاز ونجد واليمن. وذكر البلاذري أنّ قريشاً كانت تقوم برحلة في الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق، وبرحلة في الصيف إلى بلاد الشام[٧٥]. وفي ذلك يقول مطرود بن كعب الخزاعي:

يا أيها الرجل المحوّلِ رَحْلَهُ	هلاّ نزلتَ بآل عبدِ مَناف
هبلتك أمّك! لو نزلت عليهم	ضمنوك من جوع ومن أقراف
الآخذون العهد من آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف[٧٦]

أمّا سلع التبادل، فكانت القمح والزيتون والخمور ومصنوعات الشام والذهب والقصدير والأحجار الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوانية والآنية الفضية والنحاسية من الهند والصين. والبخور والمرّ والعطور والجلود المدبوغة والأحجار الكريمة من اليمن. والذهب والعبيد والعاج والجلود وخشب الأبنوس وريش النعام من أفريقيا الشرقية. واللؤلؤ والياقوت من البحرين. ومواد غذائية وسلع صناعية من فارس والعراق واليمامة.. وبذلك تحوّلت مكّة في نهاية القرن السادس الميلادي

(٧٣) ابن هشام: السيرة النبوية، قسم ١، ص٢٨٠. الأزرقي: أخبار مكة...، ص١٥١. أبو فرج الأصبهاني: الأغاني، ج٤، ص٧٦. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة، ص٢١١.

(٧٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص١٩٥.

(٧٥) البلاذري: أنساب الأشراف، ص٥٩.

(٧٦) أبو جعفر محمد بن حبيب: المحبّر: باعتناء إيلزه ليختن شتيتر، والمكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لا تاريخ، ص١٦٢.

إلى مستودع ضخم لمنتوجات الهند والصين وشرقي أفريقيا وإيران والعراق والشام وشبه الجزيرة العربية[٧٧].

وقد كسب تجّار مكّة أرباحاً طائلة من هذه الرحلات التجارية، وتكدّست الأموال بأيدي بعض الأسر: كأبي أحيحة سعيد بن العاص، وعبد الله بن جدعان، والوليد بن المغيرة المخزومي، وأبي سفيان، وهاشم بن عبد مناف، والمطلب بن عبد مناف، ونوفل بن عبد مناف. وقد توفي هؤلاء الثلاثة بعيداً عن مكّة، فهاشم توفي بغزّة من أرض الشام، والمطلب توفي بردمان من أرض اليمن، ونوفل توفي بسلمان من ناحية العراق. وفي ذلك يقول مطرود بن كعب الخزاعي:

إذا تذكّرت أخي نوفلاً ... ذكّرني بالأوليات
ذكّرني بالأزر الحمر ... والأردية الصفر القشيبات
أربعة كلّهم سيّد ... أبناء سادات لسادات
ميت بردمان وميت بسلمان ... وميت عند غزّات[٧٨]

وللدّلالة على أهميّة ثراء بعض الرجال في مكّة، ما دفعه أهلها من فديات لأسرهم في بدر، فقد جعل رسول الله ﷺ فداء بعض أسرى يوم بدر أربعة آلاف لكل رجل من أسرة ثرية، إلى ثلاثة آلاف، إلى ألفين، إلى ألف، إلى قوم لا مال عندهم منّ عليهم النبيّ دون فداء[٧٩].

وتعطينا القافلة التي كان يقودها أبو سفيان، والتي كان الهجوم عليها سبباً في نشوب معركة بدر، تصوّراً واضحاً عن حجم القوافل والأموال الموظّفة، وحصص المشتركين، ونسبة الأرباح الّتي يجنيها أصحابها. كما تعطينا صورة عن الغنى الفاحش الذي بلغه بعض العائلات المكّية حينذاك. فكانت هذه القافلة

---

(٧٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص١١٥. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة ص٢٠٦.

(٧٨) ابن هشام: السيرة النبوية، قسم ١، ص١٤٦.

(٧٩) محمد بن عمر بن واقد: المغازي للواقدي، الجزء الأول، تحقيق مارسدن جونس، مكتب الإعلام الإسلامي، قم رمضان ١٤١٤هـ ص١٣٨ ـ ١٤٤.

مؤلّفة من ألف جمل في رواية، وألفين وخمسمائة في رواية أخرى[٨٠]. وكانت أموالها تُقدّر بنحو خمسين ألف دينار، وأنّ أكثر ما فيها من المال، ثلاثون ألف دينار لآل سعيد بن العاص، وكانت أرباح التجّار ديناراً لكل دينار[٨١]. ووصل خمس القافلة الّتي هاجمها المسلمون في موضع ذي قرد إلى عشرين ألفاً[٨٢].

ومن المعتقد أنّ اتصال تجّار مكة بالحبشة والصومال، كان يتمّ عن طريق آخر، غير طريق اليمن البرّي، وهو طريق البحر الأحمر، بواسطة ميناء الشعيبة ـ ميناء مكة الوحيد ـ فكان تجّار مكة يستخدمون هذا الميناء والموانىء القريبة منه للاتصال بالحبشة والصومال ومصر. ومن المرجّح أنّهم استخدموا سفناً خاصّة كانت تعمل لحسابهم[٨٣].

وإلى جانب الرجال، فقد كان بعض النساء المكيّات يمارسن التجارة، وقد أُثرين ثراءً كبيراً. مثل خديجة بنت خويلد التي كانت تتاجر بمكّة، وتستأجر الرجال لقيادة تجارتها إلى الشام[٨٤]، وأمّ أبي جهل التي كانت تتاجر بالعطور التي تُجلب إليها من اليمن[٨٥].

ولم يكن لمكّة في الجاهلية عملة خاصّة بها، إذ كان المكّيون يتعاملون بالإبل والنقود. وكانت العملات السائدة في الحجاز عموماً، وفي مكّة خصوصاً الدينار الذهبي البيزنطي، والدرهم الفضي السّاساني[٨٦]. وتعاملوا أيضاً بنقود يمنية حِمْيرية أو مغربية، كانت غير مسكوكة، بل هي عبارة عن قطع من الذهب الخام المستورد من شرقي أفريقيا، أو المستخرج من مجاري الأنهار في اليمن.

---

(٨٠) المصدر نفسه، ص٢٠٠.

(٨١) المصدر نفسه، ص٢٠٠. جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص١٠٦.

(٨٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٥.

(٨٣) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٢١.

(٨٤) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج١، ص١٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٨٥) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج١، ص٦٤ ـ ٦٥. ابن حنبل: المسند، ج٣، ص٢١٧.

(٨٦) الدينار: لفظة يونانية ـ لاتينية، مشتقّة من كلمة «ديناريوس». والدرهم مشتق من الدراخمة اليونانية، وأخذه العرب عن الفرس.

كما استعملوا قطعاً من معدن الفضّة الخام. وكان التبادل بهذه النقود يجري حسب وزن القطع المتبادلة[٨٧].

ومن مظاهر التطور الاقتصادي عموماً والتطور التجاري خصوصاً، قيام بيوتات ماليّة في مكّة وخارج مكّة، بأعمال الصيرفة وتبادل النقود، كما تقوم بأعمال الإقراض والربا الذي كان يدرّ على أصحاب رؤوس الأموال أرباحاً كثيرة، في حين كان يلحق الشّقاء الماديّ والاستعباد على الفئات الفقيرة التي تضطر لاقتراض الأموال. ذلك أنّ المرابين الذين تزايد عددهم في مكّة، كانوا يتشدّدون في المطالبة برأس المال ورباه معاً، ولم يمهلوا معسراً، ولم يتساهلوا في الأداء إلى وقت الميسرة. فكان المرابي يقول لمدينه، إذا حلّ أجل الدين، إمّا أن تقضي وإمّا أن تربي، أي تزيد مقدار الربا[٨٨]. وهكذا حتى تضاعفت فوائد الربا كثيراً، فكان الدرهم يُستوفى درهمين، والدينار دينارين. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[٨٩].

وإلى جانب مكّة كانت مدينة يثرب تُشكّل محطّة تجارية على طريق القوافل بين شمالي بلاد العرب وجنوبها، وواحة خصبة توفّر للتجّار الراحة والمؤن[٩٠]. كما كانت تيماء مركزاً تجارياً مهمّاً في شمالي شبه الجزيرة، وملتقى لعدد من الطرق البريّة، فمنها تسير القوافل إلى البتراء ودمشق وتدمر، وإلى سيناء ومصر، وإلى العراق[٩١]. وهي من أكبر المراكز التجارية التي اكتشفت في شبه الجزيرة العربية، ومن أكثر المدن العربية شهرة في التاريخ

---

(٨٧) علي معطي: النقود العربية الإسلامية، مجلة دراسات إسلامية، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، الموسم الثقافي ١٤١٥ ـ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٥ ـ ١٩٩٧م، ص١١٩ ـ ١٢١.

(٨٨) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني: عمدة القارىء في شرح صحيح البخاري، إستانبول ١٣٠٨هـ، ص٢٠٢.

(٨٩) قرآن كريم، سورة آل عمران، آية ١٣٠.

(٩٠) N.Groom: Frankincense and Myrrh, P191.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٢٨.

(٩١) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٤٠٢.

القديم، ويعود ذلك إلى دورها في التجارة العالمية، الذي تبرزه نقوشها ذات التأثير المصري والآشوري(٩٢). وكانت ديدان العلا من أكثر المناطق خصوبة في شمالي شبه الجزيرة، ومن أهمّ المراكز التجارية تطوّراً. وهي تقع على طريق التجارة بين الشمال والجنوب. وفي ممر ضيّق تضطر القوافل للمرور به نظراً لإحاطته بالمرتفعات والرمال والحرّات. وقد أكّدت النقوش الأثرية على دور هذه المدينة كمركز تجاري وحضاري منذ القرن السادس قبل الميلاد، حيث تتابعت على سلطتها كيانات سياسية مثل الدولة الديدانية والدولة اللحيانية، وأقامت فيها جاليات عربية معينيّة وغير معينيّة. وبعد أن سيطر الأنباط على شمالي الحجاز، واتخذوا الحجر (مدائن صالح) قاعدة لهم، فقدت ديدات أهميّتها السياسية والتجارية(٩٣). أمّا الحجر (مدائن صالح) فهي تقع على بعد سبعة أميال شمال شرقي العلا، ويعود تاريخها إلى عهد الدولة اللحيانية. ولم تبرز مكانتها التجارية إلاّ في عهد الأنباط الذين أجبروا القوافل التجارية على سلوك الطرق المؤدية إليها. وتُعتبر «أدوماتو» التي تقع في منطقة صخرية على حافة النفود الشمالية في الطرف الجنوبي لوادي السرحان، والتي تُعرف أيضاً باسم «دومة الجندل» قاعدة لمنطقة الجوف، وعاصمة لدولة اتحادية في شمالي شبه الجزيرة العربية في القرن السابع قبل الميلاد، ومقرّاً لملكات «شمالي بلاد العرب». وكانت هذه المدينة تتحكّم في الطرف الجنوبي لوادي السرحان الذي هو مجرى تكثر فيه المياه نسبياً ويمتدّ في اتجاه الشمال الغربي من أواسط شبه الجزيرة العربية الشمالية، والذي كان طريقاً طبيعياً للقوافل المتّجهة نحو بلاد الرافدين والخليج العربي. ويُستدلّ من النقش المعيني الذي اكتُشف في أدوماتو على وجود صلات بينها وبين تجّار التوابل المعينيين في ديدان بعد حوالي سنة ٤٠٠ قبل الميلاد. وبحلول القرن الأول الميلادي كانت هذه المدينة في أيدي الأنباط فشكّلت بلا ريب نقطة رئيسة على حدودهم الشرقية.

---

(٩٢) حامد أبو درك: مقدمة عن آثار تيماء، مطبوعات الإدارة العامّة للآثار والمتاحف، الرياض ١٩٨٦، ص٤ ـ ٥.

(٩٣) محمد علي الأكوع، وأحمد حسن غزال، وجيفري كنج: مواقع أثرية وصور من حضارة العرب، ص٨. نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٢٩.

أمّا حائل (أركوم) التي نشأت في وسط منطقة جبال شمر، والتي تقع في الجهة الشمالية الغربية من مدينة الرياض وعلى بعد ٧٥٥ كيلومتراً منها، كانت مركزاً تجارياً يربط بين طرق أربع هي: حائل ـ الجرهاء، حائل ـ النجف، حائل ـ الجوف، حائل ـ بريدة الذي كان يمرّ بموقع زبيدة بالقرب من عنيزة وفقاً لبعض الترجيحات. وحائل هو الاسم الأصلي للوادي الذي تقع فيه هذه المدينة، وذلك لوقوعه حائلاً بين جبلي أجا وسلمى[٩٤].

٣ ـ دور البتراء التجاري[٩٥]:

ومن المدن التجارية التي لعبت دوراً في تاريخ العرب القديم البتراء، وهي المدينة التي نشأت كمحطّة على طريق القوافل التجارية. ذلك أنّ هذه المدينة بعد أن نما شأنها الاقتصادي والسياسي، وازداد عدد القائمين فيها من النبط، غدت عاصمة لدولة قامت في شمالي الحجاز في القرن السادس قبل الميلاد، وشملت منطقة واسعة من بلاد الشام، عُرفت بدولة الأنباط. وتقع البتراء اليوم، كمدينة أثرية، في وادي موسى جنوب غربي المملكة الأردنية، في موقع استراتيجي فريد، على سطح هضبة قاحلة، يصل ارتفاعها إلى ما يقارب ٣٠٠٠ قدم، وتطلّ على وادي عربة من جهة الغرب، وتحيط بها الجبال من سائر الجهات، بحيث يتعذّر الدخول إليها، إلاّ من الممر الضيّق المعروف بالسيق، الذي يُظنّ بأنّه لفظ نبطي متوارث[٩٦]. وقد حرّفه الناس عن كلمة الشق في اللغة السبئية القديمة[٩٧].

---

(٩٤) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٢٩. الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢٦٧ ـ ٢٦٩.

(٩٥) البتراء: لفظ يوناني، يعني «الرقيم» عند العرب أي الصخرة، وسلع عند العبرانيين.

عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص٢٩. فيليب حتي وآخران: تاريخ العرب، ص١٠٣.

(٩٦) عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١٠٣. عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص٢٩.

(٩٧) لانكستر هاردنغ: آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، المطبعة الوطنية، عمّان ١٩٧١، ص١١٧.

ويبدو أن البتراء قد ازدهرت في القرن الرابع قبل الميلاد، وظلّت زهاء أربعمائة عام تشغل مكاناً مهمّاً على طريق القوافل ما بين اليمن والشام ومصر. ولم تفقد مكانتها التجارية إلاّ بعد أن أخضعها الرومان الذين اتخذوا مدينة بُصرى عاصمة للمقاطعة العربية[٩٨]. وقد حاول الأشوريون والفرس واليونان السيطرة عليها ولكنّهم فشلوا، ولهذا سمى الإغريق بلاد الأنباط باسم «بلاد العرب الصخرية»، كما سُميت عاصمتهم البتراء بالصخرة[٩٩].

وتقوم حضارة الأنباط بشكل رئيس على حياة التجارة، ذلك أنّ عاصمتهم البتراء كانت محطّة تجاريّة، ومركزاً لعدد من صناعات العطور والأواني، وسوقاً تجارية نشطة تبيع ما ينتجه النسّاجون والنجّارون والحدّادون والزرّاع، كأعلاف الحيوانات وسروجها وألجمتها وأكسيتها وخروجها، وكأكياس البضائع وأسلحة الحراس وغذاء التجّار[١٠٠]. وكانت تتدفّق على هذه السّوق السلع والبضائع من كل الجهات والأقاليم، وتجري فيها أعمال البيع والشراء، وتُعقد فيها الصّفقات التجارية، وتُعطى القروض، وتتبادل العملات، وتلتقي القوافل التي تعبر بادية الشام ما بين غزّة وبُصرى، وما بين دمشق وأَيْلة، وما بين اليمن والشام والعراق والخليج العربي. ومن الآثار التي اكتشفها المنقّبون تُبيّن أن نشاط الأنباط قد وصل إلى موانىء سوريا الشمالية، وإلى الإسكندرية، وردوس وملتوس وديلوس، وسلوقية، وإلى إيطالية والصين وغيرها من المراكز التجارية في العالم القديم[١٠١].

---

(٩٨) Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P353. Pliny: Natural history, Bk6, P287 and 477.

حتي وآخران: تاريخ العرب، ص١٠٤.

(٩٩) عبد العزيز سالم: تاريخ الدلة العربية، ص١٠٢ ـ ١٠٣. الدليل الأثري والحضاري. . ، ص٢٧٦.

G.Bowersock: Roman Arabia, Harward University Press, Cambridge Mass 1983, P60-61.

(١٠٠) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٤٩.

Bowersock: op.cit, P86.

(١٠١) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص١٠٢. صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم. . ، ص٤٩ ـ ٥٠.

Philp Hammond: The Nabataean, their history culture and Archaeology, P66.

أمّا السلع التي تاجر بها الأنباط فهي: العطور والطيوب اليمنية والمنسوجات الحريرية التي جلبوها من دمشق وغزّة والصين، والأرجوان من صيدا وصور، والحنّاء من عسقلان، واللآلىء من الخليج العربي، والخزف من روما، فضلاً عن بعض المواد المحليّة كزيت السمسم، ومصوغات الذهب والفضّة، وصناعات الأواني الفخاري وغيرها[١٠٢]. وكانوا يحملون الطيوب والمرّ والبخور والتوابل من اليمن وغيرها إلى مصر وشواطىء البحر المتوسط. كما يحملون إلى مصر على الخصوص القار لأجل التحنيط. ولم تكن تمرّ تجارة في أيامهم بين الشرق والغرب إلاّ على أيديهم، ويفرضون مكوساً على السلع الواردة إلى بلادهم أو الصادرة منها. وكانوا يقدّمون، في الوقت عينه، الحماية اللازمة للقوافل التجارية التي تمرّ في أراضيهم، ولذا أنشأوا بضعة خانات ومحطّات للتجّار، وقلاعاً في وادي عربة لتكون مراكز للحاميات النبطية[١٠٣].

وكان للأنباط نقودٌ خاصّة بهم، استخدموها في أسواقهم؛ ويُروى أنّ أوّل من ضرب النقود من الأنباط كان الملك الحارث الثالث (٨٧ ـ ٦٢ قبل الميلاد) الذي اقتبس ذلك عن ملوك اليونان في أثناء حكمه لدمشق. وقد وجد بعضهم ديناراً عليه نقش يرمز إلى اتفاق الحارث وسكاوروس، وصورة جمل وشجرة عطرية[١٠٤]. كما وجدوا نقوداً تعود إلى أيام هذا الملك، عليها صورة رأسه وصورة امرأة ترمز إلى النصر، وقد نقش وراءها اسم الملك الحارث باليونانية (Basileos Aretou) وأمامها لقبه: محب اليونان فيلهلين[١٠٥]، وهنالك نقود

---

(١٠٢) لانكستر هاردنغ: آثار الأردن، ص١١٧. صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم..، ص٥٠.

(١٠٣) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص١٠٢. صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم..، ص٤٨.

(١٠٤) جرجي زيدان: المرجع السابق، ص٩٩. صالح أحمد العلي: المرجع السابق، ص٤٨.
كان سكاوروس قائداً رومانياً حاول أن يغزوبلاد الأنباط، ولكنّه عجز عن ذلك بسبب وعورة الطريق وقلّة الزاد، فرضي أن يرجع بمبلغ ٣٠٠ دينار، دفعها إليه الحارث الثالث. زيدان: المرجع السابق، ص٩٩.

(١٠٥) زيدان: المرجع السابق، ص١٠٣.

ترجع إلى أيام الملك عبادة الثاني ابن الحارث الثالث (٦٢ ـ ٤٧ قبل الميلاد)، وإلى أيام مالك الأول ابن عبادة الثاني (٤٧ ـ ٣٠ قبل الميلاد)[١٠٦]. كما وصلت إلينا من عهد الملك مالك الثاني ابن الحارث الرابع (٤٠ ـ ٧٥ ميلادية) عملات فضية وبرونزية نُقش عليها صورته وصورة شقيقة زوجته التي كانت شقيقته في آن واحد[١٠٧].

وفي القرن الأول قبل الميلاد، بلغت البتراء قمّة ازدهارها التجاري والاقتصادي، وقد ظلّت مركزاً تجاريّاً بين الشرق والغرب، وبين الجنوب والشمال، حتى أعاد الرومان الطريق من القصير على البحر الأحمر، إلى قفط على النيل. وفي عام ١٠٦ ميلادية جرّد عليها الأمبراطور الروماني تراجان، حملة عسكرية، قضى فيها على استقلالها. ومنذ ذلك الوقت أخذت البتراء تتراجع تدريجياً، وتفقد دورها التجاري، حتى تخلّت عنه في نهاية المطاف إلى مدينتي بُصرى وتدمر الفتيّتين[١٠٨].

وتُعدّ بُصرى من أهمّ المدن النبطية وبخاصّة في الفترة المتأخرة من تاريخهم؛ وهي محطّة تجارية، تقع في منطقة حوران جنوبي سوريا، وملتقى للطرق التجارية البريّة القادمة من شبه الجزيرة العربية عبر وادي السرحان، وسوقاً تجارياً كان يبيع فيه الحجازيون بضائعهم، وآخر محطّة لتجّار قريش في العهد البيزنطي، ومركزاً صناعياً لعدد من الصناعات، وخاصّة صناعة الخمور. وقد أصبحت بُصرى في العهد الروماني قاعدة للمقاطعة العربية[١٠٩].

وكانت مدينة لويكي كوما (القرية البيضاء)، التي تقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، ميناء الدولة النبطية الرئيس، وقد نالت شهرة واسعة حينذاك،

---

(١٠٦) المرجع نفسه، ص١٠٣ ـ ١٠٤.

(١٠٧) كان من عادة الأنباط أن يتزوجوا أخواتهم، شأن الفراعنة والبطالسة. عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١١٠.

(١٠٨) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢٧٦. جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص١٠١. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ص٤٩ ـ ٥٠.

(١٠٩) Pliny: Natural history; Bk6, P287. Inan Browning: Palmyra, Chatto and Windows, London 1974, P14.

وذكرها استرابو في معرض حديثه عن حملة أليوس غاليوس، بأنّها ميناء وسوق تجاري كانت ترسو فيه السفن التجارية، وبأنّها منطلق للقوافل التجارية البريّة إلى البتراء[١١٠]. وذكرها صاحب كتاب الطواف كسوق تجاري وميناء ترسو فيه السفن، وأنّ فيها قلعة محصّنة وتُقيم فيها فرقة عسكرية تقوم بجمع الضرائب التي كانت تُفرض على التجّار[١١١]. ويبدو أنّ الباحثين قد اختلفوا في موضع هذا الميناء، إلاّ أنّ واحة العينونة، التي تُعتبر صالحة للعيش ولنشوء المدن والمرافىء؛ هي أقرب الاحتمالات لمكان وجوده؛ وهي أرض واسعة وفسيحة قادرة على استيعاب جيش الرومان الذي رابط فيها عدّة أشهر، وتتّصل بالبتراء بواسطة طريق برّي يمرّ في وادي عفال. وقد قوّت الاكتشافات الأثرية هذا الاحتمال، وخصوصاً عندما وجدت في واحة العينونة أواني فخارية نبطية ورومانية كثيرة، ووجدت أنقاض مباني ضخمة تعود إلى تلك الفترة[١١٢].

وفي معرض حديثه عن حملة أليوس غاليوس، يُشير استرابون إلى ميناء يقع إلى الجنوب من لويكي كوما، أبحر منه الجيش الروماني في طريق عودته إلى مصر[١١٣]. ويبدو أنّ هذا الميناء كان تابعاً لمنطقة إجرا أو مدينة إجرا التي هي مدينة الحجر (مدائن صالح) المعروفة والتي كانت جزءاً من دولة الأنباط. وقد ازدهر مرفأ إجرا في عهد الدولة اللحيانية، لأنّ الحجر كانت من مدنهم الرئيسة[١١٤]. ويرى موسل أنّ ميناء الموجة هو مكان إجرا حيث يتصل بالمدينة الداخلية عن طريق وادي الحمض[١١٥].

---

(١١٠) Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P357.

(١١١) The Periplus of the Erythean Sea, chapter 19, P29.

(١١٢) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٥٣.
Sir Lawrence Kirwan: Where to look for the Ancient Port of Leuk Kome, Studies in the history of Arabia, kind Saud University Press 1984, P57.

(١١٣) Strabo: The Geography of Strabo, Bk16, P363.

(١١٤) تبعد مدينة الحجر عن أقرب نقطة لها على ساحل البحر الأحمر الشرقي حوالي ١٠٠ ميل.
نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٥٤.

(١١٥) Alos Musil: Norther Hejaz, American geographical Society, New York 1929, P299.

٤ ـ دور تدمر التجاري:

كانت التجارة بين الشرق والغرب في العالم القديم، تسير في طريقين: الأول في البحر الأحمر إلى مصر والإسكندرية، والآخر من خليج العرب شرقاً إلى بادية الشام فمصر غرباً، والتجارة البريّة، كانت قبل الميلاد وبعده، تسير في طريق البتراء؛ فلمّا سقطت في أوائل القرن الثاني الميلادي، تحوّلت إلى تدمر.

ويبدو أنّ تدمر (بالميرا) قد ورثت بجدارة مكانة البتراء التجارية، بحيث انتقلت إليها أسواق البيع والشراء، وتكدّست فيها البضائع والأموال من ذهب وفضّة وجواهر، ولا سيما لؤلؤ الخليج العربي وياقوته، وطيوب اليمن وعطورها.

وكان لموقع تدمر الجغرافي ولمياهها النقيّة والمعدنية، أثر بالغ في تحويلها من قرية صغيرة صحراوية، ترتادها القوافل للاستراحة وللتزود بالماء والغذاء، إلى مدينة كبيرة، عامرة بالخير والبحبوحة والرّخاء. وتقع تدمر التاريخية في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق، وفي منتصف الطريق ما بين العاصمة السورية ونهر الفرات، وعلى مسافة ١٥٠ كيلومتراً من حمص[١١٦].

ويُعتقد أنّ تدمر قد نشأت حول نبع ماء، كان يلجأ إليه المارّة ورعاة الماشية من الأعراب الذين استقرّوا حوله مع مرور الوقت. وفي عهد تغلت بلاصر الأول، بدأت تدمر التي ساعدت الأشوريين في حروبهم ضد العموريين[١١٧]، تظهر كمحطة تجارية على طريق القوافل بين العراق والشام؛ ولكن لم يبرز تألّقها الاقتصادي وتطوّرها الحضاري، إلاّ بعد القرن الأول الميلادي، وخاصّة في عهد ملكها أذينة بن حيران بن وهب اللات، الذي قتله الرومان في عام ٢٥١ للميلاد. وفي عهد الملكة زنوبيا التي تولّت الوصاية على عرش تدمر، إثر مقتل زوجها أذينة الثاني وابنه البكر في ظروف غامضة في

(١١٦) Encyclopedia Britannica. Vol 17, 1964, P161.

(١١٧) Ibidem.

حمص عام ٢٦٦ ميلادية. ولعلّ ذلك كان بتدبير من روما التي خشيت على مصالحها السياسية والاقتصادية في بلاد الشرق(١١٨).

وفي تلك العهود استفاد التدمريون من موقع بلادهم على مفترق الطرق التجارية التي تربطها بسواحل بلاد الشام والبحر الأحمر والخليج العربي. فهناك طريق تربط تدمر بالبتراء، فعدن؛ وهناك طريق تربطها بسواحل المتوسط، وخاصّة بثغر غزّة وأيْلة؛ وهنالك طريق تصلها بثغر جرها الذي يقع على الخليج العربي، حيث كانت السفن القادمة من الهند تُفرغ بضائعها وسلعها، ثمّ تتولّى القوافل التدمرية نقلها إلى مدينة دورا أيروبوس (الصالحية)، ومنها إلى دمشق، فطرابلس، فأنطاكية، وقد تصل عبر البرّ أو البحر إلى داسيا (رومانيا) وروما والغال (فرنسا) وإسبانيا. ومن هذا الميناء كانت تصل إلى أسواق تدمر المنسوجات الحريرية، والبخور والطيوب والجواهر واللآلىء من الهند والصين وجنوبي شبه الجزيرة العربية(١١٩). وهنالك طريق البحر الأحمر الذي كان يصلها بمصر والإسكندرية، وكان هذا الطريق تحت سيطرة الأنباط الذين تخلّوا عنه إلى تجّار تدمر بعد سقوط دولتهم(١٢٠).

وفي القرنين الثاني والثالث الميلاديين، أقام التدمريون جالية لهم في مدينة قفط المصرية، تقوم بتسهيل أعمال التجارة في البحر الأحمر، وتتولّى الاتصال بأسواق غربي شبه الجزيرة العربية التي كانت غنيّة بسلع ومنتوجات أفريقية(١٢١). كما عقدوا معاهدات مع القبائل التي كانت تسكن على ضفاف الفرات، وأعطوا بعض شيوخها الهدايا والأموال لتأمين مرور القوافل بسلام(١٢٢).

---

(١١٨) Henri Seyrig: Les fils du Odainat dans les annales archéologiques de Syrie, T.XIII, Paris 1963, P263-264.

حتى ورخران: تاريخ العرب، ص١١٣.

(١١٩) Encyclopedia Britannica, vol 17, P162.

(١٢٠) Ibidem.

انظر خريطة الطرق البريّة ومدن القوافل، وخريطة الموانىء العربية والأجنبية في ملاحق الكتاب.

(١٢١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣ ص٧٦.

Paul Bovier- Lapierre: Précis de l'histoire d'Egypte, Le Cairo 1932, P398.

(١٢٢) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٦١.

وعلى العموم فقد كانت تتوافد إلى تدمر القوافل محمّلة بالأرجوان والخمور وقوارير الزيت والأواني الزجاجية والفضية والذهبية وتماثيل المرمر وغيرها من الشام. وبالمنسوجات الحريرية والقطنية والتركواز واللازورد والتوابل والأبنوس والنيل والفولاذ والعاج من الهند وهملايا والصين. والألبسة والمطرّزات من فارس. والطيوب والبخّور واللّبان والصمغ وعود الندّ والعنبر والذهب والجزع واليشب من شبه الجزيرة العربية. واللآلىء والياقوت من البحرين والعراق(١٢٣).

وكانت هذه الأصناف تأتيهم عن طريق البرّ؛ فضلاً عن الأصناف التي تأتيهم عن طريق البحر. وكان التدمريون ينقلون هذه المحاصيل والمصنوعات إلى مصر والشام والعراق، وإلى بيزنطية وإيطاليا، وغيرهما من مدن ودول أوروبا. وقد قدّر بلينيوس قيمة ما كان يُحمل إلى أوروبا وحدها من تلك السلع بما يساوي ثلاثة أرباع المليون من «الجنيهات» في العام(١٢٤).

وكانت السلع تُحمل بين تدمر والشام على الإبل أو على مركبات تسير على طرق مرصوفة، وعليها محطّات للراحة، وقلاع للحماية. ولم يكن من جهة الفرات شيء من ذلك. وكانت تدمر تتقاضى ضرائب جمركية على مرور السلع بأراضيها، فحققت بذلك أرباحاً كبيرة، وثروات طائلة، تشهد بها الآثار الباقية في تدمر إلى الآن، والتي تتمثّل ببقايا الهياكل، والأعمدة الضخمة، والقصور الفخمة، وأقواس النصر المرتفعة(١٢٥).

ومن الآثار التدمرية الباقية نقود على شكل عملة الإسكندرية عليها كتابة وصور. فهناك نقد من عهد زنيوبيا، على أحد وجهيه صورة رأسها وكتفيها، وحول الصورة اسم زينوبيا بالأحرف اليونانية «سبتميازينوبيا»، وعلى الوجه الآخر

---

(١٢٣) عدنان البني: تدمر والتدمريون، نشر وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨، ص١١٧.

(١٢٤) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص١٢٣. صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم..، ص٦١.

(١٢٥) جرجي زيدان: المرجع السابق، ص١٢٤. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ص٧٨.

Inan Browning: Palmyra, P15-17.

صورة أخرى. وهناك نقد آخر عليه صورة رأس وهب اللات، واسمه ولقبه(١٢٦).

وكان معظم التدمريين يشاركون بالعملية التجارية، من تجّار وشيوخ قبائل وخادمي الإبل والخيل وعمال تفريغ وتخزين وتوزيع وأصحاب دكاكين وعبيد وسماسرة(١٢٧). وعندما تصل القافلة، بقيادة زعيمها أو شيخها ربّ شيرا، مع الحرس الذين كانوا، في كثير من الأحيان، من التدمريين الذين خدموا في الجيش الروماني(١٢٨)، والعبيد والأرزاق التي تنوء بحملها الإبل، إلى قلب المدينة، تتحوّل الأسواق فيها إلى أعياد من أعيادها الخالدة. وإذا تعرّضت القافلة إلى خطر معيّن، أو تأخّرت عن موعد وصولها، سارع رجال المدينة إلى إنقاذها، وقد أُنقذت القوافل مراراً، وكان أبرز المنقذين «عجيل» الذي نُصبت له التماثيل في «الأغورا» باسم مجلس الشيوخ والشعب، وفي أمكنة أخرى باسم القبائل التدمرية الأربع، تقديراً لخدماته للتجار ولشجاعته النادرة. كما كثر في نقوشها القديمة ذكر «زعيم القافلة» و«زعيم السوق» باعتبارهما من زعماء المواطنين المرموقين(١٢٩).

٥ ـ التجارة في شرقي شبه الجزيرة العربية:

استفاد سكان شرقي شبه الجزيرة العربية من حركة الرياح الموسمية، وراحوا يتنقّلون، بسفنهم الشراعية التي كانت ملأى بالبضائع والسلع، غرباً، عبر المحيط الهندي، إلى حضرموت واليمن وسواحل أفريقيا الشرقية؛ أو شرقاً عبر الخليج العربي (البحر الأدنى) إلى شواطىء إيران وأفغانستان وخليج البنغال (مرفأ لوتال). وكانت السفن تُفرغ حمولتها في مرافىء جنوبي بلاد الرافدين، ثمّ تُحمل على ظهور الحيوانات لتُنقل برّاً في الطرق المؤدّية، على طول نهري دجلة والفرات إلى المناطق الشمالية ـ الغربية في بلاد الأناضول وبلاد الشام وشواطىء البحر المتوسط الشرقية.

---

(١٢٦) جرجي زيدان: المرجع السابق، ص١٢٤ ـ ١٢٥.

(١٢٧) عدنان البني: تدمر والتدمريون، ص٧١.

(١٢٨) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ص٧٨.

(١٢٩) عدنان البني: تدمر والتدمريون، ص١٠٩. حتى وآخران: تاريخ العرب، ص١١١.

وكان تجّار دلمون (البحرين) ينقلون منتوجات بلادهم من التمور، التي كانت لها شهرة خاصّة في العالم القديم وتُزرع أشجارها على شواطىء الإحساء والجزر المجاورة، إلى الشرق والغرب. كما كانوا ينقلون المواد الخام، التي كانت تُستخرج من منطقة ماجان المجاورة، مثل: الأخشاب وفلزات النحاس والحجارة الصالحة لصنع التماثيل والبناء، إلى بلاد الرافدين التي كانت تفتقر إليها وتتلهّف للحصول عليها.

ويبدو أنّ تجّار دلمون قد لعبوا أيضاً دور وسطاء التجارة، حيث كانوا يتاجرون بمنتوجات البلدان المجاورة لهم؛ وتتجمّع في مستودعاتهم سلع وادي السند مثل: التماثيل والأواني الحجرية الخضراء والرمادية المنقوشة، والذهب والعاج وخشب الساج، والأحجار الكريمة ونصف الكريمة: كالعقيق واللازورد والزبرجد والرخام والستياتيت (الحجر الصابوني) واللؤلؤ. وهذا يدلّ على أنّ دلمون قامت في القديم بدور سوق رئيسة تبودلت فيها السلع الدولية التي أضحت تُنقل إلى بلدان غربي آسيا وشرقي أفريقيا وغيرها على السفن الدلمونية(١٣٠).

ولم يقتصر تجّار شرقي شبه الجزيرة على سلوك الطرق المائية، بل سلكوا أيضاً الطرق البريّة، التي تتّجه شرقاً عبر إيران وبامبور إلى بلوخستان ومدن وادي السند، والتي تتّجه غرباً عبر شبه الجزيرة العربية وخطوط مواصلاتها المعتادة.

وكانت مدينة الجرهاء، التي هي مُلتقى للقوافل التجارية وخاصّة القوافل الآتية من جنوبي شبه الجزيرة، تستقبل سلع الطيّب والمرّ والبخّور الآتية بحراً؛ ثمّ تعيد تصديرها عبر طريق حائل وتيماء إلى موانىء البحر المتوسط ومصر، أو عبر الطريق البرّي الذي يصل بلاد الرافدين ببلاد الشام. وكانت قوافل الجرهاء تحصل على محاصيل بلاد الشام من البتراء أو بُصرى أو غزّة في فلسطين. كما كانت تصل إلى حضرموت جنوباً في مدّة أقصاها أربعين يوماً، وتعود محمّلة

(١٣٠) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص١٥ و١٣٤.

بمنتوجات أفريقيا والهند. وكانت الفضّة واللبان والبخور من بين السلع الرئيسة التي تاجرت بها الجرهاء وحقّقت من ورائها أرباحاً طائلة.

ويُعتقد أنّ مدينة الجرهاء القديمة تقع على بعد ٢٦ كيلومتراً شمالي العقير، وعلى بعد ٢٣ ميلاً من مياه الخليج. وقد تميّزت بغناها، وكتب عنها عدد من الكتّاب، فأشار الكاتب اليوناني يوليوس الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد إلى حملة بحرية سيّرها الملك السلوقي أنطياكس الثالث سنة ٢٠٥ قبل الميلاد. إلاّ أن سكان الجرهاء كانوا من الثراء بحيث دفعوا مبالغ من المال لدرء الخطر عن بلادهم، وقدّر الكاتب الروماني استرابو الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد ثروة الجرهائيين بثروة السبئيين. ووصف الجرهاء بأنّها محطّة لاستيداع التوابل والعطور من جنوبي شبه الجزيرة العربية وسلع أخرى من أفريقيا والهند. بينما وصف الكاتب الروماني بلينوس الذي عاش في القرن الأول الميلادي الجرهاء بأنّها مدينة يبلغ محيطها خمسة أميال وتشمخ فيها أبراج مبنيّة من كتل الملح[١٣١].

وتروي المصادر أن مكان - وهي بلاد عُمان اليوم - كانت تُرسل سفناً ضخمة إلى بلاد فارس وبلاد الرافدين، محمّلة بالنحاس، وبأخشاب الساسامينا والأبنوس والصندل، وبالدعائم الخشبية للسقف والقُرُون (الحبال). وتُصدّر إلى أقاليم شبه الجزيرة الأخرى السفن التي كانت تُربط ألواحها بعضها إلى بعض، واللآلىء والأقمشة والأرجوان والذهب والرقيق والنبيذ والتمر[١٣٢].

ويوجد على الساحل الشرقي للخليج العربي عدد من الموانىء التي كانت تخدم بعض مراكز الحضارة، وهي ذات شهرة عالمية بالتجارة البحرية منذ الألف الثالث قبل الميلاد. وقد ذكر كتّاب العصر الهلّينستي والروماني الكثير من الموانىء الصغيرة التي كانت تتعامل تجارياً مع شمالي الخليج العربي، وقال بلينوس أنّ كثيراً من تجار بلاده يردها[١٣٣]. وكانت جزيرة تاروت التي تقع في

(١٣١) المرجع نفسه ص١٥ - ١٦ و٢٩٤ - ٢٩٥.

(١٣٢) المرجع نفسه، ص١٦ و٤٠١.

(١٣٣) Pliny: Natural history, Bk6, P451. B.Dœ: Monuments of Southern Arabia, P23.

الخليج وتتّصل بالقطيف بجسر طبيعي طوله ٤ كيلومترات أهم هذه الموانىء التي اكتُشف فيها موقعان مهمّان من الفترة الهيلّينستية هما الرفيعة وفريق الأخرش. وقد تمّ العثور فيهما على كميّات وفيرة من الفخار المزجج ذي الطابع الهيلّينستي، وعلى كسر أواني من الحجر الصابوني المنقوشة، وعلى أحجار مدافن منقوش عليها كتابات يونانية، جنباً إلى جنب مع آثار تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. كما اكتشف بعض نقوش جنوبي شبه الجزيرة العربية، ممّا يشير إلى اتصالات تاروت باليمن وحضرموت وجوارهما. ولذلك فإن الاتصالات التجارية التي عزاها الكتاب اليونان والرومان القدامى إلى ميناء الجرهاء مع جنوبي شبه الجزيرة العربية وأفريقيا والهند يمكن أيضاً أن تنسب إلى تاروت(١٣٤). ومن أهمّها أيضاً جزيرة فيلكا في الكويت التي أطلق عليها الإغريق اسم إيكاروس، والتي لعبت دوراً مهمّاً في التجارة الدولية في الأزمنة القديمة. وذلك يعود إلى موقعها الجغرافي من جهة، ولقربها من بلاد الرافدين وشرقي شبه الجزيرة والبحرين وأم النار (أبو ظبي) من جهة أخرى. وكان الاقتصاد في جزيرة فيلكا يعتمد على المنتجات البحرية، يُستدلّ على ذلك من كميّات صنانير الصيد ورؤوس السهام النحاسية وأثقال الشباك البحرية التي عثر عليها. كما يُستدلّ من الأدوات الأثرية التي صُنعت خارج شرقي شبه الجزيرة العربية، والتي عُثر عليها في جزيرة فيلكا وأودعت في متحف الكويت الوطني، على أنّ الإنتاج الاقتصادي الذي يزيد عن متطلبات المعيشة اليومية قد جاء في هذه الأزمنة من التجارة، واستمر كذلك حتى القرن الثاني الميلادي(١٣٥).

وتُعدّ ثاج من مراكز شرقي شبه الجزيرة التجارية، وهي تقع شمال غربي واحات القطيف، وتبعد حوالي ٩٥ كيلومتراً عن ميناء الجبيل إلى الداخل، وحوالي ١٥٠ كيلومتراً عن مدينة الظهران. ويعتقد البعض أن تاريخ هذه المدينة يعود إلى العصر الهيلّينيستي الذي ازدهرت فيه ازدهاراً كاملاً، وذلك بفضل موقعها الجغرافي حيث يمرّ بها ثلاثة طرق تجارية: يُعرف الأول بالدرب

---

(١٣٤) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(١٣٥) المرجع نفسه، ص١٣٣.

الكنهوري وهو طريق القوافل القديم الذي كانت تعبره التجارة من الشرق وجنوب غربي شبه الجزيرة مروراً بنجد. ويسير الثاني جنوباً نحو واحة البريمي ومنها إلى سواحل عُمان فجنوبي شبه الجزيرة. وينطلق الثالث شمالاً نحو بلاد ما بين النهرين(١٣٦).

وتدلّ الكميات الكبيرة من القطع الفخارية التي اكتُشفت في ثاج وتعود صناعتها إلى مناطق مختلفة، وقطع النقود المكتشفة فيها أيضاً والتي كانت متداولة في داخل شبه الجزيرة وخارجها كإيران وآسيا الصغرى، أنّ هذه المدينة كانت مركزاً حضارياً لما أطلق عليه بالحضارة الحسائية ـ نسبة لمنطقة الاحساء ـ وسوقاً تجارياً لعدد من التجارات، وخصوصاً تجارة الملح نتيجة وقوع المدينة على سبخة كبيرة من الملح(١٣٧).

ويمكن القول، استناداً إلى الشواهد الأثرية مثل: حصون ثاج ومساكنها وطريقة بنائها وفخارها ولقاها المتنوّعة، أنّ هذه المدينة كانت مدينة راقية ومتطوّرة. وتدلّ الأدوات المكتشفة أن معظمها كان محلّي الصنع، وأنّ سكانها مارسوا مختلف المهن وفي مقدّمتها التجارة. ويمكن القول أيضاً أنّ ثاج كانت من المدن البريّة المهمّة في شرقي شبه الجزيرة العربية. وتؤكّد الشواهد الأثرية أيضاً على قيام صلات بينها وبين مدن شرقي وشمالي ووسط شبه الجزيرة العربية، وبين المراكز الجنوبية، ويُعتقد أنّه بفضل هذه العلاقات برزت منطقة الجرهاء ونهضت ثاج كمركز تجاري مميّز(١٣٨).

وكانت مدينتا القطيف والهفوف من المحطّات التجارية المهمّة في شرقي شبه الجزرة العربية. وذلك يعود إلى علاقتهما الوثيقة بالمواصلات البحرية في الخليج العربي، وإلى وقوعهما على طرق التجارة البريّة المتّجهة جنوباً نحو عُمان، والمتّجهة غرباً نحو وسط شبه الجزيرة، وشمالاً نحو تدمر. وتُشير

---

(١٣٦) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٢٦. الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢٩٢.

(١٣٧) نورة النعيم: المرجع السابق، ص٢٢٧. الدليل الأثري والحضاري. .، ص٢٩٣.

(١٣٨) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢٩٤.

بعض المصادر الكلاسيكية إلى أنّ هاتين المدينتين كانتا معروفتين في العصريْن الهيلّينستي والروماني[١٣٩]. ويبدو أنّ ساحل القطيف في شرقي شبه الجزيرة قد ازدهر في عصور ما قبل الإسلام عن طريق تجارة الرخام والحجر اللازوردي والنحاس كمواد خام أو مصنّعة في إطار العلاقات المحلية والخارجية بعيدة المدى[١٤٠].

ولم يخبُ دور العرب في تجارة شرقي شبه الجزيرة إلاّ بعد أن نافس الأغريق الذين قدموا إلى الشرق مع حملة الإسكندر المقدوني، وأسّسوا لأنفسهم بعض المراكز التجارية مثل جزيرة فيلكا التي أطلق عليها الإغريق اسم ايكاروس أبناء الخليج العربي في أعمال الملاحة والتجارة هناك. وبعد أن نافسهم أيضاً تجّار الفرس في الأسواق المحليّة والعالمية. وفي ذلك يقول المؤرخ بردكوبيوس: «إنّ الفرس غدوا في تلك الفترة سادة أسواق الشرق»[١٤١].

٦ ـ التجارة في شمال ـ شرقي بلاد العرب:

تمتدّ منطقة شمال شرقي بلاد العرب من شط العرب جنوباً حتى الجزيرة الفراتية شمالاً، وهي تضمّ أقاليم: شط العرب، والأراضي التي تقع بين نهري دجلة والفرات وعلى جوانبهما، والجزيرة الفراتية. ويبدو أن سكّان هذه المنطقة قد اكتشفوا منذ القديم البحر الأدنى (الخليج العربي)[١٤٢] الذي يُعدّ المنفذ الوحيد الذي يربط بلادهم بالعالم الخارجي، واتخذوه منذ الألف الثالث قبل الميلاد طريقاً بحرياً تجاريّاً حيويّاً، ونشطوا في أعمال التجارة مع موانئه

---

(١٣٩) Pliny: Natural history, Bk6, P449. Polybius: Historia, B13, P425.

(١٤٠) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٢٥٠.

(١٤١) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص١٦.

(١٤٢) إن التنقيبات الأثرية والبحوث في قاع الخليج تثبت أنّ الخليج كان منخفضاً جافّاً لا تسيل فيه إلاّ مياه دجلة والفرات وروافدهما لتصبّ في المحيط الهندي بعد ذلك، وأنّ هذا المنخفض كان في أواخر العصور الجليدية يتمتّع بمناخ معتدل. وقد تمّ امتلاؤه بالمياه بين عامي ١٤٠٠٠ و٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

وأسواقه، وخصوصاً مع بلاد عُمان التي كانت مصدراً لمعدن النحاس. ومن النصوص الأثرية المكتشفة في جنوبي العراق نصّ من عهد الحاكم أورنانشة أحد ملوك سلالة لكش يعود تاريخه إلى حوالي عام ٢٤٥٠ قبل الميلاد، يذكر أن سفن دلمون جلبت الخشب من البلاد الأجنبية ورست في ميناء أور أقدم ميناء على الخليج العربي. فكانت السفن الدلمونية تحمل مواد: النحاس والأخشاب والتمور الدلمونية الفاخرة، وتعود محمّلة بمحاصيل بلاد الرافدين من القمح والشعير والزيت والمنسوجات، وخشب الأرز والأواني الفضيّة. وفي مقدّمة شريعة الملك أورنامو، الذي قضى على معارضيه ووطّد الأمن وسهر على سلامة التجّار في أسفارهم والمحافظة على حياتهم، وردت إشارة تُفيد أنّ العلاقات التجارية في تلك الفترة كانت ذات طابع ودّي وتقوم على أسس تبادل المصالح الاقتصادية. وتشير الوثائق السومرية الكتابية الأخرى المكتشفة في مدينة أور أنّ التجّار والملاّحين كانوا يدفعون ضريبة العشر على أرباحهم إلى آلهة المعابد الخاصّة بهم في بلاد الرافدين(١٤٣).

وفي عهد الدولة الأكادية حاول سرجون وخلفاؤه السيطرة على طرق التجارة العالمية ومصادر المواد الأولية. وفي ذلك يقول سرجون في نصّ وثائقي مكتوب، يعود تاريخه إلى عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد، أنّ السفن جاءت محمّلة بالبضائع من دلمون ومكان وميلوخاورست في ميناء عاصمته «أكاد» أو «أكد». وفي نصّ آخر يخبرنا حفيده «ترام سين» أنّه تمكّن في إحدى حملاته العسكرية من الحصول على حجر الديورايت من مكان وميلوخا، وجلبه إلى مدينته أكد. وفي عهد الدولة البابلية الأولى، وتحديداً في عهد الملك «سامسوايلدنا»، استمرّت العلاقات التجارية السلمية بين سكان بلاد الرافدين ومراكز الجوار في الخليج العربي وغيره. كما استمرّت ضريبة العشر على أرباح التجّار تُدفع إلى معبد الآلهة ننجال. أمّا في العهد الآشوري فقد توسّعت العلاقات التجارية نحو مناطق جديدة، وخاصّة إلى بلاد الأناضول، وكانت كانيش (كول تبه) المركز التجاري الرئيس الذي ترتبط به مراكز تجارية أخرى. وقد ذكرت الوثائق

---

(١٤٣) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٣٩٦ ـ ٤٠٠.

المسمارية تسعة مراكز تجارية وأكثر من عشرة فروع لها صغيرة كانت منتشرة في منطقة الأناضول. وكانت آشور تصدّر إلى هذه المراكز المنسوجات العراقية والقصدير وخامات الرصاص، وتستورد منها الفضّة بشكل رئيس ثم الذهب.

ومن النصوص المكتشفة في منطقة حديثة، والتي تعود إلى العهد البابلي (الكلداني)، نصّ مؤرخ في حوالي عام ٧٥٠ قبل الميلاد، يذكر أنّ الحاكم هناك قد سمع عند الظهيرة نبأ القوافل الآتية من سبأ وتيماء، والتي جاءت من مناطق نائية، ولم تمرّ به ولم يأت رسلها إليه، بل اتخذت طريقها بالقرب من منابع المياه، وتابعت مسيرها إلى مدينة خندانو[١٤٤].

وكانت العلاقات التجارية، بين منطقة شمال شرقي بلاد العرب وبين بلاد الشام تمرّ أيضاً عبر مدينة ماري التي تقع بالقرب من الحدود العراقية ـ السورية، والتي كانت تُسيطر على طريق القوافل الذي يربط الخليج العربي بسوريا وساحل البحر المتوسط، والتي كانت لها صلات بحرية مع موانىء فلسطين. ويبدو أنّ بابل كانت تُصدّر القصدير الذي تجلبه من عيلام إلى حلب وقطنة وكركميش في بلاد الشام عبر هذه المدينة. غير أنّ سكان العراق القديم لم يكتفوا بذلك، بل اتجهوا شرقاً وأقاموا علاقات تجارية مع مناطق شرق وشمال غربي إيران وذلك لتأمين مادة القصدير التي تخلط بالنحاس. كما أقاموا علاقات تجارية مع بلدان حوض السند والأفغان والصين؛ ووصلوا في تجارتهم غرباً إلى مصر وإلى جزيرتي قبرص وكريت[١٤٥].

وخلال عصور ما قبل الإسلام نشأت في منطقة شمال شرقي بلاد العرب محطّات ومراكز تجارية بحرية وبريّة، لعبت دوراً رائداً في الحياة الاقتصادية المحلية والدولية نذكر منها:

خاراكس التي تقع على رأس الخليج العربي عند التقاء شط العرب بنهر قارون، والتي كانت ميناءً بحرياً. ويُعتقد أن الإسكندر المقدوني هو الذي أنشأها

(١٤٤) المرجع نفسه، ص٣٩٨ ـ ٤٠٢.

(١٤٥) المرجع نفسه، ص٤٠٢.

خلال حملته العسكرية على بلاد الشرق. ثمّ أعاد السلوقيون بناءها وذلك لتنافس الجرهاء في تجارتها، ولكنّها لم تنجح إلاّ في فترة متأخرة[١٤٦]. ففي هذه الفترة تحوّلت خاراكس إلى سوق تجاريٍّ للبضائع الشرقية القادمة برّاً عبر إيران، والسلع القادمة من أسواق البحر المتوسط. وأنشأت علاقات تجارية واسعة مع الصين وتدمر ومصر[١٤٧].

والأبُلّة، وهي ميناء قديم يعود تاريخها إلى عهدي البابليين والآشوريين، وتقع على رأس الخليج العربي، وتشكّل جزءاً من أرض بيت يكن. وقد فقدت أهميّتها التجارية في العهد السلوقي[١٤٨] بسبب ظهور ميناء طريدون الذي يعتقد البعض بأنّه ميناء الأبُلّة نفسه. ويبدو أنّ موقع الأُبُلّة قد هيّأ لها الفرصة لأن تلعب دوراً مميّزاً في التجارة العربية، وظلّت من الموانىء المهمّة في رأس الخليج العربي حتى الفتح الإسلامي[١٤٩] حيث كانت مرفأ السفن من الصين وما دونها من بلاد كالهند وأفغانستان وإيران[١٥٠].

وميسان التي أسّست دولة لها في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، واستمرّت ثلاثة قرون، وهيمنت على التجارة المحلية والخارجية، واتّخذت قاعدة لها في كرخ ميسان في الأطراف الجنوبية الشرقية من القرنة الحالية، لذا تُذكر في بعض المصادر باسم دولة الكرخ. وكان موقع ميسان على رأس الخليج العربي، وقد ساعد مرور نهر دجلة وشط العرب في أراضيها، على أن يمارس الأهالي حياة التجارة والملاحة البحرية، وعلى إقامة علاقات تجارية مع مراكز الخليج الحضارية، ومع بلاد شرقي أفريقيا، والهند والصين وبلاد الشرق

---

(١٤٦) Pliny: Natural history, Bk6, P443.

(١٤٧) Innes J.Miller: The spice trade of the Roman Empire, the Clarendon Press, Oxford 1969, P135.

(١٤٨) W.Schoff: The Periplus of the Erythean Sea, Oriental Book reprint, 5th. Edition, NewDelhi 1954, P149.

(١٤٩) The Periplus of the Erythean Sea, chapter 35, P36.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. . ، ص٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(١٥٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثالث، ص٥٩٤.

الأقصى. فكانت السفن تصل إلى شطّ العرب، ومنه إلى نهر دجلة الذي كان صالحاً لسير السفن إلى المدائن، ومنها إلى أعالي نهري دجلة والفرات. وللوصول إلى موانىء البحر المتوسط انطلق تجّار ميسان من الخليج العربي عبر بلاد العراق إلى آسيا الصغرى أو بلاد الشام فأوروبا. ولتأمين سلامة القوافل التجارية اهتمّت دولة ميسان بتحسين الطرق ورصفها، وبتشييد المنارات لإرشاد القوافل، وبإقامة الحاميات في بعض المواضع لتأمين سلامة التجار والمسافرين. وبذلك يكون أهالي ميسان قد أسهموا في التجارة على نطاق واسع، ووطّدوا علاقاتهم مع جرها في البحرين، وتدمر في بادية الشام، والموانىء الشامية في البحر المتوسط. أمّا السلع التي تاجر بها هؤلاء فكانت العطور والتوابل وبعض الأحجار الكريمة والعاج وأنواع من الأخشاب الصلبة والحرير(١٥١).

وكذلك الحيرة التي تقع بالقرب من مدينة بابل القديمة، وعلى بُعد ثلاثة أميال جنوباً من الكوفة، وفي المنطقة الخصبة الممتدّة إلى الغرب من نهر الفرات. وقد اتخذها ملوك المناذرة عاصمة لهم في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، وتحديداً في عهد الملك عمرو بن عدي ابن أخت الملك جذيمة الأبرش الذي عاش في أواخر عهد الدولة الفرثية وشهد انحلالها وسقوطها، والذي قُتل غيلة على يد ملكة عربية تدعى الزباء(١٥٢). وذلك لأهميّة المدينة من الناحيتين العسكرية والتجارية، حيث كانت تتحكّم في الطريق التجاري بين الصحراء وطيسفون، وفي الطريق النهري المار في نهر الفرات. وعلى الرغم من أنّ الحيرة لم تبلغ في مجال التجارة ما بلغته تدمر والبتراء، إلاّ أنّ أهلها كانوا يجوبون الأقطار يعلّمون الناس القراءة والكتابة، ويتاجرون ويقودون القوافل ويعقدون الصفقات التجارية. وكان ملك الحيرة الكبير النعمان بن المنذر (٥٨٣ ـ ٦٠٥ ميلادية) يبعث القوافل إلى أسواق شبه الجزيرة

---

(١٥١) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٦٣ ـ ٦٧.

(١٥٢) من المحتمل أن تكون الزباء المقصودة هنا هي ملكة تدمر المشهورة، وإن كانت المصادر العربية لا تنصّ على ذلك صراحة. ولكنّها تنسج حول مقتله قصصاً وأساطير مختلفة. المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص٩٠ وما بعدها. الميداني: مجمع الأمثال، ج١، ص٢٣٤. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ص٩٨ ـ ١٠١.

العربية، وخاصّة إلى سوق عكاظ. ففي كل عام كان هذا الملك يبعث قافلة إلى سوق عكاظ، تبيع السلع وتشتري بثمنها: العَصْب والبرود والأدم وعطور اليمن وغيرها[١٥٣]. ويذكر الأصبهاني أنه كان يقام في الحيرة سوق يجتمع إليه الناس كل سنة[١٥٤].

وكان ملوك الحيرة يلتزمون حماية قوافل التجارة الفارسية لدى مرورها في أراضي بلاد العرب، مقابل جُعْل كبير يتقاضونه من الفرس. ولضمان هذه الحماية عقد هؤلاء الملوك اتفاقات أمان مع عدد من أقوياء القبائل وساداتها التي تمرّ القوافل عبر أراضيهم، كانت تتضمّن تعهّدات بالمحافظة عليها، ذهاباً وإياباً. وكان الملك يحاذر إغضاب حرّاس القافلة، أو سادات القبائل التي ارتبط معهم بعهود، خوفاً من أن تتعرّض القافلة للنهب والسلب في أماكن خارج نفوذه[١٥٥]. وعلى الرغم من ذلك فقد تعرّضت بعض قوافل النعمان إلى السرقة من بعض حرّاسها[١٥٦].

ومنها خندانو التي تقع في ناحية الكرابلة التابعة لقضاء القائم بمحافظة الأنبار، وتبعد حوالي ٤٠٠ كيلومتر عن بغداد لجهة الغرب. وكانت هذه المدينة محط أنظار ملوك آشور وبابل، نظراً لموقعها الجغرافي المميّز، ولكونها مركزاً تجارياً نشطاً، وملتقى للطرق التجارية التي تصلها ببلاد الشام وشمالي أفريقيا والأناضول وبلاد الرافدين حتى الخليج العربي جنوباً، ويبدو أنّ تجّار خندانو كانوا يستلمون السلع من التجار على اختلاف جنسياتهم وألوانهم، ثم يقومون بإعادة تصديرها إلى المناطق الأخرى. وقد استمرت خندانو مزدهرة، وتتولّى هذه المهمّة حتى عهد الملكة الزباء في تدمر[١٥٧].

---

(١٥٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ص١٠٠. ابن حبيب: المحبّر، ص١٩٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٥٩٠.

(١٥٤) أبو فرج الأصبهاني، الأغاني، ج١٦، ص٩٥. دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى اللغة العربية محمد ثابت الفندي وآخرون، المجلد الثاني عشر، ص٣٨٤.

(١٥٥) عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص٢٠.

(١٥٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٥٩٠ ـ ٥٩٢.

(١٥٧) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٤٦٢ ـ ٤٦٣.

وأيضاً الحضر التي تقع في بادية الجزيرة بين دجلة والفرات، وعلى بُعد سبعين كيلومتراً جنوب غربي الموصل، وثلاثين كيلومتراً غربي الشرقاط (آشور القديمة). وتدلّ النقوش المكتشفة أنّ الحضر التي أُنشئت في زمن موغل في القدم وأسّست دولة لها ازدهرت وتطوّرت منذ القرن الأول الميلادي، واتخذ ملوكها ألقاباً كان من بينها «ملك العرب». وسُمّيت بلادهم دار العرب «باعر بابا»، وأطلق المؤرخ الروماني ديوكاسيدي على دولتهم اسم «دولة العرب».

وممّا ساعد على ازدهار الحضر اشتغال أهلها بالتجارة ونقل البضائع بين المراكز الحضرية، وبخاصّة نقل منتوجات الهند وجنوبي آسيا إلى بلاد البحر المتوسط وأوروبا. وكان تجّار الحضر يفضّلون سلوك الطريق الشرقي المار بالعراق، والذي يمتدّ إلى أواسطه، ثم يتفرّع إلى منفذين: يسير إحداهما موازياً لنهر الفرات حتى أعاليه، أو ينحرف غرباً إلى تدمر فبلاد الشام. ويسلك الآخر وادي دجلة أو يتّجه إلى الحضر، ومنها إلى سنجار، ثمّ إلى نصيبين. وينقل هذا الفرع السلع إلى المناطق الواقعة في شمالي العراق وشرقي آسيا الصغرى، حيث كانت دولة أرمينيا المزدهرة تقبل على شراء محاصيل المناطق الاستوائية وبلاد الهند والشرق الأقصى: كالتوابل والأفاويه والأخشاب والأحجار الكريمة والحرير، وتُصدّر في مقابل ذلك النحاس والمنسوجات الصوفية وبعض المحاصيل النباتية(١٥٨).

وكذلك الرها التي تقع في مكان متوسط من الجزيرة الفراتية(١٥٩) في شمالي العراق، وتمرّ بها القوافل التجارية المتّجهة إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان. وفي أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، استغلّ سكان الرها ضعف القوى التي كانت تحكم بلاد الرافدين، وأعلنوا استقلالهم، وأسّسوا دولة لهم عُرفت في التاريخ باسم «دولة الأباجرة» التي بسطت نفوذها على الأراضي المجاورة، ووصلت إلى نهر الفرات غرباً ونهر دجلة شرقاً.

---

(١٥٨) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٦٩ - ٧٠ و٧٥.

(١٥٩) الجزيرة الفراتية هي منطقة واسعة في شمالي العراق. يحدّها دجلة شرقاً والفرات غرباً، ويخترق أطرافها الغربية نهر البليخ والخابور، وتفصلها عن الأناضول جبال طوروس.

والظاهر أن ملوك الرها قد أقاموا علاقات وديّة مع دولة ميسان، ومع أباطرة الرومان الذين قدموا إلى المشرق واستولوا على آسيا الصغرى وبلاد الشام، وذلك لتحاشي خطرهم، ولتأمين سير القوافل على الطرق التجارية التي تمرّ في أراضيهم. وقد أعجب الرومان بموقفهم هذا وبموقع بلادهم، فعملوا على تعزيز علاقتهم بالأباجرة، وأغدقوا الألقاب على ملوكهم الذين ظلُّوا محافظين على استقلالهم واستقرار الحياة في بلادهم حتى دخل الساسانيون العراق، واحتلوا مدنه وقراه، ومنها مدينة الرها التي أزالوا دولتها عام ٢٤٢ ميلادية(١٦٠).

وكان للصنّاع مكانة متميّزة في الرها، فهم يُذكرون في الوثائق بعد الملك والقادة والوجهاء. كما كان للتجّار دور كبير في تعزيز مكانتها وإنماء ثروتها. وتُعدّ الأقمشة الحريرية أبرز السلع التي تاجر بها هؤلاء بسبب إقبال الرومان على شرائها. وعلى الرغم من ارتفاع أسعار الحرير في الأسواق فإنّ تجارته قد ازدهرت بشكل ملحوظ في الرها، وإنّ الدولة قد جنت أرباحاً طائلة عن طريق المكوس التي فرضتها على التجّار، والتي وصل مقدارها إلى الثمن.

غير أنّ احتلال الفرس للرها لم يدم طويلاً، ذلك أنّ الرومان قد استعادوا هذه المدينة، وجعلوها قاعدة عسكرية لهم، وعاصمة للمنطقة التي كانت في حوزتهم هناك. ولمّا كان موقع الرها على حدود الدولة الرومانية فقد عرّضها ذلك إلى غزوات متتالية من الفرس، ممّا أضرّ بها وبتجارتها، وخاصّة تجارة الحرير التي تناقصت أيضاً بسبب تحوّل طريق التجارة غرباً إلى البحر الأحمر، وقيام الرومان بتربية دود القزّ وإنتاج الحرير، وإنشاء المصانع في القسطنطينية لحياكته(١٦١).

ونتيجة لذلك تحوّل عدد كبير من التجّار إلى أعمال أخرى، فانضمّ بعضهم إلى الحرس والجيش، ومارس بعضهم الآخر الكتابة في إدارات الدولة. ويبدو أن تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الرها قد استمر حتى

---

(١٦٠) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم..، ص٨١ ـ ٨٣.

(١٦١) المرجع نفسه، ص٨٤ ـ ٨٥.

تقدّم المسلمون وضمّوا بلاد الشام وكافّة بلاد الجزيرة بما فيها الرها إلى دولتهم الناشئة، وعمّروها وأعادوا الأمان والازدهار إلى ربوعها[١٦٢].

ثانياً: الأسواق وأنظمتها:

أ ـ الأسواق:

تحوّلت معظم المدن العربية في عصور ما قبل الإسلام، وخصوصاً المدن التي تقع على طرق التجارة البريّة والبحرية، إلى محطّات للقوافل والمسافرين، وإلى أسواق للبيع والشراء. بيد أنّ هذه الأسواق كانت تُقام في الأوقات التي تصل فيها القوافل التجارية إلى تلك المحطّات، ويتوجّه إليها أبناء البلاد العربية وغير العربية، من تجّار ومستهلكين وأصحاب مصالح، فيحدث بين الجميع تبادل في عروض التجارة والصناعة والزراعة.

ولا ريب أنّ الاختلاف في أنواع المحاصيل والغلاّت قد ساعد على نشأة هذه الأسواق وتوسّعها. ذلك أنّه كان لكل قطر من بلاد العرب شهرة بما يصنع من متاع، أو بما ينتج من الغلاّت. فالبخور يكثر وجوده في الجنوب ولا سيما في ظفّار، والسيوف والبرود تُصنع في اليمن، والجلود تُدبغ في الطائف، ففيها كانت الأُهُب (الجلود قبل دبغها) الطائفية المعروكة تُدبغ وتُليّن ويُزال ما فيها من رطوبة ونتن، ثمّ تُصدّر إلى الحبشة وغيرها، والتمور الطيّبة النادرة تأتي من هَجَر والبحرين، والزيت والأعناب والزبيب والخمر والمنسوجات الحريرية كلّها تُنتج في بلاد الشام، والمعادن تُصنع في نجران، والخُمور تُعصر في بُصرى، والعطور تُقطّر في عدن والبتراء وهكذا. . .

وكانت المناطق الزراعية أسواقاً للمحاصيل الزراعية، يرتادها إلى جانب سكانها سكان القرى المجاورة، كما يرتادها أهل البادية لبيع منتوجاتهم من الأصواف والأجبان والألبان والسمن والأغنام والجمال. . ولشراء ما يحتاجون إليه من حبوب وتمور وأدوات. . [١٦٣].

---

(١٦٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص٥٣ ـ ٥٥. العلي: تاريخ العرب القديم. . ، ص٨٤ ـ ٨٥.

(١٦٣) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٦٧.

والأسواق في بلاد العرب كثيرة ومتنوّعة، منها ما هو دائم ويستمرّ طوال العام، ومنها ما هو موسمي ويُقام في أوقات محدّدة، ومنها ما هو متخصّص بسلعة واحدة أو شامل لعدد من السلع، ومنها ما هو محلّي أو عام... وتُعدّ غالبية المدن العربية أسواقاً دائمة حيث كان يتمّ فيها التبادل التجاري يومياً، وقد يقتصر دورها على تبادل السلع بين أبنائها المقيمين فيها (سوق محلّي)، أو بينهم وبين الذين يفدون إليها من المناطق أو الدول المجاورة (سوق عام). وقد يوجد في بعض المدن أكثر من سوق، فالبتراء مثلاً، كما يبدو من مخطّطها العام، أنّها كانت تحتوي على ثلاثة أسواق شاملة تباع فيها سلع كثيرة ومتنوعة، وتخصّصت أسواق أخرى ببيع سلعة معينة، فهناك سوق للماشية، وسوق للعطارة، وسوق للفخار وغيرها[١٦٤].

ويقام السوق عادة في وسط المدينة، أو أمام معبدها العام، أو في مكان يمكن رؤيته من مسافة بعيدة عند ملتقى الطرق، وفي أرض محايدة إن أمكن، أو في ميدان واسع وخالٍ من المباني، يؤدّي إليه طريق يمتدّ من البوابة الرئيس للمدينة، وتنشأ الحوانيت على جانبيه، ويخضع لإشراف الدولة التي كانت تُعيّن موظّفاً، يُراقب البيع والشراء فيه، ويُطبّق الأنظمة، ويمنع الغش، ويحصّل الضرائب من الباعة[١٦٥].

أمّا الأسواق الموسمية المؤقتة التي جاءت تلبية لحاجات العرب الاجتماعية والاقتصادية والأمنية، فكانت تقام في مواضع متعدّدة من بلاد العرب، وبحماية قبائل مختلفة، وضمن مواقيت متفاوتة. فهناك أسواق موسمية

---

(١٦٤) A.F.I. Beeston: Some features of Social structure in Saba, Studies in the history of Arabia, Riyadh University Press, Riyadh 1984, P8.

جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص٣٣٦.

(١٦٥) M.Rostovtzeff: Caravan Cities, the Clarendon Press, Oxford 1932, P129 and 141.

دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني عشر، ص٣٨٢.

كانت تنعقد في الأشهر الحرم[١٦٦] نذكر منها: سوق نَطَاة خيبر الذي يبقى من العاشر من المحرم حتى العشرين منه، وسوق حَجْر اليمامة الذي يستمر حتى نهاية المحرم، وسوق حُبَاشة الذي يبدأ في الخامس من رجب ويستمر ثلاثة أيام، وسوق صُحار الذي تقيمه العرب من العاشر من رجب إلى الخامس عشر منه، وسوق دَبَى الذي ينعقد في آخر يوم من رجب ويمتد حتى العاشر من شعبان، وسوق حضرموت الذي يقوم في منتصف ذي القعدة ويمتد حتى نهايته، وسوق عُكاظ الذي ينعقد في مطلع شهر ذي القعدة ويستمر عشرين يوماً، وسوق مجنّة الذي يجري في العشر الأواخر من شهر ذي القعدة، وسوق ذي المجاز الذي يبدأ مع مطلع ذي الحجة ويستمر ثمانية أيام[١٦٧].

وكذلك هنالك أسواق موسمية كانت تُقام في الأشهر الأخرى من السنة، نذكر منها: سوق دُومة الجندل الذي كان أوّل سوق في العام وينعقد في أول ربيع الأول وينتهي في منتصفه، وسوق هجر الذي ينتقل الناس إليه في مطلع ربيع الثاني، وسوق عُمان الذي يتوجّه الناس إليه بعد ذلك وينتهي بنهاية جُمادَى الأولى، وسوق المشقَّر الذي يبدأ في أول جُمادَى الآخرة وينقضي مع انقضاء الشهر، وسوق الشِّحر الذي يجري في النصف من شعبان، وسوق عدن الذي

(١٦٦) الأشهر الحرم عند العرب أربعة هي: المحرّم ورجب وذو القعدة وذو الحجّة. ففي هذه الأشهر كان العرب يلقون السلاح ويتوقّفون عن سفك الدماء، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يتعرّض له بسوء أو أذى. وإلى جانب ذلك كانت المناطق التي تحيط بالكعبة حَرَم دائماً، لأنها بيت الله، أقيمت للعبادة، ولا يحلّ فيها القتال. وقد كان من أكبر العار عند العرب أن يتجاوز الإنسان حدود البلد الحرام والشهر الحرام، بعدوان أو بغي أو قتال. وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ بعض القبائل كانت لها أهشر حرم غير ما ذكرناه وأنّ أوقات هذه الأشهر كانت تختلف من عام إلى عام، لأن العرب كانوا ينسئون الأشهر الحرم، فيؤخّرون المحرم إلى صفر ورجب إلى شعبان، وقد حرّم الإسلام ذلك. المسعودي: مروج الذهب. .، ج٢، ص٢٠٤ ـ ٢٠٥. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٢، ص٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(١٦٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٥٨ ـ ٥٩. سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٢٥٨ ـ ٩٥٩ و٢٦٢ و٢٦٤ و٢٧٦ و٣٥٧ و٣٥٨ و٣٥٩. ويذكر المرزوقي أن العرب يقيمون سوق صحار لعشرين يوماً من رجب. الأزمنة والأمكنة، ج٢، ص١٦٣.

ينتقل الناس إليه ويقضون فيه العشر الأول من رمضان، وسوق صنعاء الذي يحدث في النصف الثاني من رمضان(١٦٨).

ويبدو أنّ المصادر العربية لم تتّفق فيما بينها على عدد هذه الأسواق وعلى مواقيت إقامتها، فمحمد بن حبيب يذكر اثني عشرة سوقاً، يبدأها بدُومة الجندل الذي يقع في منتصف الخط الممتدّ بين العقبة والبصرة، ويتبعها بسوق المشقَّر الذي يُقام في حصن بين نجران والبحرين، وسوق صُحار وهو قصبة عُمان ممّا يلي الجبل، وسوق دَبَا وهو من فُرَض البحر المشهورة في عُمان، ثمّ سوق الشِّحْر الذي ينعقد في أقصى جنوب شبه الجزيرة على شطّ بحر العرب، وسوق عدن، وسوق الرابية في حضرموت، وسوق صنعاء، وسوق عُكاظ، وسوق ذي المجاز القريب من مكّة، وسوق نطاة خيبر شمالي المدينة المنوّرة، وأخيراً سوق حَجْر باليمامة غربي البحرين وجنوبي العراق(١٦٩).

وقد وافق اليعقوبي ابن حبيب على عشرة من الأسواق التي عدّدها، وأسقط اثنين منها وهما: سوق نطاة خيبر وسوق حَجْر اليمامة(١٧٠). كما وافق الهَمْداني ابن حبيب في أربعة أسواق فقط وهي أسواق: عدن وذو المجاز وعُكاظ وحَجْر اليمامة؛ وأضاف إليها سبعة أسواق جديدة هي: مكّة وبدر ومِنَى ونجران والجَنَد ومجنّة وهَجَر البحرين. وبذلك يكون الهمداني قد جعل عدد الأسواق الموسمية أحد عشرة سوقاً(١٧١).

وأمّا القلقشندي فأثبت ثمانية أسواق ذكر ابن حبيب واليعقوبي بعضها، وذكر الهمداني بعضها الآخر، والأسواق الثمانية هي: دُومة الجندل وهَجَر وعُمان والشِّحر وعَدَن وحضرموت وصنعاء وعُكاظ. وفي هذه الأسواق يقول القلقشندي: «إنّ العرب يرتحلون إليها في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم

---

(١٦٨) سعيد الأفغاني: أسواق العرب..، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧ و٢٤١ و٢٥١ و٢٥٦ و٢٦٧ و٢٦٩ و٢٧٣.

(١٦٩) أبو جعفر محمد بن حبيب: المُحبّر، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لا تاريخ، ص٢٦٣ ـ ٢٦٨.

(١٧٠) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، ص٢٧٠.

(١٧١) الهَمْداني: صفة جزيرة العرب، ج١، ص٥٣.

ويتناشدون الأشعار ويتحاجّون، ومن له أسيرٌ سعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى من له الحكومة، وكان الذي يقوم بأمر الحكومة في عُكاظ من بني تميم، وكان آخر من قام بها منهم الأقرع بن حابس التميمي، ثمّ يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج، ثمّ يرجعون إلى أوطانهم قد حصلوا على الغنيمة وآبوا بالسلامة»[١٧٢].

وأمّا المرزوقي فقد زاد على أسواق ابن حبيب خمسة أسواق هي: مجنّة وبُصرى ودير أيوب في حوران (وهي اليوم قرية الشيخ سعد) وأذرعات (درعا اليوم) والأسقى. وبذلك يكون المرزوقي قد رفع عدد الأسواق الموسمية التي كانت تنعقد في بلاد العرب في عصور ما قبل الإسلام إلى سبعة عشرة سوقاً[١٧٣].

ولا ريب أنّ الأسواق الموسمية كانت تخدم أغراضاً كثيرة، وكان بعضها مشهوراً وبعضها الآخر قليل الشهرة، وقد زاد عددها عن الأربع عشرة سوقاً[١٧٤]. فهناك سوق مشهور في منطقة عُمان يُعرف باسم سوق دَمَا ذكره ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان. وسوق حُبَاشة الذي يُقام في ديار بارق بتِهامة؛ وقد وفد إليه رسول الله ﷺ قبل البعثة النبوية في تجارة للسيدة خديجة بنت خويلد التي كانت تستأجر الرجال لهذه المهمّة[١٧٥]. وسوق المِرْبَد الذي كان ضاحية في الجهة الغربية من ضواحي الموقع الذي بُنيت عليه مدينة البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ويبعد عنه ثلاثة أميال، والذي كان سوقاً للإبل على طرف البادية. وقد تطوّر هذا السوق في العصر الإسلامي، وأصبح أعظم شأناً من سوق عكاظ، وأضحى يُعرف باسم عُكاظ الإسلام[١٧٦]. وجاء

---

(١٧٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١، ص٤١٠ ـ ٤١١.

(١٧٣) المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، ج٢، ص١٦٢ ـ ١٦٥.

(١٧٤) دائرة المعارف الإسلامية، ج١٢، ص٣٨٣. انظر خريطة أسواق العرب في باب الملاحق.

(١٧٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٢٨٢.

(١٧٦) عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص٥٠ و٢٠٩.

في الأخبار أنّ الشعراء كانوا يعقدون في المِرْبَد إبان انعقاد أسواقها الكبيرة مفاخرات بالشعر كما كانت الحال في عكاظ[177].

وكان من الطبيعي أن تختلف مواقيت قيام هذه الأسواق من سنة إلى أخرى، وذلك بسبب نسأة الشهور، فكان النساؤون في الجاهلية يُحلّون شهر صفر عاماً ويحرّمونه عاماً أو يُحلّون شهر المحرّم عاماً ويحرّمونه عاماً، وهذا ما يُؤدّي إلى تغيير في الأشهر الحرم، وإلى تغيير في مواقيت الأسواق[178]. كما أنّ العرب لم يكونوا يلتزمون كل سنة يوماً معيناً لإقامة السوق، ويوماً محدّداً لانتهائه، بل يتقدّم هذا اليوم في بعض السنين ويتأخّر في بعضها الآخر، وقد يُسرع أقوام إلى السوق قبيل ميعاده، وقد يتخلّف آخرون بعد انقضائه إن لم تنته أعمالهم، وقد تختلف العادة سنة عن سنة، فمن هنا كان هذا التفاوت اليسير في مواقيت هذه الأسواق[179].

وتُعدّ الأسواق الموسمية معارض تجارية ترد إليها السلع من كل الجهات: من مصر وشرقي أفريقيا والشام واليمن والعراق وفارس والهند. . ، فيغتنم الناس الذين يأتون إليها من أطراف شبه الجزيرة العربية ومن خارجها، وجود هذه السلع الفريدة فيشترونها ويتفاخرون باقتنائها. .[180]. وكانت الأسواق التي تقوم على الطرق التجارية أو على السواحل مثل أسواق: عدن وعُمان وصنعاء أكثر تنوّعاً في الروّاد وفي المعروضات، ويقصدها أهالي المناطق والجيران من هنود وأحباش وفرس على السواء. أمّا الأسواق الداخلية مثل سوق حَجْر أو سوق حضرموت فهي غالباً مقصورة على قبائل العرب. وكان سوق عُكاظ ملك

---

(177) دائرة المعارف الإسلامية، ج١٢، ص٣٨٤.

(178) أبو الفداء إسماعيل بن كثير: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ج٤، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٤٠٣.

يذكر القلقشندي أنّ العرب في الجاهلية كانوا يُنسئون المحرّم فيؤخّرونه إلى صَفَر فيحرّمونه مكانه، ويُنسئون رجباً فيؤخّرونه إلى شَعْبان فيحرّمونه مكانه ليستبيحوا القتال في الأشهر الحرم.

القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٢، ص٣٧٧.

(179) سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٢١٦ ـ ٢٢٥.

(180) البلاذري: أنساب الأشراف الجزء الأول، ص١٠٠.

أسواق العرب تجتمع فيه قبائل العرب من الشمال والجنوب للإتجار مع قبائل نجد، وتخرج منه الطرق الذاهبة إلى اليمن والشام والخليج الفارسي وبابل. وكان عُكاظ أكثر صلاحية للتجارة الدولية من مكّة مثلاً. كما كان قريةً لا تكاد تستأهل الذكر وتخلو من السكان إلاّ في وقت انعقاد السوق[181] حيث يُعدّ المتسوّقون فيه بالآلاف يضربون آباط الإبل من كل موضع، وقد حضرها في أحد المواسم تسعون ألفاً من قريش وأحلافها فقط[182]. وفي ذلك يقول الأسدي:

يا قوم قد وافى عُكاظ الموسم تسعون ألفاً كلّهم ملأم[183]

ويقول أبو ذؤيب الهندلي واصفاً زحام القوم:

إذا بنى القباب على عُكاظ وقام البيع واجتمع الألوف[184]

وقد توافرت الفرص في هذا السوق وغيره لبيع السلع المحليّة وغير المحلّيّة. وانفتحت أبواب التجارة على مَصَارِيعها، وجرى التبادل والمقايضة، وجلس القوم للسمر والشراب، وجلست الحكومة لرفع الظلم عن المظلوم وفكّ أسر الأسير، ونادى قضاتها ذوي الحاجات من الفقراء والخائفين والمظلومين والأسارى كي تُقضى حاجاتهم، وهم الأكرمون المكرّمون. وذكرت بعض المصادر عدداً من حكّام العرب وقضاتهم في العصر الجاهلي كان منهم: عامر بن الظَّرب العَدْواني من بني عمرو بن قيس عيلان، وأكثم بن صيفي من بني تميم، وحاجب بن زُرارة سيّد بني تميم، وربيعة بن مُخاشن من بني أسيد بن عمرو ومن حكام بني تميم كان في المواسم يجلس على سرير خشبي في قبّة

(١٨١) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد ١٢، ص٣٨٢.

(١٨٢) وقد ذكر ابن حبيب والمرزوقي عدداً من القبائل التي تحضر سوق عُكاظ مثل: قريش وهوازن وغطفان وخزاعة والأحابيش وعضل والمصطلق وأسلم وطوائف من أفناء العرب. ابن حبيب: المحبّر، ص٦٦٧. المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، ج٢، حيدر آباد ١٣٣٢هـ، ص١٦٥. وذكر اليعقوبي قبائل أخرى مثل: هذيل وطيء وتميم وكلب بن وبرة وشيبان. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٢٧٠ - ٢٧١.

(١٨٣) محمد بن حبيب: المنمق، تحقيق خورشيد فاروق، حيدر آباد ١٣٨٤هـ، ص٢٠٦.

(١٨٤) محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، المجلد الخامس، ص٢٥٤.

من خشب فَسُمّي ذا الأعواد، وضَمْرة بن ضمرة النهشلي من كبار رجال بني تميم في الجاهلية، والأقرع بن حابس الذي كانت العرب تتنافر إليه ليحكم بينهم وكان من وفد بني تميم الذي قابل رسول الله ﷺ عام الوفود وقد أسلم واستُشهد في معركة اليرموك عام ٦٣٦ ميلادية، وغَيْلان بن سَلَمة من بني ثقيف، وحنظلة بن نهد الذي أطلق عليه ابن حزم لقب «حاكم العرب»(١٨٥)، وقال عنه البكري: «كان حنظلة بن نهد من أشراف العرب له منزلة بعكاظ في مواسم العرب وبتِهامة والحجاز» ولذلك يقول قائلهم:

حنظلة بن نهد ... خير ناش في معد(١٨٦)

وعبد المطلب بن هاشم القرشي جدّ النبيّ محمد ﷺ، وأبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ وكفيله بعد موت جدّه، والعاص بن ائل من بني سهم وكان على رأسهم في حروب الفجار، والعلاء بن حارثة الثقفي وهو حليف بني زُهرة وأحد مُحكّميهم، وربيعة بن حُذَار من بني أسد وقائدهم في معركة يوم الفرات، ويَعْمُر بن عوف الشدّاخ الذي حكم بين قريش وخُزاعة في الجاهلية، وصفوان بن أميّة من بني كنانة، وسلمى بن نوفل من سادات كنانة وحكّامهم، والأفعى الجرهمي من حكام العرب في اليمن كان منزله بنجران.

وكان من قضاة العرب وحكّامهم في سوق عُكاظ: عامر بن الظَّرب العَدْواني، ثم سعد بن زيد مناة التميمي، ثمّ حنظلة بن زيد مناة التميمي، ثمّ ذؤيب بن كعب التميمي، ثمّ مازن بن مالك بن عمرو التميمي، ثمّ ثعلبة بن يربوع التميمي، ثمّ معاوية بن شريف التميمي، ثمّ الأضبط بن قريع التميمي، ثمّ صُلْصُل بن أوس التميمي، ثمّ سفيان بن مجاشع بن دارم التميمي، ثمّ محمد بن سفيان التميمي الذي كان يقضي بعُكاظ عند ظهور الدعوة الإسلامية،

---

(١٨٥) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٤٤٦.

(١٨٦) البكري: معجم ما استعجم، الجزء الأول، تحقيق الدكتور مصطفى السقا، القاهرة ١٣٦٤هـ، ص٣٤.

ويُقصد بكلمة معد، مَعَدّ بن عدنان جدّ قبائل العرب الشمالية، منهم إياد وأنمار ونزار، ومن نِزار رَبيعة ومُضَر ومنهما أكثر القبائل العَدنانيّة.

ثمّ الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان الّذي كان آخر من تولّى القضاء في عكاظ من بني تميم[١٨٧].

وإلى جانب هذه الحكومات كانت تُعقد في الأسواق، في كثير من الأحيان، اجتماعات تبحث في قضايا سياسية واجتماعية، وتضع الاتفاقات والمهادنات بين القبائل، وتُنظّم العلاقات فيما بينها على أساس من السلام والأمن. ثمّ تجري احتفالات دينية موسمية كانت الأسواق تُنظّم من أجلها، ذلك أنّ الأسواق العربية كانت في الأصل أماكن للعبادة حيث كانت تُعبد الأنصاب، وتذبح القرابين، وتُقدّس الأصنام ويُطاف حولها، وأشهر صنم كان يعبد في عُكاظ هو صنم جِهار الذي كان لهوازن، وكان سدنتها آل عوف النصريون. وفي الأثيداء حيث كان يُقام سوق عُكاظ توجد صخور كان العرب يطوفون حولها ويقدّسونها. وقد زال كل أثر لهذه العبادة وعفّى عليها النسيان بازدياد شأن الحرم المكيّ، وبظهور الدعوة الإسلامية في الحجاز[١٨٨].

وكذلك كانت أسواق العرب كناية عن مجامع أدبية ومنتديات شعرية يأتي إليها الشعراء من كل جهة، ويتبارون بأشعارهم للفوز، ولم يكن للشاعر من مجدٍ أعلى من الفوز بهذه المباريات. وتروي المصادر الأدبية أنّ نشأة المعلّقات مقرونة بسوق عُكاظ، وأنّها نالت قصب السبق في هذا السوق وراقت للناس فكُتبت بماء الذهب وعُلّقت على أستار الكعبة، فلذلك يُقال مذهّبة فُلان إذا كانت أجود شعره[١٨٩]. وكان للعرب في هذه الأسواق قضاة للشِّعر أو مُحكّمون تُضرب عليهم قباب حُمْر من أَدَم، ويتقدّم منهم شاعر كلّ قبيلة، فيعرض عليهم أشعاره، فما استجادَه القضاة فهو الجيّد، وما حكموا بضعفه فهو الركيك. وأجمعت مصادر الأدب على أنّ حكومة الشعر في عُكاظ كانت للنابغة

---

(١٨٧) ابن حبيب: المحبّر، ص١٨١ ـ ١٨٣. المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، ج٢، ص١٦٧ ـ ١٦٨. عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص١٠٢ ـ ١٠٥. ناصر بن سعد الرشيد: سوق عكاظ، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٣٧ ـ ٣٩.

(١٨٨) محمد بن حبيب: المحبّر، ص٣١٥. الحافظ بن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج٨، ص٦٧١، دائرة المعارف الإسلامية، ج١٢، ص٣٨٢.

(١٨٩) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، الجزء الثاني، دار مكتبة المعارف بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٢١٩ ـ ٢٢٠. الألوسي: بلوغ ورب، ج١، ص٢٦٧. الزبيدي: تاج العروس، ج٥، ص٢٥٤. الأصبهاني: الأغاني، ج٩، ص١٧٦. حتى وآخران: تاريخ العرب، ص١٣٧.

الذبياني في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، حيث كانت تُضرب له هنالك قبّة حمراء من أَدَم، فيأتيه الشعراء ويعرضون عليه قصائدهم، ليصدر حكمه بذلك. وقد حكم في أحد المواسم للأعشى على الشعراء جميعاً ثم تلته الخنساء في مباراة شعرية أغضبت الشاعر حسّان بن ثابت رضي الله عنه(١٩٠).

ومع مباريات الشعر هذه، كانت تُلقى في الأسواق خطب الوعظ والإرشاد، وتُقام المنافرات التي تمثّل الحياة الجاهلية أفضل تمثيل بروحها وأسلوبها الذي يعتمد على الجدل الجاهلي والمفخرة القبلية. وكانت المنافرة وثيقة تاريخية لحياة العرب في الجاهلية لا تقلّ أهميّة عن القصيدة أو الخطبة. كما كانت قطعة أدبية رائعة، قد يجري فيها البيان والدقّة والأسلوب الجزل الناصع الذي يعتمد على الحجّة والمقارعة. وللفوز في المنافرة لا بدّ من أن يتوفّر للمنافر عنصرين أساسيين، أولاهما: أن يكون له مجد أو منعة يبني عليهما منافرته وخصومته. وثانيهما: أن يكون متسلّحاً بالبيان والقدرة الأدبية واللغوية. ومن خانه الحظّ في واحدة منهما فهو لا شكّ مغلوب. ومن أشهر المنافرات: منافرة خالد بن أرطأة الكلبي مع جرير بن عبد الله البجلي اللذين كان حكمهما في عُكاظ الأقرع بن حابس التميمي. ومنافرة علقمة بن علاثة الأحوصي العامري مع عامر بن الطفيل المالكي العامري، اللذين كان حكمهما هرم بن قطبة بن سنان بن عمرو الفزاري. وتروي الأخبار أن هرم بن قطبة قد ساوى بين الاثنين حين قال: «يا بني جعفر قد تحاكمتما عندي وأنتما كركبتي البعير الأدرم تقعان على الأرض معاً وليس فيكما أحد إلاّ ما ليس في صاحبه وكلاكم سيّد كريم»(١٩١).

أمّا الخطبة فكانت تقوم على الوعظ الديني الذي يُبيّن للناس مفاسد الوثنية ومساوئها. ويزهّدهم بالدنيا وما فيها من شؤون وشجون، ويدعوهم إلى التأمل والنظر في الكون، وإلى الإيمان بالله الواحد، وبدين إبراهيم الحنيف. ولم تكن الخطبة وقائلها أقلّ شأناً من القصيدة وناظمها، وقد تفوق الخطبة القصيدة شهرة وأهميّة خصوصاً إذا كان الخطيب أحد حكماء العرب، كقس بن ساعدة

(١٩٠) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، الجزء التاسع، ص١٥٦. سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٣١٥ ـ ٣١٦.

(١٩١) الأصبهاني: الأغاني، ج١٥، ص٥٠ ـ ٥٤. ناصر بن سعد الرشيد: سوق عكاظ، ص٨٣ ـ ٨٦.

الأيادي، أو أكثم بن صيفي التميمي، أو أميّة بن أبي الصلت الثقفي(١٩٢)، أو عديّ بن زيد التميمي، أو زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي الذي كان يحيي الموؤودة ويقول لأبيها «لا تقتلها ادفعها إليّ أكفلها فإذا ترعرعت فإن شئت فخذها وإن شئت فادفعها»، والذي كان يصلي إلى الكعبة ويقول «إلهي إله إبراهيم وديني دين إبراهيم. اللّهمّ إنّي لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم» ثمّ يسجد على راحلته(١٩٣). وأشهر خطبة ارتجّت بها عُكاظ

---

(١٩٢) ومن الأبيات التي قالها أمية بن أبي الصلت ما يلي:

عبدٌ دعا نفسه فعاتَبَها   يعلم أنّ البصير رامقُها
ما رغّب النفس في الحياةِ وأن   تحيى قليلاً فالموتُ لاحقها
يُوشِك منْ فرّ من منيّته   يوماً على غرّةٍ يوافقها
إن لم تمتْ غبطةً تمتْ هرماً   للموتِ كأسٌ والمرء ذائقها

وقال أيضاً:

كل عيشٍ وإن تطاول دهراً   صائرٌ مرةً إلى أن يزولا
ليتني كنتَ قبلَ ما قد بدا لي   في قِلالِ الجبالِ أرعى الوعولا
فاجعلِ الموتَ نصْبَ عينيك واحذر   غَوْلَةَ الدهر إنّ للدهر غولا
نائلاً ظفرُها القساورَ والصد   عان والطفلَ في المنار الشكيلا
وبغاثَ النيافِ واليعفرَ النا   فرَ والعوهجَ البرامَ الضئيلا

ابن كثير: البداية والنهاية، الجزء الثاني، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(١٩٣) المصدر نفسه، ص٢٣٧. وممّا قاله زيد بن عمرو شعراً نورد الأبيات التالية:

أربٌ واحدٌ أم ألفُ ربٌ   أدين إذا تقسّمتِ الأمور
عزلْت اللاتَ والعزّى جميعاً   كذلك يفعلُ الجَلْد الصبور
فلا العزّى أدينُ ولا ابنتيها   ولا صَنَمَيْ بني عمروٍ أزور
ولا غُنماً أدين وكان ربّاً   لنا في الدهرِ إذْ حِلمي صغير
عجبتُ وفي الليالي مُعجِباتٌ   وفي الأيام يعرفُها البصير
بأنّ اللّهَ قد أفنى رجالا   كثيراً كان شأنهمُ الفجُور
وأبقى آخرينَ ببرُّ قومٍ   فيربلُ منهمُ الطفلُ الصغير
وبينا المرءُ يعثرُ ثاب يوماً   كما يتروّح الغُصن النضير
ولكن أعبدُ الرحمنَ ربي   ليغفِرَ ذنبيَ الربُّ الغفور
فتقوى اللّهِ ربكمُ احفظوها   متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرارَ دارُهم وإن يموتوا   يُلاقوا ما تضيق به الصدور
وخزيٌ في الحياة وإن يموتوا   يُلاقوا ما تضيقُ به الصدور

المصدر نفسه، ص٢٤٢.

والبطاح من حولها، وردّدت صداها الأودية، وتناقلتها الألسن عبر الأجيال والسنين، تلك الخطبة التي ألقاها قسّ بن ساعدة الإيادي، وارتاح لسماعها رسول الله ﷺ يوم أن كان في عُكاظ. وقد قال رسول الله ﷺ لوفد إياد وهو يسألهم عن قس بن ساعدة «مهما نسيتُ فلن أنساه بسوق عُكاظ واقفاً على جمل أحمر يخطب الناس»(١٩٤).

وعلى العموم فإنّ نشاطات العرب في الأسواق كانت كثيرة ومتنوعة، فإلى جانب النشاطات الإيجابية المفيدة من اقتصادية واجتماعية وأدبية، كانت هناك نشاطات سلبية فاسدة، يمارسها أفراد قلائل في هذا السوق أو ذاك. ويبدو أنّ النشاطات الإيجابية التي أشرنا إلى بعضها سابقاً، وما رافقها من تنظيمات دقيقة لأعمال السوق، كانت جديرة بأن تُشكّل أسواقاً قومية، يحضرها سائر العرب، فيمتزجون فيها مع بعضهم البعض، وتمتزج معهم عاداتهم وتقاليدهم، وتتوحّد

---

(١٩٤) ومن المفيد أن نعرض لبعض ما جاء في هذه الخطبة، يقول قسّ:.

«يا أيها الناس: اجتمعوا واستمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آتٍ آت، ليلٌ داج، وسماءٌ ذات أبراج، وبحرٌ عجاج؛ نجومٌ تزهر، وجبالٌ مرسية، وأنهارٌ مجرية؛ آيات محكمات، مطرٌ ونبات، وآباءٌ وأمّهات، وأحياءٌ وأموات، وذاهبٌ وآت، وضوءٌ وظلام، وليلٌ وأيام، وبِرٌّ وأثام، ولباسٌ ومَرْكب، ومطعمٌ ومشرب، وسقفٌ مرفوع، ومِهادٌ موضوع، ونجوم تمور، وبحارٌ لا تغور.

إنّ في السّماء لخبرا، وإنّ في الأرض لعبرا، يحار فيهنّ البصرا. ما لي أرى النّاسَ يموتون فلا يرجعون، أرَضُوا بالمقام فأقاموا، أم حُبسُوا فناموا؟!.

يا معشر إياد، أين ثمودُ وعاد، وأين الآباء والأجداد؟ أين المعروفُ الّذي لم يُشكر، والظّلم الذي لم يُنكر؟ أقْسِمُ بالله قسماً، لا كاذباً فيه ولا آثماً، لئن كان في هذا الأمر رضى، ليكوننّ سخطَ. أيّها الناس إنّ للّه ديناً هو أحبُّ إليه من دينكم هذا الّذي أنتم عليه، وهذا زمانه وأوانه.

في الذاهبين الأوّلين ... نَ من القرونِ لنا بصائرْ
لمّا رأيتُ مواردا ... للموت ليس لها مَصادِرْ
ورأيتُ قومي نحوَها ... يَمضي الأصاغرُ والأكابرْ
لا مَن مضى يأتي إليـ ... ـك ولا من الباقين غابِرْ
أيقنتُ أنّي لا محا ... لةَ حيثُ صارَ القومُ صائرْ

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، الجزء الأول، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي بمصر، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٣٠٨ ـ ٣٠٩. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٣٠ ـ ٢٣٤.

قبائلهم ومجتمعاتهم في مجتمع عربي واحد، كما تتوحّد لهجاتهم في لهجة واحدة هي لهجة قريش.

ب ـ أنظمة السوق:

وممّا لا ريب فيه أنّ الأسواق الموسمية في بلاد العرب، كانت تتمتّع بنظام من الأمن والحماية، تفرضه الدولة التي يقع السّوق ضمن حدودها، نظير ضرائب محدّدة، تجمعها من التجار الذين يفدون إلى هذا السّوق. فكانت الدولة صاحبة الشأن تفرض الأمن في السّوق، وتُلاحق المجرمين، وتمنع الاعتداءات، وتعيد إلى كلّ ذي حقٍّ حقّه. أمّا الأسواق الموسمية التي تقوم في مناطق البادية، حيث لا حكومة ولا سلطان، فكان التجّار يستأجرون الخفراء من أجل حمايتهم، مقابل مبالغ من المال يدفعونها لهم. ويبدو أنّ هؤلاء الخفراء، في مثل هذه الأحوال، كانوا أوفياء لما التزموا به، فيقومون بواجباتهم في حماية القوافل التجارية والأسواق خير قيام.

بيد أنّ زعماء القبائل الّذين كانوا يحضرون في هذا النوع من الأسواق، يُنصّبون أنفسهم، في بعض الأحيان، حكاماً عليها، فيسيرون فيها سيرة الملوك، ويجبون الضرائب والمكوس من التجّار، كما كان يفعل «الجُلَنْدَى بن المستكبر» في سوق صُحار، وبنو تميم في سوق المشقّر(١٩٥).

وإلى جانب ذلك كلّه انبرت طائفة من فرسان العرب، بزعامة أحد بني تميم، يُدعى صَلْصَل بن أوس، للدفاع عن الحرمات والتقاليد، ولفرض الأمن والنظام في الأسواق كسوق عُكاظ ومجنّة وذي المجاز، ولمنع اللصوص والمجرمين المحلّين من الصعاليك وغيرهم، من ظلم الناس وسرقة الأموال وسفك الدماء. وفي ذلك يقول اليعقوبي: «وكان في العرب قوم يستحلّون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق، فسمّوا المحلّين، وكان فيهم من ينكر ذلك، وينصّب نفسه لنصرة المظلوم، والمنع من سفك الدماء، وارتكاب المنكر، فيسمّون الذادة المحرِّمين، فأمّا المحلّون فكانوا قبائل من أسد وطيّىء وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة وقوماً من بني عامر بن صعصعة. وأمّا الذادة

---

(١٩٥) عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص٥٧ ـ ٥٨.

المحرِّمون، فكانوا من بني عمرو بن تميم وبني حنظلة بن زيد مناة، وقوم من هذيل، وقوم من بني شيبان، وقوم من بني كلب بن وبرة، فكان هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس»[١٩٦]. وقد ساعدت هذه الطائفة في استتباب الأمن والنظام حتى بلغ في سوق عُكاظ مبلغاً جعل العرب يأخذون معهم أموالهم ونساءهم وصبيانهم إليه[١٩٧].

وكانت أصول المتاجرة في الأسواق، تقضي بمعرفة مصدر البضاعة ومنشئها، وعلاماتها التجارية. والبضاعة المجهولة المصدر لا يشتريها أحد، والسلعة المسروقة يُمنع بيعها، ويُعتقل عارضها. وكان التجّار يعرفون العلامات التجارية المميّزة لكل قبيلة من قبائل العرب، كما يعرفون سندات التمليك، وسندات البيع والشراء المحرّرة وفقاً للأصول العامّة، وكذلك كانوا على معرفة بقيود المعاملات التجارية وحساباتها[١٩٨].

غير أنّ بعض أنظمة البيع والشراء في بعض الأسواق كانت تطغى عليها أحياناً الشكلية، فتفقد البائع أو المشتري حريّته وإرادته، كبيع المُلامسة، وهو أن يتساوم المتبايعان على لزوم البيع إذا لمس المشتري سلعة البائع، فهذا النوع من البيع يتمّ باللمس، دون النظر إلى البضاعة، وكان معروفاً في سوق المشقّر. ومثله البيع بالمنابذة، فمتى نبذ البائع سلعته إلى المشتري، وجب البيع. ومثله البيع بطريقة الرمي بالحصاة، وهو أن يُلقي المشتري حصاة على عدّة أثواب مثلاً، فما أصابته كان مبيعاً بلا خيار للمشتري. وفي سوق عُكاظ نوع من البيع كان يتعامل به العرب، وهو ما يُسمّى بالسرار الذي يُفسّره البعض بأنّه إذا وجب البيع وعند التاجر ألف رجل ممن يريد الشراء أو عدمه فله الشركة في الربح[١٩٩]. وفي سوق صنعاء نوع آخر من البيع كان يمارسه العرب بجس اليد[٢٠٠].

---

(١٩٦) اليعقوبي: تاريخ العيوقبي، ج١، ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

(١٩٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٥٩٠. ناصر بن سعد الرشيد: سوق عُكاظ، ص٣٠.

(١٩٨) الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص١٦٣. ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق سعيد العريان ج٦، طبعة مصر، القاهرة ١٣٧٠هـ، ص١٤، عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص١١٢ ـ ١١٣.

(١٩٩) محمد بن حبيب: المحبّر، ص٢٦٧. المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، ج٢، ص١٦٥.

(٢٠٠) المرزوقي: المصدر نفسه، ص١٦٤.

وهناك بيوع أخرى عُرفت في الأسواق الموسمية، مثل بيع الأجنّة في بطون أمّهاتها من المواشي والأنعام، وبيع الملاقيح، أي بيع ما ستحمل به إناث الإبل. وبيع المضامين، وهو بيع ما سيتولّد من فحول الإبل. وبيع ضربة القانص، أي ما سيقع في شبكة الصيّاد من صيد البرّ والبحر. وبيع ضربة الغائص، وهو ما سيخرجه الغوّاص من اللآلىء(٢٠١).

ومن أنظمة البيع والشراء، نظام الرهن الذي عرفه العرب قبل الإسلام، حيث كان المشتري يرهن متاعه وولده لسداد دينه. وقد هذّب الإسلام هذا النظام، وحرّم رهن الإنسان كبيراً كان أم صغيراً(٢٠٢).

ومنها نظام المقايضة الذي يقوم على عملية التبادل التجاري بالحصول على سلعة مقابل سلعة أخرى. وكان هذا النظام، الذي عُرف في جنوبي شبه الجزيرة العربية باسم «عقبن»(٢٠٣)، أساس التعامل بين المجتمعات البدوية والحضرية، فالبدو كانوا يجلبون منتوجاتهم، ويقايضون بها ما يحتاجون إليه من طعام وتمر وأدوات وغيرها. كما كان أساس التعامل في الأسواق الحضرية بين سكان المدينة الواحدة. وكذلك كان أساس تعامل العرب في تجارتهم الخارجية، حيث كانت واردات شبه الجزيرة العربية تأتي عن طريق المقايضة، لقاء خمس صادراتها التي كانت تشمل العطور والتوابل(٢٠٤).

ومع نظام المقايضة هذا، كان العرب يمارسون نظام تبادل السلع بأوزان المعادن الثمينة كالذهب والفضّة، كأن يدفع المشتري قيراطاً من الذهب مقابل سلعة معينة(٢٠٥). وكان هذا النظام، الذي استمرّ استخدامه في الأسواق حتى العصور الإسلامية، يأتي في الدرجة الثانية بعد المقايضة، ويستعمله العرب في

---

(٢٠١) عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص٦٠.

(٢٠٢) الأصبهاني: الأغاني، ج١، ص٨٤، ناصر بن سعد الرشيد: سوق عكاظ، ص٦٠ ـ ٦١.

(٢٠٣) بيستون وآخرون: المعجم السبئي، ص١٨.

(٢٠٤) وِل ديورَانت: قصة الحضارة، الجزء الثاني: الشرق الأدنى، ص٢٥. نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٦٨.

(٢٠٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٤٨٨.

البيع والشراء في داخل البلاد وخارجها[٢٠٦]. وتروي الأخبار أنّ العرب في العهد السّومري كانوا يستعملون الذهب والفضّة في تقدير قيم البضائع، ويقبلونهما في العادة بدلاً من البضائع نفسها، إمّا على هيئة سبائك وحلقات ذات قيم محدودة، وإمّا بكميات تُقدّر قيمتها حسب وزنها في كل عملية تجارية، وكانت الطريقة الثانية أكثر استعمالاً وشيوعاً من الأولى[٢٠٧].

وفي العهد البابلي كان العرب يستخدمون في التجارة - فضلاً عن القمح والشعير - سبائك الذهب والفضة وسيلة للتبادل، ومعياراً لتقدير قيم السلع والأشياء. ولم تكن السبائك المعدنية مختومة أو مطبوعة، بل كانت توزن في كل عملية بيع وشراء. وكانت أصغر وحدة في هذا النظام هي الشاقل، وهو نصف أوقية من الفضة، وتُؤلّف الستون شاقلاً ميناً واحداً، والستون ميناً تالنتاً واحداً[٢٠٨].

ويبدو أن العرب في العهد الروماني لم يغيّروا كثيراً في نظامهم النقدي، بل استمرّوا يتعاملون في معظم صفقاتهم التجارية بنظام أوزان المعادن الثمينة. ويذكر بلينوس أنّ تجار العرب كانوا يستهلكون سنوياً مبالغ كبيرة من خزينة الدولة الرومانية[٢٠٩].

أمّا في العهد البيزنطي فقد كان العرب يحصلون على الدنانير البيزنطية من بلاد الشام ومصر، وعلى الدراهم الفارسية من العراق، ويتعاملون بها وزناً، ويغضون النظر عن كونها نقوداً مضروبة. وذلك لاحتمال أن تنقص الدنانير من كثرة تداولها. ولمنع الغبن كان العرب يعمدون إلى الوزن، وكانت لهم أوزان خاصّة يزنون بها، هي: الرطل، والأوقية، والنش، والنواة، والمثقال،

---

(٢٠٦) A.Jamme: Yemen expedition, P131.
نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية ص٢٦٩.

(٢٠٧) وِل ديورانْت: الشرق الأدنى، ص٢٥.

(٢٠٨) المرجع نفسه، ص٢٠٤.

(٢٠٩) قدّر بلينوس هذه المبالغ سنوياً بخمسين مليون سيستركس.
Pliny: Natural history; Bk12, P63.

والدرهم، والدانق، والقيراط، والحبّة. وكانت قريش تزن الفضّة بوزن تسمّيه درهماً، وتزن الذهب بوزن تسمّيه ديناراً، فكل عشرة من أوزان الدراهم سبعة أوزان الدنانير، وكانت لهم الأوقية وزن أربعين درهماً، والرطل وزن اثني عشر أوقية، والنش (النص) وزن عشرين درهماً وهو نصف الأوقية وقد حولت الصاد شيناً[٢١٠]، وكانت لهم النواة وهي وزن خمسة دراهم، وقيل النواة نواة التمر[٢١١]. وكان الدينار البيزنطي[٢١٢] يزن مثقالاً، والمثقال ثمانية دوانق[٢١٣]، ووزنه عشرون قيراطاً، أو اثنان وعشرون قيراطاً إلا كسراً (أو حبة)، والوزنان شيء واحد، لأنّ القراريط فيهما مختلفة، وقدّروا المثقال باثنين وسبعين حبّة شعير من الشعير الوسط المقطوع ما دقّ من طرفيه، كما قدّروه ستة آلاف حبّة من حبّ الخردل البرّي المعتدل[٢١٤].

---

(٢١٠) أبو الحسن البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٥١ ـ ٤٥٢. فؤاد علي رضا: أم القرى: مكّة المكرّمة، ص١٦٠.

(٢١١) عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمّى التراتيب الإدارية، الجزء الأول، ص٤١٥.

(٢١٢) يقول البعض: إنّ الدينار لفظ لاتيني، والأصل فيه الدلالة على قطعة من الفضّة تساوي عشرة آسات، والآس درهم من دراهم الروم، والدينار ضُرب أولاً لهذه الغاية، وهو مشتق عندهم من «Deni» أي عشرة، وكان وزنه سبع الأوقية الرومانية أو جزءاً من مائة من الرطل (الليبرة)، أي أنّهم كانوا يقسمون الليبرة من الفضّة إلى مائة دينار، ثمّ ضربوه من الذهب، فصار عندهم ديناران: الواحد من الفضّة والآخر من الذهب؛ وعنهم أخذ الفرس، فضربوا نقوداً مثلها وسمّوها باسمها.

جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، الجزء الأول، دار مكتبة الحياة، بيروت. لا تاريخ، ص١٣٤ ـ ١٣٥. ويقول آخرون: إن الدينار هو وزن السوليدوس، والسوليدوس هو نقد الذهب الذي كان شائعاً في بيزنطة، وهو نفسه وزن الدارخما اليونانية، التي اعتمد وزن السوليدوس على وزنها وهو الدينار البيزنطي الذي كان يزن ٤,٢٥ غرامات. زلّوم: الأموال في دولة الخلافة، ص٢٠٥.

(٢١٣) الدوانق: جمع دانق، وهو سدس الدرهم، والكلمة فارسية الأصل. ابن سلاّم: الأموال، ص٢١٠.

(٢١٤) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: النقود الإسلامية المسمّى «شذور العقود في ذكر النقود»، تحقيق السيد محمد بحر العُلوم، دار الزهراء، الطبعة السادسة، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٥٦ ـ ٥٧. زلوم: الأموال في دولة الخلافة، ص٢٠٢. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٣، ص٤٣٦ ـ ٤٣٧.

وعلى الرغم من سيطرة نظام تبادل السلع بأوزان المعادن الثمينة على حركة البيع والشراء في بلاد العرب قبل الإسلام، إلاّ أنّ نظام النقد قد أخذ يظهر تباعاً في بعض أقاليمها. ففي عام ٧٠٠ قبل الميلاد سكّ الملك الآشوري سنحاريب قطعاً نقدية فضيّة، قيمة الواحدة منها نصف شاقل، وهي أقدم ما عُرف في بلاد العرب من مسكوكات رسمية[٢١٥]. وفي العهد السبئي، وتحديداً في القرن الرابع قبل الميلاد، سكّ اليمنيون نقداً شبيهاً بالنقد اليوناني، ورسموا على أحد وجهيه رأس آلهة أثينا وشعارها[٢١٦]. ثمّ تطوّر هذا النقد، وأصبح ذا نمط محلّي في أشكاله، ويتبع الدرهم البابلي الذي يبلغ وزنه ٥,٦ غرامات. كما تطوّر في القرن الثاني قبل الميلاد، وأخذ يتبع في ونه الدينار الروماني، وخصوصاً في النصف الأول من هذا القرن، ثمّ ازدادت الحاجة إليه، وإلى سكّ عدد وفير منه، وذلك يعود إلى نموّ الاقتصاد في أقاليم شبه الجزيرة الجنوبية، كما يعود إلى تطوّر العلاقات التجارية بين الإمبراطورية الرومانية في الشمال والدولة الحِمْيرية في الجنوب[٢١٧]. وفي الحِقبة الأولى من تاريخهم ضرب ملوك حِمْيَر عملة ذهبيّة وفضّيّة ونحاسيّة، كانت تحمل صورهم على وجه، ورسوم البومة أو النسر أو الثور أو الهلال على الوجه الآخر[٢١٨].

وعلى العموم فإنّ عملات الجنوب العربي قد تميّزت بصفائها وخلوّها من الغش. فلذا كانت تُطلق عليها صفات تدلّ على ذلك، مثل: «رضيم» و«نعم» التي تؤكّد على تمام العملة وجودتها[٢١٩]. كما تميّزت بتعرّفها على نظام الفئات العشرية، مثل: النصف والربع والثمن، وكانت كل فئة تحمل إشارة تُحدّد قيمتها[٢٢٠]. أمّا أسماؤها فقد وردت في بعض النقوش التي اكتُشِفت هناك،

---

(٢١٥) وِل ديورانت: قصة الحضارة ـ الشرق الأدنى، ص٢٨٠.

(٢١٦) حتى وآخران: تاريخ العرب، ص٩٢.

(٢١٧) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٧٠.

(٢١٨) حتى وآخران: تاريخ العرب، ص٩٢.

(٢١٩) بيستون وآخرون: المعجم السبئي، ص٩٠.

A.Jamme: Yemen Expedition, P136.

(٢٢٠) G.F.Hill: The Ancient Coinage of Southern Arabia, the British Academy, London 1915, P3.

مثل: «قرف»، و«بلطم» التي تُعدّ من أكثر النقود وروداً في النقوش، و«خبصت» وهي عملة قتبانية، وقد سُمّيت بذلك لأنّها صُنعت على الأرجح من مزيج عدد من المعادن، و«محليت» وهي عملة سبئية، تُقدّر بحوالي ١٠٠٠ معصم(٢٢١).

أمّا في الشمال ـ الغربي من شبه الجزيرة العربية، وتحديداً في سوريا فقد عثرت البعثة الوطنية للآثار التي تُنقّب الآن في مدينة جبلة على قطعة نقدية ذهبية تظهر على وجهٍ منها صورة الإسكندر المقدوني، وعلى الوجه الآخر صورة سفينة فينيقية. ويقول المدير العام للآثار والمتاحف في سوريا ميشيل مقدسي: «إنّ هذه القطعة النقدية اليونانية (الدراخما) لا يوجد مثلها في سوريا ولا في لبنان، وأنّ مثيلاتها في العالم قليل جداً لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد»(٢٢٢). ويُروى أن ملك الأنباط الحارث الثالث الذي دام حكمه حوالي ربع قرن من الزمان من عام ٨٧ إلى عام ٦٢ قبل الميلاد هو أول من سكّ عملة نبطية على الطراز الهلّيني ووفق المعيار البطليموسي للنقد. ومع مرور الوقت تطوّرت هذه العملة، وأخذت طابعها المحلّي في الشكل، ولكن وزنها كان يتبع النقد الصوري الذي كان تقليداً للعملة السلوقية ـ الهلّينيستية أيضاً. وتُظهر القطع الأثرية المكتشفة، أنّ نظام النقد النبطي عرف نظام الفئات العشرية كالنصف والربع، كما عرف نوعاً من التخصّص في سكّ العملة، بمعنى أنّه كان لكل مدينة عملة خاصّة بها من البرونز، إلى جانب عملة الدولة الرسمية التي كانت تُستخدم في التجارة الخارجية(٢٢٣).

---

(٢٢١) K.Irvin: Some Notes on old South Arabian Monetary Terminology, Journal of Royal Asiatic Society, Ras Society, London 1964, P19. A.Jamme: Yemen Expedition, P134-136.

(٢٢٢) السفير، عدد ٩٣٠٨، الاثنين ٢٣ أيلول عام ٢٠٠٢م، الموافق ١٧ رجب عام ١٤٢٣هـ ص٢٠.

(٢٢٣) G.F.Hill: The Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopatamia and Persia, PXI.

نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٧١. صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٤٨.

Y.Mesharer: Nabataean Coins, the Institute of Archaeology, P17.

ويبدو أنّ العملات النبطية قد مرّت بمرحلتين متتاليتين:

الأولى: بدأت من أيام الحارث الثالث، وانتهت في العام السابع الميلادي، وفيها كانت العملات قويّة وتُضاهي الدينار الروماني، وتحتوي على نسبة عالية من الفضّة تتراوح ما بين ٩٦٪ و٦٣٪. والثانية: بدأت من العام السابع الميلادي، واستمرّت حتى سقوط الدولة النبطية في عام ١٠٦ ميلادية، وفيها تدهورت العملات، وتدنّت قيمتها ونسبة الفضّة فيها حتى أصبحت تتراوح ما بين ٤١٪ و٢٠٪. وعلى الرغم من تدنّي قيمتها عن قيمة الدينار الروماني، إلاّ أنّها كانت تعادل قيم عملات مدن ولاية سوريا أيام الاحتلال الروماني(٢٢٤).

وتعزو المصادر أسباب هذا التدهور إلى ظروف الأنباط السياسية والعسكرية والاقتصادية. وكان أبرز هذه الظروف المساعدات العسكرية التي قدّمها الأنباط للرومان في حملتهم على الإسكندرية سنة ٤٧ قبل الميلاد، والمساعدات التي قدّموها لهم في حملتهم على بيت المقدس وإسقاط الأسرة المكابية اليهودية فيها(٢٢٥). وقد حدث كل ذلك في عهد ملكهم مالك الأول (٤٧ ـ ٣٠ قبل الميلاد) الذي اضطر إلى سكّ نقود برونزية كثيرة، لدفع مرتّبات الجنود، ولتجنيد مقاتلين آخرين(٢٢٦). وكان من أبرزها أيضاً الضغوط السياسية والاقتصادية التي مارسها الرومان، بعد احتلالهم مصر وسوريا، على حياة الأنباط، وسيطرتهم على الطرق التجارية البريّة والبحرية، في عهد عبادة الثالث (٣٠ ـ ٩ قبل الميلاد) الذي اشترك في الحملة التي أرسلها أغسطس قيصر بقيادة أليوس غالوس لغزو بلاد اليمن(٢٢٧). وقد أدّى كل ذلك إلى إضعاف العملات النبطية، وإلى تدنّي نسبة الفضّة فيها وتدنّي وزنها، فبعد أن كانت تزن ٦,٦١ غرامات أصبحت تزن ٤,٤ غرامات. ولدعم عملته، لجأ عبادة الثالث إلى

---

(٢٢٤) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٧٢.

(٢٢٥) حتى وآخران: تاريخ العرب، ص١٠٤. عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١١٠.

(٢٢٦) Mesharer: Nabatean Coins, P21.

(٢٢٧) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص٤٨. سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١١٠.

ضرب عملات أكبر حجماً من العملات الرومانية التي كان دينارها يزن ٣,٠٨ غرامات ويحتوي على نسبة عالية من الفضة تزيد على العملة النبطية بـ١٧٪، والتي كانت وسيلة التعامل في الولايات الرومانية الشرقية. وكون العملة النبطية أكبر حجماً يجعل الأهالي يقبلون عليها أكثر من الدينار الروماني الأقل حجماً، خاصة أنّ وسائل الكشف عن نسبة الفضّة في العملة وتحديد قيمتها غير متوفّر لدى عامّة الناس حينذاك[٢٢٨]. وكانت تلك الظروف في عهد الحارث الرابع، الذي حَكَم ما بين عامي ٩ قبل الميلاد و٤٠ ميلادية، داخلية وخارجية؛ فمن جهة تعرّضت دولة الأنباط إلى هجمات القبائل الثمودية والصفوية المجاورة لها، ومن جهة أخرى أقدم هذا الملك على تنفيذ عدد من المشاريع العامّة في مدينة البتراء، مثل: قصر بنت فرعون، والمسرح الوطني وغيره. وقد ساهمت كل هذه الظروف في إنهاك خزينة الدولة، وفي إضعاف العملة الوطنية التي سُكّت منها كميّات كبيرة لسدّ العجز، كانت نسبة الفضّة فيها قليلة ونادرة. وهكذا استمرت هذه العملة في التدهور والضعف، وفي تدنّي نسبة الفضّة فيها حتى وصلت إلى ٢٠٪ في المسكوكات البرونزية، بعد أن كانت هذه النسبة ٩٦٪ إبان ازدهارها[٢٢٩].

وعلى أثر سقوط مملكة الأنباط بأيدي الرومان، ورثت تدمر، التي تقع على بعد ١٥٠ كيلومتراً من دمشق وفي الجهة الشمالية ـ الشرقية منها، مركز البتراء التجاري والسياسي، وظهرت فيها نقود، سُكّت على الطراز الروماني. ولم تتطور هذه النقود إلاّ في عهد زنوبيا التي تسلّمت عرش تدمر عام ٢٦٧ ميلادية كوصية على ابنها القاصر وهب اللات، والتي ضربت مسكوكات خالية من رسم رأس أورليانوس الذي كان يُنقش عليها سابقاً[٢٣٠]. وعندما دخل جيش تدمر بلاد مصر، سكّت زنوبيا في الإسكندرية عام ٢٧٠ ميلادية عملة

(٢٢٨) صالح العلي: المرجع السابق، ص٤٨ ـ ٤٩.

Mesharer: Nabataean Coins, P30.

(٢٢٩) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٧٢.

Mesharer: op.cit, P41, 81.

(٢٣٠) حتى وآخران: تاريخ العرب، ص١١٣.

تدمرية أخرى، نقشت عليها صورة وجه وهب اللات إلى جانب صورة وجه أورليانوس؛ وذلك إشارة إلى أنّ وهب اللات قد أصبح يحكم مصر من قبل الإمبراطور الروماني(٢٣١).

وإلى جانب هذه العملات، كان العرب في دولة الكرخ (دولة ميسان) التي تقع في المنطقة التي يخترقها نهر دجلة وشط العرب ونهر الكرخة، يستخدمون نقوداً سكّها أحد ملوكهم المدعو «سباسينوس» أي (كاسح الأرض) الذي دحر العيلاميين، وغزا بابل ودخلها سنة ١٢٩ قبل الميلاد، واتخذ لنفسه لقب ملك العرب وقد تكاثرت أعداد هذه النقود في العهود التالية بسبب إقدام الملوك الذين جاؤوا بعده على سكّ عملات بصورة مستمرّة، كانوا ينقشون على أحد وجهيها صورة لرؤوسهم تتجلّى فيها سحنتهم العربية وأزياؤهم العربية، وعلى الوجه الآخر صورة ترمز للآلهة الإغريقية، وكتابات بالإغريقية وبالآرامية. ومن هذه العملات عُرفت أسماء ملوك دولة ميسان(٢٣٢).

وفي مدينة الرها التي تقع في الجزيرة الفراتية، شمالي الرافدين، والتي نشأت فيها دولة الأباجرة، ما بين عامي ١٣٢ و٢٤٢ ميلادية، كانت تُستخدم أيضاً نقود مكتوبة بالإغريقية، ومسكوكة على الطراز الهلّينيستي، ومقدّرة على عيار بطليموس للعملة(٢٣٣). كما كانت تتداول في أسواق دولة الحضر، التي نشأت في بادية الجزيرة الفراتية ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي، نقود نقشت عليها صورة النسر، رمزاً لإله الشمس، مع عبارة «الحضر مدينة الشمس»، وعلى وجهها الثاني صورة إله الشمس الذي يرمز إليه شاب حول رأسه هالة مشعّة(٢٣٤).

---

(٢٣١) Encyclopedia Britannica, vol 17, P163.

سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١٢٦ - ١٢٧.

(٢٣٢) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم. . ، ص٦٥.

(٢٣٣) المرجع نفسه، ص٨٢.

(٢٣٤) المرجع نفسه، ص٧١.

وإلى جانب نظام النقد كان العرب يعرفون نظام الوزن والكيل. وتدلّ النقوش التي اكتُشفت في أنحاء مختلفة من بلاد العرب على وجود الأوزان والمكاييل في العصور التي سبقت ظهور الإسلام. ومن بعض الألفاظ التي وردت في هذه النقوش، نتعرّف إلى بعض هذه المكاييل، مثل: برمت وصاع وأقدوم؛ ويُعرّف البرت جام لفظة برمت بأنّها مقياس للحبوب والسوائل، وهو مكيال رسمي يعادل ستة أرطال، وُجدت نماذج منه مصنوعة من البرونز(٢٣٥). وقد وردت لفظة برمت في النصّ التالي: برم حرب/ كون/ برن/ ثمن/ برم، وهذا يعني أنّ محصول الأرض في موسم الصراب ثمانية برم(٢٣٦). أمّا القدر فهو مكيال يُستخدم في اليمن حتى الآن، ويبلغ وزنه ٦,٥٥٦ كيلوغرامات(٢٣٧). وهناك مكيال للحب يُعرف باسم ثمن، ومكيال باسم حلب(٢٣٨). وفي قرية الفاو عُثر على مكيال خشب كان يساوي ما يُعرف بالمُدّ النبوي(٢٣٩).

وفي عهد رسول الله ﷺ، حيث كان معظم الناس لا يزالون على الشرك، كان العرب يستخدمون المكاييل التالية: الصاع، والمُدّ، والفرَق، والقسط، والوسق، والمختوم، والقفيز، والمكوك. وكان الصاع مكيال لأهل المدينة المنوّرة، يساوي خمسة أرطال وثلث(٢٤٠)، أو أربعة أمداد بمُدّهم المعروف عندهم، أو أربع حفنات بكفي الرجل الذي ليس بعظم الكفين ولا صغيرهما(٢٤١). والمُدّ ربعه وهو رطل وثلث. وفي ذلك يقول أبو عبيد: «الصاع خمسة أرطال وثلث. والمُدّ ربعُه، وهو رطل وثلث. وذلك برطلنا هذا الذي وزنه مائة درهم وثمانية وعشرون درهماً»(٢٤٢). والفرَق يساوي ستة أقساط

---

(٢٣٥) A.Jamme: Yemen expedition, P131.

(٢٣٦) أحمد شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي، ج٣، ص٢٥.

(٢٣٧) المرجع نفسه، ص٢٧.

(٢٣٨) بيستون وآخرون: المعجم السبئي، ص٦٧ و١٥٠.

(٢٣٩) عبد الرحمٰن الأنصاري: قرية الفاو. .، ص٢٨.

(٢٤٠) أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢٤١) عبد الحي الكتّاني: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، الجزء الأول، ص٤٢٨.

(٢٤٢) أبو عبيد: الأموال، ص٢١٠.

أو ثلاثة صيعان. والقسط نصف صاع. والوسق ستون صاعاً أو ستون مختوماً. وقال أبو عبيد: «والمختوم ها هنا هو الصاع بعينه وإنّما سُمّي مختوماً لأنّ الأمراء جعلت على أعلاه خاتماً مطبوعاً لئلاّ يُزاد فيه، ولا يُنتقص منه»(٢٤٣). والقفيز يساوي عشرين صاعاً، والمكوك يساوي صاعين ونصف(٢٤٤).

وتروي المصادر أنّ أحمال الحيوانات كانت تُستخدم كوحدات للكيل والوزن. وقد ورد في نقش معيني أنّ الضريبة التي كانت تؤخذ في ديدان على حمل حمار من المواد الغذائية تساوي صاعاً كاملاً. كما كانت الأوزان في تدمر تُحدّد بحمل جمل أو بحمل حمار عند دفع الضرائب الجمركية(٢٤٥).

وفي مناطق مختلفة من بلاد العرب عثر المنقّبون الأثريون على عدد من القطع التي تمثّل وحدات وزن من أحجام مختلفة وفئات متنوّعة. ففي ظفّار مثلاً عُثر في مدينة سمهرم على وحدة وزن معدنية، تزن ٦,٥ أرطال، نُقش عليها اسم إله حضرموت واسم الملك الحضرمي(٢٤٦). وعُثر في قرية الفاو على وحدة وزن مشابهة لهذه القطع، ولكنّها تزن أربع كيلوغرامات. كما عُثر فيها على وحدات وزن مشابهة لها، إلاّ أنّها ذات أحجام صغيرة(٢٤٧). وأشار بلينوس إلى أنّ رجال الدين في بلاد العرب كانوا يأخذون عشر المحصول وزناً(٢٤٨).

ووردت في بعض النقوش الأثرية ألفاظ، تدلّ على وجود هذه الأوزان مثل: مكت، ورضفا وهي تدلّ على تحديد أوزان المعادن كالفضّة والنحاس، ورضيم وهي أيضاً استُخدمت لتحديد أوزان المعادن، كما استخدمت كوحدة وزن(٢٤٩)؛ وعسيم وهي وحدة وزن خاصّة بالفضّة،

---

(٢٤٣) المصدر نفسه، ص٢٠٧.

(٢٤٤) المصدر نفسه، ص٢٠٩.

(٢٤٥) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٧٦.

(٢٤٦) المرجع نفسه، ص٢٧٥.

(٢٤٧) الأنصاري: قرية الفاو، ص٢٨.

(٢٤٨) Pliny: Natural history, Bk12, P47.

(٢٤٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص٦٢٣.

A.Jamme: Inscription from Mahram Bilquis, Ja (572/4) P59-60, Ja (608/6) P106, Ja (609/516) P107.

وكركر، وقنتن وهما وحدتا وزن، وبلطم وهي من العملات التي استُخدمت كوحدات وزن أيضاً[٢٥٠].

وكانت قريش في الجاهلية تزن الفضّة بوزن تُسمّيه درهماً، وتزن الذهب بوزن تسمّيه ديناراً، فكل عشرة من أوزان الدراهم سبعة أوزان الدنانير، وكانت لهم الأوقية، والرطل، والنش وهو نصف الوقية، وقد حوّلت الصاد شيناً، وكانت لهم النواة وهي وزن خمسة دراهم، وقيل النواة نواة التمر[٢٥١].

وعرف العرب قبل الإسلام أيضاً ضرائب التجارة وأنظمتها، وفرضوها على التجار المحليّين والتجار الآخرين. فكانت قريش تفرض الضرائب على التجار الأجانب الوافدين إلى مكّة، وعلى التجّار الصغار العرب غير المرتبطين بتحالف معها[٢٥٢]. ومن ذلك ضريبة العشر، فكانوا يعشرون من يدخل مكة من تجار الروم[٢٥٣]. وكانت حكومة تدمر تأخذ من التجار الّذين يمرّون في أراضيها ضرائب جمركية مُحدّدة[٢٥٤].

وقد شكّلت هذه الضرائب جزءاً هامّاً من خزينة الدولة. ونظراً لأهمية هذا الدخل، فقد سنّت الحكومات القوانين التي تُنظّم الأسواق وحركة البيع والشراء، والتي تُنظم نسب الضرائب والمكوس. وأولت اهتماماً خاصّاً بالطرق التجارية، وأقامت عليها مراكز ومحطّات جمركية، وقد ذكر بلينوس ٦٥ محطّة كانت موزّعة على الطريق التجاري الذي يصل الجنوب العربي بشماله[٢٥٥]. وكانت هذه الحكومات تُعيّن في الأسواق مراقبين نشطين، وجباة لجمع الضرائب من التجار المارين والمقيمين[٢٥٦]. كما كان الملوك يبعثون الرسل في

---

(٢٥٠) بيستون وآخرون: المعجم السبئي، ص٢١ و٩٠ و١٠٦.

Jamme: op.cit, P106-107.

(٢٥١) راجع صفحة ٢٣٨.

(٢٥٢) المسعودي: مروج الذهب. .، ج٢، ص٥٨.

(٢٥٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٣٩. الأزرقي: أخبار مكة. .، ج١، ص١٠٧.

(٢٥٤) صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم. .، ص٦١.

(٢٥٥) Pliny: Natural history, Bk12, P47.

(٢٥٦) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤.

الأسواق بحثاً عن منازل القبائل، ليحصّلوا منهم ما لهم عليهم من ضرائب[٢٥٧].

ولم تكن هذه الضرائب تُدفع نقداً فقط، بل تدفع عيناً أيضاً: ففي الجنوب العربي كانت الضرائب تُؤخذ عينية من محاصيل اللبان قبل أن يتمّ تصديرها. كما كانت الجالية المعينية في ديدان تدفع لكبيرها صاعاً عن كل حمل حمار من المواد الغذائية. وقدّمت جماعة من التجار المعينيين الذين كانوا يعيشون في خارج البلاد، عدداً من الإماء إلى معبد الآلهة في العاصمة قرناو[٢٥٨].

وتروي الأخيار أنّ الأتاوة في سوق عُكاظ كانت تدفع عيناً أيضاً. فقبيلة هوازن كانت تُقدّم إلى زهير بن جذيمة العبسي الغطفاني الإتاوة سمناً وغنماً وجبناً. وقبيلة الأزد كانت تدفع إتاوة إلى عبد الله بن جعدة أمتعة وسلعاً[٢٥٩].

ويشير بلينوس إلى أنّ هناك ضرائب كانت تُدفع للمعابد وأخرى للملوك، عن طريق إقامة الولائم والمشاريع الدينية أو الحكومية[٢٦٠].

---

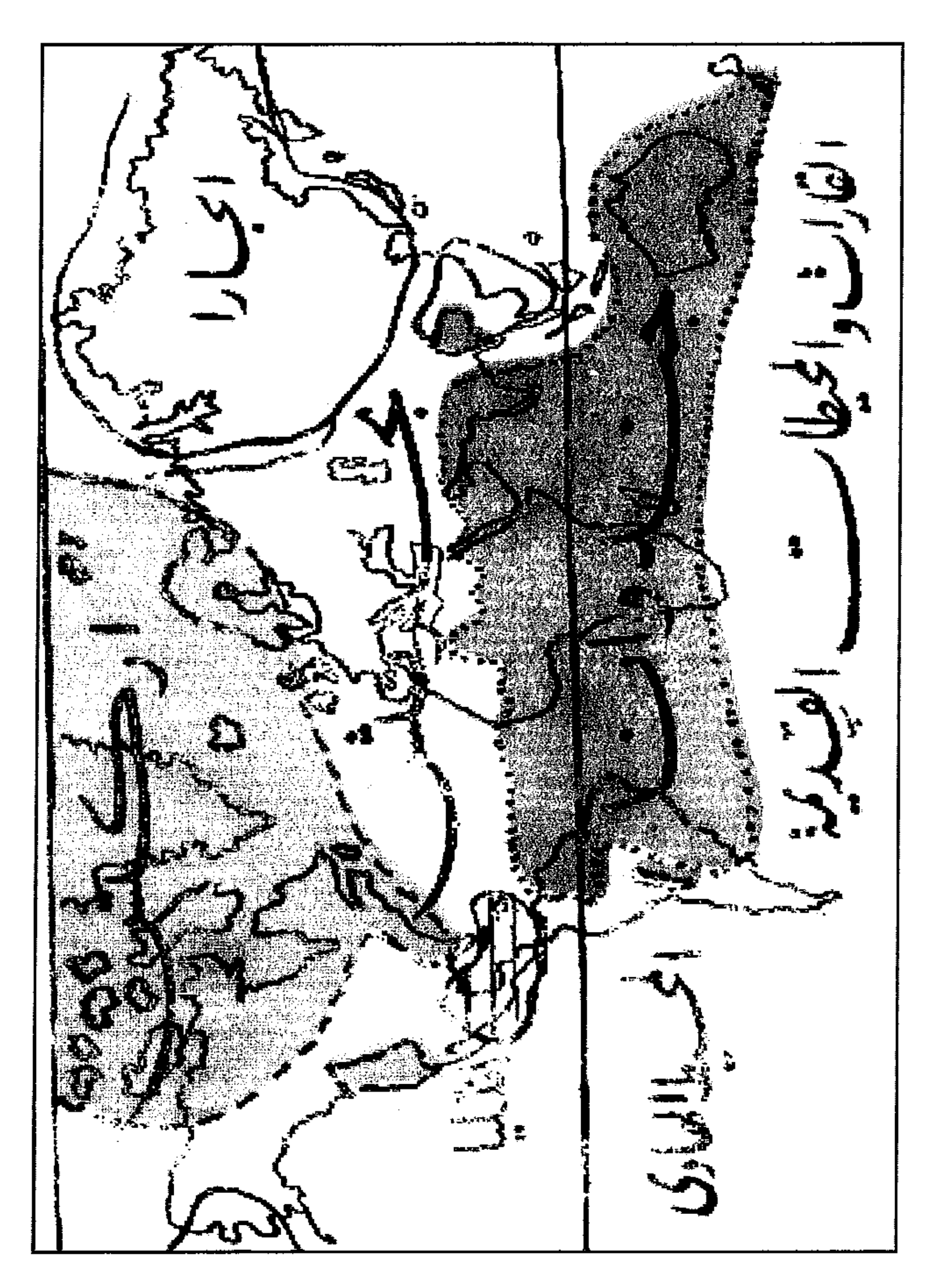
(٢٥٧) عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص٥٥.

(٢٥٨) نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٢٧٤.

(٢٥٩) عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، ص١١٤ ـ ١١٥.

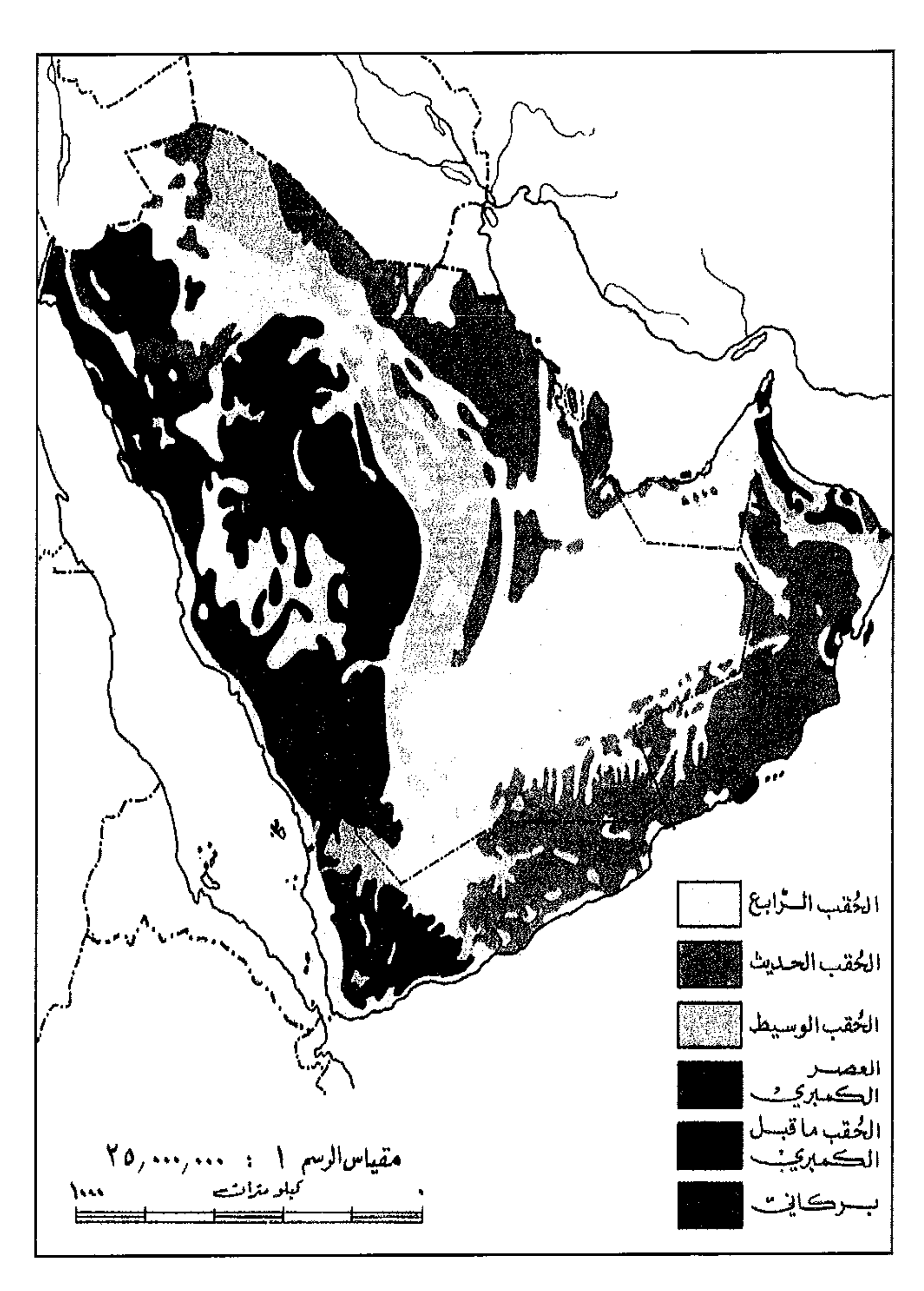
(٢٦٠) Pliny: Natural history, B12, P47.

ملاحق الكتاب



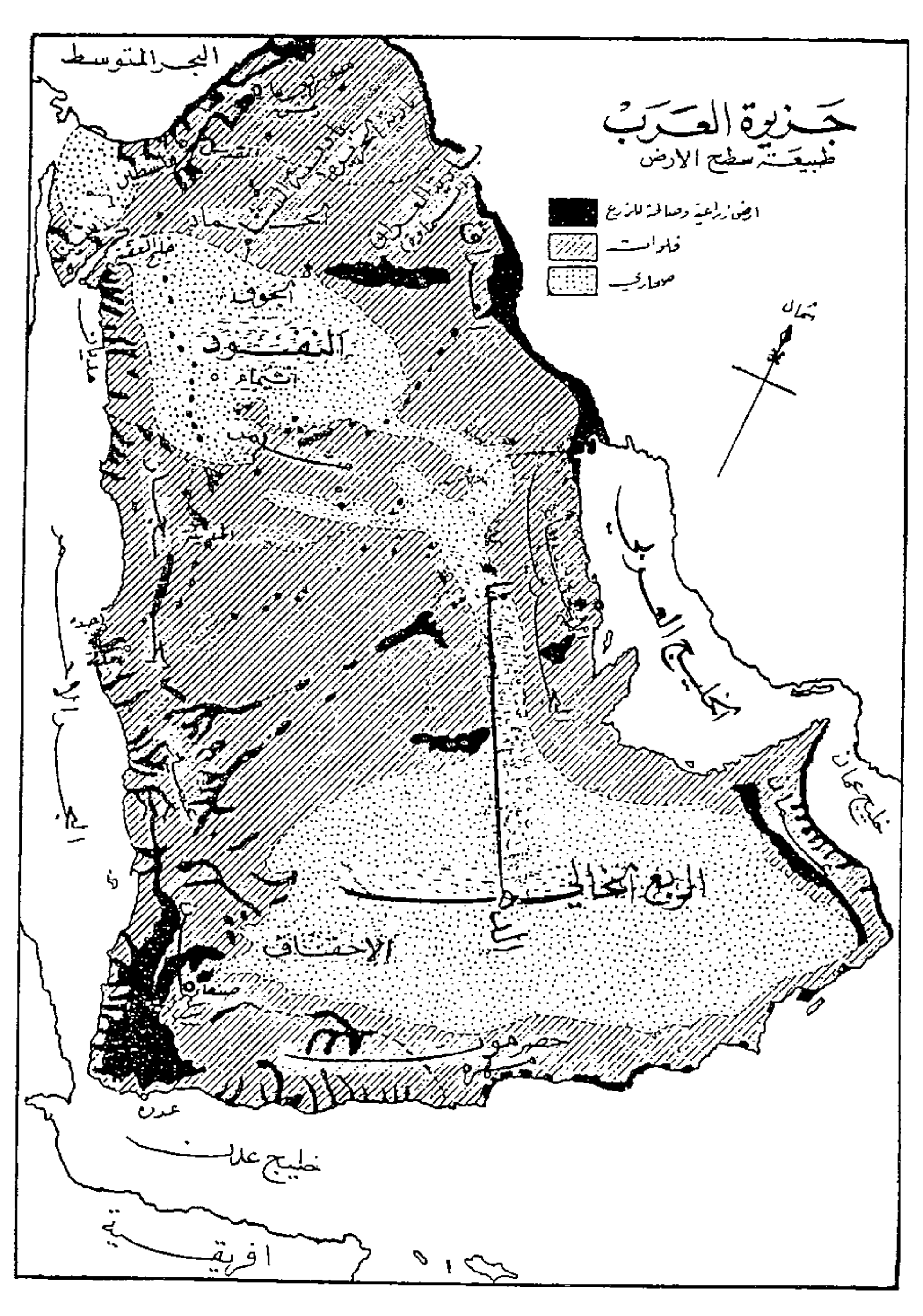
الموقع الطبيعي لشبه الجزيرة العربية من قارات العالم القديم

ـ محمد أحمد الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٢٧٩.



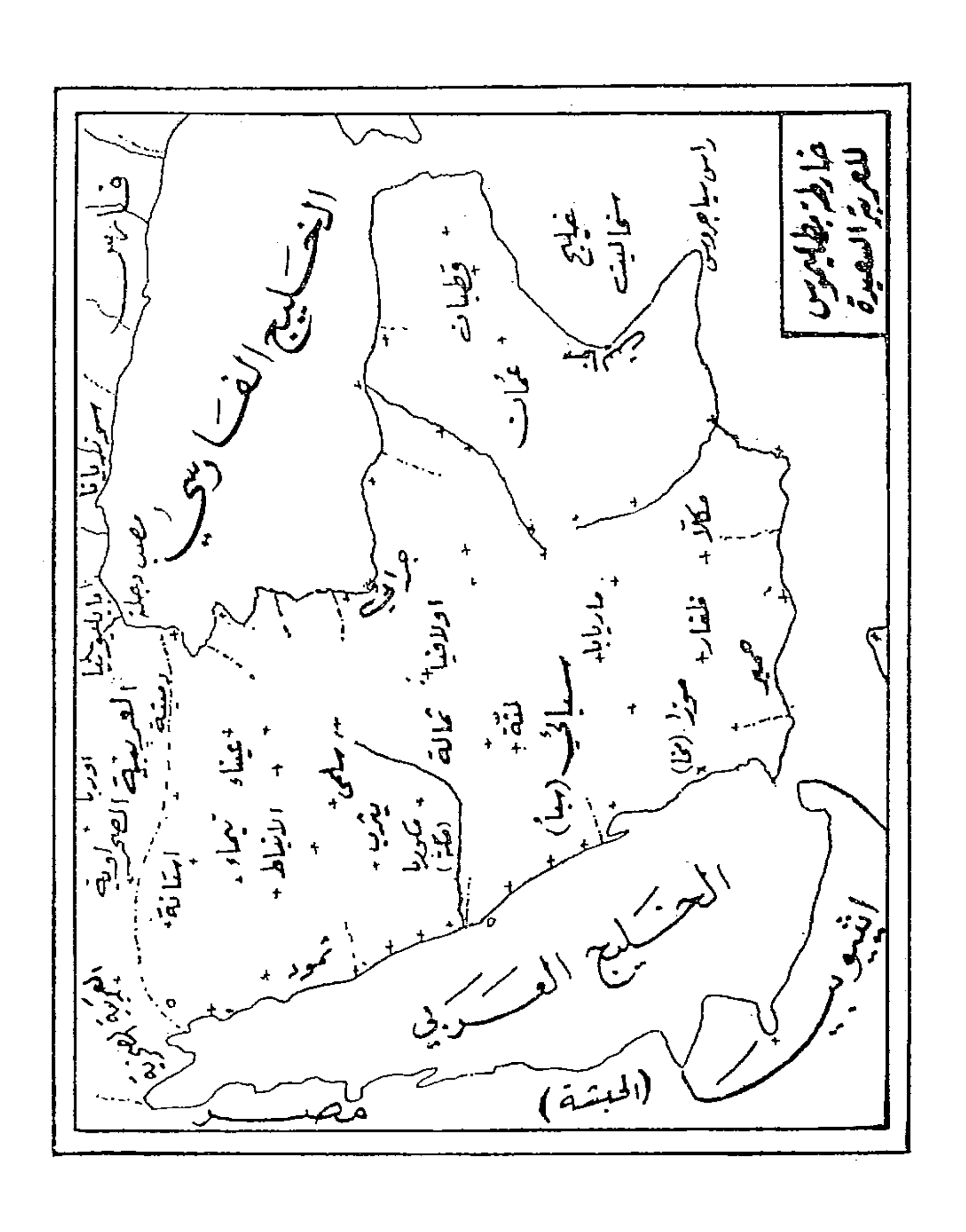
التطور الجيولوجي لتكوين الأراضي في شبه الجزيرة العربية

- محمد أحمد الرويثي: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، ص٢٨٠.



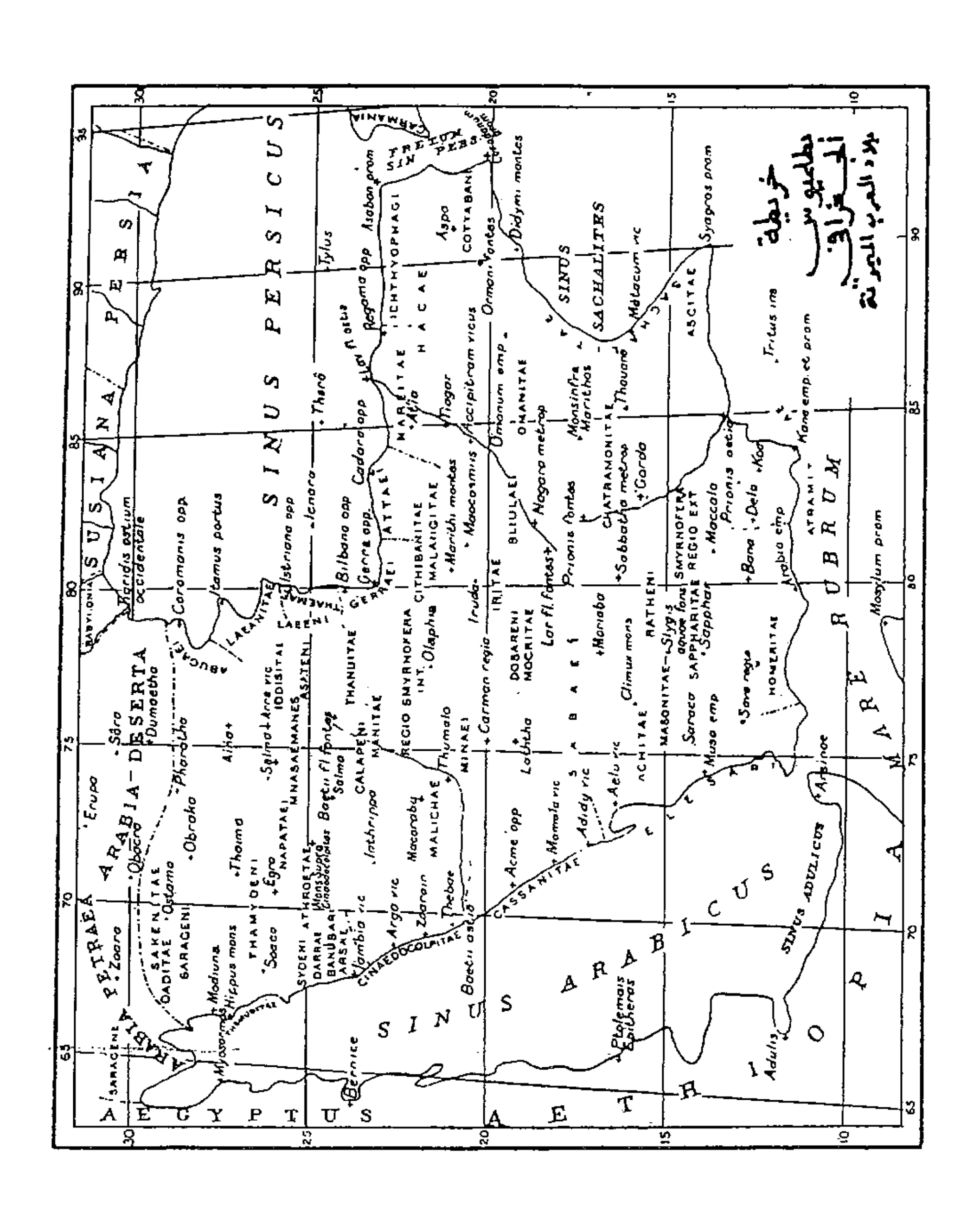
جزيرة العرب: طبيعة سطح الأرض

- حتي وآخران: تاريخ العرب، ص٤٢.



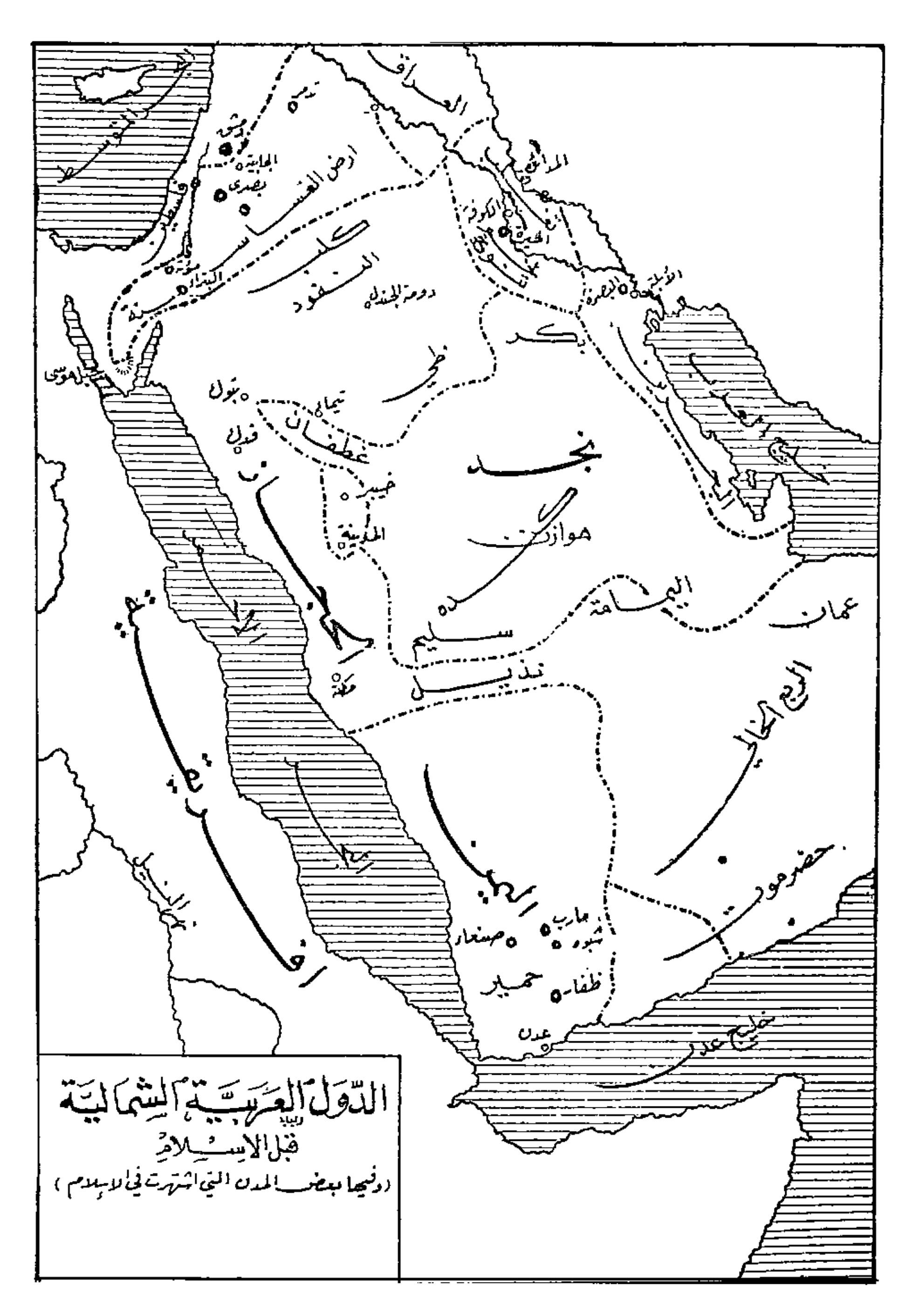
خريطة بطليموس للعربية السعيدة باللغة العربية

- حتي وآخران: تاريخ العرب، ص٨٠.



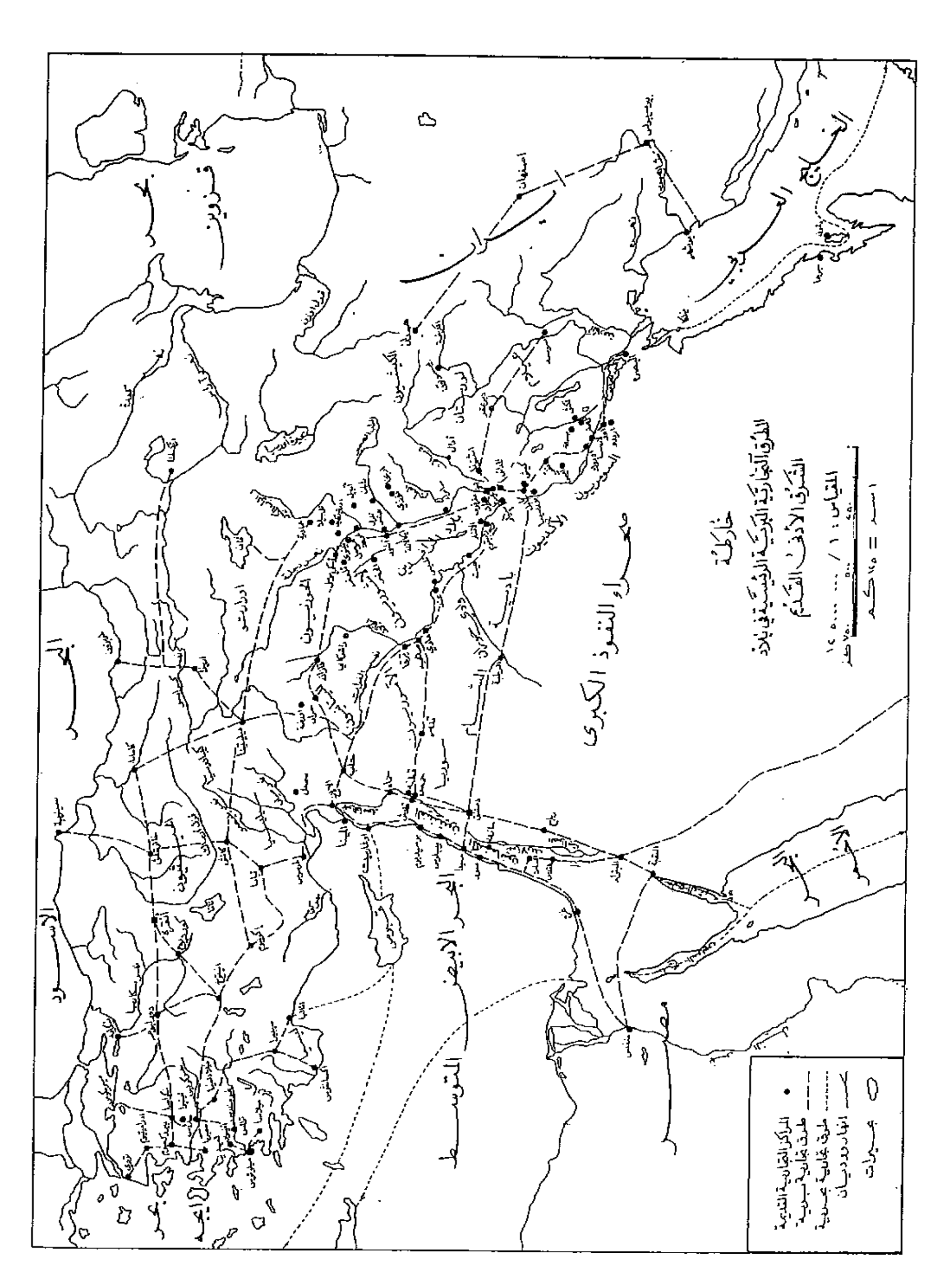
خريطة بطليموس للعربية السعيدة باللغة الأجنبية

ـ لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة. و ص٤٧٦ ـ ٤٧٧.



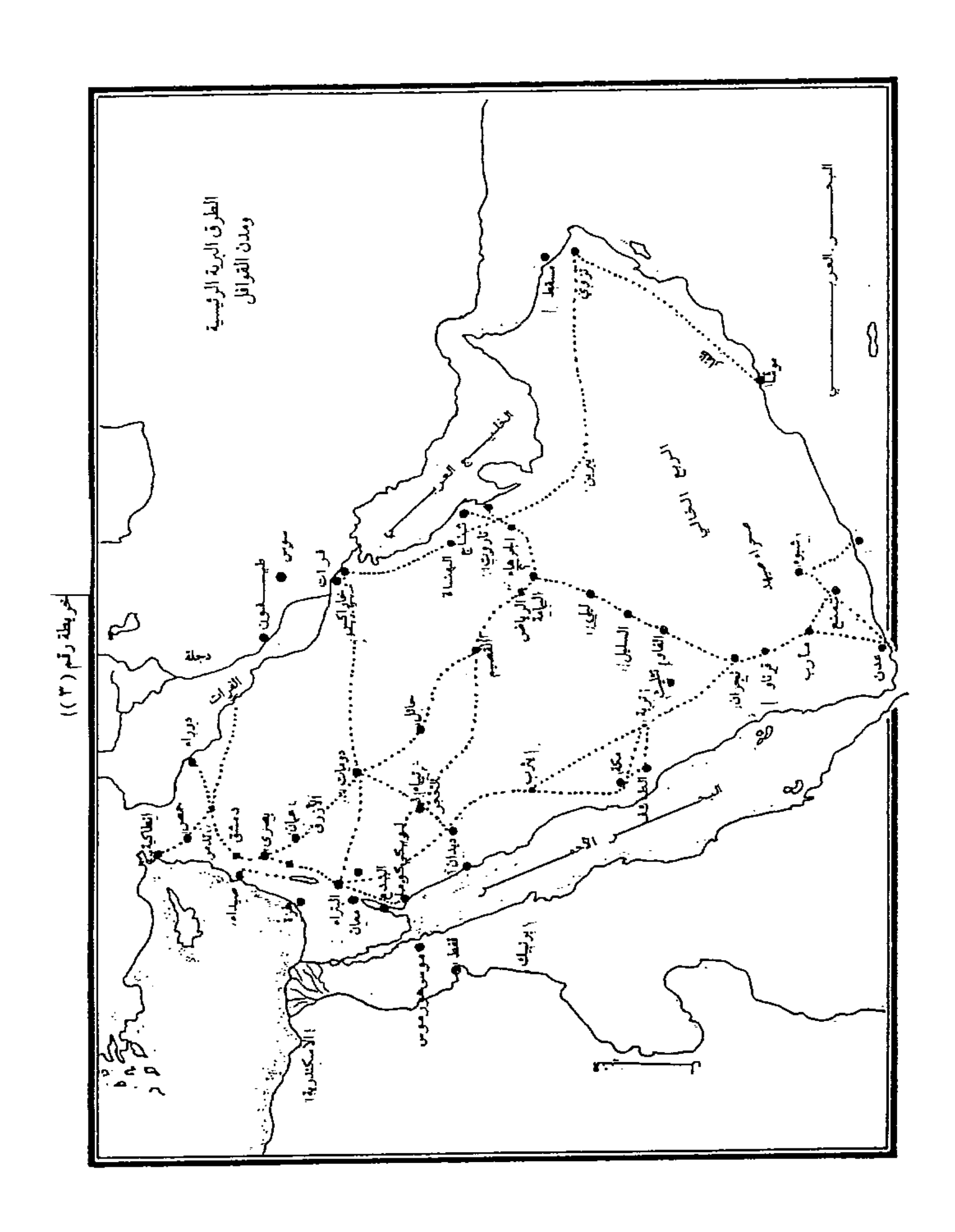
الدول العربية الشمالية قبل الإسلام

ـ فيليب حتّي وآخران: تاريخ العرب، ص١٠٦.



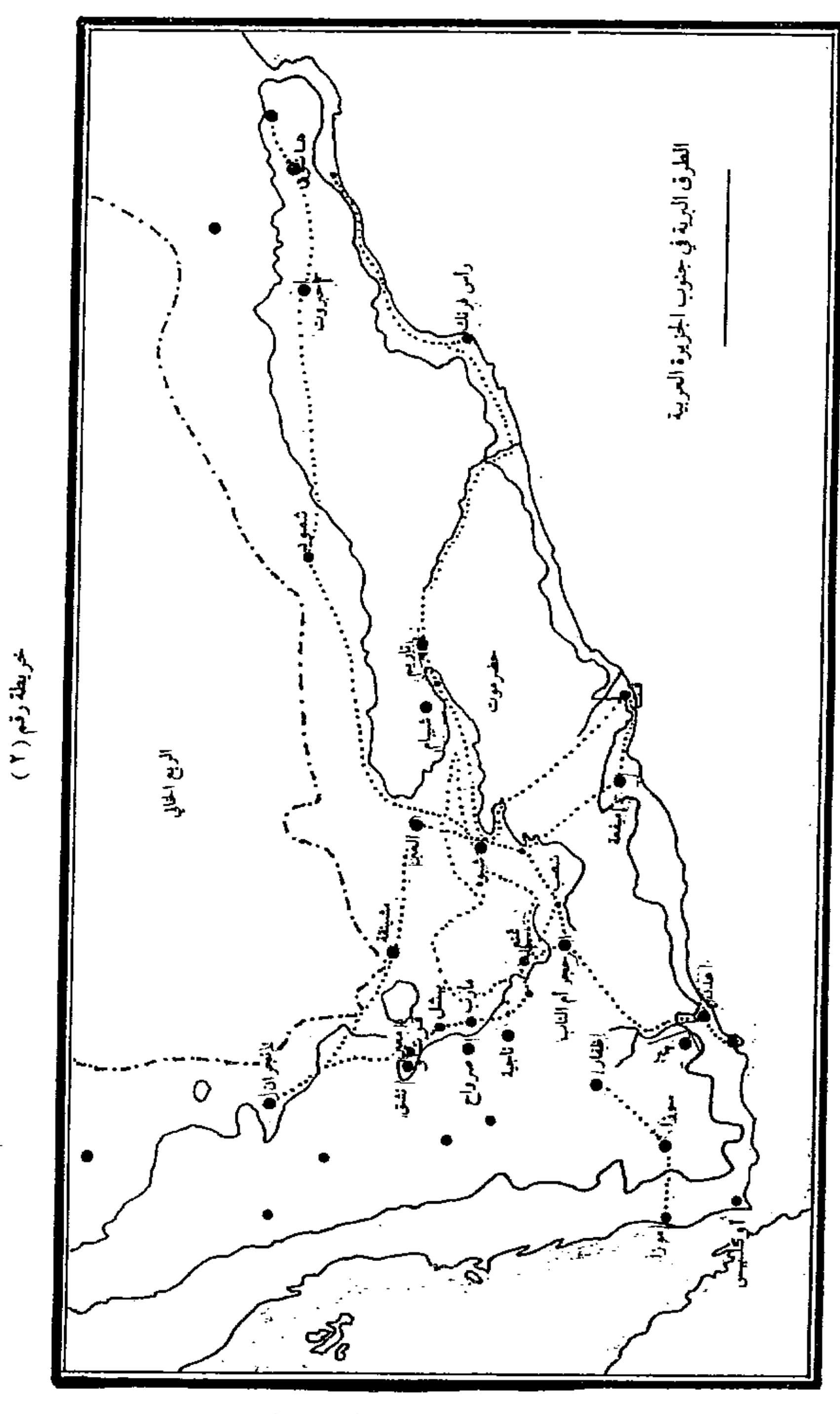
خريطة المراكز التجارية القديمة والطرق البرية والبحرية التابعة لها

ـ مكتب التربية العربي لمنطقة الخليج: الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربيو ص١٧.



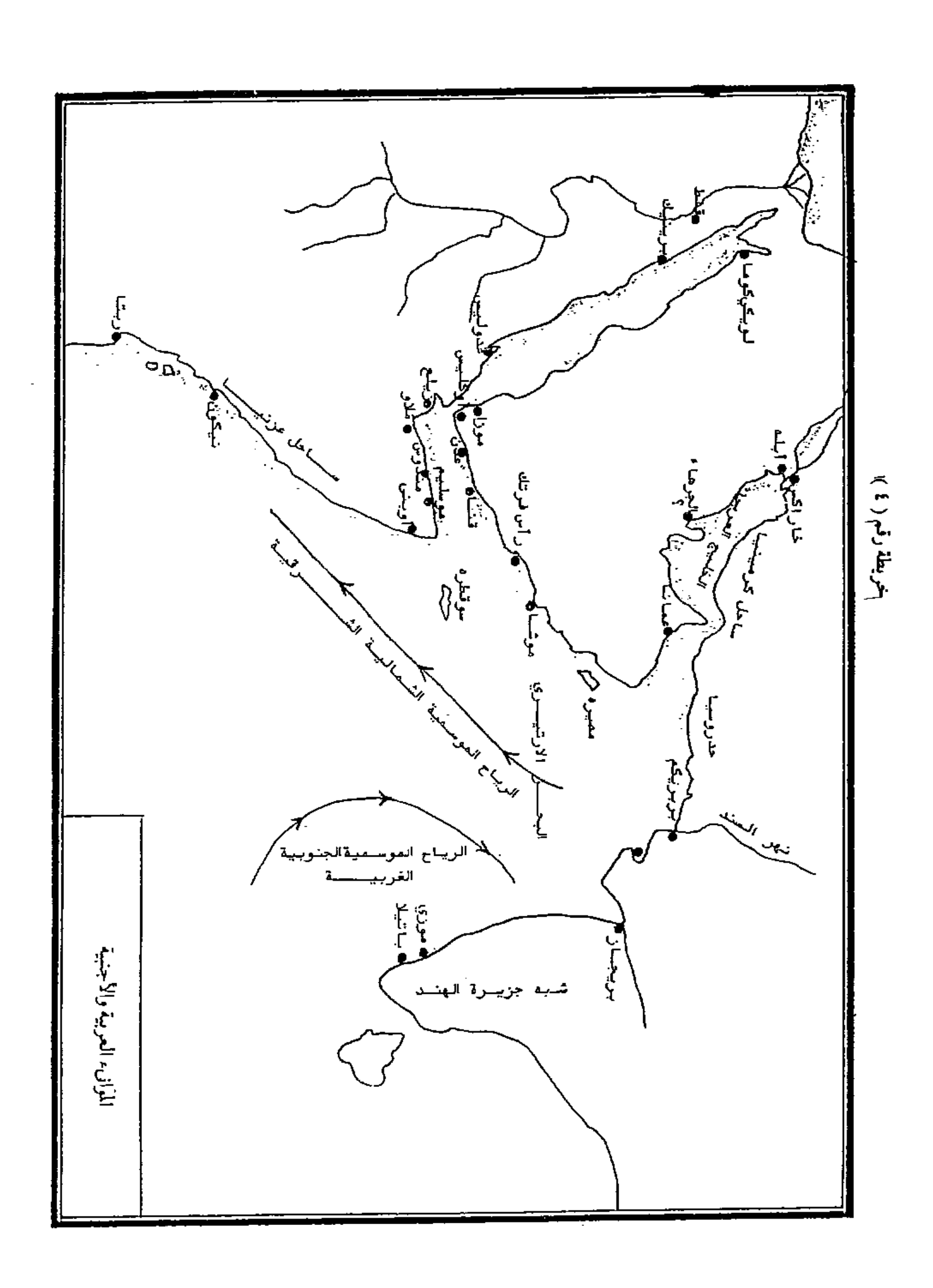
الطرق البرية الرئيسية ومدن القوافل

- نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٣٢٤.



الطرق البرية في جنوب شبه الجزيرة العربية

ـ نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٣٢٣.

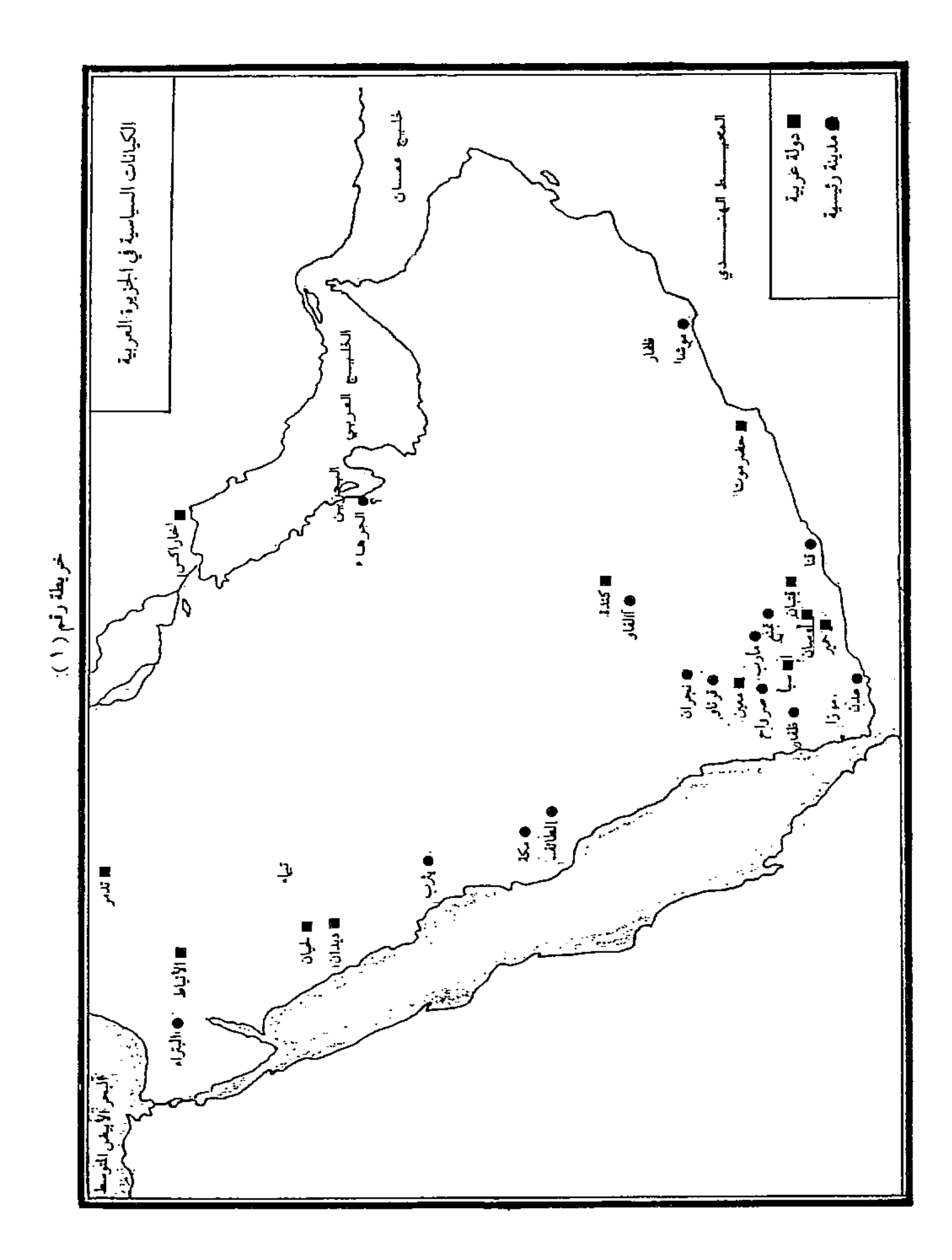


الموانىء العربية والأجنبية

ـ نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٣٢٥.

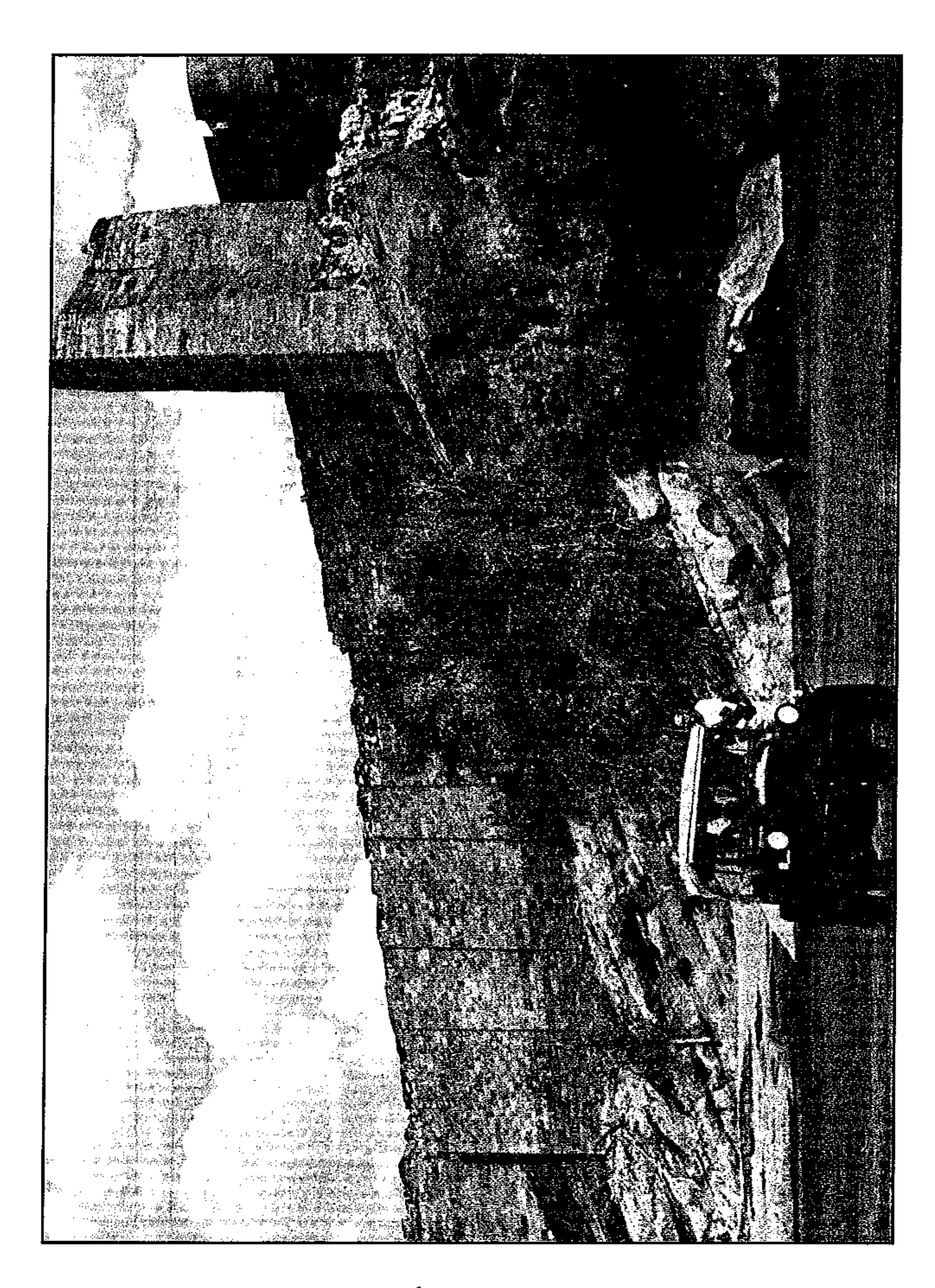
خطوط التجارة البحرية في العصر اليوناني الروماني

ـ لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة. . ، ص٤٧٩.



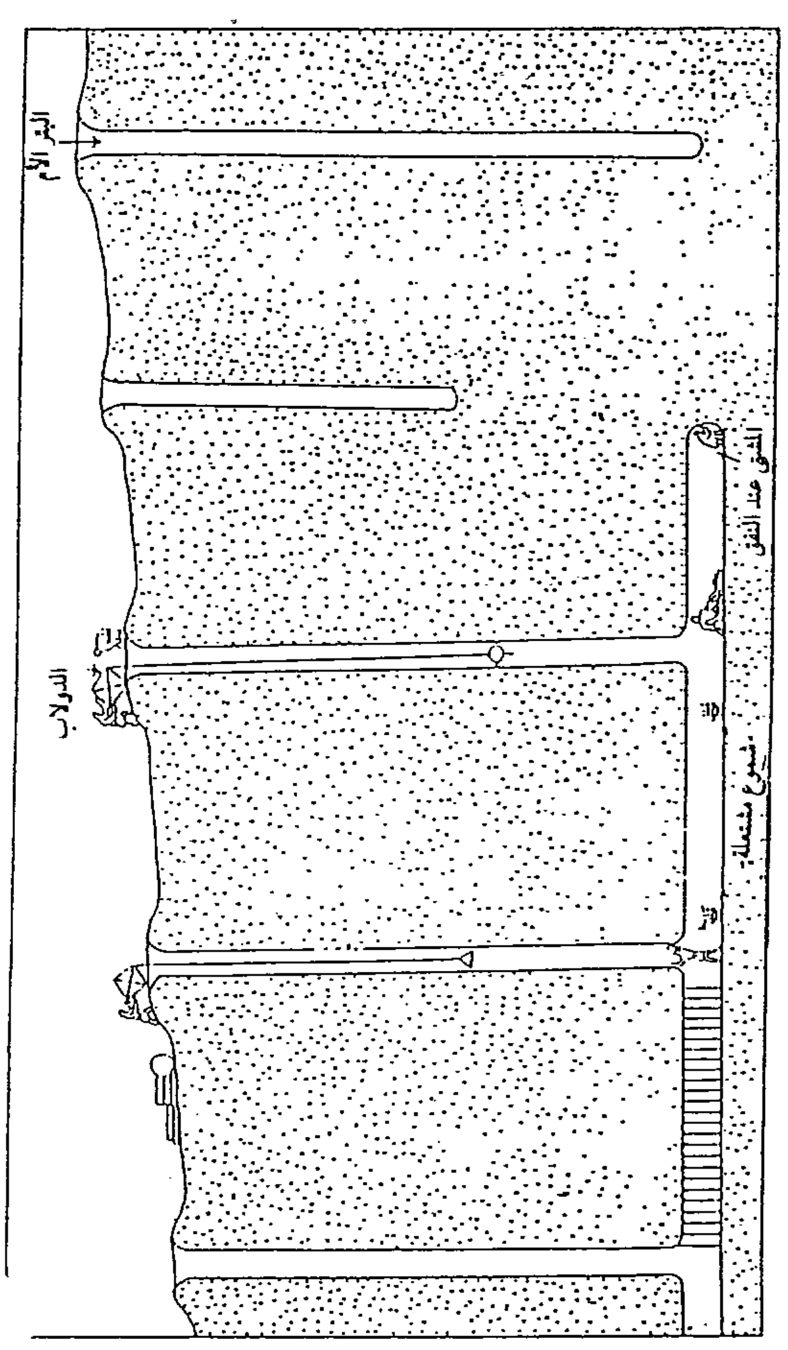
الكيانات السياسية في شبه الجزيرة العربية

- نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٣٢٢.



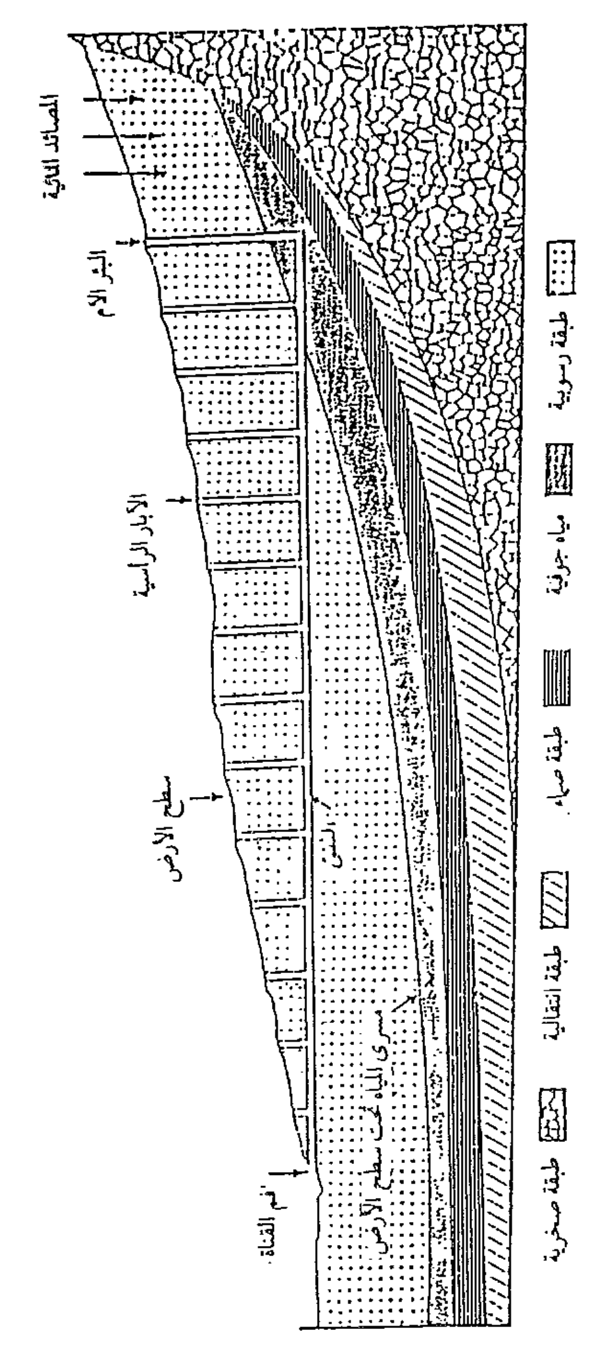
قسم من سد مأرب

ـ لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة. . ، ص٤٨٨.



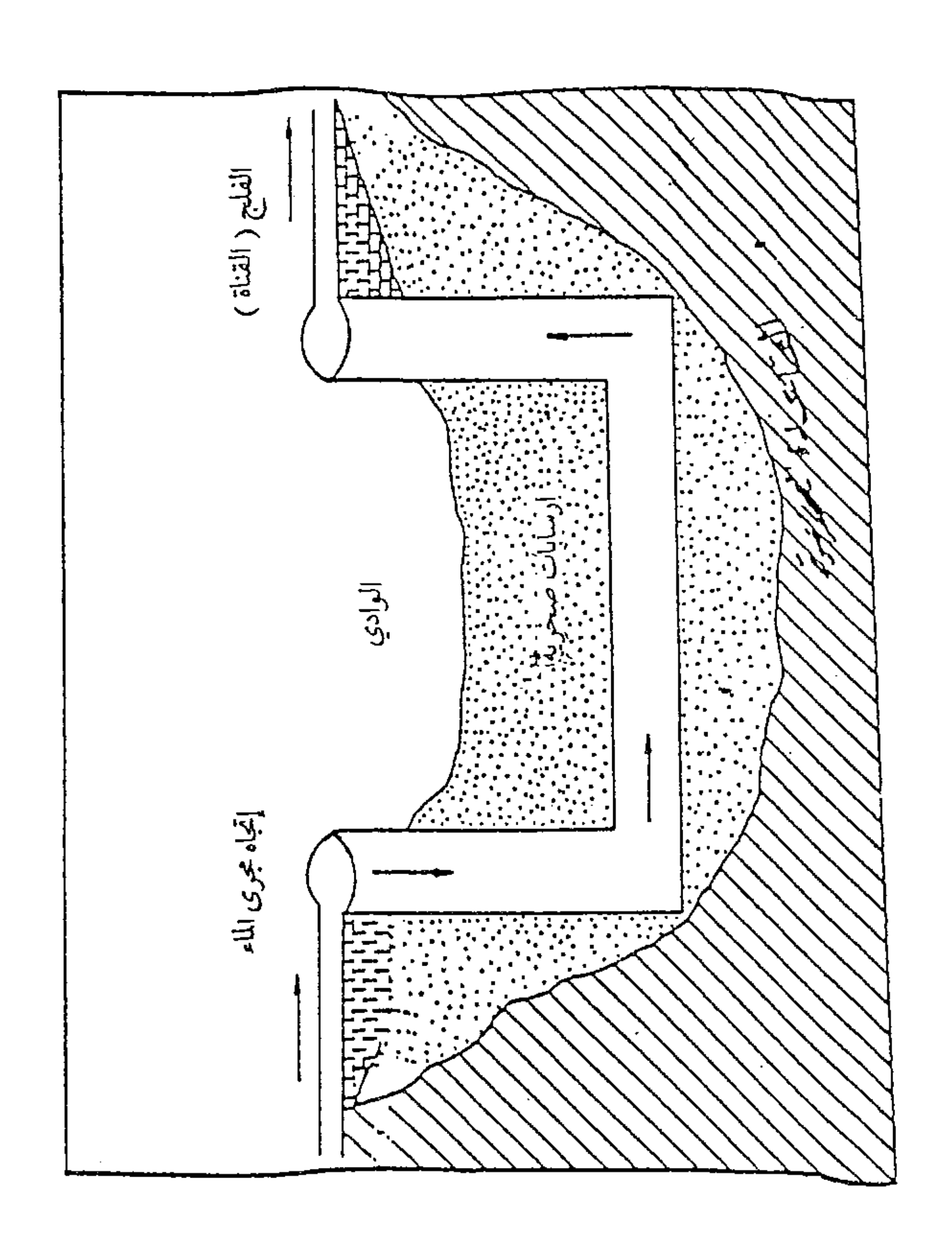
مخطط يوضح طريقة حفر القناة وقد بدأ العمل من نقطة مخرجها إلى سطح الأرض في اتجاه البئر الأم التي سبق حفرها في مكان تتوفر فيه المياه تحت سطح الأرض

ـ نصيف، عبد الله، القنوات والنظام الزراعي في المدينة، العصور، ص٢١٠.



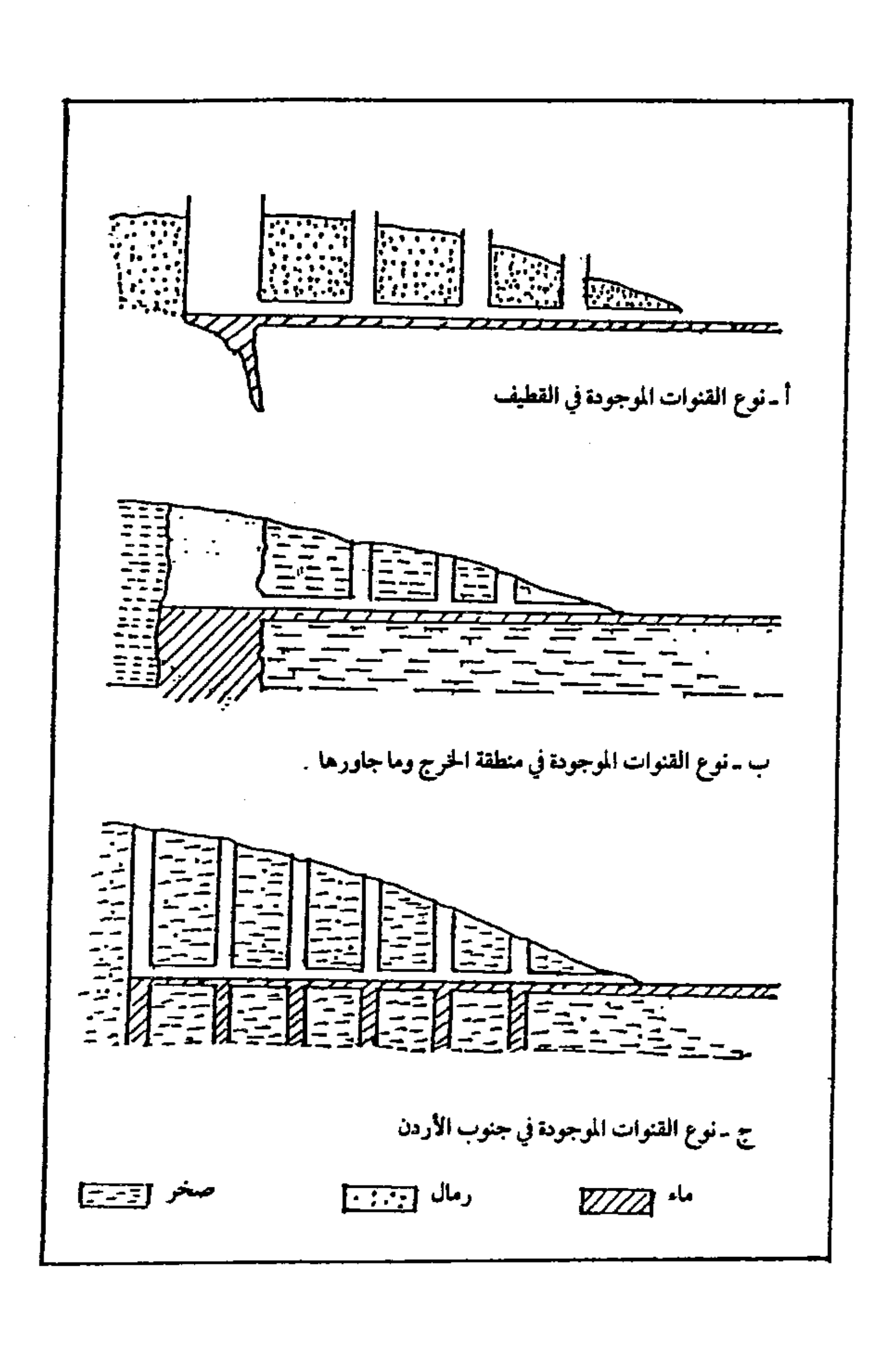
مخطط يوضح كيفية جلب الماء المحفوظ تحت سطح الأرض ليجري على وجه الأرض في موقع آخر أقل ارتفاعاً

نصيف، عبد الله، القنوات والنظام الزراعي في المدينة، العصور، ص٢٠٩.



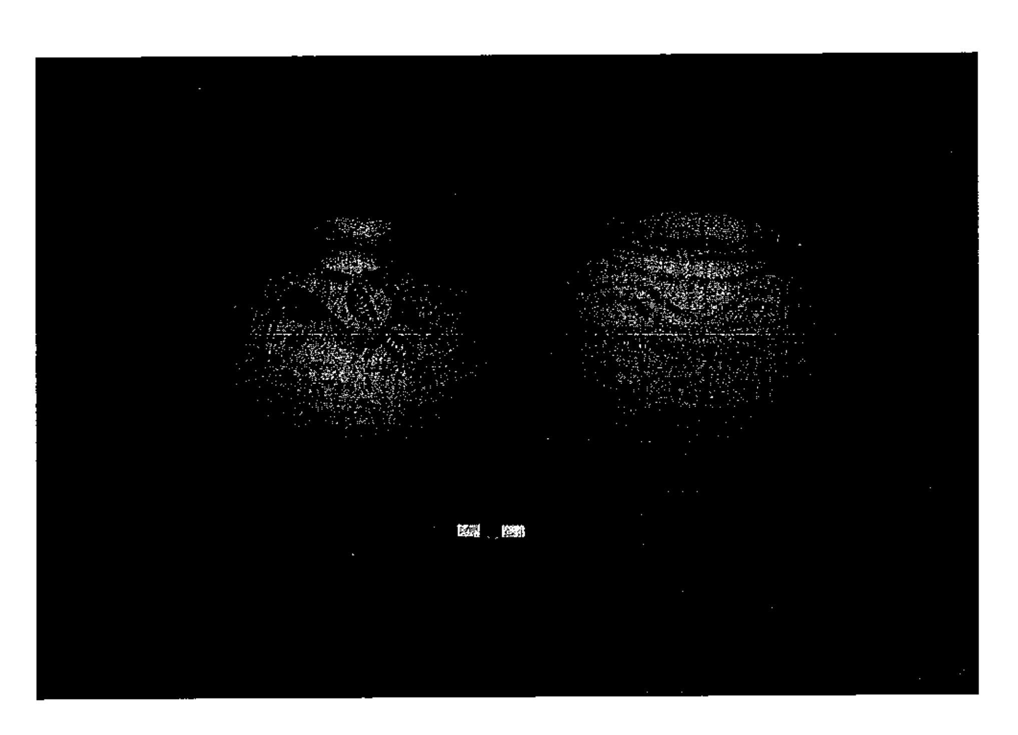
طريقة السيفون لحماية القناة من السيول عند عبورها للوادي

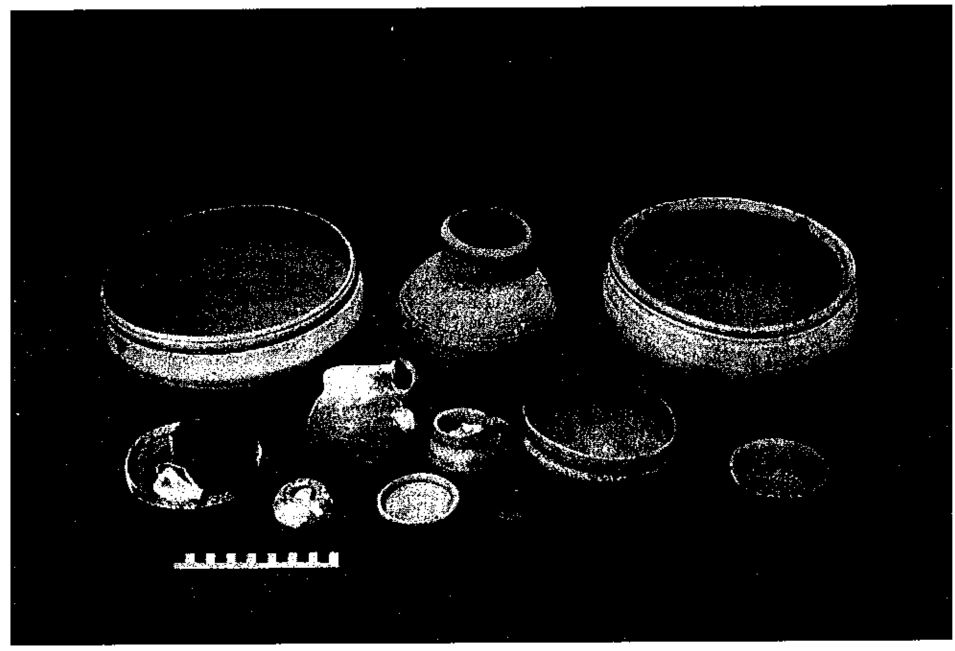
ـ نقلاً عن نصيف، عبد الله، القنوات والنظام الزراعي في المدينة، العصور، ص٢١١.



نماذج من أنواع القنوات

ـ نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، ص٣٣١.





أواني فخارية

ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج: الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، ص٣٠ و١٨٥.



تماثيل فخارية





عملة نبطية

نماذج لعملة عربية قديمة

ـ لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة..، ص٤٦٤.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية:

- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني: الكامل في التاريخ، دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الشعب، القاهرة ١٢٨٠هـ.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد: رحلة ابن بطوطة، بيروت.
- ابن ثابت، حسان: ديوان حسّان بن ثابت، تحقيق الدكتور سيّد حنفي حسنين.
- ابن حبيب، أبو جعفر محمد: المحبّر باعتناء ايلزه ليختن شتيتر، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لا تاريخ.
- ابن حبيب، أبو جعفر محمد: المنمّق، تحقيق خورشيد فاروق، حيدر آباد ١٣٨٤هـ.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد: جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليڤي بروڤنسال، دار المعارف، مصر ١٩٤٨.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي البغدادي: كتاب صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن ١٩٣٨.
- ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الأعلمي للطباعة، بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله: المسالك والممالك، باعتناء دي غوية، مطبعة بريل، ليدن ١٨٨٩.

- أبو درك، حامد: مقدّمة عن آثار تيماء، مطبوعات الإدارة العامّة للآثار والمتاحف الرياض ١٩٨٦.
- ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر: الأعلاق النفيسة، باعتناء دي غوية، مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع: الطبقات الكبرى، باعتناء أوجين متوخ، دار صادر، بيروت ١٩٥٧.
- ابن سلام، أبو عبيد القاسم: الأموال، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت تشرين الثاني ١٩٨١.
- ابن سيدة، أبو حسن علي بن إسماعيل: المخصّص، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت لا تاريخ.
- ابن شبّة، أبو زيد عمر: تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار التراث، بيروت ١٩٩٠.
- ابن شداد عنترة: ديوان عنترة بن شداد، دار صادر، بيروت ١٩٥٨.
- ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق سعيد العريان، طبعة مصر، القاهرة ١٣٧٠هـ.
- ابن العبد، طرفة: ديوان طرفة بن العبد، تحقيق علي الجندي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة ١٩٥٨.
- ابن الفقيه، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهَمَذَاني: كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، دار عالم الكتاب، بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم: كتاب الأنواء، حيدر آباد الدكن ١٩٥٦.
- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم: كتاب المعارف، تحقيق ثروة عكاشة، دار الكتب بمصر، القاهرة ١٩٦٠.
- ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، الطبعة الثامنة، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل: قصص الأنبياء، تحقيق لجنة من العلماء، طبعة ثامنة، دار القلم، بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل: البداية والنهاية، دار مكتبة المعارف، بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- ابن الكلبي: هشام بن محمد بن السائب: كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٤.
- ابن ماسوية، يحيى: كتاب الجواهر وصفاتها، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧.
- ابن المجاور، أبو الفتح جمال الدين بن يعقوب: صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز، المسماة بتاريخ المستبصر، اعتنى بطبعه أوسكر لونغرين، مطبعة بريل، ليدن ١٩٥١.
- ابن منبّه، وهب: كتاب التيجان في ملوك حِمْيَر حيدر آباد ـ الدكن، الهند ١٣٤٧هـ.
- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لا تاريخ.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، المطبعة الأولى والثانية، ١٩٣٦، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.
- ابن الورد، عروة: ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت، تحقيق عبد المعين ملوحي، دمشق ١٩٦٦.
- أبو العلاء، محمود طه: جغرافية شبه الجزيرة العربية، نشر مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٢، ونشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٧.
- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن محمود: تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس ١٨٤٠م.
- الأرياني، مطهر: في تاريخ اليمن، شرح وتعليق علي نقوش، طباعة مصر، القاهرة ١٩٧٣.
- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، بيروت ١٩٦٤.
- الأصبهاني، أبو الفرج: الأغاني، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، لا تاريخ.
- الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي: كتاب المسالك والممالك، طبعة بريل، ليدن ١٩٢٧، وطبعة مصر، القاهرة ١٩٦١.

- الأصفهاني، حمزة بن الحسن: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، دار مكتبة الحياة، بيروت، لا تاريخ.
- الأصفهاني، الحسن بن عبد الله: بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العالي، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٨هـ.
- الأصمعي، أبو سعيد بن عبد الملك بن قريب: كتاب النبات، تحقيق عبد الله بن يوسف الغنيم، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٢.
- الأعشى الكبير، ميمون بن قيس: ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق الدكتور محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر ١٩٥٠.
- الأفريقي، أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسي المغربي: الأزمنة والأنواء، تحقيق الدكتور غزة حسن، دمشق ١٩٦٤.
- الأفغاني، سعيد: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.
- الأكوع، محمد علي: اليمن الخضراء، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٧١.
- الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، باعتناء محمد بهجت الأثري، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٢٤م/ ١٣٤٢هـ.
- الأنصاري، عبد الرحمٰن الطيب: قرية الفاو، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، جامعة الرياض، الرياض ١٩٨٢.
- الأنصاري، عبد الرحمٰن الطيب: أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، مطابع الجامعة، الرياض ١٩٧٩.
- الأنصاري، عبد الرحمٰن الطيب وأحمد حسن غزال وجيفري كنج: مواقع أثرية وصور من حضارة العرب، قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٤هـ.
- باقر، طه: علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب، سومر ١٩٤٩.
- البستاني، المعلم بطرس: دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، لا تاريخ.
- البكري، عبد الله بن عبد العزيز: معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ١٩٤٧.
- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر: أنساب الأشراف، تحقيق حميد الله، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٩.

- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر: فتوح البلدان باعتناء دي غوية، مطبعة بريل، ليدن ١٨٦٦، وطبعة بيروت، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨.
- بلياييف، أ. ي.: العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى، ترجمة أنيس فريحة، الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٧٣.
- البني، عدنان: تدمر والتدمريون، نشر وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨.
- بيرين، جاكلين: اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، بيروت ١٩٦٣.
- بيستون، أ. ف. وآخرون: المعجم السبئي، منشورات جامعة صنعاء، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٢.
- بيهم، محمد جميل: دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل، بيروت ١٩٧٤.
- توفيق، محمد: آثار معين في جوف اليمن، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥١.
- توينبي، أرنولد: تاريخ البشرية، ترجمة الدكتور نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨١.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: التبصّر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب، دمشق لا تاريخ.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: كتاب الحيوان، مطبعة البابي بمصر، القاهرة، لا تاريخ.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: البيان والتبيين، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: رسائل الجاحظ، جمع السندوبي، المطبعة الرحمانية بمصر، القاهرة ١٩٣٣.
- الجاسر، حمد: في شمال غرب الجزيرة العربية، دار اليمامة، الرياض ١٩٧٠.
- الجاسر، حمد: بلاد ينبع، دار اليمامة، الرياض، لا تاريخ.
- الجاسر، حمد: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، المنطقة الشرقية، دار اليمامة، الرياض ١٩٧٩.
- الجاسر، حمد: مدينة الرياض، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٦هـ.

- الجاسر، حمد: أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- الجاسر، حمد: في سراة غامد وزهران، دار اليمامة، الرياض ١٩٧٧.
- الجلالين: تفسير القرآن الكريم، دار مكتبة الملاح، دمشق، ودار المعرفة، بيروت لا تاريخ.
- الجواليقي، أبو منصور موهوب بن أحمد: كتاب المعرّب، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، طبعة مصر، القاهرة ١٩٦٩.
- حتى، فيليب وأدورد جرجي وجبرائيل جبور: تاريخ العرب، الطبعة الخامسة، دار غندور، بيروت ١٩٧٤.
- الحربي، إبراهيم بن إسحاق: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الحج، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٩هـ.
- حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الطبعة السابعة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٤.
- حمزة، فؤاد: قلب جزيرة العرب، الرياض ١٩٦٨.
- حمّور، عرفان محمد: أسواق العرب، الطبعة الثانية، دار الشورى، بيروت ١٩٨١.
- الحوي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- حوراني، فضلو: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨.
- دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية: محمد ثابت الفندي، أحمد السنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس.
- دراز، عمر عبد الحميد: المراعي ووسائل تحسينها في المملكة العربية السعودية، مطابع الرياض، الرياض ١٣٨٥هـ.
- الدمياطي، محمود مصطفى: معجم أسماء النباتات الواردة في تاج العروس للزبيدي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٥.
- ديسو، رينيه: العرب في سورية قبل الإسلام ترجمة عبد الحميد الدواخلي، طبعة مصر، القاهرة ١٩٥٩.

- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود: كتاب النبات، باعتناء محمد خير الله، نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٧٣، وطبعة بريل، ليدن ١٩٥٢.
- ديورانت، وِل: قصّة الحضارة: الجزء الثاني: الشرق الأدنى، ترجمة محمد بدران، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٥.
- الرازي، الفخر: التفسير الكبير، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، طهران، لا تاريخ.
- الرشيد، ناصر بن الرشيد: سوق عكاظ، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م (لم يذكر دار النشر ولا مكان الطباعة في هذا الكتاب).
- رضا، فؤاد علي: أمّ القرى: مكّة المكرّمة، دار المعارف، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الرويثي، محمد أحمد: الشخصية الجغرافية للمملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، دار الواحة العربية، المدينة المنوّرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- رياض، محمد: الإنسان، دراسة في النوع والحضارة، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢.
- الزبيدي، محب الدين أبي الفيض محمد بن مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، مصر ١٣٠٦هـ.
- الزبيدي، محب الدين أبي الفيض محمد بن مرتضى الحسيني: شرح القاوس، المطبعة الخيرية، مصر ١٣٠٦هـ.
- زلوم، عبد القديم: الأموال في دولة الخلافة، دار العلم للملايين، بيروت، نيسان ١٩٨٣.
- زياد، نقولا: دليل البحر الأرتيري وتجارة الجزيرة العربية، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٤هـ.
- زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام، دار مكتبة الحياة، بيروت، لا تاريخ.
- زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لا تاريخ.
- سالم، عبد العزيز: تاريخ العرب في العصر الجاهلي، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٩.
- سالم، عبد العزيز: تاريخ الدولة العربية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦.

- السفير، صحيفة لبنانية يومية.
- السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين: شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الطبعة المصرية، القاهرة ١٩٦٥.
- سلطان، غانم: الملاحة البحرية وأهميّتها للكويت قديماً وحديثاً، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت ١٩٨٨.
- السلمي، عرام بن الأصبغ: كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة أمين عبد الرحمٰن، القاهرة ١٣٧٣هـ.
- السمهودي، جمال الدين أبي المحاسن عبد الله شهاب الدين: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة ١٣٢٦هـ.
- سوسة، أحمد: حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، بغداد، لا تاريخ.
- شاكر، محمود: شبه جزيرة العرب ـ عسير، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٧٦.
- شرف الدين، أحمد حسين: اللغة العربية قبل الإسلام، طبعة ثانية، مطابع الفرزدق، الرياض ١٩٨٥.
- شرف الدين، أحمد حسين: تاريخ اليمن الثقافي، مطبعة الكيلاني الصغير، القاهرة ١٩٦٧.
- الشريف، إبراهيم: مكّة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٥.
- شهاب، حسن صالح: أضواء على تاريخ اليمن البحري، الطبعة الثانية، دار العودة، بيروت ١٩٨١.
- شهاب، حسن صالح: فن الملاحة عند العرب، دار العودة، بيروت ١٩٨٢.
- صحيح البخاري بشرح الكرماني، المطبعة البهية المصرية، القاهرة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٢.
- ظاظا، حسن: الساميون ولغاتهم، طبعة مصر، القاهرة ١٩٧١.
- عاقل، نبيه: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت ١٩٧٥.

- عبد العليم، مصطفى كمال: هيرودوت يتحدّث عن العرب وبلادهم ـ العصور، دار المريخ، لندن، الرياض ١٩٨٧.
- عبد النعيم، محمد: آثار ما قبل التاريخ وفجره في المملكة العربية السعودية، ترجمة عبد الرحيم محمد خبير، مؤسسة جريسي للتوزيع والإعلان، الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- عزّام، عبد الوهاب: مهد العرب، طبعة مصر، القاهرة ١٩٤٦.
- علي، جواد: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت.
- علي، جواد: مصطلحات الزراعة والريّ في كتابات المسند مجلّة المجمع العلمي العراقي، المعهد العلمي العراقي، بغداد، م٣٦، ج٢، سنة ١٤٠٥هـ.
- العلي، صالح أحمد: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠٠٠.
- العقيلي، محمد بن أحمد عيسى: تاريخ المخلاف السليماني، مطابع الرياض، الرياض ١٣٧٨هـ.
- عنان، زيد بن علي: تاريخ حضارة اليمن القديم، المطبعة السلفية، القاهرة ١٢٩٦هـ.
- العيني، بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد: عمدة القارىء في شرح صحيح البخاري: إستانبول ١٣٠٨هـ.
- الغنيم، عبد الله يوسف: جزيرة العرب في كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري، دار ذات السلاسل، الكويت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- فاروق، أحمد: دباغة الجلود وتجارتها عند العرب في مستهل الإسلام، دار اليمامة، الرياض ١٣٩٦هـ.
- فروخ، عمر: تاريخ الجاهلية، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤.
- الفيروز آبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، طبعة مصر، القاهرة ١٩٥٢.
- فيليبس، ويندل: كنوز مدينة بلقيس، ترجمة عمر الديراوي، بيروت ١٩٦١.
- القرآن الكريم.

- القزويني، زكريا بن محمد: آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة فردينان وستنفيلد، ليدن ١٨٤٨ (نسخة محفوظة بمكتبة الجامعة الأميركية في بيروت).
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩١٣.
- القيسي، نوري: الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت ١٩٧٠.
- الكتّاني، الشيخ عبد الحي: نظام الحكومة النبوية المسمّى التراتيب الإدارية، دار الكتاب العربي، بيروت، لا تاريخ.
- الكرخي، محمد بن الحسن الحاسب: أنباط المياه الخفيّة، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ١٣٥٩هـ.
- لانكستر، هاردنغ: آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، عمّان ١٩٧١.
- لوريمر، ج.ج.: دليل الخليج العربي ـ القسم الجغرافي، مطبعة علي بن علي، الدوحة، لا تاريخ.
- متولي، محمد ومحمود طه أبو العلاء: جغرافية الخليج العربي، الطبعة الثانية، مكتبة الفلاح، الكويت ١٩٨٥.
- متولي، محمد ومحمود طه أبو العلاء: جغرافية شبه الجزيرة، جغرافية اليمن الشمالي، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨.
- المزيني، أحمد: الزكاة والضرائب في الكويت قديماً وحديثاً، دار ذات السلاسل، الكويت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة رابعة، مطبعة السعادة بمصر، القاهرة، صفر ١٣٨٤هـ، حزيران ١٩٦٤.
- مصطفى، عمر ذيب: جزيرة فيلكا، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت ١٩٨٨.
- المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦.
- معطي، علي: النقود العربية الإسلامية، مجلّة الدراسات الإسلامية، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، الموسم الثقافي ١٤١٥ ـ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٥ ـ ١٩٩٧م.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: أمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة مصر، القاهرة ١٩٤١.
- المقريزي، تقي أحمد بن علي: النقود الإسلامية، المسمّى «شذور العقود في ذكر النقود» تحقيق السيد محمد بحر العلوم، دار الزهراء، الطبعة السادسة، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- المقحفي، إبراهيم أحمد: معجم المدن والقبائل اليمنية، منشورات دار الحكمة، صنعاء ١٩٨٥.
- مكتب التربية العربي لدول الخليج: الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، الرياض ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- المنجد في اللغة والأعلام، دار الشروق، الطبعة الثلاثون، بيروت ١٩٨٨.
- موسل، لويس: شمال الحجاز، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني، طبعة مصر، الإسكندرية ١٩٥٢.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري: مجمع الأمثال، طبعة مصر، القاهرة ١٣٥٢هـ.
- الناضوري، رشيد سالم: دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٤هـ.
- نامي، يحيى خليل: نقوش خربة معين (مجموعة محمد توفيق)، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٢.
- نصيف، عبد الله آدم: القنوات والنظام الزراعي في المدينة المنوّرة ـ العصور، دار المريخ، لندن، الرياض ١٩٨٦.
- النعيم، نورة عبد الله العلي: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي، دار الشواف، الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- هارون، عبد السلام: تهذيب سيرة ابن هشام، دار سعيد، مصر ١٩٥٥.
- هاردنغ، لانكستر: آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، المطبعة الوطنية، عمّان ١٩٧١.

- الهَمْدَانيّ، أبو محمد الحسن بن أحمد: صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل، ليدن ١٨٨٤.
- الهَمْدَانيّ، أبو محمد الحسن بن أحمد: الإكليل، تحقيق محمد بن علي الحسن الأكوع، مكتبة الكاتب العربي، دمشق ١٩٧٩.
- الهَمْدَانيّ، أبو محمد الحسن بن أحمد: كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين: الصفراء والبيضاء، تحقيق كريستر نرتول، الطبعة الثانية، وزارة الإعلام والثقافة اليمنية، صنعاء ١٩٨٥.
- الهَمَذَانيّ، أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن ١٨٨٤.
- الواقدي، محمد بن عامر بن واقد: المغازي، تحقيق مارسدن جونس، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، رمضان، ١٤١٤هـ.
- وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثالثة، دار المعرفة، بيروت ١٩٧١.
- وزارة الإعلام والثقافة العُمانية: تاريخ عُمان البحري، مسقط ١٩٧٩.
- وهبة، حافظ: جزيرة العرب في القرن العشرين، القاهرة ١٩٦٧.
- يحيى، لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، طبعة ثانية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩.
- اليسوعي، لويس شيخو: مختارات من مجاني الأدب في حدائق العرب، الجزء الأول: العصر الجاهلي، تبويب وشرح وتحقيق فؤاد أفرام البستاني، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٦٠.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي، مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الأجنبية:

- Abdulfattah, Kamal: Mountain farmer and Fellah in Asir, South west Saudi Arabia, Erlanger Geographische Arbeiten, Erlangen, 1981.
- Albright, Frank, P.: Catalogue of objects forend in Marib, Johns Hopkins press, Baltimore, 1958.
- Alster, Bendt: Dilmun Bahrain and the Alleged Paradise in Sumerian Myth and literature in Dilmun, New studies in the archaeology and early history of Bahrain, ed by, P.Potts Berlin, Dietrich Reimer verlage, 1983.

- Beeston, A.F.I: Hadramount in encyclopidia of Islam, J. Brill, Leiden 1971.
- Beeston, A.F.I. The Labakh texts, Qahtan studies in old South Arabian epigraphy, Lurzac & Co. London 1971.
- Beeston, A.F.I: Warfare in ancient South Arabia, Qahtan studies in Old South Arabian epigraphy, Luzac & Co., London 1976.
- Beeston, A.F.I: The Ta'lab Lord of Pastrures texts, Bulletin of the School of Oriental and African studies, London 1955.
- Beeston, A.F.I.: Somme features of social structure in Saba, Studies in the history of Arabia, Riyadh University press, Riyadh 1984.
- Berthoud, T. and Cleazion, S.: Farming Community of the Oman Penninsula, the Ministry of information and Culture, Journal of Oman studies, Vol.6, Part 2, Oman 1983.
- Bibby, Geoffrey: Looking for Dilmun, Penquin Book, 4th. edition, Middlesex Englan 1984.
- Bowen, Le Baron Richard: Irrigation in Ancient Qataban, Johns Hopkins Press, Baltimore 1958.
- Bowen, Le Baron Richard: Archaeological survey of Beihan- Archaeological discoveries in South Arabia, Johns Hopkins Press, Baltimore 1958.
- Bowen, Le Baron Richard: Ancient trade routes, Johns Hopkins Press, Baltimore 1958.
- Bowersock, G.: Roman Arabia, Harvard University Press, Cambridge Mass 1983.
- Browning, Iman: Palmyra, Chatto and Windows, London 1974.
- Brown, William R.: The horse of the Desert, New york 1929.
- Caton, thompson: The tombs and moon temple of Hureida Hadramaut, the society of antiquarian, Oxford, London 1944.
- Cleveland, Ray: An ancient South Arabian Necropolis, the Johns Hopkins Prss, Baltimore 1965.
- Costa, P.: Notes on the traditional hydraulics and agriculture in Oman, World archaeology, London 1983.
- Cressy, George: Qanats, Karez and Foggaras, Geographical Review, American Geographical Society, New York 1958.
- Crone, Patricia: Meccean trade and the Rise of Islam, Basil Block Well, Oxford 1978.
- Dayton, John: The Problem of climatic change in the Arabian Peninsula, the institute of archaeology, London 1975.

- Dayton, J.: A discussion on the hydrology of Marib, the Institute of archaeology, London 1979.
- Dayton, J.: Marib visited 1979, the institute of archaeology, London 1981.
- De Jesus Prentiss, S.: Preliminary report of the ancient Mining survey 1981, Atlal, vol 6, Department of antiquities and Museums of Saudi Arabia, Riyadh 1982.
- Dickson, HRP: Kuwait and her neighbour, London 1956.
- Diodorus Siculus: Library of history, translation by Russel M. Greer and C.H. Old father, Loeb classical library, London 1979.
- DŒ, B.: Southern Arabia, Thomas and Hadon, London 1971.
- Dœ, B.: Monuments of Southern Arabia, Falcon Olender, London 1983.
- Doughty, Charles: Travels in Arabia Deserta, Dover Publications, New York 1979.
- Encyclopedia Britannica, London 1964.
- Eph'al, I: The ancient Arabs: Nomads on the Border of the Fertil Crescent, 9-5th. Century B.C. Second ed., the Magnes press, Jerusaltem 1984.
- Evenari, M.: The Negev: TheChallenge of the Desert, Mass, Harward University Pree, Cambridge, 1971.
- Fakhry, Ahmed: An archaeological journeg to Yemen, Goverment Press, Cairo, 1952.
- Froster, Charles: The historical Geography of Arabia, Draf Publisher, London 1984.
- Gingriche, A. and Heiss, J.: A note on traditional agriculture tools in Sa Dah Province, Institute of archaeology, London 1986.
- Glueck, Nelson: The other side of Jordan, American School of Oriental Research, New haven 1940.
- Grand dictionnaire encyclopédique Larousse, Tome 1, Librairie Larousse, Paris 1982.
- Grand Larousse encyclopédique, Tomes 5, 7 et 9, Librairie Larousse, Paris 1962, 1963, 1964.
- Grohman, A.: Encyclopidia of Ismal, «Ma'rib» vol 3, E.J. Brill, Leiden 1936.
- Groom Nigel: The Frankincense and Myrrh, Longman, London 1981.
- Guidi, Ignation: L'Arabie antiislamique, Paris 1921.
- Hammond, Philp: The Nabataean, their history culture and archaeology, Paul Astroms Forlag, Gothenbury, Sweden, 1973.

- Hammoud, Philp: The physical nature of Nabataean Pottery, American Journal of archaeology, vol. 68, New York 1964.
- Hammond, Philp: The excavation of the Main theater of Petra: 1961-1962, Colt archaeological institute publication, London 1965.
- Herodotus: The history of Herodotus, translation by A.D. Godley, Loeb classical library, London 1981.
- Hill, G.F.: The ancient Coinage of Southern Arabia, the British Academy, London 1915.
- Hill. G.F.: Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia, British Museum, London 1922.
- Irvin, K.: Some Notes on Old South Arabian Monetary Terminology, Journal of royal Asiatic society, kas society, London 1964.
- Jamme, Albert: Sabaean inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Johns Hopkins, Baltimore 1962.
- Jamme, Albert: Yemen expedition, Carnegie Museum of natural history, Special Publication, Pittsburg 1976.
- Jamme, A.: South Arabian inscriptions, in the ancient Near East: A New anthology of text and pictures, ed. by J.B. pritchard, Princeton University Press, Princeton 1975.
- Kay, Shirlay: Emirates archaeological heritage, Emirate Press, Dubai 1986.
- Kedar, Y.: Water and Soil from the Desert, Geographical Journal, Royal Geographical Society, London 1957.
- Khan, A.: The tanning Cottage Industries in Pre-Islamic Arabia, Pakistan historical Society, Karachi 1971.
- Kirwan, Sir Lawrence: Where to look for the ancient port of Leukkome, Studies in the history of Arabia, kind Saud University Press, Riyadh 1984.
- Kisnawi, A,: Preliminary Survey on the nining survey North West Hijaz, Atlal, vol.7, Riyadh 1983.
- Korte, Shmitt: A contribution to the Study of Nabataean Pottery, Annual of the Department of antiquities of Jordan, Amman 1971.
- Laessœ, J.: The Irrigation system at Ulhu, 8th Century B.C., Journal of Cuneiform Studies, the American School of Oriental Research, Bagdad 1951.
- Lammes, Henri: Le Berceau de l'Islam, Rome 1914.
- Lammens, Henri: La cité Arabe de Taïf à la veille de L'Hegire, Beyrouth 1922.
- Lammens, Henri: La Mecque à la veille de L'Hegire, Beyrouth 1924.

- Lane, Arthur: Pottery and glass fragments form Aden, in studies in Arabian history and civilization, édition by R.B. Sejeant, Variorum reprint, London 1981.
- La pierre, Paul-Bovier: Précis de l'histoire d'Egypt, Le Cairo 1932.
- Lees, G.M.: The Physical Geography of South eastern Arabia, G.J. May 1928.
- Livingston,: Tamyia, Atlal, Department of antiquities and Museums of Saudi Arabia, Riyadh, 1983.
- Maktari, A.M.: Water rights and irrigation pratices in Lahj, University Press, Cambridge 1971.
- McClure, H.: The Arabian Peninsula and Prehistoric, Populations, F.R.P. 1971.
- Mc Crindle, J.W.: The Commerce and navigation of the Erythean Sea, Trubner Co., Bombay 1987.
- Meigs, Peveril: Geography of Coastal Deserts, Belgium, Unesco 1966.
- Mesharer, Y.: Nabataean Coins, the Institute of archaeology, Jerusalem 1975.
- Miller, Innes J.: The spice trade of the Romain Empire, the Clarendon press, Oxford 1969.
- Ministry of Petroleum and Mineral Resources: Mineral resources of Saudi Arabia, Bulletin No1, Riyadh.
- Morkholm, Otto: New Coins Finds from Filka, Jysk archaeologist Selskab, Kuml Denmark 1981-1982.
- Musil, Alois: North Hejaz, American Geographical Society, New York 1929.
- Nasif, Abdullah A.: An ancient Water system in Sakaka Al Jawf: Saudi Arabia, the Institute of archaeology, London 1987.
- Naval Intelligence division: Western Arabia the Red Sea, Naval Intelligence Division Admiralty, London 1964.
- Norris, H.T. and Penkey, F.W.: An archaeological and historical survey of the Aden tanks, Aden Government Press, London 1955.
- The Periplus of the Erythean Sea, translation by Wilfred Schoff 5th edition, Oreintal book reprint, NewDelhi 1954.
- Perowne, S.: I M'adiya and Beihan, Aden Protectorate Antiquity, Heffers Printer, Cambridge 1939.
- Peter, F.E.: The Nabtaean in the Hawran, Journal of American School of Oriental Society, vol 97, Part 3, New haven 1977.
- Philby, J.H.: The Background of Islam, whitehead Morris Press, Alexandira 1949.

- Philby, J.H.: The Land of Sheba, Geographical Journal, Royal Geogrphical Society, London 1938.
- Pirenne, Jacquleine: The Incense Port of Mosha in Dhofar, Journal of Oman Studies, the Ministry of information and culture, Oman 1975.
- Pliny Gaius: Natural history, translation by H. Rackhan, Lœb classical library, London 1967.
- Polybius: Historia, translation by W.R. Paton, Lœb classical library, London 1925.
- Robert, Neil: Water Conservation in ancient Arabia, the Institute of archaeology, London 1977.
- Rostovtzeff, M.: Caravan Cities, translation by T. Talbot M. Rice, Clarendon Press, Oxford 1932.
- Schoff, W.: The Periplus of the Erythean Sea, Oriental Book reprint, 5th. édition, Newdelhi 1954.
- Scott, Hugh: In the High Yemen, John Murray, London 1942.
- Serjeant, R.B.: Islamic textile, Library of Lebanon, Beirut 1972.
- Stamps, L. Duddley: A regional Geography, Pt. IV, Asia, London 1964.
- Strabo: The Geography of Strabo, translation by H.L. Jones, Lœb Classical Library, London 1983.
- Theophrastus: Enquiry into plants, translation Sir Arthur Hort, Lœb classical Library, London 1980.
- Van Beek, Gus: The Land of Sheba in Solomon and Sheba, ed by B. Pritchard Edinbury, R. and R. Clark 1974.
- Van Beek, Gus: Hajar Bin Humeid, Johns Hopkins, Baltimore 1967.
- Vidal, F.S.: The Oasis of Al Hasa, the Arabian American oil Company 135.
- Wade, Rosalind: Archaeological observation around Marib 1976, Proceedings of the seminan for Arabian Studies, the Institute of archaeology, London 1979.
- Walker, J.: The Moon god on coins of the Hadramaut, Bulletin of the school of Oriental and African Studies, vol 14, London 1952.
- Weisgeber, G.: Copper Production during the 3rd. millennium B.C. Oman and the question of Makan, Journal of Oman studies, vol. 6, Part 2, the Ministry of information and culture, Oman 1983.
- Weigeber, G.: Pattern of early Islamic Mattallurgey, Proccedings of the Seminar for Arabian Studies, the Institute of archaeology, London 1980.

- Weisgeber, G.: Evidence of ancient mining sites in Oman, Journal of Oman Studis, vol.4, the Ministry of information and Culture, Oman 1978.
- Wellsted, J.R.: Travel in Arabia, Akademisch Druck Uverlagsanstalt, Graz 1978.
- Wilkinson, J.C.: Water and tribal settlement in South East Arabia, a study of the Aflaj of Oman, Clareandon Press, Oxford, London 1977.
- Wilson, R.T.: The Camel, Longman, London 1984.
- Winckler Hugo: The history of Babylonia and Assyria, tr. James A.Craig, New York 1907.
- Wissmann, H.Von: Himyar, ancient historique, Le Mus'eon, Publiée par l'Association sans but lu cralif, Louvain 1964.
- Zarins, Juris.: The Preliminary report on the third phase of the Comprehensive archaeological surveg Program, the Central Province, Atlal, Department of antiquities and museums of Saudi Arabia, Riyadh 1979.

الفهرس

تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام

تتمتّع بلاد العرب بمزايا عديدة، من أهمّها: غنى أراضيها، وموقعها الفريد بين قارات ثلاث: آسيا وإفريقيا وأوروبا. وقد جعل منها هذا الموقع صلة وصل بين حضارات الشرق الأقصى كالهند والصين وحضارات الغرب الأوروبي كالإغريق والرومان. كما جعل منها قلب العالم القديم الذي كان ينبض بالحيوية والنشاط ويرفد المجتمعات بقواها البشرية.. فعلى أرض العرب نشأت أولى حضارات الإنسان، واكتُشفت الزراعة وصُنع الخبز لأوّل مرّة في التاريخ على حدّ قول المؤرخ ارنولد توينبي.

ولا ريب أنّ كتاب «تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام» الذي بين أيدينا - لمؤلِّفه الدكتور علي معطي الذي يتميّز في أبحاثه بالموضوعية والرصانة العلمية - يُعتبر مرجعاً لكلّ باحث في اقتصاديات العالم العربي في عصور ما قبل الإسلام. ففي هذا الكتاب تفصيل وافٍ لثرواته الطبيعية، وتبيان لإنجازات أهله في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة.

فلذا تعتزّ «دار المنهل اللبناني» أن تضع بين أيدي قرائها الأعزاء هذا السفر القيّم الذي تحتاجه المكتبة العربية، وذلك لندرة مثل هذه الدراسات فيها، وأن تعلن لاحقاً عن صدور كتاب «تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام» للمؤلف نفسه.

الناشر

الدكتور علي محمد معطي
تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام
دار المنهل اللبناني - مكتبة
دار المنهل اللبناني - مكتبة رأس النبع
هاتف: ٦٣١٦٥٤ (٠١) - ٢٢٦٣٢٥ (٠٣) - تلفاكس: ٦٣٣٤٣٢ (٠١)